الجزء الاوّل

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ
وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ

تجارب العلماء

في عصور الغيبة

ترجمة و اعداد : كمال السيد


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

تجارب العلماء

في عصور الغيبة

(الجزء الأوّل)

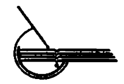
ترجمة واعداد: كمال السيّد

سيد، كمال، ١٣٣٦ -
تجارب العلماء في عصور الغيبة/ترجمه واعداد كمال السيد.- قم: انصاريان، ١٣٨٥ - ٢٠٠٦.
٢ج.
ISBN: 964-438-814-3 (Vol.1)
١.مهدويت — انتظار. ٢. محمد بن حسن (عج)، امام دوازدهم، ٢٥٥ -
الف. عنوان.
BP٢٢٤/٤ت٣س٩ ٢٩٧/٤٦٢

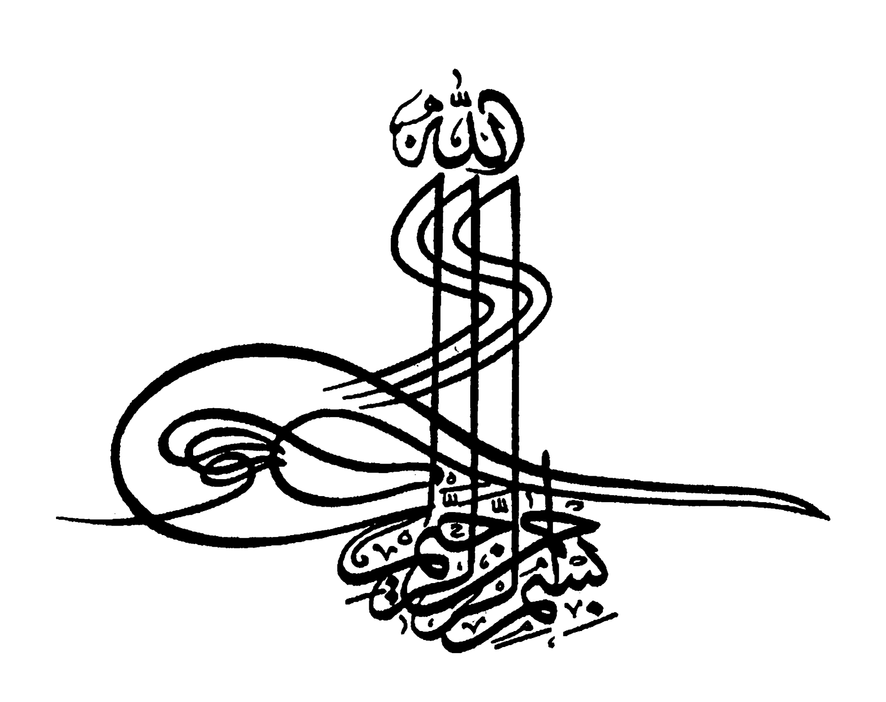
تجارب العلماء

في عصور الغيبة - ج١

ترجمه واعداد: كمال السيد
الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر
الطبعة الاولى: ١٣٨٥ - ١٤٢٦ - ٢٠٠٦
المطبعة: ثامن الأئمة(ع)
الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
عدد الصفحات ج١: ٤٨٠ ص.
حجم الغلاف: كبير
رقم الإيداع الدولي(ISBN): ٣-٨١٤-٤٣٨-٩٦٤ (ج١)
رقم الإيداع الدولي: X-٨١٦-٤٣٨-٩٦٤ (دورة ١-٢)



مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر
جمهورية ايران الإسلامية
قم - شارع الشهداء - فرع ٢٢
ص.ب ١٨٧
هاتف :٧٧٤١٧٤٤ (٢٥١) (٩٨) فاكس: ٧٧٤٢٦٤٧
البريد الالكتروني: ansarian@noornet.net
www.ansariyan.org & www.ansariyan.net



﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾

سورة فاطر: ٢٨

كلمة الناشر

لم تتوقف مسيرة الاجتهاد لدى المذهب الامامي كما توقفت لدى المذاهب الأربعة فقد أعقب وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام وحدوث ظاهرة الغيبة جهد عقلاني بدأ لدى شخصيات إمامية تركز حول جمع الروايات والأخبار المأثورة في موسوعات حديثية؛ ثم تطورت بعد ذلك الى طرح آراء في كثير من المسائل الكلامية والفقهية.

ولا تخفى أهمية الاجتهاد في كونه عملية فكرية تشيع نسغ الحياة في دور الدين وملء الفراغ الناجم عن حركة الزمن وتعاقب العصور.

فالاجتهاد يقوم بعملية تواصل بين الماضي والحاضر حيث تتلاقح قيمومية الدين مع الابداع والتفكير البشري.

إنّ توقف الاجتهاد البشري داخل فكر معين يعني وجود خلل داخلي سوف يؤدي الى ظهور أعراض ضعف وجمود وخمول وخروج عن مسار التاريخ.

ان تجدد العصور وتجدد متطلبات الحياة تشكّل تحدياً مستمراً للانسان في البحث عن حلول.

من أجل هذا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام قد حددوا مساراً للجهد العقلاني لاستكشاف مساحات التشريع المشروعة ومنح حالة من الشرعية للتجربة الانسانية.

وقد ظهر في مسيرة مذهب الإمامية شخصيات علمية كان لها الدور الحياتي في استمرار حركة الفكر وهي في كل الأحوال تجارب انسانية لا تشكل بطبيعة الحال حالة خطية متواصلة ومستمرة وإنما هي تجارب تأثرت بالتاريخ والجغرافية والبيئة وبالعامل الذاتي للبشر ومستويات فهمه وقرائته؛ لكن المهم تواصل هذه التجارب دون توقف ما يعطي صورة تنبض بالحياة وتموج بالحركة للمذهب الشيعي مذهب أهل البيت عليهم السلام.



مدخل:

العقل في الفقه الشيعي..

تمهيد:

أولاً: لا تمتلك المفاهيم معان واضحة وثابتة كما ترتبط فيما بينها بعلاقات متشابكة ومعقدة. وللمفهوم أكثر من وجه كما يمثل عصارة مضمومات مختلفة، وبعبارة أخرى لكل مفهوم نسيجه الناجم عن علائق متشابكة تتمظهر في كل عصر وتؤدي عملاً ودوراً خاصاً.

ولا تحتل المفاهيم فضاءها المعرفي دفعة واحدة، بل ان كل عصر يبرز حالة ارتباطها أو انفصالها عن المفاهيم الأخرى، ومن هنا كانت المفاهيم متركبة جداً أو لها عدة اضلاع ترتبط بالصرح والبناء فهي متغيّرة الماهية وبالنتيجة تاريخية، ولذا يتوجب النظر إلى تاريخها.

وهكذا لمفهوم (العقل) قصّته في رقعة التراث الاسلامي وخاصة في دائرة الشريعة. ومن غير الصواب إذا آمنا بان تصورات الفقهاء من قبيل الشيخ الانصاري والشيخ هادي الطهراني أو الشيخ محمد الاصفهاني عن العقل انما هي صورة تكاملية لتصورات من سبقهم من الفقهاء من امثال الشيخ المفيد والشيخ الطوسي أو المحقق الحلّي، ذلك ان التغيرات العلمية لا تتخذ مساراً خطياً كما انها ليست وليدة تراكم مفاهيمي بل ان التغير في الارادات والرؤى والأواصر المفاهيمية يدفع بالـ(المعرفة) أيضاً الى الخطو والتحرك في مسار آخر. ان

(التكسر) أو الانفصال ركن اساسي في المعرفة العلمية، ومع الأخذ بنظر الاعتبار مجموع هذه الأواصر والتكسرات يمكن التوصل الى معرفة مفهوم ونظرية ما.

وعندما ننظر إلى المعرفة العلمية من هذا الافق فاننا لن نراها حصيلة للتراكم وانما وليدة علاقات معقدة أو متشابكة في حالة تكسر وتشكل.

ان المفاهيم ليست مفردات بسيطة وسطحية وانما هي كائنات خطرة تتخفى قبل أن تظهر، والحق انها المفتاح الذي يفك مغاليق والغاز النصوص كما ان العمل بها مخيف ويغوي بنفس القدر ايضاً.

وقد ذكرنا هذه النقطة لنفضح المدعيات الكبرى لعموم مؤرخي الفقه والأصول. ذلك أنهم يعتبرون (الشريعة) كلاًّ متوحداً ومنسجماً يتبع مساراً واحداً. وبدل أن يهتموا بتحليل البنى الموجودة في كل عصر انصرفوا فقط واستغرقوا في الكشف عن المعاني الذاتية للمفاهيم مع ظنهم بان لكل منها معنى وجوهراً مستقلاً بذاته.

وبتعبير آخر ان مؤرخي الشريعة يظنون بان للمفاهيم من قبيل الواجب، الحرام، النص، السنة، العقل والاجماع معانٍ متساوية على مرّ العصور، وعلى سبيل المثال ان تفسير الصحابة كعبدالله بن عبّاس وعبدالله بن مسعود لهذه المفاهيم يتساوى مع تفسير الفقهاء في القرون الوسيطة بل وحتى الفقهاء في العصر الحاضر.

وهذه النظرة الى التاريخ تتجاهل قضايا كثيرة فتصل الاضرار الجسيمة الى دلالة المفاهيم المذكورة آنفاً ـ التي ترتبط بها جميعاً ـ.

وعلى سبيل المثال، (النص) فهو من المفاهيم الاساسية جداً في الشريعة وفي التراث الاسلامي، وقلما توجد مفردة حظيت بهذا القدر من الاهتمام والسعي في تعريفها في عموم الكتب الفقهية والأصولية والتخصصية منها، بحيث لا يوجد فقيه

اسلامي منذ ذلك الوقت لم يقم بتوضيح معنى هذه المفردة.

ومع كل هذا وعندما نلقي نظرة الى تاريخ الشريعة سنجد حتى الفقهاء وبشكل عام لا يتوافرون على تصوّرٍ واضح ودقيق لهذه المفردة، وسنجد توظيفاً متناقضاً أيضاً. فكيف اذن بالكلاميين أوالمتصوفة مع ما هم عليه من تصورات تختلف بشدّة.

ولذا نصل الى هذه النتيجة وهي أن النص لا يمتلك مفهوماً دقيقاً وجوهراً، بل ان معناه يتمظهر خلال توظيفاته المختلفة على طول التاريخ.

ان فهم (النص) رهن بفهم التحولات في معناه، أي انه يجب النظر الى توظيفاته وفق المقاصد الفقهية لدى الكلاميين والمتصوفة أو من أجل إثبات دعاواهم التي يستندون اليها.

وبعبارة أخرى ان الاستناد الى النص لم يكن عملية بسيطة خالية من كل شائبة، بل كان منهجاً فاعلاً لإثبات مشروعية (المقولات) حيث تجهد كل فرقة في توظيفه من أجل حذف الأخرى.

تاريخانية النص والمنهج

ثانياً: ان غياب وافتقاد الرؤية العلمية والتاريخية للشريعة سواء في الماضي والحاضر قضى على امكانية ظهور كل اشكال المعرفة العلمية حول صور التبلور والتكامل في الشريعة، لقد صرف الاقدمون معظم جهودهم في اثبات وثائقية (المقولات) وفرز (الصحيح) من (المجعول) أو المزور وقلّما أولوا أهتماماً في فهم المقولة أو بيان شكل ارتباطها مع الواقع المعاصر[1].

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع:

من جهة أخرى كان فهمهم سطحياً بشكل عام وكانوا عاجزين عن فهم وبيان القوانين المهيمنة عليها.

اضف الى ذلك ان تقاريرهم التاريخية ونقولهم نسيج يتألف من (الحقائق) و(الاساطير) فاتخذ السند التاريخي (مفهوما) ضيقاً ومحدوداً تنضوي تحته المقولات الرسمية والرائجة، هذه المقولات ميزتها الاساسية امتلاكها (سلسلة اسناد) طويلة فقط[١]. ونقطة أخرى هي ان المجتمعات الاسلامية فيما مضى وحتى اليوم لا تنظر الى اختلاف وجهات النظر على انه ظاهرة طيبة وحسنة بل تعدّه اساساً للفتن وسبباً في تمزّق المجتمع[٢].

فليس اعتباطاً أن يشغل أصل (الاجماع) ـ وهو اساساً بمثابة اداة لتوحيد فكر وسلوك المسلمين ـ مكانه الخاص في الماضي والحاضر؛ ومن هنا بذل المؤرخون وبخاصة مؤرخي الشريعة ـ وهم في الغالب من زمرة كتاب الأصول الفقهية ـ جهوداً كبيرة في توحيد النظريات وحذف التيارات المعاكسة.

وقد اغفل المستشرقون أيضاً في بحوثهم الجانب التاريخي في نمو وتغير الشريعة بالرغم من الآفاق الجديدة التي فتحوها على صعيد كتابة تاريخ الشريعة

← ـ عزيز العظمة، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية؛ صناعة التاريخ العربي، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٥.
ـ وجيه كوثراني، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل، دراسات في البحث والبحث التاريخي دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٠ (خاصّة ص: ٥٣ ـ ٨٧).

(١) راجع في هذا الموضوع بحوث ابراهيم القادري بوتشيش القيمة، وهو مؤرخ مراكشي معروف ومن جملتها: ـ تاريخ الغرب الاسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة بيروت، ١٩٩٤م.
ـ التاريخ المبتور والمصادر الدفينة، من تاريخ السلطة الى تاريخ المهمشين، مجلة المنطلق العدد ١٢٠، ١٩٩٨ ص ٨٠ ـ ٩٠.
ـ تجديد التاريخ الاسلامي، كيف ومن أين بدأ، مجلة الاجتهاد، ص٦ العدد ٢٢، ١٩٩٤.

(٢) عبدالمجيد الشرفي، الاسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة بيروت ٢٠٠١، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

إذ صوروا (الاسلام) وبخاصة جانب الشريعة أمراً ثابتاً منفصلاً عن عوامل الزمن.

وهذا ما يشاهد بوضوح في عموم الكتابات والبحوث التاريخية الاسلامية في الوقت الحاضر، خاصّة وانه لم يغفل البعد التاريخي في مجموع الفكر الاسلامي عموماً فحسب بل قطعوا ـ دفعة واحدة ـ العلاقة مع الواقع واذا بتفكيرهم لا يعكس واقعهم الحالي وانما يؤشر إلى اراداتهم وشعاراتهم. ومن هذا الافق يمكن الاشارة الى مغالطتين على الأقل في البحوث والدراسات الماضية والحالية في تاريخ الشريعة:

المغالطة الأولى: ان (السنة) تاريخياً أمر متصل ومتوحد وينطوي على معنى واحد منذ صدر الاسلام وحتى الآن وان كل التحولات التي حدثت انما عملت في تعميقها وتوسيعها، ومثل هذا التصوّر موجود في الاديان الأخرى وعلى سبيل المثال لدى المسيحيين الكاثوليك اذ كانوا فيما مضى يظنون ان السنة المسيحية أمر واحد بدأ مع شخص المسيح ومن ثم استمر عن طريق تعاليم بطرس والى البابوات اليوم.

وهذا التصور الايماني والسطحي في نفس الوقت عن تاريخ السنن الدينية جرّ حتى الآن إلى مغالطات معرفية قاتلة؛ اذ انه تجاهل تماماً كل النزاعات والجدل التاريخي بين المؤمنين منذ بدئها وحتى اليوم، فيما الحقائق ووقائع التاريخ تفيد بان (السنة) لم تنطو على مفهوم واحد ولم تكن في حالة من الانسجام.

ويكفي النظر في هذا المضمار الى ارث الماضين فيما كتب في اصول الفقه ليتضح حجم النزاعات الشديدة التي احتدمت من أجل تحديد أطر ومعاني كل مفهوم أو أصل من الأصول. ان الكتابة التاريخية اليوم تسعى جاهدة في رسم معنى ثابت للسنة متجاهلة كل التحولات التاريخية برمتها.

المغالطة الثانية: وجود منهج واحد لاستنباط الاحكام الشرعية وهو الغالب والمتداول عبر العصور التاريخية وهو الاستناد الى المصادر الاربعة: الكتاب، السنة، الاجماع والقياس / العقل. في الوقت الذي تؤكد فيه الحقائق التاريخية حجم الجهود المضنية من أجل تثبيت كل واحد من هذه المنابع، وهذا يعني ان علماء الاصول الفقهية اضطروا ابتداءً الى اقامة علم الاصول على اسس واضحة ومعتبرة، أما لماذا انفرد علم الأصول الفقهية من بين سائر العلوم الاسلامية في سعيه للاستناد الى الكتاب والسنة؟ فهذه قضية تحتاج الى بحوث تاريخية مستفيضة.

وعلى أية حال فقد سعى علماء الاصول في اتخاذ الكتاب أول مصدر من أجل تأويله فقهياً.

وهو أمر صحيح في أن القرآن الكريم بيّن بعض الاحكام الشرعية ولكن يجب الالتفات الى هذه النقطة وهي أن هذه الآيات الفقهية في القرآن انما هي مجموع معلومات متناثرة وضعت بين أيدي المسلمين، وقد جاء معظمها في قالب اخلاقي، واذن يتوجب بذل جهد تأويلي على آيات الوحي لكي تطرح في صورة (احكام فقهية ملزمة)، وهذا ما فعله علماء الاصول بالأفادة من العلوم المختلفة كعلم الحديث، علوم القرآن، النحو وعلم الكلام بطبيعة الحال. وخلاصة القول ان افقهة القرآن أمر تاريخاني وهو جهد بشري برمته.

وفي خطوة لاحقة بذل علماء الاصول جهوداً مضاعفة في توظيف المصدر الثاني للتشريع (السنة) واكسابه صفة المشروعية.

وهنا يبرز الدور التاريخي للشافعي (المتوفى ٢٠٤هـ) باعتباره أول من نظّر بوضوح للاصول الفقهية. اذ الف كتابيه الهامّين (الرسالة) و(الأم) ليتوسع بمساحة الوحي لتشمل السنّة من خلال التوسع في تأويل المعنى اللغوي لها الى معناها

الاصطلاحي لتصبح السنة المنقولة عن النبي ﷺ في مستوى الوحي القرآني بل وحتى جزءً منه.

وقد انجز الشافعي هذه المهمة من خلال تأويل واضح لعدّة آيات وتوظيف قسم من قواعد النحو والتفسير فاستدلّ على أن القرآن وان كان قطعياً في سنده الاّ انه ظنّي في الدلالة ولهذا فهو بحاجة الى مرجع تفسيري معتبر ليتحول (الاجمال) القرآني الى (بيان) والفاظه العامّة غير القطعية الى تخصيص ودلالته الى حالة من القطع. وهذه الوظيفة الخطيرة تتحملها السنّة التي تفسر النص القرآني.

وبهذا تكون السنة موجودة في قلب الوحي القرآني وبمثابة ركن اساسي فيه بحيث يصبح النص القرآني معلقاً في غياب الرجوع الى السنة أو يبقى على الأقل في حالة من الغموض والابهام، والخلاصة ان الشافعي شوش على وضوح الدلالة في النص القرآني من أجل تثبيت السنة وجدير ذكره ان هذا العصر قد شهد ومن خلال تأويل الفقهاء لحشد من الآيات القرآنية ابداع بعض المفاهيم الفقهية الهامّة لتصبح فيما بعد اصولاً عقيدية لا يمكن انكارها من قبيل:

شمول وكلية القرآن[١] كمال وخلود الشريعة[٢] تقسيم الوحي الى متلوّ (القرآن) وغير متل[٣]و (السنة) وجوب طاعة النبي[٤] عصمة النبي في مسألة الشريعة[٥] قداسة وعدالة الصحابة مطلقاً وفي حالة من التطرّف القول بعصمة جميع رواة الحديث (لان القول بعدم عصمتهم يشكك في رواياتهم عن النبي[٦]).

---

(١) النحل، الآية ٨٩.

(٢) المائدة، الآية ٣.

(٣) الجمعة، الآية ٢.

(٤) النساء، الآية ٨٠، الحشر الآية ٧.

(٥) النجم، الآيتان ٣، ٤.

(٦) ابن حزم الاندلسي، الاحكام في اصول الأحكام، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

وقد اثار فهم الشافعي للسنة معارضة كثير من الفقهاء والناقدين الاسلاميين في قرون تالية. وقد انعكست هذه المعارضة في تأليفات مثل (المحصول) للفخر الرازي، (شرح نهج البلاغة) لابن ابي الحديد، (الحور العين) لابي سعيد نشوان الحميري (معارج الاصول) لابي جعفر ابن قبة، (الذريعة) للسيد المرتضى و(السرائر) لابن ادريس.

والنتيجة ان الفقهاء ومن أجل ارساء دعائم السنة قاموا بجهد تفسيري وتأويلي واسع تجاهلته الكتابة التاريخية المتداولة وجعلت السنة في زمرة المفاهيم الضرورية للدين واعادتها الى عهد صدر الاسلام.

وعلى صعيد المصدر الثالث في التشريع (الاجماع) تصبح المسألة من التعقيد والصعوبة الى الحد الذي اعترف فيه مؤرخو الفقه انهم يواجهون معضلات تاريخية وعلمية عديدة واسئلة ظلت دونما جواب تسدّ الطريق على حجية (الاجماع).

ومع كل هذا فقد سعوا مستندين الى طائفة من الروايات المنقولة عن النبي ﷺ الى ارجاع هذا الاصل الى فترة صدر الاسلام متجاهلين التغيرات التي طرأت عليه فاضفوا عليه معنى واحداً منسجماً.

ومن الصعب تجاهل طائفة من الفقهاء وعلى مدى عهود مختلفة لتأويل الاجماع والانتقال به من الاطار الايماني ـ الذي يعني اجماع كل الامة الاسلامية ـ الى الاطار الاصطلاحي الذي يتحقق باتفاق عدّة من الفقهاء.

وفي باب (القياس / العقل) بلغ الاختلاف في الفهم بين علماء الاصول حول كيفية اعتباره مصدراً معتبراً في التشريع، بلغ من الحدّة درجةً أعجز مؤرخي الفقه اليوم عن تجاهل النزاعات في هذه المضمار فلم يقدموا نظرية منسجمة متوحدة.

ويطلع القارئ في هذه المقالة على جانب من هذه النزاعات والتحولات في معاني هذا الباب (القياس / العقل).

وبناءً على ما سبق يمكن التوصل الى هذه النتيجة وهي انه لا يمكن الادعاء بتوحد المناهج والرؤى في الاستنباط الشرعي ذلك ان ادعاءً كهذا مغالطة ليس إلا، ولا بد من تقديمها الى مذبح النقد.

العصر الحديث ومحاولات الترميم

ثالثاً: ان العصر الجديد في العالم الاسلامي تزامن مع وقوع حوادث هامّة من قبيل انهيار الدولة العثمانية وتنامي التسلّط الغربي الاستعماري على مقدرات معظم الدول الاسلامية وقد تركت هذه الحوادث المتتالية والنافذة تأثيراً عميق الغور في الذهن والروح المسلمة وأسلمته للحيرة والذهول.

ويتفق مؤرخو الفكر لهذه الفترة على هذه النقطة وهي ان تبلور الاتجاه السلفي من جهة والاتجاه التجديدي من جهة أخرى مرتبط بهذا المقطع التاريخي من حياة العالم الاسلامي كما انه كان منشأ لظهور هذه الثنائية في المفاهيم: السلفية / التجديد ، الاسلام / الغرب والهداية / الاستلاب، فهذه الثنائية المفاهيمية انما هي حصيلة تلك الفترة.

وظهر فريق مغترب ينظر الى (الميراث الاسلامي) بأسره معتبراً أياه جزءً من الماضي المندثر ويرى في (المدنية الغربية) الاطار والمثال الذي يحتذى والمرجع الذي يرجعون اليه.

وفي مقابل ذلك برز فريق آخر تلقى تعليمه غالباً من المراكز التعليمية التقليدية يشترط الرجوع والتمسك بالميراث الاسلامي طريقاً وحيداً للخروج والخلاص من المعضلات الاجتماعية والفكرية والسياسية الكبرى.

وهنا حدث تمزّق حاد في ذهنية وايمان هؤلاء ازاء مفهومي التراث والتجديد أو الاسلام والنمط الغربي، لنرى بعد ذلك انه لا الحداثويون تمكنوا رأب

هذا الصدع ولا دعاة العودة الى التراث الاسلامي. ونتيجة لذلك تعرضت ذهنية المسلمين الى حالة من الازدواجية والتشويش الحاد سرعان ما انعكست آثارها السلبية في العلاقات واتخاذ القرارات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الكبرى.

والمشكلة الاساسية لدى هؤلاء ليست في نوعية انتخاب الثقافة الاسلامية أو الغربية، بل في هذه الحالة من الازدواجية والغموض التي تجثم على الروح الفردية والاجتماعية على حد تعبير الجابري(١).

وتجب الاشارة هنا الى ان الدفاع عن كمال وخلود الشريعة ـ والذي ما يزال حتى الان الشعار الأساسي للمفكرين الاسلاميين ـ لا يمكن عزله عن مقولة الدفاع عن هوية الذات. وفهم هؤلاء عموماً هو ان الغرب (الآخر) في حكم الغريب الذي توسل ببريقه وقوّته وعلمه الحديث ليجتاح البلاد الاسلامية واضعاً الهوية الاسلامية والاستقلال الوطني ادراج الرياح(٢).

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة ان لا تكون (الشريعة الاسلامية) مجرد مثالٍ معرفي للمسلمين الذين يرزحون تحت نير الاستعمار بل الدواء الناجع الذي يعيد لهم عافيتهم وينفخ فيهم الروح مرّة أخرى. ومن هنا يمكن فهم اهتمام فقهاء هذه الفترة التاريخية بكتابات وافكار الشاطبي (المتوفى ٧٩٢هـ)، ذلك ان الشاطبي في رأيهم الفقيه الذي يمكن من خلال فقه مقاصده احياء الفقه الاسلامي ليحل محل القوانين الغربية ومن جهة أخرى ان نظامه الفقهي مؤشر على عنصر الخلود والحركة في الفقه الاسلامي وامكانية اعادة بنائه.

---

(١) محمد عابد الجابري، اشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٤ ص١٩.

(٢) علاّل الفاسي، مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها، دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٣ ص١٦ (مقدمة الكتاب) ص١٠٢ وانظر في هذا الموضوع: نور الدين بو ثوري، مقاصد الشريعة؛ التشريع الاسلامي المعاصر بين طموح المجتهد وقصور الاجتهاد، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٠، ص٢٢ ـ ٢٥.

بعبارة أخرى ان الفقهاء المسلمين وعوضاً عن فهم وحل المعضلات الاساسية في مجتمعاتهم نادوا بشعارهم الخطير والغامض في نفس الوقت وهو (الدفاع عن الشريعة الاسلامية).

فأصل (الاجتهاد) الذي كان فيما مضى مجرّد أداة لاستنباط الحكم الشرعي الفرعي والعثور على الجواب المناسب في حل المشكلات الحقوقية المستجدّة، تحول شيئاً فشيئاً الى قيمة اسلامية أصيلة يتوجب الدفاع عنها بكل قوّة. فليس اعتباطاً أن يشهد مطلع القرن العشرين تمسك عموم المفكرين الاسلاميين بأصل (الاجتهاد) لاثبات فاعلية وخلود الشريعة وقد أضحى هذا التمسك محوراً في بحوثهم ومناقشاتهم[1]. وكأن وجود مفهوم (الاجتهاد) أو (العقل) في الميراث الفقهي قد أثار في اذهانهم قدرة الشريعة وامكاناتها الموجودة بالقوّة وامكان اخراج ذلك الى الفعل، ومن ثم معالجة التخلف في المجتمعات الاسلامية وطرد المنافس الغربي.

ويرى عامّة المفكرين الاسلاميين في تخلف العالم الاسلامي أمراً طارئاً ونتيجة لأزمات العصر الجديد. وفي أكثر التقادير عائداً الى مجموعة من المشكلات المعرفية أو المشكلات التنفيذية.

من هنا سعى خير الدين التونسي مستنداً الى بعض الأدلّة الفقهية في اعتبار الحكومة أمراً ضرورياً على أساس انها الضمان في تحقيق العدالة وتحقيق العدالة يعد من مقاصد الشريعة الاسلامية. وفي هذه الفترة قام فريق من الفقهاء في المغرب العربي بشرح مخطوطات متعددة لكتاب الموافقات للشاطبي، والبحث في المقاصد الخمسة للشريعة (حفظ الدين، العقل، النسل، النفس والمال) وشيئاً

---

(١) يمكن الرجوع في هذا المضمار الى كتابات محمد طاهر بن عاشور، علال الفاسي، رشيد رضا، اقبال، مطهري وريسوني.

فشيئاً اصبحت قضية المصالح الاجتماعية العامّة الهاجس الاصلي للفقهاء والمفكرين.

من جهة أخرى سعى محمد عبده في تقديم تفسير عقلاني للتعاليم والاعتقادات الدينية، وترك للعقل حرّية التفسير والتأويل في النصوص الدينية، فاستلزم ذلك ابتعاده عن المذهب الأشعري ـ الذي كان سائداً ورسمياً في زمانه ـ منصرفاً الى تعاليم المعتزلة.

ورسالة التوحيد تؤشر بوضوح على هذا التحول الفكري لدى محمد عبده، بالرغم من اضطراره الى حذف قسم مهم من تعاليم المعتزلة بعد تصاعد الاعتراضات من شيوخ الازهر التقليديين، ومع كل هذا فقد تمكن من خلال ايجاد علاقة بين مفهومي (الاجتهاد) و(العقل) من تقديم تفسير جديد عن دور ومكانة العقل البشري في دائرة الشريعة. فظهر نتيجة لذلك مفهوم جديد بالمرّة عن (العقل في حريم الشريعة) مخالف تماماً لفهم الفقهاء في القرون الغابرة.

وقد سعى تلامذة عبده ـ طبعاً باستثناء بعضهم كرشيد رضا ـ لإدامة هذا الاتجاه والتوسع في (الاجتهاد) و(العقل(واضفاء أبعاد جديدة على هذين المفهومين ويبرز مصطفى عبدالرازق بلا شك كأقوى شاخص في هذا المضمار. ان فلسفة عبدالرازق وعلمه واطلاعه العميق على التراث الاسلامي والمامه الواسع بالعلوم والنظريات الغربية الجديدة من جهة ـ نتيجة دراسته المنهجية في جامعتي الازهر في مصر والسوربون في فرنسا ـ وتسنمه مناصب رفيعة في الدولة من ضمنها رئاسة الازهر من جهة أخرى قد مكنه من ايجاد تحول في التفكير الديني وتحديد مساره[١].

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب دراسة في آراء وافكار محمد عابد الجابري، (بالفارسية) بقلم المترجم.

وقد امضى مصطفى عبدالرازق عمره في التدريس والنشر وتعليم الفلسفة الاسلامية، واضافة الى تأليفه كتاباً مستقلاً في الافكار الاصلاحية لمحمد عبده وترجمته لرسالة التوحيد الى اللغة الفرنسية فقد ألف كتابه الهام الموسوم (تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية)[1] الذي واجه فيه آراء المستشرقين لأول مرّة في اعتقادهم بأن الفلسفة الاسلامية لا تعدو سوى اقتباس عن الفلسفة اليونانية مدافعاً عن اصالة الفلسفة الاسلامية وقد أفرد مصطفى عبدالرازق الصفحات الأولى من كتابه هذا لنقل ادعاءات فريق من المستشرقين الغربيين المشهورين حول مكانة الفلسفة الاسلامية ومن جملتها ادعاءات (تينمان) (tennemann) في كتابه الموجز حول تاريخ الفلسفة وآرنست رينان (T.Renan) مدرسة ابن رشد [الفلسفية].

وقد انكر مؤرخا الفلسفة المذكوران بالمرّة اصالة شي يدعى بالفلسفة الاسلامية معتبرين أياها مجرد تقليد ناقص عن الفلسفة اليونانية. وادلتهما الرئيسية في ذلك تنهض على مجموعة مقدمات يمكننا ترتيبها كما يلي:

١ ـ تقسيم الجنس البشري الى قسمين: السامي، والآري والتأكيد على تفوق الآريين سواء في الفلسفة أو في العلوم الأخرى[2].

٢ ـ العقلية الخرافية للساميين (بما في ذلك العرب المسلمين طبعاً).

٣ ـ معارضة كتاب العرب المقدس (القرآن) لأي تفكير عقلي.

٤ ـ سيطرة الاتجاهات التقليدية المتشددة وتعصبها للنصوص الدينية[3].

ومقولة رينان في هذا المضمار: لا يمكن تعلم شي من الفلسفة من الساميين.

---

(١) مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، وقد طبع هذا الكتاب لأول مرّة عام ١٩٩٤ وأعيد طبعه مرّات عديدة فيما بعد.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، ص٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٧.

والعجيب ان هذا العرق الذي ابدع في جمال الدين كل هذا الابداع، كيف ظل عاجزاً عن طرح مسألة فلسفية؟! ان الفلسفة لدى الساميين ليست الاّ اقتباس أو تقليد محض عن الفلسفة اليونانية[١].

مستنتجاً فيما بعد: انه من الخطأ اعتبار الفلسفة اليونانية المترجمة الى اللغة العربية فلسفة عربية]اسلامية [ذلك انه لا توجد أية جذور ابداعية للمباحث الفلسفية في أي من بقاع شبه الجزيرة العربية باستثناء بعض المباحث الفلسفية اليونانية المكتوبة بالعربية، وعلاوة على هذا ازدهرت (الفلسفة) في اراض نائية عن البلاد العربية كاسبانيا، مراكش، وسمرقند وسكانها في الغالب ليسو من العنصر السامي[٢]. وقد اعتمد عبدالرازق في الردّ وابطال مدّعيات المستشرقين منهجاً خاصاً اسماه المنهج التاريخي[٣].

وفي اعتقاده انه بالاتكاء على هذا المنهج ـ وهو اقرب الى المناهج المعتبرة في العلوم التجريبية ـ يمكن العودة الى العهود الأولى للتفكير الاسلامي وهناك يمكن معرفة العناصر الأولية التي كونت الفلسفة الاسلامية ومتابعة مسارها وتحولاتها التاريخية[٤].

ويجب الاشارة هنا ان مصطفى عبدالرازق ومن أجل اثبات الفلسفة الاسلامية كان مضطراً واضافة لنقده ادعاءات المستشرقين لأن ينقد أيضاً كلام الفقهاء وحديث أهل الشريعة المتشددين ـ الذين يرون في الفلسفة الاسلامية مناهضة للشريعة أساساً ـ فلم يدعهم دون جواب، بعبارة أخرى انه قام بجهد

(١) المصدر نفسه، ص١١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠١.

مضاعف من أجل اثبات اصالة ومشروعية الفلسفة الاسلامية، بحيث اننا نرى وعلى امتداد صفحات كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية) عرضاً متواصلاً لآراء الفريقين ونقدها. والحقيقة ان المهمة التي نهض بها عبدالرازق كانت من الخطورة بحيث يتوجب عليه وهو يواجه المستشرقين المنكرين لاصالة الفلسفة الاسلامية وادعائهم بمعارضة الاسلام لكل اشكال التفكير العقلاني، يتوجب عليه الحديث بطريقة لا تضعه في خانة المساندين لآراء الفقهاء المتشددين بموقفهم المتشنج ازاء الفلسفة. وخلاصة القول ان كتاب (تمهيد..) يعد عملاً نقدياً لكن يشوبه التأويل.

ويطرح عبدالرازق في الفصل الثاني من كتابه نظريته الاساسية ساعياً الى تقديم اجابة مناسبة عن النظريتين المتنافستين، معتمداً منهجه التاريخي في البحث عن المنابع والبدايات الأولى المكوّنة للتفكير الاسلامي وتاريخ العرب قبل الاسلام جاعلاً من القرآن والشريعة الاسلامية الحجر الأساس في الاستدلال، فعدد أدلّته التي ستصبح اساساً ليستند عليه المتنورون الدينيون، وأدلّته الرئيسية كما يلي:

١ ـ ان العرب قبل الاسلام كانوا على قدر من الاطلاع على المعارف والعلوم العقلية من قبيل علم النجوم الطب وشكلاً من الرؤى العقلانية في قالب بياني حكيم[١].

٢ ـ ان دين الاسلام مجموعة من الاعتقادات الدينية والشريعة العملية وبالرغم من ان الله قد بينه على نحو كامل ولكن قسماً منه أوكل الى (الاجتهاد البشري)[٢].

---

(١) المصدر نفسه ص١٠٦ ـ ١١٢.

(٢) المصدر نفسه ص١١٢ ـ ١١٥.

٣ ـ ان القرآن نص فاعل ومتحرك يسعى الى ايجاد رابطة مع جميع الاتجاهات الفكرية والدينية المعاصرة له، ومن هنا تنشأ بالضبط الصبغة الجدلية لآيات القرآن[١]. وهذه التعاليم الدينية وفرت ارضية لنمو التفكير النظري لدى المسلمين[٢].

واستناداً الى كلام فريق من الفقهاء المتشددين من أهل الشريعة ان التاريخ الاسلامي شاهد على حجم المنازعات والتحديات الهائلة والواسعة بين المسلمين ابتداءً من الصحابة الى التابعين وذلك حول فهم وتفسير الآيات واحكام الشريعة.

وهذه الاختلافات لم تكن تقع خارج حدود الدين، بل ان جزءً منها مرتبط بعصر النبي نفسه وعلى حد تعبير (مزني) (ان الفقهاء استخدموا القياس سواء في الفقه أو في قضايا الدين الأخرى منذ عصر النبي نفسه)[٣]، وهذا ما وفر ارضية ظهور الاجتهاد.

يضيف عبدالرازق: ومن هذا الافق يمكن اعتبار الاجتهاد بالرأي اساساً للرؤية العقلانية لدى المسلمين[٤].

ولكن مؤلف كتاب (تمهيد..) يجد نفسه في دفاعه عن اصالة الفقه وأصوله مضطراً لنقد آراء فريق من المستشرقين ذلك أنهم يسعون لاثبات تأثر هذين العلمين بالعلوم الاجنبية وبعبارة أخرى التأكيد على المنشأ غير العربي وغير الاسلامي لهذين العلمين[٥].

ويستنتج مصطفى عبدالرازق في هذا المضمار مستنداً الى أن (الرأي)

---

(١) المصدر نفسه ص١١٥ ـ ١١٨.

(٢) المصدر نفسه ص١١٩.

(٣) المصدر نفسه ص١٢٢.

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٣.

(٥) المصدر نفسه ص١٢٤ ـ ١٣٠.

و(الاجتهاد) مفهومان نابعان من داخل الدين ومنطلقان من تعاليم النبي ذاته[١]، انهما من أركان الشريعة الاسلامية منذ ظهورها، وانهما موجودان حتى قبل ظهور المدارس الفقهية بين المسلمين[٢]. ومع كل هذا فهو يعترف ان نمو وانتشار علم الاصول قد تأثر ببعض العلوم الاساسية من قبيل علم المنطق والفلسفة اليونانيين، ولكن هذا لا يؤثر أبداً على أصالته ولا يقلل من اعتباره[٣].

ان التفات المسلمين الى اسقاط النظام العقلاني على استنباط الاحكام الشرعية يعد المرحلة الأولى للفلسفة الاسلامية، ومن هنا ظهر التعامل الوثيق بين اصول الفقه والفلسفة، فليس عبثاً أن ينصرف المتكلمون منذ مطلع القرن الرابع الهجري الى تأليف الكتب في مضمار أصول الفقه والكثير من المفاهيم المنطقية والفلسفية ذات الصلة في تكوينه[٤].

وعلى خلاف آراء المستشرقين الشائعة في تصنيف علم الكلام والتصوف جزءً من الفلسفة الاسلامية يتوجب اضافة اصول الفقه ايضاً الى هذه المجموعة[٥].

والخلاصة ان مصطفى عبدالرازق سعى في كتابه في منحه الأصالة للفلسفة الى ارساء علاقة قوية بين (الماضي) و(الحاضر) لينظم الماضي في شكل ينسجم مع الوضع الحالي على الأقل.

وبغض النظر عن نجاحه في منهجه التاريخي لاثبات اصالة الفلسفة الاسلامية أو لا، وفي أنه هل يمكن اساساً ارساء علاقة ديالكتيكية بين (الاجتهاد بالرأي) في حدود الشريعة و(الفلسفة) في اعتبار الثانية شكلاً متكاملاً عن الأولى فان

---

(١) المصدر نفسه ص١٩٠.

(٢) المصدر نفسه ص١٣٤.

(٣) المصدر نفسه ص٣٥.

(٤) المصدر نفسه ص١٠٦ ـ ١١٢.

(٥) المصدر نفسه ص١١٢ ـ ١١٥.

النقطة الاساسية في كلام مصطفى عبدالرازق هي في اذعانه بوجود انفصال معرفي بين (الحاضر) و(التراث الماضي) بحيث يكون احياء الماضي ممكنا في حالة تأويل وهدم حدود معاني الماضي واعادة بنائها من جديد. ومع كل هذا فهو ـ شأنه في ذلك شأن كل احيايي التفكير الديني ـ لا ينظر الى هذا الانفصال نظرة الجد ولا يذعن لآثاره ونتائجه المعرفية باذلاً سعيه في إعادة بناء ذات المفاهيم؛ في الوقت الذي ينطوي فيه احياء الجزء العقلاني للتراث على حذف او تأويل.. وحتى وان بدا في ظاهره تقدمياً إلا أنه ينطوي على مضمون سلفي شديد؛ وذلك ان العودة الى الماضي باستخدام ذات العناصر والأصول الأولى في الفكر الاسلامي وكذا الاستفادة من المنهج التاريخي ايضاً يستلزم ذبح الحاضر والتضحية به عند قدمي الماضي والشطب بالمرّة على التفكير اليوناني وابطاله بالاستعانة بعلم الأصول ـ الذي هو قاعدة مصطفى عبدالرازق في الاستدلال ـ وهذا ما قام به علي سامي النشار تلميذ مصطفى عبد الرازق خطوة أخرى في هذا الطريق. إذ استنتج في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) مستنداً الى عجز العقل عن فهم ماهية الأشياء ـ التي هي فكر يستند الى الكتاب والسنة في رأيه ـ والى اثباته عدم انسجام الميتافيزيقا اليونانية مع التعاليم الاسلامية انه لا يوجد في الاسلام شي يدعى بالفلسفة أو التفكير الفلسفي، وهو في هذا يستصوب آراء المستشرقين والفقهاء المتشددين[١].

ونتيجة لذلك لم يوفق المنهج التاريخي في حل عقدة فحسب بل استحال بذاته الى عقدة اصعب وافرز نتائج معكوسة. جدير ذكره ان مصطفى عبد الرازق وقبل ان يستند الى الماضي وقف متأملاً ومفكراً من الناحية الفلسفية عند امكانية أو امتناع مثل هكذا عودة.

(١) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، ص٤١.

وعلى كل حال فليس الهدف مما ذكرناه آنفاً توضيحاً لرؤى آراء مصطفى عبدالرازق في دفاعه عن اصالة الفلسفة بل ان الهدف الاساس هو بيان القاعدة المهيمنة على هكذا آراء.

ان عبدالرازق مثل عبده يهدف الى نظم حالة الفوضى في المجتمعات الاسلامية، فهما يسعيان ـ بالتأكيد على مقولة ان الاسلام دين ينهض على العقل والاجتهاد ـ الى الرد على الغربيين في طرحهم الاسلام.

هذا من جهة ومن جهة أخرى منح الحالة المشوشة لمجتمعاتهم مع الماضي نظماً وعقلانية. غير ان النقص الاساسي في رؤية كل المصلحين من امثال محمد عبده ومصطفى عبد الرازق يكمن في تجاهلهم الافق التاريخي للافكار والانفصال المعرفي بين عصرهم والعصور الغابرة، وما أكثر المعضلات المعاصرة التي تشبه المعضلات في العصور الماضية ولكن هذا لا يسوغ لنا تقديم ذات الاجوبة وطرق الحل التي قدمها الاقدمون. ذلك ان الاطار المعرفي للقضايا قد تغير، ومن الضروري ان تتغير المفاهيم والمناهج تبعاً لذلك. وما أكثر الامور التي كانت تحسب بالأمس القديم ضرورية وبديهية اضحت اليوم غير ضرورية وغير مسلّمة. وعلى هذا الاساس يجب التمييز قبل كل شي بين حدود البحث وبين المفاهيم والادوات التي استخدمت فيه وألاّ يحدث خلط بين الاثنين. كما هو الحال فيما شاهدناه عند عبده ومصطفى عبد الرازق، فموضوع بحثيهما جديدان تماماً ومرتبطان بالحاضر، ولكن منهجيهما ومفاهيم بحثيهما تتعلقان بالماضي. بعبارة أخرى ان المفاهيم والمناهج التي استخدمت في البحث لم تكن وافية بالقصد ولا يمكنها طرح القضايا والمسائل في افق معاصر تماماً، وهذه نقطة غفل عنها كثيرون من المفكرين الدينيين[١].

---

(١) لفهم التناقضات الاساسية في افكار عبده الاصلاحية راجع:

ـ عبدالله العروي، مفهوم العقل؛ مقالة في المفارقات، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧ ص ٢٣ ـ ٧٣.

مفهوم العقل في اللغة والثقافة العربية

وتأثير ذلك في حقول العلوم الاسلامية المختلفة

اللغة حصيلة ثقافة المجتمع وكل مفردة فيها هي نافذة ينظر من خلالها الأفراد الى العالم. (المفهوم) ليس الاّ تبلور هذه النظرة وبعدها الذهني؛ من هنا فان دراسة ومعرفة الجذور التاريخية لكل مفردة والابتعاد عن معناها الحالي المتعارف يمكن ان يكون له دور في فهم حدود معنى هذا الكلمة. ومن الضروري في هذا المضمار ان تبحث مفردة (العقل) في حدود اللغة العربية ذلك اننا سنرى ان تلقي العرب قبل الاسلام لهذه المفردة أصبح الحجر الاساس للعلوم الاسلامية فيما بعد.

في الثقافة اليونانية يترادف معنى العقل مع فهم طبيعة الاشياء فيما نواجه في الثقافة العربية العديد من المفاهيم القيمية والاخلاقية؛ أي ان وظيفة العقل الاساسية ليست في معرفة الظواهر الطبيعية وتقديم تفسير علمي للعالم، بل انها اساساً معيار لتشخيص (العمل الصالح) من (العمل الطالح) وردع الافراد عن ارتكاب العمل الطالح. وهذه الصبغة الاخلاقية السلوكية لا تنحصر بمفردة العقل وحدها ومشتقاتها بل تنسحب الى المفردات المرادفة من قبيل: الذهن، النُهى، الفكر والفؤاد أيضاً.

جاء في لسان العرب وبعد ان ذكر ان العقل مرادف لمفردة أخرى هي (النهى) واعتبرها مضادة لـ(الحمق)، أنّ العقل مأخوذ من (العقال) الذي يربط به الجمل[1]، فكما ان العقال يمنع الجمل من الحركة فان العقل أيضاً تلك القوّة التي تمنع الانسان من ارتكاب الاعمال غير اللائقة، بعبارة أخرى انه القوة التي تميز الحق من الباطل[2]. وكذا المفردات المرادفة للعقل تؤدي ذات المعاني والقيم الدلالية.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار احياء التراث العربي، بيروت ج ٩، ص٣٢٦.

(٢) موسوعة دهخدا في اللغة والاعلام (بالفارسية) حرف (ع) ص ٣٧٠.

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان (العقل) لدى العرب ليس أداة معرفية مستقلة عن (الطبيعة) أو (الله) بل انه ـ وكما مرّ سابقاً ـ قوّة تردع الانسان عن ارتكاب الخطأ، والوظيفة الانسانية التي يؤديها ليست ابداعاً أو بناءً معرفياً مستقلاً بل انما هي متابعة واذعان.

ويرى كثير من الباحثين ان رسوخ هذا الفهم الاخلاقي عن العقل كان أحد العوامل في أفول الاتجاهات العقلية في الحضارة والثقافة الاسلامية، ذلك أنه في ضوء هكذا مفهوم لا يقوم الانسان باثبات أو تأسيس امر ابداعي وجديد، بل يكون كل همّه منصباً على متابعة قواعد معروفة ومعدّة سلفاً.

وهكذا (التعقل) ايضاً، انه وقبل أن يدل على فعالية ونشاط عقلاني في كشف وبيان ماهية العالم يؤشر إلى حالة من السلوك الاخلاقي.

وسنرى فيما بعد ان هذا التصور هو المسيطر في ميدان علم الكلام والشريعة مما دفع بالمفكرين الاسلاميين الى العجز عن منح استقلالية (للعقل) عن (الشرع) فاصبح الأول مجرد أداة لمعرفة وتفسير مقاصد الشرع.

نظرة تاريخية في بناء وتكوين الشريعة الاسلامية

ودور وحدود العقل البشري

لم تكن الشريعة في عصر النبي ﷺ سوى مجموعة من الاوامر الالهية، ولكن مع انقطاع الوحي واتساع البلاد الاسلامية وظهور مشكلات جديدة اطل سؤال جديد: هل يمكن الحديث عن شكل من اشكال المشروعية غير احكام الوحي من خلال استدلال أو أسس عقلية. بصيغة أخرى هل يمكن للمسلمين حل مشكلاتهم الجديدة من خلال الاعتماد على اصول عقلية تدعى (الاجتهاد)؟

وفي هذه الفترة وجد فريق من الفقهاء علاجهم ومن أجل منح (الاجتهاد) شرعية في عدم اعتباره بدعة؛ فارجعوا جذور ذلك الى البدايات الأولى يعني الى عصر النبي والصحابة. فلم يكتفوا بذكر احاديث النبي ﷺ في تشجيعه الصحابة على الاجتهاد بل تعدوا ذلك الى اعتبار النبي بشراً يعتمد على اجتهاده الشخصي في بعض الاحيان. علاوة على ذلك قال بعضهم بان النبي كان يخطئ احياناً في فهمه الاجتهادي(١).

---

(١) مختصر ابن الحاجب مع شرح العضدي، ج ٢، ٢٩١؛ وانظر كذلك:
الاحكام في اصول الاحكام للآمدي، ج ٤، ١٦٥؛ وانظر أيضاً: ارشاد الفحول للشوكاني ص ٢٢٥ في موضوع امكان اجتهاد النبي ووقوع ذلك أيضاً توجد آراء مختلفة وعلاوة على المنابع الاساسية في الفقه والاصول حيث ورد فيها شرح معظم الجدل المحتدم حول هذه المسألة إذ توجد بحوث جديدة وبعضها معتبر أيضاً اهتمت ببحث هذه القضية. وعلى أية حال هناك ثلاث نظريات طرحها المتكلمون الاقدمون وهي باختصار كما يلي:
النظرية الأولى: وهي نظرية القائلين بامكان الاجتهاد وكذا وقوعه على النبي. وهم عموم علماء السنة ومن جملتهم، الآمدي وفريق من الأحناف وكل الحنابلة (التبصرة في اصول الفقه، ابو اسحاق الشيرازي، ص ٥٢١، الإحكام في اصول الأحكام، الآمدي ج ٤ ص ١٦٥، اصول الفقه السرخسي، ج ٢، ص ٩١، ارشاد الفحول الشوكاني، ص ٢٢٥ و..) ويتمسك اصحاب هذه النظرية بمجموعة من الادلة العقلية والنقلية؛ فهم يعتقدون ان اجتهاد النبي أمر ممكن في ذاته. فيما يردّ المنكرون لهذا الدليل على ذلك بانه لا يجوز للنبي ان يعمل بالرأي والاجتهاد؛ ذلك أنه يؤدي الى (المعرفة الظنية) فيما النبي قادر في أية لحظة يشاء على الافادة من مصدر (الوحي) والحصول على (علم قطعي ويقيني). ويردّ المدافعون عن النظرية على هذا الاشكال بقولهم ان الوحي والاتصال بـ(المبدأ الأعلى) أمر الهي بالمرّة وهو منوط بارادة الله ولا يستطيع النبي الارتباط بعالم الغيب كلما أراد. وتأسيساً على هذا فان النبي يضطر في كثير من الاحيان الى الفصل في المسائل وفقاً لاجتهاده الذاتي (الغزالي، المستصفى من علم الاصول، ج ٢، ص ٣٥٥).
النظرية الثانية: وهي أن النبي مخلوق اسمى وأعلى وأن جميع أفعاله هي عين الوحي وعلى هذا فان الظن باجتهاده لا ينسجم مع منزلته كنبي، ويقف ابن حزم في الاوساط السنية والشيخ المفيد في الوسط الشيعي في طليعة المدافعين عن هذه النظرية. طبعاً يرى السيد المرتضى جواز اجتهاد النبي عقلاً وعدم ذلك شرعاً. (الذريعة في اصول الشريعة، جامعة طهران، ج ٢ ص ٣١٨) والدليل الأساس لهذا الفريق هو وجوب طاعة الامة للنبي في اقواله وافعاله واذا كان النبي مجتهداً واخطأ في احكامه الاجتهادية فسوف لن يصح اتباعه، ذلك ان هذا الأمر يجعل من رسالته العظيمة لغواً لا طائل من ورائه.

←

→ النظرية الثالثة: وتمتنع عن اصدار أي حكم في هذه القضية. وهذا رأي القاضي أبو بكر الباقلاني والغزالي (المستصغى، ج٢، ٣٥٥) وللغزالي في كتابات أخرى رأي آخر يرى فيه جواز اجتهاد النبي في بعض الاحكام (المنخول من تعليقات الاصول، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠، ص٤٦٨).

والسؤال هنا ووفقاً لمعطيات النظرية الأولى التي تقول ان النبي اجتهد في فصل بعض القضايا هل من الممكن ان النبي قد أخطأ في بعض اجتهاداته؟

كثير من فقهاء المذهب الشافعي وفريق من المعتزلة يرون ان النبي كسائر البشر وبناءً على معطيات التجربة والمعرفة البشرية ربما أخطأ. المحدثون الشيعة ـ وخاصةً معظم الأخباريين ـ وعلى الرغم من نفيهم الاجتهاد عن النبي يرون جواز السهو والخطأ عليه، غير أن فريقاً من الفقهاء والمحدثين لا يرتضون هذا التقسيم العام ويقولون بالتفصيل ونشير هنا باختصار الى رؤيتين هامتين:

الرؤية الأولى: وقد فصل فيها المحدث والفقيه السني، القاضي عياض بن موسى الاندلسي (المتوفى ٥٤٤هـ) في مؤلفه المشهور (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) ويفكك القاضي عياض في هذا الكتاب وفي باب افعال واحكام النبي بين مجالي الدين الدنيا. ثم يضع خطاً فاصلاً في المجال الأول بين شؤون الوحي والأفعال الشرعية وفيما يخص الوحي فان النبي منزّه عن كل اشكال الخطأ وهو معصوم من الذنب لأنه في غير هذه الحالة تكون رسالته فارغة عديمة الجدوى.

أما في قسم الأفعال الشرعية وبالرغم من تنزيه النبي عن الخطأ والسهو ومع هذا فهو (النبي) وفي بعض افعاله ليس بمنأى عن السهو والنسيان، ذلك انه كسائر الناس بشر معرّض للخطأ.

كما أن النبي نفسه يقول في حديث له: (انما انا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني(غير انه يتوجب التأكيد على ان هذا النوع من الأخطاء نادراً ما يقع ولا يشكل ظاهرة مستمرة ومتصّلة غير أنه في الأمور الدنيوية، فان النبي كسائر الناس يخطئ ويصيب وهذا أمر ينسجم مع نبوّته؛ ذلك انه في رأي القاضي عياض، جوهر رسالة النبي، بيان شؤون الدين وأن جلّ سعيه وهمّه منصب على أمور الآخرة، وعلى هذا فلا خوف أن يكون كسائر الناس في أمور الدنيا]قارن هذا مع رأي ابن خلدون في باب الطب المنقول عن النبي وقد قال فيه: انه ليس من عالم الوحي، بل هو أمر عادي بالنسبة للعرب فقد اشار ابن خلدون الى أحوال النبي وذكر الطب كجزء من أحواله العادية وما جبل عليه فلا يكون للطب في هذه الحالة علاقة بالوحي، ذلك ان النبيﷺ بعث لابلاغ الشريعة وتعليم الناس أحكامها لا أن يعرّف الناس الطب) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون].

ويسوق القاضي عياض لاثبات مدعاه طائفة من الروايات المعتبرة ومن جملتها تلقيح نخيل المدينة حيث يقول في ذلك: (انما انا بشر إذا أمرتكم بشي من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشي من رأيي فانما أنا بشر) أو الحديث الذي يقول فيه: (انما انا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق وما قلت فيه من نفسي فانما انا بشر أخطئ وأصيب).

ويصنف القاضي عياض احكام النبي في القضاء في هذا الحقل بمعنى ان النبي انما يستند في قضائه الى

←

واضافة الى شخص النبي فان الصحابة ايضاً كانوا يوظفون اجتهادهم الذاتي الأمر الذي ظهر في صور ثلاث:

الأولى: اجتهادهم في فهم وتفسير احاديث النبي.

الثانية: اجتهادهم في المسائل التي لم يرد فيها نص الهي صريح (الوحي).

الثالثة: في الشؤون القضائية فقد كان الصحابة غالباً ما يستندون الى اجتهادهم الذاتي.

من جهة أخرى لم يجد الفقهاء ومن أجل اضفاء الشرعية على الاجتهاد سوى تفسير هذه الاصول العقلانية وبيانها بشكل ينسجم مع الأصول الاولية للوحي. بتعبير آخر انه يتوجب الاّ تتنافى هذه الاصول العقلانية مع الاحكام الشرعية.

← المناهج البشرية المتعارفة. يضاف الى ذلك ان النبي في مثل هذه الشؤون كسائر قضاة الشرع انما يستند في احكامه الى ظواهر الأمور (من قبيل الشهادة، اليمين، البيّنة). ويمكن لله أن يطلع نبيه على خفايا الأمور ويظهر له حقائقها فلا يحتاج الى البيّنة، الشهادة واليمين، ولكن الله أمر الناس بطاعة رسوله فكان من الجدير في هذا الأمر ألاّ يطلع نبيّه على الغيب حتى تتجذّر هذه السنة في الناس ويكون اتباعهم للنبي أمراً ممكناً (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ج٢، ص١١٥ ـ ١١٣ وانظر كذلك: احمد جمال العمدي، السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، دار المعارف، مصر، ١٩٨٨.

الرؤية الثانية: وهي رؤية فقيه المذهب المالكي شهاب الدين احمد بن ادريس القرافي (المتوفى ٦٨٤ هـ) التي بيّنها في كتابه الهام (أنوار البروق في انواء الفروق).

وقد اثبت القرافي في كتابه لدى تطرقه الى الفرق السادس والثلاثين في بحث الافعال والاحكام الصادرة عن النبي ثلاثة أنواع لأفعال وتصرفات النبي وهي بهذا الترتيب: مقام الافتاء (التبليغ) مقام القضاء ومقام الامامة، ثم ذكر بضرورة التفكيك بين هذه المقامات والاّ ننظر الى جملة افعال وتصرفات النبي نظرة متساوية ذلك ان لكل منها في الشريعة احكام وآثار خاصة.

ويعتقد القرافي في القسم الأول من هذه الأفعال أو الاحكام أنها صادرة على سبيل التبليغ وبيان الحكم الالهي وعليه فهي تتمتع بالعموم والثبات كالاحكام العبادية. أما في القسمين الثاني والثالث فان النبي قام بهذه الافعال باعتباره (النبي) اماماً وحاكماً وهي تجاري أوضاع المجتمع يومذاك، كغزواته وتقسيم الغنائم وامضاء معاهدات السلام مع المشركين والفصل في الدعاوى الحقوقية للناس (الفروق ج١، ص٢٠٥ ـ ٢٠٩) ولمزيد من التفاصيل انظر كذلك: تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، مصطفى عبدالرازق، ص١٣٩ ـ ١٤٣.

وفي النتيجة اذعنوا بصراحة ان العقل بمفرده غير قادر على تحريم او تحليل شي، بل انه يتوجب عليه الاستناد الى الشرع ومتابعة احكامه. واذن فان وظيفة العقل تتلخص في فهم وكشف مقاصد الشريعة[١].

وفي مقابل ذلك قام فريق من الفقهاء وأغلبهم من المحدثين ـ الذين اشتهروا فيما بعد بأهل الحديث ـ بوضع مشروعية العقل في ميدان التشريع تحت أقدامهم، وفهم هؤلاء ان أي ادراك منفصل عن الشرع ـ حتى لو توافق مع مقاصد الشريعة ـ باطل وفاقد لأي اعتبار، لأن جوهر جميع الاديان بما في ذلك الاسلام هو توافر عنصر الايمان وليس بناء المعرفة العقلية. فلا حاجة للبحث العقلي في ظل وجود الايمان.

وعلى أية حال فقد أدى الجدل المحتدم فيما بعد بين فقهاء أهل السنة من جهة والمحدّثين من جهة أخرى الى اتضاح حدود معنى (الاجتهاد) أو (الرأي) ليكون بمثابة مصدر مستقل في التشريع اكثر من ذي قبل، بحيث سنتعرف على مفاهيم وأدوات جديدة من قبيل (القياس) (الاستحسان)، (المصالح المرسلة) (وفتوى الصحابة)، وهي منابع أو أدوات تعبر عن آراء بشرية إذ لكل فقيه مصادراته الخاصّة به في الرفض والقبول (نموذجاً انظر الاختلاف الواضح في المشارب الفقهية بين ابي حنيفة، مالك والشافعي).

وبعد هذه الاشارة الى مصادر التشريع المختلفة لدى أهل السنة نبيّن آراء ورؤى فقهاء الشيعة. ومن الضروري قبل كل شي ان نشير الى هذه النقطة وهي ان الاختلاف الاساسي بين الشيعة وأهل السنة يقع حول قسم من الاصول الاعتقادية (الكلامية) وبشكل واضح جداً حول أصل (الامامة) فقد روى محدثو الشيعة

---

(١) الاحكام في اصول الاحكام، ابن حزم الاندلسي، ج ١، ص ٣٧ والموافقات، الشاطبي، ج ١، ص ٣.

والسنة حديث الثقلين[١] عن النبي وفيه دعوته لعموم المسلمين باتباع القرآن والعترة من آله، ويؤسس الشيعة على هذا ضرورة وحقانية الامامة، وقد أدى هذا الى أن يعتبر الشيعة وحسب فهمهم للامامة موقعاً يجعلها امتداداً للنبوة وعنصرا مكملاً لها، ولهذا نراهم ينظرون الى السنة نظرة تمتد بها الى تعاليم الائمة من أهل البيت، وطبقاً لهذه التعاليم الواردة عن ائمتهم فانهم يعتبرون الاحكام الصادرة عنهم امتداداً للوحي ـ فلا هي اجتهاد أو استناد الى آراء شخص ـ.

وعلى هذا فان حقبة التشريع عندهم تمتد الى زمن بدء الغيبة الكبرى سنة ٣٢٩هـ فيما هي لدى أهل السنة محدودة بعصر النبي.

وفهم الشيعة للامامة واضافة الى صبغته الكلامية يتضمن ابعاداً باطنية بمعنى ان النبي حسب ظروف عصره لم يتسنّ له الافصاح عن جميع علومه فأورثها الاوصياء من بعده ـ وهم ورثته الروحيين بالحق ـ فلديهم (العلم المخزون) الذي يفصحون عنه كلما دعت حاجات عصرهم الى ذلك.

وتأسيساً على هذا التصور من الممكن أن النبي قد بين حكماً ما كليّاً وأخر بيانه وتحديده الى ظروف زمانية، أو أنه لم يبين ذلك أساساً فتأتي وظيفة الامام (وصي النبي) في بيانه والافصاح عنه[٢].

ووفقاً لهذه الرؤية فان منابع ومصادر التشريع لا تنحصر بالقرآن والسنة بل هناك حاجة لتفصيل وبيان اوصياء النبي، ولذلك يتحدث الشيعة بصراحة ووضوح حول فترتين للتشريع هما: عصر النبي وعصر الائمة الاثني عشر.

ومن الضروري أن نذكر ان الامامية لا ينظرون الى سنة النبي المروية عن أهل

---

(١) اشارة الى حديث النبي صلى الله عليه وآله المشهور: (اني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي..).

(٢) محمد حسين كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، ص١١٣، وانظر كذلك: علاء الدين بحر العلوم، مصابيح الاصول (تقرير بحث السيد الخوئي)، طهران، ١٣٨٠ هـ ص٦.

السنة نظرة اعتبار باستثناء الروايات التي يوردها ائمتهم عن النبي فقط.

ويرى بعض مؤرخي الفقه الشيعي ان حضور الائمة امتداداً لعصر التشريع أدى الى التأخير في ارساء اسس الاستنباط وتدوين الفقه الشيعي، ذلك ان وجود مصدر التشريع (حضور الامام) جعلهم في غنى عن ارساء القواعد الفقهية أو قوانين استنباط الاحكام الشرعية[١].

وفي مقابل ذلك يعتقد فريق من المؤرخين ان وجود الائمة وامكانية الاتصال لم يعرقل تدوين المذهب الفقهي الشيعي بل كان عاملاً مؤثراً جداً في بلورة الفقاهة والاجتهاد ذلك انه اولاً وطبقاً للروايات الواردة فإن الائمة من أهل البيت شجعوا اتباعهم وشيعتهم على ايجاد ارضية للتفكير العقلي والاستدلالي وكانوا يشجعون متكلمي الشيعة على البحوث الكلامية والاعتقادية[٢] هذا أولاً.

ثانيا: ان الائمة من أهل البيت لم يكتفوا وخلال فترة امامتهم بذكر قسم من الروايات الفقهية أو حل المعضلات الشرعية بل انهم قاموا بارساء قواعد كلية لاستنباط الاحكام الشرعية، فكانت وظائفهم بيان الاصول والقواعد الكلية كما عبروا عن ذلك بصراحة تاركين استنتاج الاحكام (التفريع) لاتباعهم[٣] وربما ذكروا في معرض اجوبتهم عن اسئلة اصحابهم هذه النقطة وهي ان الجواب يكمن باعتماد منهج للاستدلال والاجتهاد من الحقول الاسلامية البديهية القابلة للاستنتاج والاستنباط[٤].

---

(١) محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة، ص ٥٥.

(٢) حسين موسى الطباطبائي، مقدمة على فقه الشيعة، ص ٣٠ (نقلاً عن رجال الكشي، رجال القهبائي وكتاب تصحيح الاعتقاد، الشيخ المفيد، ص ١٧١ ـ ١٧٢).

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١ (اشارة الى الحديث المروي عن الامام الصادق: علينا القاء الاصول وعليكم بالتفريع، وسائل الشيعة، ج١٨، ص ٤١).

(٤) ٤٤– المصدر نفسه، ص ٣١.

ثالثاً: وفي زمان الائـمة كـانت هـناك اتـجاهات فـي التـفكير لا تـوافـق الاعتقادات الشيعية حول الائمة، أي انه كان يوجد بين اصحاب الائمة واتباعهم من ينكر الصفات فوق البشرية ومن جملتها (العصمة)[1] وهي آراء وجدت من يساندها لدى الكلاميين في فترات لاحقة ومن بين اولئك شـخصيات يـحترمها الشيعة ومن جملتهم ابو جعفر محمد بن قبّة الرازي العالم والمتكلم الشيعي الذي كان مورد احتفاء الشيعة في القرن الرابع الهجري وكان زعيم الشيعة في عـصره وكانت آراؤه حجة يستند اليها العلماء في فترات لاحقة وكان الرازي يعتقد بـان الائمة علماء اتقياء في القرآن والسنة وكان ينكر علمهم بالغيب[2].

وقد نجد فريقاً من اصحاب الائمة يعتمدون القياس والاجـتهاد الشـخصي الحرفي في استنباط الاحكام الشرعية، حتى انهم كانوا يعتقدون بـان الائـمة ـ كسائر الفقهاء ـ يعملون بذلك[3]، ولوجود هذه الآراء في الائمة فيما يبدو، كـان كثير من الاصحاب يطلبون منهم الدليل أوالبرهان في القضايا الفقهية وربما أدّى ذلك احياناً الى النزاع وقطع العلاقات فيما بينهم، في الوقت الذي يتوجب فيه ـ ووفقاً للمنهج التقليدي السائد لدى الشيعة ـ عرض الاصحاب مسائل الخـلاف ليفصّل فيها الائمة ويستمعوا هم الى القول الفصل[4].

وعلى أية حال فقد واجه الفقهاء الشيعة وبعد انطواء عـصر الائـمة السـؤال التالي: ما هو دورهم ازاء هذا الكم الهائل من تراث الائمة وهل يقتصر على ضبط وتسجيل وجمع هذا التراث فقط؟ أم انه يمكنهم الاجتهاد على نحو ما وفقاً لقواعد

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٢) اسد الله التستري، كشف القناع عن وجوه حجية الاجماع، ط حجرية، ص ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٤) راجع: مقدمة على فقه الشيعة، ص ٣٣ ـ ٣٤.

فقهية كلية؟ وهذا هو ذات السؤال الذي واجه أهل السنة بعد وفاة النبي.

وقد انقسم الشيعة ازاء هذا السؤال كما انقسم قبلهم أهل السنة الى فريقين: ١ ـ أهل الحديث. ٢ ـ أهل الرأي (الاجتهاد).

الفريق الأول: وهو الفريق الذي يرفض الاستنباط العقلي جملة وتفصيلاً الى الحد الذي تنضوي فيه أيضاً مجموعة الاستدلالات العقلية التي تثبت حقانية المذهب الشيعي فهي فاقدة لاي اعتبار شرعي.

ولذا انصبت كل جهودهم على جمع الاحاديث وضبطها وحفظها، بل ورأى بعضهم انه لا ضرورة للاستدلال على صحة الاحاديث أو عدم صحتها وأنه لا طائل حتى من العلوم الخاصّة بالحديث فيما يخص السند (علم الرجال) أو النص (علم الدراية)، وبتعبير آخر يساند هذا الاتجاه التبعية للاحاديث دون قيد أو شرط. وقد بحثت معظم كتب علم الرجال مصادرات واستدلالات هذا الاتجاه[1].

وقد تنامى الاتجاه الاخباري في الغيبة الصغرى واصبح تياراً قوياً غير أنه شهد تراجعاً في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس من خلال جهود بعض العلماء كالشيخ المفيد وتلامذته وبخاصة الشيخ الطوسي واستاذه السيد المرتضى الذي يعد بحق المفكر الحقوقي للشيعة وذلك من خلال اعداد ادوات في الكشف عن بديهيات القواعد الحقوقية هذا من جهة ومن جهة أخرى اقامته الدليل العقلي على مشروعية التمسك بها[2].

وكان ذلك خطوة مؤثرة في ارساء المنهج الاجتهادي ونقد الاتجاه الاخباري وفي مقابل الفريق الأول نهض

---

(١) الوحيد البهبهاني، الرسائل الاصولية، ص١١٢ ـ ٢٢٩ (الفصل الثامن، احتياج المجتهد الى علم الرجال)؛ وانظر كذلك: ابو القاسم الخوئي، معجم رجال الحديث ج١، ص٣٦٢٢.

(٢) تشارلز آدامس، الغيبة الشيخ الطوسي (جامعة مشهد) ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

الفريق الثاني: من أهل الرأي معتمداً منهج الاستدلال العقلي لاستنباط القواعد الحقوقية، حتى ان بعضهم قدّم القواعد الاستنباطية الحقوقية على الاحاديث غير القطعية أو خبر الواحد بتعبير علم الأصول حيث يبرز في هذا المضمار فقه القرن الرابع ومؤلف (تهذيب الشيعة لاحكام الشريعة) و(الاحمدي في فقه المحمدي)[١].

اذ ينهض منهجه الفقهي وبناءً على آرائه وفتاواه على القواعد الكليّة القرآنية والاحاديث المسلّمة المشهورة، فاذا ما صادف قاعدة قرآنية كليّة ووجد في الأحاديث استثناء لها قدّم القاعدة القرآنية معرضاً عن الحديث الاّ في الاحاديث القطعية التي لا تقبل الترديد[٢].

تغير معنى الاجتهاد

من الضرورة بمكان ان ندرس بدقة التغيّرات والتحولات التي طرأت على معنى الاجتهاد لفهم وبيان ماهية ودور العقل في المجال الفقهي الشيعي، ومن المؤكد انه لن يكون يسيراً ـ وفي خضم حجم التراث الاسلامي والتحولات الكبرى في ميدان الشريعة ـ تقديم تعريف واضح لمفردة الاجتهاد ذلك وعلى حد تعبير مؤلف (الفكر السلفي عند الشيعة الامامية): (ان المحور الاساس في النزاع بين أهل الحديث وأهل الرأي في تحديد معنى الاجتهاد)[٣]، وقد كان اكثر سعي واجتهاد المسلمين هو في تفسير معنى الاجتهاد ذاته[٤].

---

(١) ابو العباس احمدبن علي النجاشي، الرجال، ص٣٨٥.

(٢) الطباطبائي، مقدمة على فقه الشيعة، ص٤١.

(٣) علي حسين الجابري، الفكر السلفي عند الشيعة الامامية، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٧ ص١٤٨.

(٤) المصدر نفسه ص١٤٦.

وعلى أية حال فانه ومنذ ان شقت هذه المفردة طريقها في حياة المسلمين والى أن اصبحت واحدة من أكبر الاصطلاحات والمفاهيم الفقهية، شهدت الشريعة الاسلامية اكبر تجاربها وكان مفهوم الاجتهاد يواكب ويلازم هذه التجارب والتغيرات. ولم يقدم الفقهاء المسلمون تعريفاً واضحاً الى حد ما عن الاجتهاد الاّ بعد مضي ستة قرون، أو قل انهم اتفقوا على الاصول الكلية له.

وكان (الرأي) هو المفردة التي عرفت في القرن الأول كأداة ومنهج في استنباط الاحكام الشرعية، ولهذه المفردة معنى محدود جداً مقارنة بالمعنى المتداول لمفردة الاجتهاد[١]. ذلك ان مفردة الرأي تشير في تلك الفترة الى الموارد التي لم يرد فيها نص خاص فتدل حينئذ على حكم الفقيه الذاتي حسب مقتضيات الحالة، حرمة أو حليّة[٢].

ولم يتمكن مؤرخو الشريعة في هذا المضمار من تحديد ماهية الاجتهاد كما لم يقدّموا صورة واضحة فيما اذا كان الاجتهاد في تلك الفترة مرادفاً للقياس أو الاستحسان أو المصالح المرسلة أم كان له معنى خاصّاً به؟

ومع كل هذا وبالرغم من غموض معنى هذه المفردة[٣]، فانهم اتفقوا على هذه النقطة آنذاك، وهي ان (الاجتهاد) كان يعني وجهة نظر أو فهم ذاتي قبل أن يكون نظاماً أو منهجاً في الاستنباط. يعني ان المسلمين في تلك الفترة، وبخاصة الصحابة كانوا يستنبطون قسماً من الاحكام الشرعية وفق آرائهم الذاتية سواء كان ذلك استناداً الى سنة النبي قولا وفعلاً أو في ضوء قرائن وشواهد هي اليوم خافية علينا

---

(١) خليفة با بكر الحسن، الاجتهاد بالرأي في مدرسة الحجاز الفقهية، مكتبة الزهراء القاهرة، ١٩٩٧، ص١١٠.

(٢) ابو محمد علي بن حزم الاندلسي، ملخص ابطال القياس، دار الفكر، بيروت ١٩٦٩، ص٤.

(٣) مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص١٥١، وايضا محمد بحر العلوم، الاجتهاد؛ اصوله واحكامه، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩١، ص٤١ ـ ٤٢.

دون أن تكون لديهم احاطة بطريقة الاستنباط[١].

على ان الاجتهاد لدى الشيعة في القرن الأول يدلّ على معنى عبادي أخلاقي فهو مرادف للـ(الورع) و (الاخلاص) في أداء الواجبات الدينية[٢].

ومع ملاحظة الكم الهائل للروايات المنقولة من الائمة يمكن أن نفهم بانهم كانوا ملتزمين بالنص (الكتاب والسنة) وكانوا يعارضون كل اشكال الاجتهاد والقول بالرأي.

وفي عقيدة التشيع وفي مطلع القرن الثاني كان الاتجاه السائد هو معارضة البحوث الكلامية، لأن الامام يمثل أعلى مرجع في الشريعة واليه يجب ان تعود جميع الاسئلة والاستفسارات[٣] فلا مكان اذن للاجتهاد والاستدلال العقلاني ومن ثم للبحث والمناظرة واختبار القوى في البحوث الدينية[٤]، ناهيك عن البحث في قضايا من قبيل صفات الخالق والجبر والقدر حيث يكلّ البشري فيها فقد كانت اموراً لا يجدر بالمرء الخوض فيها[٥]. فلقد كان الائمة الاطهار يمتنعون

---

(١) شيخ احمد (شاه ولي الله الدهلوي)، حجة الله البالغة، القاهرة، ج١ ص١١٢.

(٢) انظر في هذا الموضوع نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٠ وايضاً كتاب ٤٥. وللامام الرابع حيث تدل مفردة الاجتهاد فيه نفس هذا المعنى وهي ترادف (الورع) و(العمل بما عند الله).

الشيخ المفيد، الاختصاص، نشر جماعة المدرسين، ص٢٥، جعل بن محمد بن شريح الحضرمي، الاصول الستة عشر، دار شبستري، قم، ١٤٠٥، ص٧٢، الشيخ الطوسي، الامالي، ص٢٦، ٣١، ٢١٥.

وفي العصور التالية سعى الاخباريون مناهضةً لمجموعة المجتهدين لإعادة مفردة الاجتهاد، الى معناها الأخلاقي. انظر في هذا الموضوع: محمد بن حسن الحر العاملي، الفوائد الطوسية، ص٤٤٤ وقد أفاد كاتب هذا البحث في هذا القسم من الكتب التالية:

محمد بن عبدالنبي النيسابوري (المعروف بالميرزا محمد الاخباري)، منية المرتاد في ذكر نفات الاجتهاد (جامع المقربين ورياض المحدثين)، نسخة مخطوطة مكتبة المرحوم ملك رقم ٢٨٥٨.

(٣) الكافي، ١ ص١٨٠، ٢١٠، ٢١١.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٩.

(٥) المصدر نفسه ج١، ص١٩٢ (باب النهي عن الكلام في الكيفية).

عن الخوض فيها[١] وكانوا يتبعون القرآن[٢] ويدعون اتباعهم الى اتباعه أيضاً[٣].

وعلى هذا يمكن ادراك الفرق الاساس بين الشيعة وأهل السنة في فهم العقل والاستدلال العقلاني. يعني انه اذا كان العقل والاستدلال العقلاني لدى متكلمي السنة المرجع في القرار النهائي وانه يجب اتباعه فانه لدى متكلمي الشيعة مجرد اداة وان المصدر الأعلى والمرجع النهائي في الكشف عن الواقع هو الامام حيث يستقون منه قواعدهم ومبانيهم الكلامية[٤].

وبعبارة أخرى الافادة من العقل باعتباره اداة وليس مصدراً، وقد استمر هذا الوضع لقرن آخر أي الى أواسط القرن الثالث الهجري وظل ذلك شاخصاً اساسياً في كلام الشيعة[٥].

---

(١) عاصم الحنّاط، الاصول الستة عشر، ص٢٧؛ رضي الدين علي بن طاووس، كشف المحجة لثمرة المهجة، مكتب الاعلام الاسلامي، ١٤١٧، ص٦٢ ـ ٦٣؛ بحار الانوار، ج ٢، ص١٢٧ و١٣٧ والصدوق، رسالة الاعتقادات، ص٧٤.

وينتقد علي حسين الجابري في كتابه الفكر السلفي ـ وبعد ان يذكر امتناع الائمة عن الخوض في المباحث الكلامية والتزامهم بالقرآن والسنة النبوية ـ المتكلمين الشيعة في الفترات التالية ذلك أنه يعتقد بأنهم قد غيروا في مسار المذهب الشيعي وصبغوه بصبغة اعتزالية وسعوا في اسناد حشد من تعاليم المعتزلة أو الكلامية ونسبتها الى الائمة. الى الحد الذي نجد فيه المتكلمين يسندون روايات كثيرة في التوحيد، العدل الالهي، والحسن والقبح الذاتيين في الافعال الى أئمة الشيعة، وهذا النوع من الروايات لا ينسجم فقط مع روح تعاليمهم فحسب بل يعد نموذجاً في وضع الاحاديث ذلك ان هذه الاحاديث تشير الى مفاهيم لا يمكن أن تكون وليدة الفترات الأولى.

ويعتقد مؤلف الكتاب ان وجود هذه الروايات قد سبب تناقضاً اساسياً في المذهب الامامي يعني أنهم ـ وكما رأينا ـ ينكرون كل اشكال الاجتهاد أو الرأي، ولكنهم من جهة أخرى يطرحون مباحث معقدة في الكلام والاعتقاد وهي مفاهيم كانت وليدة بشكل عام للمدارس الكلامية ـ الاعتزالية في بغداد أو الكوفة (الفكر السلّفي عند الشيعة الاثنا عشرية، ص١٧٠ ـ ١٧٣).

(٢) الكافي، ج ١، ص١٠٣.

(٣) حسين مدرسي الطباطبائي، العقيدة في اصل التكامل، نشر داروين نيوجرس، ١٩٩٧، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

(٤) المصدر نفسه ص١٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٥٦ (وسوف نرى فيما بعد ان العقل في الفقه الشيعي لم يعرف كمصدر مستقل أبداً، بل استعمل كأداة في بيان النصوص الشرعية).

وعلى كل حال فان الالتزام بالنص وابطال الرأي (الاجتهاد) والقياس كان شعار مذهب التشيع في ذلك العصر حيث الرأي والقياس ووفقاً للروايات الواردة عن الائمة يفتقد بشكل عام الى كل اشكال الاعتبار وباطل اساساً[١].

ودلائل الائمة في ابطال الرأي والقياس كدلائل المحدثين والفقهاء من أهل السنة وهي تنطلق من أن الكتاب والسنة لم يغفلا عن شي وما من شي يهم أمر الأمة الاّ وله حكم في كتاب الله عزوجل وسنة النبي[٢] وان فيها كل الحدود حتى أرش الخدش[٣].

ويبدو ان معارضة الائمة الصريحة لكل اشكال الاجتهاد أو التدخل في حدود الشريعة كانت وليدة عاملين:

الأول: ان ائمة الشيعة عاشوا غالباً في المدينة المنورة وهي مهبط الوحي وموطن الصحابة والتابعين وخصائصهم كما نعرف هي ثباتهم والتزامهم بأصل القرآن والسنة وأولياء الله الصالحين حيث الزهد والتقوى واجتناب كل اشكال الاستدلال الكلامي أو العقلاني.

وفهمهم الكلّي هو أنه لا حاجة للاجتهاد أو الرأي مع التلقي المباشر لتعاليم الدين الاساسية عن الوحي والنبي، ومن ثم انتقاله الى الصحابة والتابعين؛ ومن هنا

---

(١) احمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، المجمع العالمي لأهل البيت، قم ١٤١٦، ج ١، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ الكافي، ج ١، ص ٥٤ ـ ٥٩؛ أبو جعفر محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢؛ الشيخ المفيد، الامالي ص ٥١ ـ ٥٢، وكذا الحر العاملي في وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، ج ٢٧ (كتاب القضاء في صفات القاضي)، ص ٣٥ ـ ٦٢ ومحمد بن مرتضى المشهور بالفيض الكاشاني في سفينة النجاة) منشورات دار احياء الاحياء، ص ٧٠ وقد ذكروا طائفة من الروايات المنقولة عن الائمة في باب ذم الاجتهاد والرأي والقياس.

(٢) الكافي، ج ١، ص ٥٩؛ بحار الانوار، ج ٢، ص ١٧٥؛ وكذا منية المرتاد في ذكر نفاة الاجتهاد نسخة مخطوطة، ص ١٠.

(٣) الكافي ج ١، ص ٦٠.

نجد الفقهاء والمحدثين في المدينة ومنهم الامام مالك ـ وبشكل جليّ الامام الصادق ـ قد نهضوا لمعارضة أهل الرأي[١].

كما ان الامامين الرابع والخامس زين العابدين والباقر حذرا شيعتهما من الجدال والمراء في المباحث الدينية[٢]. وقد ناظر الامام السادس الصادق أبا حنيفة فقيه العراق في ابطال القياس ومنعه صراحة من اعمال كل اشكال القياس في شؤون الدين[٣]، وقد عدّ ابن تيمية الفقيه السني المتشدّد الامام الباقر في زمرة المحدثين المشهورين[٤].

وقال الاشعري ان الشيعة يجمعون على بطلان الاجتهاد في دائرة الاحكام[٥].

الثاني: ان الامامة اساس التشيع، وقد آمن الشيعة منذ البداية بأن نصب الامام يستند الى النص، واعتقدوا بان الرسول ﷺ قد نص على امامة علي عليه السلام واقامته قائداً للامة الاسلامية.

وينظر الشيعة عموماً الى ان انكار امامة علي من قبل جمهور المسلمين كان بمثابة أول خروج على النص. ويعتقدون بحماس لو أن المسلمين التزموا بالنص لما خرجت الخلافة عن عترة الرسول، وعلى هذا الاساس ينظرون الى التاريخ الاسلامي بعد النبي بأنه تأويل (اجتهاد) صارخ في مقابل النص، والى الخلفاء

---

(١) الفكر السلفي...، ص٩١.

(٢) بحار الانوار، ج٢، ص١٣٥ (ح ٣٢) وص١٢٧ (ح ٥)؛ علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف، القاهرة، ج٢، ص١٣.

(٣) الشيخ الصدوق، علل الشرايع، المطبعة الحيدرية، النجف، ص٨٦ وص٨٨ وكذا انظر: احمد بن علي الطبري، الاحتجاج، منشورات اسوة، قم، ج٢ ص٢٢٦ ـ ٢٧٢.

(٤) علي سامي النشار، المصدر السابق ص١٤٠.

(٥) ابو الحسن الاشعري، مقالات الاسلاميين، القاهرة، ح١، ص١١٩.

الثلاثة باعتبارهم مجتهدين[١] اعتمدوا فهمهم الذاتي في استنباط الاحكام دون الرجوع الى كتاب الله وسنة النبي[٢].

ومنذ ذلك الوقت بدأ التأليف في الاوساط الشيعية فيما يخص بيان ونقد اجتهاد الصحابة وبخاصة الخلفاء الثلاثة، ويمكن الاشارة في هذا المضمار الى كتاب (الايضاح في الامامة) للفضل بن شاذان النيسابوري (المتوفى ٢٦٠ هـ) والى كتاب (الاستعانة في بدع الثلاثة) وهو من تأليف أبو القاسم على بن أحمد الكوفي (المتوفى ٣٢٥ هـ) هكذا استمرت هذه الوتيرة في الكتب النقدية ذات الطابع الكلامي ـ الاعتقادي في الاوساط الشيعية ووجدت لها رواجاً.

ولهذين السببين اعلاه ظهر فهم خاص وسلبي في نفس الوقت لـ(الاجتهاد) ليستمر قروناً تالية.واصبح الاجتهاد وفقاً لهذا الفهم[٣] اعمالاً للفهم الذاتي في استنباط الاحكام الشرعية وعدم الالتفات الى النصوص التي تفيد خلاف ذلك[٤].

ومن الطبيعي ان تتجه المدرسة الفقهية الشيعية في تلك الحقبة الى نقد الاجتهاد بقوّة ومعارضة الاتجاهات الاجتهادية فصدرت في تلك الفترة كتب عديدة عن محدثين ومتكلّمين من الشيعة اثبت قسماً منهم علماء الرجال ومن جملتهم: اسماعيل بن علي بن اسحاق النوبختي في كتاب تحت عنوان: (النقض على عيس بن ابان في الاجتهاد)[٥] وعبدالله بن عبدالرحمن الزبيري في كتاب:

---

(١) حسين الكركي العاملي، هداية الابرار الى طريق الائمة الاطهار، مؤسسة احياء الاحياء، بغداد، ص ١٨٠.

(٢) عبدالحسين شرف الدين، النص والاجتهاد، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ٩٦٦، ص ٧٤.

(٣) آغا بزرگ الطهراني، تاريخ حصر الاجتهاد، منشورات مدرسة الامام المهدي، ٧٨ (وانظر كذلك مقدمة محمد علي الانصاري على هذا الكتاب ص ١٣ ـ ١٥).

(٤) محمد تقي الحكيم، مقدمة كتاب النص والاجتهاد للسيد عبدالحسين شرف الدين، ص ٤٣. محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة للاصول، مكتبة النجاح، طهران، ص ٢٤.

(٥) النجاشي، الرجال، مؤسسة النشر الاسلامي، قم ١٤١٨، ص ٣١ ـ ٣٢.

(الاستفادة في الطعون على الاوائل والردّ على اصحاب الاجتهاد والقياس)[١]، ابو القاسم علي بن احمد الكوفي في كتاب الرد على اصحاب الاجتهاد في الاحكام[٢] وهلال بن ابراهيم في كتاب: (الرد على من رد آثار الرسول واعتمد نتائج العقول)[٣]. وكذا كتب ابن الجنيد التي هجرت بسبب اعتمادها القياس في اثبات طائفة من الاحكام الشرعية ولم يعد الفقهاء الشيعة يستندون اليها[٤] بل ان الشيخ المفيد ألّف كتاباً في هذا المضمار تحت عنوان: (النقض على ابن الجنيد في اجتهاد الرأي، كما انتقده[٥] في مناسبة أخرى لنسبة العمل بالرأي الى الائمة من أهل البيت[٦].

وقد تعرض الفضل بن شاذان النيسابوري ايضاً في كتابه (الايضاح في الامامة) الى فرقة المرجئة ونعى عليهم اعتقادهم بعدم اكتمال دين الاسلام وان الله لم ينزل على نبيه كل ما يحتاج اليه الناس ولم يبين جميع الاحكام وان الصحابة ومن بعدهم التابعين اجتهدوا في حل المعضلات واعملوا آراءهم الشخصية ثم اضحت هذه الآراء والاجتهادات (سنة) لم يجد المسلمون بداً من الطاعة لها[٧].

وقد اكد الفضل في ابطاله ادعاء المرجئة على كمال الشريعة وان الله شرع جميع الاحكام في ما يحتاج اليه الناس وان النبي بلغها ولا مكان بعد هذا الى

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

(٢) المصد نفسه، ص٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه ص٢٤٠.

(٤) الشيخ الطوسي، الفهرست، مكتبة المحقق الطباطبائي قم، ١٤٢٠، ص٣٩٢.

(٥) النجاشي، الرجال ص٤٠٢.

(٦) الشيخ المفيد، المسائل السروية، المؤلفات الكاملة، ج٧، ص٧٢ ـ ٧٤ وكذا المسائل الصاغانية ج٣، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٧) الفضل بن شاذان، الايضاح في الامامة، جامعة طهران، ص٣ ـ ٤.

الاجتهاد البشري وبعبارة أخرى ان غنى الشريعة واكتمالها تسلبان الشرعية عن العمل بالرأي والاجتهاد الشخصي[(١)].

فيما علل محمد بن يعقوب الكليني (المتوفى ٣٢٩هـ) في مقدمة كتابه الكافي انحطاط المسلمين وتمزق صفهم وظهور الفرق بسبب اعمال الرأي وأخذ احكام الدين من (أفواه الرجال) وتحكيم الفهم البشري في عرصة الدين بعد أن بين الله دينه في كتابه المنزل على نبيه المرسل وكل ما يحتاج اليه البشر، ثم استشهد بحديث مروي عن الائمة يفيد وجوب اتباع القرآن والسنة فإذا كان الانبياء ممنوعين من العمل بالقياس والاستنباط فأولى بالناس العاديين وهم دون الانبياء بمراتب عدم العمل به[(٢)].

كما نجد محمد بن ابراهيم النعماني تلميذ الكليني ايضاً يستدلّ في كتابه الغيبة على بطلان من يقول بنقص القرآن والسنة واضفاء المشروعية على منهج القياس والاجتهاد ويستدل بهذه الآية: (نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْ) ثم يستعيذ بالله الاّ يكله الى نفسه لحظة واحدة أو يكون محتاجاً لاجتهاد البشر[(٣)].

ونرى الشيخ الصدوق في كتابه علل الشرايع وبعد أن يتعرّض الى قصة موسى النبي والخضر يستنتج ان موسى النبي مع منزلته عند الله وعقله يعجز عن ادراك افعال الخضر ويقول اذا لم يجز لانبياء الله العمل بالقياس والاستنباط فأولى بالبشر العاديين الاّ يجوز لهم ذلك[(٤)]، واذا كان موسى النبي مع مقامه الرفيع غير مؤهل للانتخاب فكيف يجوز للأمة أن تنتخب وفق العقول الناقصة والآراء

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٣ ـ ١٠٨.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ص٨ (مقدمة الكتاب).

(٣) محمد بن ابراهيم النعماني، الغيبة، مكتبة الصدوق، طهران، ص٤٨ ـ ٥١.

(٤) الشيخ الصدوق، علل الشرايع، مكتبة الداوري، قم، ج، ص٦٢.

المتضاربة[١].

والشيخ المفيد يقصد ذات المعنى من الاجتهاد في كتاب (أوائل المقالات) فالاجتهاد لديه (فهم شخصي) وهو بمثابة مصدر للاحكام الشرعية في غياب النص فهو من هذه الناحية مرادف للقياس والرأي[٢].

وكذا السيد المرتضى في كتابه الذريعة الى أصول الشريعة وبعد أن يبين المعنى اللغوي للاجتهاد يشير الى معناه الاصطلاحي وهو استنباط الاحكام من مصادرها الشرعية ويقول في هذا المضمار بان بعض الفقهاء لا يميزون بين القياس والاجتهاد[٣]، ومع كل هذا فهو يصرح بان الامامية لا يجيزون العمل المستند الى الظن رأياً أو اجتهاداً[٤].

والسيد المرتضى يصرح ايضاً في كتاب الشافي في الامامة ببطلان الاجتهاد والقياس في الشريعة وانه لا طائل من ورائهما[٥].

وكذا الشيخ الطوسي في مقدمة كتاب (عدة الاصول) يقول بان الامامية لا يعدون القياس والاجتهاد دليلاً شرعياً بل انهم منعوا من استعماله[٦] ويضيف في باب صفات (المفتي والمستفتي) حول اعتقاد أهل السنة بأن المفتي يجب أن يكون عالماً بالقياس، الاجتهاد، واخبار الواحد وطريقة اثبات الامارات الظنية:

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣.

(٢) الشيخ المفيد، اوائل المقالات في المذاهب والمختارات، المؤلفات الكاملة المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، ج ٤، ص١٣٩.

(٣) السيد المرتضى، الذريعة الى اصول الشريعة، منشورات جامعة طهران، ج ٢، ص ٦٧٢.

(٤) السيد المرتضى، المصدر السابق (نقلاً عن الشيخ الطوسي في عدة الاصول، ص٩).

(٥) السيد المرتضى، الشافي في الامامة، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ١٤١٠ ج ١، ص٢٧٦ و١٨٨؛ وكذا راجع: رسائل الشريف المرتضى، جواب المسائل التبّانيات، ج ١، ص ٥؛ وانظر كذلك الكتاب الآخر للسيد المرتضى والموسوم بـ(الانتصار) المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٧١، ص٢٣٨ وص ٢٤٣.

(٦) الشيخ الطوسي، عدة الاصول، مؤسسة آل البيت، ج ١، ص ٣٩.

وقد ظهر بطلانها جميعاً ولم تعد أدلة شرعية[١].

ويقول الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى (٥٤٨هـ) في تفسيره مجمع البيان وحول توضيح الآية: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾[٢]: ان حكمهما لم يكن اجتهاداً لأن الانبياء لا يستندون الى الاجتهاد وهذا هو رأي الامامية[٣].

وهذا الفهم للاجتهاد نجده ايضاً لدى سعيد بن هبة الله الراوندي من فقهاء الشيعة في القرن السادس، فيتعرض في كتابه فقه القرآن الى بطلان القياس في الشريعة ثم يعرج على ابطال الاجتهاد ايضاً. ومع كل هذا فهو يميز بين الاجتهاد بمعنى الفهم الذاتي والشخصي في غياب النص وبين الاجتهاد بمعنى سعي الفقيه الى الكشف عن الحكم الشرعي من مصادره المعتبرة (الكتاب والسنّة)، بتعبير آخر ان الراوندي يفكك بصراحة ووضوح بين الاجتهاد كمصدر في التشريع ـ عند فقدان النص ـ وبين الاجتهاد كاداة للكشف عن الحكم الشرعي وهو يبطل فقط الاجتهاد بمعناه الأول فيما يصرّح حول المعنى الثاني بانه لا يمكن اعتباره قياساً أو اجتهاداً ذلك ان المجتهد والقائس يستند بنحو ما الى نص شرعي فلا يعد استنباطه قياساً أو اجتهاداً[٤].

وابن ادريس الحلّي (المتوفى ٥٩٨ هـ) ايضاً في كتابه السرائر يصرح وفي قضية (تعارض البيّنة) ببطلان القياس، الاستحسان والاجتهاد في مذهب الشيعة الامامية[٥].

وعلى اساس هذا الاستعراض المضغوط الذي مرّ آنفاً يمكن القول ان مفردة

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٢٩.

(٢) الانبياء، الآية (٧٨).

(٣) ابو علي فضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، بيروت ج ٧، ص ٥٧.

(٤) سعد بن هبة الله الراوندي، فقه القرآن، المطبعة العلمية، قم، ١٣٧٩، ج ١، ص ٦.

(٥) محمد بن ادريس الحلي، السرائر الحاوي للتحرير الفتاوي، ج ٢، ص ١٧٠.

(الاجتهاد) كانت لها ظلال سلبية استمرت في الذهنية الشيعية حتى نهاية القرن السابع وقد اشرنا الى ان الشيعة وعلى رأسهم الائمة قد نهضوا لمواجهة فكرة الاجتهاد وانتقدوا بشدّة أية محاولة لمنحه صفة المشروعية، ومع هذا فقد مرّت الاشارة الى (الاجماع) في اوساط الشيعة وكذا إلى اختلافهم في فهمه وتعريفه، وطبقاً للتعريف الذي قدمه على سبيل المثال السيد المرتضى أو القطب الراوندي عن الاجتهاد نجد تفكيكاً واضحاً بين اجتهادين: اجتهاد مرادف للرأي كمنبع مستقل للتشريع، واجتهاد يعبر عن منهج في استنباط الاحكام من مصادرها الشرعية (الكتاب والسنة) ولم يكن اعتباطاً وبعد أن يبين السيد المرتضى المعنى اللغوي لمفردة الاجتهاد أن يستند الى فريق من الفقهاء الذين يميزون بين (القياس) و(الاجتهاد).

وفي مقابل هذا اللون من التصوّر والفهم، يوجد فهم آخر يعارض بشكل عام كل انواع الاجتهاد والمفردات المرادفة له ويمنع توظيفه في دائرة الشريعة.

وهذان الفهمان اللذان مرّ ذكرهما أعلاه يشيران الى اتجاهين فكريين في قلب المذهب الشيعي. وبتعبير آخر ان الشيعة ـ شأنهم شأن أهل السنة ـ شهدوا منذ المراحل الأولى ظهور اتجاهين قويين يمتلك كل منهما فهماً أو تصوّراً خاصاً عن الوحي وتعاليمه وعلى أساس هذا الفهم يحدد دور وواجبات العقل البشري:

الأول: اتجاه أهل الحديث ويتركز نشاطه بشكل مكثف في مدينة قم، ويمتاز هذا الاتجاه بالتزامه الثابت بالكتاب والمأثور من سنة الائمة، وسلبه الاعتبار عن المباحث الكلامية[1] ونفيه الغلوّ عن ساحة الائمة[2].

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب التوحيد للشيخ الصدوق.

(٢) الشيخ الصدوق، علل الشرايع، ص٩٩ ـ ١٠٠؛ وكذا النجاشي في الرجال، ذكر اشخاصاً طردهم أهل قم من مدينتهم بسبب غلوهم (ص٢٥٥ ـ ٢٦٠).

الثاني: الاتجاه الكلامي الذي يتلخص معظمه في مدرسة بغداد ومن أعلام هذا الاتجاه: الشيخ المفيد والسيد المرتضى وقد سعيا ـ وبالاعتماد على افكار المذهب المعتزلي ـ في تقديم تفسير عِقلاني عن المذهب الشيعي الى الحد الذي كان السيد المرتضى يكتسب علمه تحت اشراف بعض مشاهير المعتزلة. ومنهم عبدالجبار المعتزلي، أبو اسحاق النصيبني ومحمد بن عمران المرزباني[١]، حيث اعتمد مناهجهم في تنظيم الاصول الاعتقادية للشيعة، كما قام وبشكل رسمي بادخال مباحث الاصول في الفقه السني في بحوث الشيعة الفقهية، كما وتصدّى الى اتجاه أهل الحديث واشكل عليهم في كثير من روايات الآحاد.

وقد انبرى السيد المرتضى لنقد افكار أهل الحديث في ثلاث رسائل: (الرد على اصحاب أهل العدد)، (جواب المسائل الطبرية) و(في ابطال العمل باخبار الآحاد). وعلى سبيل المثال تعرض السيد بالنقد في رسالته الأولى الى أهل الحديث وبخاصة الشيخ الصدوق[٢] في أن أيام شهر رمضان لا يمكن أن تكون أقل من الثلاثين فنقد آراءهم مفنداً إياها لبعدها عن كل اشكال الاجتهاد والتأمل[٣]. كما نعى عليهم اعتمادهم خبر الواحد وبيّن عدم اعتباره حتى لو كان الراوي ثقة وذكر موقف الاصحاب واعتقادهم بعدم حجيته وانه لا يجوز

(١) الفكر السلفي عند الشيعة الامامية، ص٢١٣، وكذا: ولفرد مالولونغ، العقائد والفرق الاسلامية في القرون الوسطى (بالفارسية) ترجمة محمد جواد قاسمي، مؤسسة البحوث الاسلامية، ص١٣٢.

(٢) الشيخ الصدوق في كتابه (الخصال) وبعد ان يبين الاحاديث المنقولة في هذا المضمار يقول انه لدى مذهب الخواص واصحاب البصيرة من الشيعة ان شهر رمضان لا يقل عن ثلاثين يوماً وان كل الاحاديث موافقة للقرآن وتخالف أهل العامّة؛ الخصال، ج٢، ص٥٣١، الشيخ المفيد وفي ابطاله رأي الصدوق يكتب رسالة بعنوان جوابات أهل الموصل ويتهم الشيخ الصدوق وامثاله بالافراط والغلو (المؤلفات الكاملة، ج٩، ص٨٣).

(٣) السيد المرتضى، الرسائل، ج٢، ص١٨.

التعبّد به[١].

ولذا ليس من العجيب ان يتعرض السيد المرتضى الى نقد شديد من محدثي الشيعة كالسيد رضي الدين بن طاووس (المتوفى ٦٦٤هـ) لانشغاله بالمباحث الكلامية وعدوله عن سنة السلف الصالح[٢].

وعلى الرغم من ميول الشيخ المفيد والسيد المرتضى العقلية كما بيّنا فقد انكرا كل اشكال الرأي والاجتهاد والقياس واعتبراها باطلة واكدا في مقابل ذلك على أهمية النص واظهار تفوقه، فقد وضع المفيد مدعيات الكلاميين المعتزلة في مشروعية الاجتهاد تحت مطرقة النقد ذلك انهم اعتبروا الحديث المروي عن الامام علي: (علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح من كل باب ألف باب (مرادفاً للقياس أو الاجتهاد، وعدّه تأويلاً لا أساس له ووصف مؤوليه بأنهم جهال[٣] وأن في الكتاب والسنة بياناً لكل الاحكام[٤].

وهذه الازدواجية في التفكير لدى السيد المرتضى اكثر وضوحاً قياساً بالشيخ المفيد يعني انه يمكن اعتباره مؤسساً للاجتهاد من جهة ومن جهة أخرى ـ كما رأينا ـ يبطل كل اشكال الاستنباط العقلي.

وهذا التعارض وجده مؤلف كتاب (الفكر السلفي..) منطبقاً على الشيخ الطوسي[٥]، ومع كل هذا يذكر بان الشيخ الطوسي يخطو حذراً في مضمار ادخال

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٩ ـ ٤٠؛ وانظر كذلك: رسائل الشريف المرتضى (جوابات المسائل الطبرية)، ج١، ص١٥٧.

(٢) رضي الدين بن طاووس، كشف المحجة، ص٢٠، ٢٣ و١١٢.

(٣) السيد المرتضى، الفصول المختارة من العيون والمحاسن للمفيد، ج١ ص٦٩.

(٤) الشيخ المفيد، الاختصاص، ص٢٨٠.

(٥) علي حسين الجابري، الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرين، ص٢١٨.

الاستنباط النظري في منطقة التشريع[١].

ويبدو ان هذا التعارض أو الازدواجية غير مرتبط لا مع المنهج الفكري لدى السيد المرتضى أو الشيخ الطوسي ولا مع مدرسة قم ومدرسة بغداد في الكلام والاعتراف بالاجتهاد أو انكاره، بل ان اساس المعضلة يكمن في طريقة فهم عموم الشيعة لموقع ودور (الامام المعصوم).

فإذا كان الامام ليس حافظاً للشريعة فحسب بل ومبيّناً لها، واذا كان علم الامام المعصوم كعلم النبي يستقي من النبع الالهي فهو لا يقبل الخطأ[٢] اذن، يتوجب الرجوع اليه في جميع الاحكام فماذا يتبقى للاجتهاد ـ حتى بمعناه الاصطلاحي ـ من مساحة؟!

واضافة الى ذلك يجب أن نذكر ان مشروعية الامام تستند اساساً الى النص وان الشيعة عموماً ينظرون الى مسألة انكار جمهور السنة لامامة علي باعتبارها أول عدول عن النص.

وعلى هذا الاساس فان مخاوف الفقهاء تكمن في أن فتح باب الاجتهاد سيؤدي الى انكار ونفي النص ومن ثم بطلان الامامة.

ويكفي في هذا المضمار ان نلقي نظرة اجمالية على كتاب الشافي في الامامة للسيد المرتضى وسرعان ما سنلتفت الى ان المؤلف وإن بذل قصارى جهده في اضفاء صبغة العقلانية على معتقدات الشيعة الاّ ان مساعيه هذه كانت تصاحبها مخاوف في ان تُلحق هذه العقلانية اضراراً بصرح الامامة، الى الحد الذي نجده يغير من لهجة استدلاله في أول احساس بالخطر يصادفه فنراه يغير لهجته فجأة ليهاجم كل اشكال (الرأي)، (القياس)، و(الاجتهاد) مؤشراً عليها بخط البطلان.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢١٦.

(٢) داوود فيرحي، السلطة، الفكر والشرعية في الاسلام، منشورات في، ص٢٧٩.

وعلى هذا الاساس يقول الشيعة بخطأ الاجتهاد وان حكم الله في أي مسألة (واحد) وأن اختلاف آراء المجتهدين لا يغير من ذلك شيئاً[١]. ذلك أن علم الامام لا يعد حالة من الاجتهاد (مبتنياً على الظن) بل انه في رأيهم عين اليقين بل انهم يعتقدون أن هناك طائفة من المسائل لم يفصل فيها الوحي عن النبي، وان علم الامام هو الذي يبينها الهاماً والالهام ليس اجتهاداً ينهض على الاستدلال النظري[٢] ومن الطبيعي ان يقع الفقهاء في مثل هكذا ظروف في حالة من التعارض والازدواجية في التفكير.

وعلى كل حال فان مفردة الاجتهاد ظلت تشعّ معنى سلبياً حتى أواخر القرن السادس، غير أن التقدم التدريجي في البحوث الفقهية أدى الى انفصال مفردة الاجتهاد عن معناها الأول لترتدي معنى آخر جديد.

ويرى محمد باقر الصدر ان كتاب معارج الاصول وهو من تأليف المحقق الحلي (المتوفى ٦٧٦ هـ) أقدم التأليفات التي تعكس التغير المذكور[٣].

ويتحدث المحقق الحلي في كتابه عن (ماهية الاجتهاد): بأنه (الاجتهاد) في عرف الفقهاء، بذل الجهد في استنباط الاحكام الشرعية، وانه ينهض على اعتبارات نظرية مستقاة غالباً من ظواهر النصوص سواء كان ذلك قياساً أو غير قياس، فيكون القياس أحد أقسام الاجتهاد، وباستثناء القياس من حالات الاجتهاد فاننا من أهل الاجتهاد[٤].

---

(١) الحسن بن يوسف علي بن المطهر الحلي، الألفين، الفارق بين الصدق والمين في امامة علي ص٤، النجف ١٩٦١، ص٣٦٥.

(٢) محمد بن حسن الصفّار، بصائر الدرجات، منشورات الاعلمي، ٢٥٤.

(٣) محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة، ص٢٥.

(٤) نجم الدين ابو القاسم جعفر بن الحسن الحلي، معارج الاصول مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، قم، ١٤٠٣، ص١٧٩.

وهذا ما يشير بوضوح الى ان مفردة الاجتهاد ما برحت تؤدي الى تداعي المعنى الأول له وهو يعترض على تصنيف فقهاء الامامية ضمن المجتهدين[١].

وقد أدت التحولات السياسية في القرنين السابع والثامن الى تثبيت موقع الفقهاء الشيعة ليعرفوا على أنهم نواب للامام الغائب عليه السلام وهم بهذا ينهضون بمسؤولية وواجب الاستنباط وبيان الاحكام الشرعية الى الحد الذي يتحدث فيه المحقق علي بن عبدالعالي الكركي (المتوفى ٩٤٠هـ) المتنفذ في الحكم الصفوي ـ وبالرغم من اعتباره الاجتهاد مرادفاً للرأي والقياس وباطلاً[٢] ـ عن ضرورة فتح باب الاجتهاد[٣].

ومع ظهور مدرسة الاخباريين في القرن الحادي عشر وانتقادهم اللاذع للتيار العقلاني دخل الاجتهاد بحدوده ومعناه مرحلة جديدة.

وقد اكد الاخباريون على دور واهمية الامام المعصوم وضرورة الرجوع اليه والأخذ عنه فرفضوا كل مناهج الاستنباط في الاحكام الشرعية ومنها الاجتهاد الذي ينهض على عدّة اصول واستدلالات نظرية (ظنية) لا تفيد القطع واليقين. وقد سعى الاخباريون في ابطال الاجتهاد من خلال اعادة معناه الاصطلاحي الى ما كان عليه ابتداءً ليرادف الرأي والقياس والاستحسان[٤] مذكّرين بان الاجتهاد انما هو بدعة أهل السنة وان الشيعة حقاً كانوا يلتزمون منذ القدم بتعاليم الائمة المعصومين[٥]. ولكن ما حصل مع بدء الغيبة الكبرى ادى الى الانحراف عن الخط

---

(١) محمد باقر الصدر، المصدر السابق ص٢٧.

(٢) علي بن عبدالعالي الكركي العاملي، طريق استنباط الاحكام، منشورات المكتبة الاسلامية الكبرى قم، ١٣٩٦، ص٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦ ـ ١٧.

(٤) محمد امين الاسترابادي، الفوائد المدنية، المطبعة الحجرية، دار النشر لأهل البيت، ص٤٠.

(٥) حسين بن شهاب الدين الكركي، هداية الابرار الى طريق الأئمة الاطهار، ص١٨٦.

الاصيل فتأثر فريق من الشيعة بافكار أهل السنة الفقهية.

ومن خلال دفاعهم عن اصالة واستقلال التشيع وفي إطار ردهم على الشبهة القائلة بأن الشيعة ليسوا إلا حفنة من رواة الحديث ليس عندهم علم كلام مستقل ولا أصول في الفقه مدوّنة، قاموا بتصنيف كتب الكلام واصول الفقه[١] وقالوا بمشروعية الاجتهاد.

ويعتبر الاخباريون محمد بن احمد بن الجنيد الاسكافي والحسن بن أبي عقيل العماني في طليعة القائلين بمشروعية الاجتهاد واللذين غفلا عن منهج وطريقة أصحاب الائمة ليتبعوا افكار المعتزلة وينصرفوا الى علم الكلام واصول الفقه الى الحد الذي نجد فيه ابن الجنيد يعمل بالقياس ليعقبه العلامة الحلي والشهيد الأول والثاني والمحقق الثاني ايضاً ليزعموا بان كثيراً من روايات الائمة مأخذوة من الاصول[٢].

وقد بينا في صفحات سابقة ان فريقاً كان يدافع عن الاجتهاد ولا يعد وجود الائمة مانعاً في طريق تدوين المدرسة الفقهية الشيعية بل عاملاً مؤثراً في تبلور الاجتهاد مستندين في هذا المضمار الى طائفة من الروايات تبين بصراحة وظيفة الائمة في بيان الاصول والقواعد الكليّة تاركين استنتاج الاحكام الجزئية الى اتباعهم[٣].

وقد تعرض الاخباريون بالنقد لهذه الرؤية في تفسير هذه الطائفة من الروايات مؤكدين بان مجموع هذه الروايات لا يضفي الشرعية على الاجتهاد بل

---

(١) الاسترابادي، المصدر السابق، ص٢٩.

(٢) المصدر نفسه ص٣٠، ٥٦، ١٥٨و١٧٩ وانظر كذلك عبدالله بن صالح السماهيجي، منية الممارسين في أجوبة الشيخ ياسين، نسخة مخطوطة، مكتبة المرحوم المرعشي النجفي، رقم ١٠١٨ ورقة ٥٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٨، ص٤١ (باب ٦، صفات القاضي).

العكس، أي ان تأسيس الاصول منحصر بالائمة بحيث يكون أيَ أصل لا يستند الى كلامهم فاقداً للاعتبار والشرعية ولا يمكن الاستناد اليه[١].

من جهة أخرى ان مفاد هذه الروايات لا يعني اجتهاداً او تأسيساً لأصول وقواعد كلّية بل ينحصر فقط في جواز استخراج طائفة من المصاديق الجزئية من الاصول الكليّة من قبيل اصل الطهارة أو اصل الحليّة[٢]. وبتعبير أدقّ حالة من (الاصول العملية)، وعلى هذا فان تلك الاحاديث المذكورة تعزّز وتؤيد قبل كل شي وجهة نظر الاخباريين ذلك أن: استنباط الاحكام النظرية ليس في قدرة العوام بل إنه وظيفة الائمة الذين يبينون احكام الله في قواعد كلية وعلى الرعية والعامّة ان تستخرج المصاديق الجزئية من تلك القواعد الكليّة[٣].

وعلى أية حال فان الجدل بين مؤيدي الاجتهاد ومنكريه تركّز حول معناه وبيان ماهيته، وقد تسبب ذلك في دفع مؤيديه (المجتهدين الاصوليين) الى العمل على التقارير المأثورة عن علماء السلف وتصحيحها، ومن تلك التقارير ما اختص به ابن الجنيد فقيه العصور الأولى للتشيع وكان الشيخ المفيد أول من طرحها، كما اتهم ابنَ الجنيد بالقياس كلُّ من تعرّض لتلك التقارير، اضافة على ذلك انتقد الشيخ المفيد بشدة ابن الجنيد حول ما نسبه الى الائمة من العمل بالرأي[٤].

وقد تحول هذا الى قاعدة ينطلق منها الاخباريون في انتقاد المجتهدين الاصوليين بقوّة متهمين اياهم بالبدعة والخروج على دائرة المذهب، فيما مارس المجتهدون الاصوليون الدفاع عن انفسهم عبر اعادة النظر في التقرير

---

(١) يوسف بن احمد البحراني، الحدائق الناضرة، ج ١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤؛ وكذا الدرر النجفية، ص ١٧٩.

(٢) السيد محمد بن مرتضى الكاشاني، سفينة النجاة، دار احياء الاحياء ص ١٠٠ ـ ١٠١ وكذا الاصول الاهلية، ص ٦٥.

(٣) الفوائد المدنية ص ١٥٤.

(٤) الشيخ المفيد، اجوبة المسائل السرويّة، المؤلفات الكاملة، ج ٧، ص ٧٢ ـ ٧٤.

المذكور أعلاه.

ويعد السيد محمد مهدي بحر العلوم (المتوفى ١٢١٢هـ) وهو تلميذ الوحيد البهباني المبرّز، في طليعة هؤلاء المجتهدين وقد تساءل بحر العلوم في كتابه الفوائد الرجالية بعد اشارته الى حديث الشيخ المفيد: اذا كان بطلان القياس من ضروريات مذهب الامامية وأن الاحاديث المتواترة عن الائمة تمنع منه ـ بحيث يكون المنكر لها مرتدّاً ولا يمكن أن يكون ثقة ـ فكيف حاز ابن الجنيد كل هذه المنزلة الرفيعة بين فقهاء الشيعة وهو ممّن عمل بالقياس؟[١]

ويضيف: لو كان راوي هذا التقرير غير الشيخ المفيد الفقيه الواعي لاستطعنا أن نفسر مفردة القياس بـ(قياس الأولوية) أو بـ(منصوص العلة) والذي بالرغم من كونه قياساً لكنه ليس من زمرة القياس الباطل، ثم يحاول التوفيق بين التقرير المنقول عن الشيخ المفيد حول ابن الجنيد وما يحظى به الأخير من شأن ومقام لدى فقهاء الشيعة، فيشير الى الفاصلة الزمنية بيننا وبين العصور الأولى، مذكراً بضياع الكثير من الشواهد والقرائن الموجودة في تلك الفترة بحيث لا يمكن أن يتوفر نفس الوضوح الذي توفر للاقدمين في معاني بعض المفردات، والقياس في طليعة تلك المفردات.

ذلك ووفقاً لما يقوله السيد المرتضى: فإن بعض المحدثين المعتبرين من الامامية كالفضل بن شاذان ويونس بن عبد الرحمن وغيرهما كانوا يعترفون بالقياس ويعملون بمدلوله[٢] وكذا نسب الشيخ الصدوق ـ في كتابه (من لا يحضره الفقيه) في باب (ميراث الابوين مع ولد الولد) ـ الى الفضل بن شاذان

---

(١) محمد مهدي بحر العلوم، الفوائد الرجالية، مطبعة الأداب، النجف ١٩٦٦، ج٣٠، ص٢١٣.

(٢) السيد المرتضى، مسألة في ابطال العمل باخبار الآحاد، الرسائل دار القرآن الكريم، قم، ١٤٠٥ ج٣، ص٣١١.

العمل بالقياس[١].

وعلى هذا الاساس يتضح لنا بان استعمال القياس وتوظيفه لم ينحصر بابن الجنيد فقد عمل به بعض زعماء الشيعة، وعليه لا يمكن انكار ان القياس كان من ضرورات المذهب الشيعي.

وهذا الحكم يصدق على نظرية العمل بالرأي من قبل ائمة الشيعة يعني انه ما أكثر أن يكون هذا الأمر مقبولاً في تلك الفترة.

ويستند بحر العلوم الى مقولة جدّه السيد محمد الطباطبائي في كتابه تحفة الغري بعد نقله عن الشهيد الثاني ان حصول الايمان لا يتحقق بالتصديق بالائمة والاعتقاد بوجوب طاعتهم ما لم يؤمنوا بعصمتهم.

ويدّعي الشهيد الثاني في هذا المضمار ان كثيراً من رواة الحديث الشيعة من ذوي الشأن والمنزلة كانوا كذلك أي انهم كانوا ينظرون الى الائمة باعتبارهم علماء متقين قد أوجب الله طاعتهم دونما اعتقاد بعصمتهم، ومع هذا فقد كان الائمة يعدّون أولئك الرواة مؤمنين عدولاً[٢].

ويخلص بحر العلوم في النهاية الى أن العمل بالقياس كان يعدّ خطأ في المسائل الفرعية وأن مرتكبه معذور ولا ينظر اليه كخارج عن الدين[٣].

ومن الذين سعوا في اعادة النظر في تقرير الشيخ المفيد حول ابن الجنيد وتقديم تفسير جديد له السيد السيستاني الفقيه المعاصر الذي أورد شرحاً لنظريته في كتابه (الرافد في علم الاصول) اذ يشير الى هذه النقطة وهي انه بالرغم من ان ابن الجنيد قد نسب اليه العمل بالقياس فانه ليس المراد منه معناه الرائج اليوم بل أن معناه موافقة المضمون والمحتوى للكتاب والسنة لأننا نعرف بأن أغلب علماء

---

(١) الشيخ الصدوق، من لايحضره الفقيه، دار الكتب الاسلامية، النجف ١٣٧٨ ج ٤، ص١٩٧.

(٢) السيد بحر العلوم، المصدر السابق ج ٣، ص ٢٠٥ ـ ٢٢٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢١.

الاصول وفي مجال الترجيح بين الروايات المختلفة المتعارضة، فسروا الاحاديث الدالة على وجوب عرض الحديث على الكتاب والسنة بالموافقة أو المخالفة النصية، غير أن التدقيق أكثر يقودنا الى معرفة المراد الحقيقي لهؤلاء ألا وهو الموافقة أو المخالفة المضمونية؛ يعني ان مضمون الحديث يجب أن ينسجم مع اسس ومرتكزات الاسلام المستفادة من الكتاب والسنة، وهو ما يعتبره علماء الحديث نقداً للاحاديث من الداخل، وقد ورد في الروايات المنقولة عن الائمة عليهم السلام التعبير عنه بـ(القياس) ايضاً[١].

ويستنتج السيستاني بعد ذلك: انه من المحتمل أن يكون القياس المنسوب الى ابن الجنيد من هذا الباب فهو من زمرة الفقهاء الذين لا يقبلون كل حديث ببساطة وانما يمارس نقده الداخلي للحديث حتى يطمئن الى صحته، فهو يقف بالضبط في قبال المحدثين الذين يقبلون كل حديث ويعتبرونه قطعي الصدور دون اجراء أية مقارنة لمحتواه مع مضمون الكتاب والسنة.

ويشير في هذا المضمار الى كتاب (كشف القناع) لأسد الله التستري الذي بين فيه رأي أبي جعفر محمد بن قبة الرازي المتكلم الشيعي المعروف. ويعتقد ابن قبة ان كل هذا الاختلاف في المذهب الشيعي انما هو بسبب الكذابين من الرواة الذين دسّوا في الحديث ما سوّلت لهم أنفسهم وكان الشيعة بسطاء في ثقتهم بهؤلاء، ولم يكونوا أهل رأي وتأمل، ومن هنا أُتهم بعض اصحاب الائمة كزرارة بن اعين، وجميل بن درّاج، وعبدالله بن بكير ويونس بن عبدالرحمن[٢] من قبل السطحيين من الشيعة بالقياس والرأي[٣].

---

(١) الحسن بن الجهم عن العبدالصالح قال: اذا جاءك الحديثان المختلفان فقسهما على كتاب الله واحاديثنا فإن اشبهمها فهو حق وإن لم يشبههما فهو باطل، (وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٢٣، ح ٣٣٣٨١).

(٢) اسد الله التستري، كشف القناع عن وجوه حجية الاجماع ط حجرية، ص٨٢ ـ ٨٣.

(٣) عدنان القطيفي، الرافد في علم الاصول (تقريرات بحث السيد السيستاني) قم، ١٤١٤، ج١ ص١١ ـ ١٢.

مفهوم العقل في الفقه الشيعي

الف: نظرية المجتهدين الاصوليين:

يحتل العقل في المدرسة الفقهية الشيعية مكانه كأحد مصادر التشريع الى جانب الكتاب والسنة والاجماع، ويراد منه هنا منظومة الاحكام القطعية النظرية والعملية. وتتأثر هذه الرؤية تأثراً بالغاً بأفكار المعتزلة، إذ يحتل العقل مرتبة رفيعة لديهم بعكس الاشاعرة حيث يفقد كل اعتباراته ليصبح تابعاً للشريعة.

وفي مدارس كالغرابية، البابية والاسماعيلية ذات الاتجاهات الباطنية لا تتمتع الاحكام العقلية بأي احترام غالباً، ذلك انه وعلى العموم يكون المرشد والشيخ في أعلى الهرم يميز الحق من الباطل وفق نظام التأويل، والاستناد الى مجموعة من المعارف الباطنية، وهنا يفقد العقل قدراته ويصبح عاجزاً عن القيادة. ومن هذا المنطلق لا تجيز الاسماعيلية (الاجتهاد) سواءً في أصول الدين أو فروعه[1].

ومن الناحية التاريخية لم يرد العقل باعتباره منبعاً في التشريع في الاوساط الفقهية الشيعية في العصور الأولى. ومن المؤكد ان أقدم نص في هذا الباب هو كتاب (التذكرة باصول الفقه)[2]، وهو من تأليف محمد بن النعمان البغدادي المعروف بالشيخ المفيد، وهو في الواقع رسالة صغيرة في اصول الفقه، وقد أثبت الشيخ في مطلع رسالته هذه المصادر الرئيسية للاحكام الشرعية فكانت ثلاثة: ١ ـ الكتاب. ٢ ـ السنة. ٣ ـ الروايات المنقولة عن الائمة؛ مضيفاً الى ذلك الطرق التي

---

(١) حميد الدين الكرماني، راحة العقل، ص١٣٧ وص١٩٤ وانظر كذلك: حاشية الكلنبوي على شرح جلال الدين الدواني، ج٢ ص٢٣١.

(٢) ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، عدّة الاصول، مؤسسة آل البيت قم، ١٩٨٣ ج١ ص٥.

توصلنا الى هـذه المصادر ليحددها بما يلي: ١ ـ اللغة ٢ ـ السنة ٣ ـ العقل[١].

ويصرّح الشيخ المفيد بعدم وضع العقل مع الكتاب والسنة بمنزلة سواء، بـل يعتبر وظيفته الاساسية في فهم النصوص الشرعية؛ ونجد رؤيته هذه واضحة في كتابه أوائل المقالات، حيث ينقل اجماع الشيعة على اعتبار النقل المرشد والدليل للعاقل في طريقة الاستدلال؛ وانه لا غنى للعاقل عن النقل، ويتفق الشيعة مع أهل الحديث في هذا المضمار مخالفين المعتزلة والخوارج والزيدية في استغناء العقل عن النقل[٢].

ونجد هذه الرؤية بوضوح أيضاً في أول رسالة له في باب الغيبة حيث المراد من العقل عدم تساويه مع الكتاب والسنة كمصدرٍ معتمدٍ في التشريع، بل الحكم له فقط في الأمور التي يغيب فيها النص الشرعي وليس فيها حضور للامام.

ويعرض المفيد رؤيته بطريقة جدلية عبر التقدم بسؤال اعتراضي: ماذا يفعل المكلف في غياب الامام في الحوادث التي لا يعرف حكمها والى من يرجع في حل نزاعاته الشخصية؟ خاصّة اذا علمنا أن علّة نصب الامام أسـاساً هـي بـيان الاحكام والفصل في النزاعات.

وفي معرض جوابه يشير الشيخ المفيد الى أن غيبة الامام لم تحصل طواعية واختياراً وانما كانت اضطراراً وتقية، وان واجب المكلف في هذه الحالة الرجوع الى علماء الشيعة، فاذا تعذر ذلك وجب العمل بحكم العقل، ذلك ان اللـه لو اراد اليقين في تلك الحادثة لأنزل حكمه فيها وبينه[٣].

ولكن ما هو المراد من العقل؟ يقول الشيخ: ان المراد منه (اصالة الاباحة) أي

---

(١) الشيخ المفيد، المؤلفات الكاملة، ج ٩، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) الشيخ المفيد، أوائل المقالات، المؤلفات الكاملة، ج ٤، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) الشيخ المفيد، رسالة الغيبة، المؤلفات الكاملة، ج ٧، ص ١٣.

انه في ظلّ غياب النص في مسألة ما فان الحكم هو الاباحة ما لم يقم الدليل النقلي على المنع.

ويضيف ان الاعتبار قائم ويمكن الاستناد اليه ما دام الامام غائباً، لأنه في غير هذه الحالة يكون من الضروري الرجوع اليه والعمل وفق حكمه؛ ومن هنا يتفق الشيعة مع الجمهور، ذلك انهم يعتقدون ايضاً انه في الحوادث الواقعة بعد النبي، وفي حالة غياب النص يجب العمل بما يقتضيه الاجتهاد، ولا يمكن التمسك بالاجتهاد والرأي في حضور النبي[1].

ويسوق الشيخ المفيد توضيحاً أكثر في كتابه (تصحيح الاعتقاد) ليذهب إلى أنه ليس أمام العقل ـ وفي حالة غياب النص ـ من كشف شي غير الاباحة[2]، لأنه لا يمكنه الحكم بذلك مستقلاً، فهو عاجز عن اباحة اشياء من المحتمل أن الشرع يحكم باباحتها؛ ويضيف في باب غير المباح ان العقل لا ينفك ابداً عن النقل[3].

ويوضح الشيخ المفيد علّة عدم استقلال العقل عن الشرع انطلاقاً من غياب المنهج الواضح في الشريعة وغياب الدليل العقلي والحسّي، ذلك ان النصوص غالباً ما تحكم بأحكام مختلفة في الامور المتشابهة وبحكم متشابه في الأمور المختلفة، وليس ذلك في مقدور العقل[4].

وقد ذكرنا في بحث التحول في معنى الاجتهاد ان اساطين المدرسة الكلامية في بغداد، وهما الشيخ المفيد والسيد المرتضى قد جهدا في نقد تعاليم أهل الحديث المتطرفين من الذين يتقيدون بظاهر النصوص المنقولة عن الأئمة، وقد

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤.

(٢) الشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد، المؤلفات الكاملة، ج٥، ص١٤٣.

(٣) الشيخ المفيد، التذكرة بأصول الفقه، المؤلفات الكاملة، ج٩، ٤٣.

(٤) السيد المرتضى، الفصول المختارة من العيون والمحاسن للمفيد، ج١ ص٥١.

انطلقوا في نقدهم هذا من اصول اعتزالية لتقديم تفسير عقلاني عن الدين، وقد أوّلت هذه المدرسة أو شككت في نسبة كثير من الاحاديث المروية عن الائمة بسبب تضادها مع العقل.

فالشيخ المفيد يقول بعدم صحة جميع الاحاديث المنسوبة الى الائمة وان كثيراً من الاحاديث نسبت زوراً إليهم، ولذا يرى عدم الأخذ بالاحاديث التي تنسب الى الائمة اذا خالفت احكام العقل لأن العقل يحكم بفسادها[1].

ومع هذا، فعلينا أن نشارك مؤلف كتاب (السلطة، الفكر والمشروعية في الاسلام) رأيه في أن المنهج المعرفي للشيخ المفيد قد انضوى تحت لواء المدرسة الاصولية جاعلاً العقل في منزلة أحد الادلة في احكام الشريعة وبمثابة قاعدة كليّة على الملازمة بين العقل والشرع[2]. مع ان المؤلف المذكور يذعن فيما بعد بان استفادة المفيد من العقل لها جانب دفاعي في الغالب من أجل اظهار انه لا تعارض بين مذهب الامامية واحكام العقل[3].

والمثير هنا ان المؤلف يقع فيما بعد في تناقض عندما يصرح بأن العقل في منهج الشيخ المفيد لا يحتل موقعه كمصدر مستقل، وانما يقوم بدوره الى جانب علم اللغة في تقييم مضامين المصادر أو الأصول الثلاثة وتوضيحها[4]، ولكن الانصاف يدعو الى أن نذكر ان المؤلف ذكّر ـ ومن خلال مجموع تأملاته في آثار الشيخ المفيد، السيد المرتضى، والشيخ الطوسي ـ بحضور العقل البارز في منهج الاجتهاد[5].

---

(١) الشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد، المؤلفات الكاملة، ج ٥، ص ١٤٧.

(٢) داود فيرحي، السلطة الفكر والمشروعية في الاسلام، منشورات ني ١٣٧٨، ص ٢٧٠ (بالفارسية).

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

ولكنه يخلط فيما يبدو بين معنيين للعقل، بين: (العقل باعتباره مصدراً مستقلاً في التشريع) و(العقل باعتباره منهجاً معرفياً) والظاهر أن المسألة تتعلق بـالعقل بمعناه الأول لا الثاني، ونقطة أخرى اشار اليها المؤلف في كتابه المذكور في بحثه حول مفهوم العقل وهي ان العقل في العهود الوسيطة استخدم بمفهومين مختلفين الأول باعتباره احد الادلّة الشرعية ودليلاً مستقلاً كالكتاب والسنة، والآخر أُخِذ كمجموعة من الأصول العملية كأصل البـراءة والاسـتصحاب وغـيرهما حـيث يستفاد منه عملياً. وهذان المفهومان واجها خلطاً لدى المتقدمين[1]. ولكن يبدو أن هذه الرؤية العلمية تجانب الصـواب؛ ذلك ان العـقل بـمعناه الأول (المـصدر المستقل في التشريع) والذي اشار اليه المؤلف انما هو وليـد العـهود المـتأخرة، وأن العــقل لدى المــتقدمين كــان له مــعنى واحـد وهـو الاصـول العـملية كالبراءة والاستصحاب.

وعلى كل حال وانطلاقاً من مقولات الشيخ المفيد يمكن الاستنتاج أولاً بأن العقل لم يكن منبعاً مستقلاً في التشريع على غرار الكتاب والسنة، وثانياً: ان حكم العقل لا يستمد اعتباره الاّ في حالة غياب الامام المعصوم و(فقدان النص) ولذا فهو يفقد اعتباره في ظل حضور الامام، وعلى المكلف حينئذٍ مـراجـعة الامـام نفسه، وثالثاً: ان المراد من العقل هو الأحكام الضرورية من قبيل وجوب شكـر المنعم وقبح الظلم أو مجموعة من الاصول العملية من قبيل (اصالة الاباحة عند فقدان النص).

واعقب الشيخ المفيد تلميذه السيد المرتضى في بيان دور العقل فـي دائـرة التشريع ومنزلته على هـذا الصـعيد، فـقد صـدّر رسـالته (جـوابـات المسـائل

---

(١) المصدر نفسه.

الطرابلسيات الثالثة) بالحديث عن ضرورة وجود الامام في كل زمان من أجل حفظ الشريعة وإجراء الحدود الالهية، ثم تحدث عن مجموعة من الاحكام الشرعية في ما لم يرد فيه نص مشيراً إلى أن كل الاحكام الشرعية اجمالاً وتفصيلاً تمتلك الدليل، وذلك في سياق الرد على اعتراضات من يقول بمحدودية النص القرآني ولا نهائية الحوادث الواقعة؛ وأن أغلب الروايات المنقولة عن الائمة انما هي أخبار آحاد لا تؤدي الى العلم، ولا تفيد سوى الظن، وأن التعبد بخبر الواحد محالٌ عقلاً على رأي حتى فريق من الإمامية أنفسهم، بل حتى لو كانت الروايات المروية عن الائمة متواترة فهي بالتالي محدودة أيضاً، فكيف يمكن من خلالها الحكم على الحوادث وهي غير محدودة؟!

ويرد المفيد على هذه الاعتراضات بان النصوص القرآنية وإن كانت محدودة بيد أنها قادرة على الاستجابة للحوادث اللانهائية، مستشهداً بالحديث المروي عن الامام علي الذي يرد فيه أن رسول الله علمه ألف باب من العلم ينفتح له من كل باب الف باب؛ ولذا فان أية حادثة لا بد وان يكون لها حكم اجمالي أو تفصيلي، أما في الحوادث التي لم يرد فيها حكم من المصادر الثلاثة فيتوجب الرجوع الى العقل وسيكون حكمه حكم الله حينئذٍ، وهذا ما تحدث عنه بالتفصيل في رسالته: (جواب المسائل الحلبية)[1] وكذا ما ذكره السيد المرتضى ايضاً في رسالته (جواب المسائل الموصليات الثالثة) في معرض الجواب عن الحوادث التي تفتقد النص؛ فقد أشار في معرض حديثه عن موقف الشيعة والمنهج المتبع في بيان الحكم... الى وجود حكم شرعي لكل الحوادث إما من خلال الاجماع الذي يستلزم دخول رأي الامام فيه أو عن طريق النصوص في الكتاب والسنة. ومع

(١) السيد المرتضى، جوابات المسائل الطرابلسيات الثالثة، الرسائل ج١، ص٣١٦ ـ ٣١٧.

هذا ففي الحوادث التي يفترض عدم وجود اجماع فيها ولا نص شرعي يتعلّق بها يتوجب العمل بما يقتضيه العقل[١].

ويشير في مناسبة أخرى الى أن الاجماع طريق لمعرفة الاحكام، ذلك انه يوجب العلم حسب رأيه، غير أنه في حالة فقدان النص يتوجب مبدئيّاً الرجوع الى حكم العقل بالاستفادة من منهج (السبر والتقسيم) عبر انتخاب وجهٍ بعد ابطال الوجوه المحتملة الأخرى في المسألة، وهكذا يحصل الحكم الواقعي، ولكن السيد المرتضى يصرّح بأنّ مجال العمل بمقتضى هذا المنهج إنما يكون في حالة فقدان الاجماع والنص فقط لا غير[٢].

وعلى أساس ما ورد أعلاه يمكن استنتاج ان (العقل) في رأي السيد المرتضى ليس ردفاً للكتاب والسنة بل وحتى لا يمكن الرجوع اليه الاّ في حالة فقدان النص والاجماع، فالعقل هنا يتراجع ـ كما ذكرنا سابقاً ـ الى موقعه باعتباره مجموعة من الاصول النظرية والعملية من قبيل (اصل الاباحة).

وهكذا الشيخ الطوسي الذي يجعل من العقل طريقاً لمعرفة النقل[٣].

وعلى هذا يمكن القول ان الشيخ الطوسي لا يمنح العقل اعتباره كمنبع مستقل في معرفة الاحكام الشرعية وانما يراه طريقاً لمعرفة الادلّة الشرعية لا دليلاً مستقلاً في ذلك[٤].

ويرى حمزة بن علي بن زهرة الحلبي (م ٥٨٥ هـ) ذلك أيضاً في كتابه (غنية النزوع الى علمي الاصول والفروع) بعد بيانه هذا الموضوع، حيث يحصر طريق

---

(١) السيد المرتضى، جواب المسائل الموصليات الثالثة، الرسائل ج ١ ص ٢١٠.

(٢) الشريف المرتضى، مناظرة الخصوم وكيفية الاستدلال عليهم الرسائل، ج ٢، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٣) أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، عدة الاصول، ج ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٤) رشدي محمد عرسان عليّان، العقل عند الشيعة الامامية، دار السلام بغداد ١٩٧٣ ص ٩٠.

المعرفة بالأوامر والنواهي الالهية الواردة في (النصوص الشرعية)، أمّا الاحكام التي لا يمكن التوصل اليها عن طريق النقل فيرى مشروعية الحكم العقلي فيها جاعلاً إيّاه بمنزلة قول المعصوم.

ويردّ ابن زهرة على اشكالية الحاجة الى الدليل العقلي في وجود الشرع، بقوله: ألاّ اشكال في التوارد على أمر واحد، كما هو الحال في أدلة اثبات قدم ووحدانية الله؛ إذ لا يوجب الاستناد الى قسم من هذه الادلة بطلان الادلّة الأخرى[1].

ويرى قسم من الباحثين منهم رشدي عليان في كتابه (العقل عند الشيعة الامامية) ان الشيعة الامامية أول من أفرد للعقل موقعه كمنبع مستقل في التقنين بعد الكتاب والسنّة والاجماع، صرح بذلك محمد بن ادريس الحلّي (المتوفى ٥٩٨ هـ) اذ أورد في كتابه (السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي) أن المحققين يرون التمسك بالدليل العقلي في الكشف عن الحكم الشرعي في حالة فقدان الكتاب والسنة والاجماع[2].

وبالرغم من التوضيحات التي يسوقها ابن ادريس، فانه يقصد بالدليل العقلي (أصل البراءة) الذي يعني نفي الحكم في حالة فقدان النص، وهو بهذا يشاطر الغزالي رأيه في كتابه المستصفى[3].

ويأتي بعده ابو القاسم جعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلّي (المتوفى ٦٧٧ هـ) ليورد في كتابه (المعتبر في شرح المختصر) خمسة مصادر للتشريع هي:

---

(١) حمزة بن علي بن زهرة الحلبي، غنية النزوع الى علمي الاصول والفروع، مؤسسة الامام الصادق، قم، ج١، ص٢٦٦.

(٢) محمد بن منصور بن احمد بن ادريس الحلّي، السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، مؤسسة النشر الاسلامي، التابعة لجماعة المدرسين، قم، ج١، ٤٦.

(٣) الغزالي، المستصفى من علم الاصول، ج١، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

١ ـ الكتاب ٢ ـ السنة ٣ ـ الاجماع ٤ ـ العقل ٥ ـ الاستصحاب.

ويقسم الدليل العقلي الى قسمين: الاول الحكم الذي يستنبطه العقل من الدلالة اللفظية كالقياس والأولوية و... والثاني الحكم الذي يدركه العقل بشكل مستقل من قبيل قبح الظلم والكذب، ووجوب ردّ الامانة[1].

وبعد بحثه حول الاستصحاب يعمد المحقق الحلّي إلى تقسيمه الى ثلاثة أقسام هي: ١ ـ اصل البراءة الأوّلية ٢ ـ استلزام فقدان الدليل على شي اباحة ذلك الشيئ ٣ ـ استصحاب الدليل الشرعي.

وما يثير الانتباه هنا ان المحقق الحلّي ـ وعلى خلاف ابن ادريس ـ يميز بين (دليل العقل) و(الاستصحاب) غير انه لا يفصح عن مراده من (دليل العقل) في مقابل (الكتاب) و(السنة) وما هي خصائصه. ويواصل الحلّي معالجاته على صعيد بعض الموضوعات التي لا يبدو أنّها ذات صلة بمعنى العقل الذي نبحث، ولا يعدو ما يتحدث به سوى الوضع والدلالات اللفظية وبعض المستقلات العقلية[2].

وقد أعقب ذلك ظهور الحسن بن يوسف بن المطهر المشهور بالعلامة الحلّي والمتوفى (٧٢٦ هـ) فأشار في كتابه (أجوبة المسائل النهائية) الى ان ادلة الاحكام في مذهب الامامية تنحصر في الكتاب والسنة (الاخبار المتواترة والآحاد) والاجماع والدليل العقلي مثل أصل البراءة، والاستصحاب والاحتياط[3].

ومع هذا لا يبحث في كتابه "تهذيب الاصول" الدليل العقلي بشكل مستقل، وانما يعدّد ادلّة العقل في المقصد الحادي عشر، وفي بحثه شروط الاجتهاد كأصل

---

(١) جعفر بن الحسن الحلّي، المعتبر في شرح المختصر، منشورات مؤسسة سيد الشهداء، قم ١٣٦٤ ج١، ص٢٨.

(٢) رشدي عليان، العقل عند الشيعة الامامية، ص٩٢.

(٣) الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي، أجوبة المسائل النهائية، مطبعة خيام، قم، ١٤٠١، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

البراءة والاستصحاب ليجعل معرفتها من وظائف المجتهد[١].

ويأتي بعد ذلك محمد بن مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول (المتوفى ٧٨٦ هـ) على خطى سابقه المحقق الحلّي. فيشير في مقدمة كتابه (القواعد والفوائد)[٢] وفي مقدمة كتابه (ذكرى الشيعة في احكام الشريعة)[٣] الى مصادر الفقه الشيعي الاربعة، ذاكراً اقسام الدليل العقلي، مفصلاً آراء المحقق الحلّي مع اختلاف، وذلك في عدم اعتباره الاستصحاب دليلاً مستقلاً وانما عده في زمرة الادلّة العقلية هذا أولاً، وثانياً يفسح مجالاً في الادلة العقلية لمبحثين أصوليين (مقدمة الواجب، ووجوب الشي مستلزم للنهي عن ضده).

ومع كل هذا، فان الشهيد الأول ـ كسلفه المحقق الحلّي ـ لا يعد العقل مصدراً مستقلاً في التشريع.

وجاء زين الدين بن علي العاملي المشهور بالشهيد الثاني (المتوفى ٩٦٥ هـ) فبيّن المقدمة الضرورية للاجتهاد وذكر منابع الاحكام، وحصرها في الكتاب والسنة، وفي حالة فقدانها يأتي دور (دليل العقل)، ويشير الشهيد الثاني الى آراء طائفة من العلماء ممن يعتقدون بان الدليل العقلي في الاحكام الشرعية يشتمل على: البراءة، الاستصحاب والقياس، ومع بطلان القياس فان الدليل العقلي سيقتصر فقط على القسمين الاولين، وبالتالي فان الشهيد الثاني يصرح بجلاء بأن المنابع المعتبرة في التشريع: (الكتاب)، (السنة) و(العقل) وأما (الاجماع) فانه بمفرده فاقد للاعتبار[٤].

---

(١) الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي، تهذيب الوصول الى علم الأصول، نسخة مخطوطة، مكتبة الكلبايكاني، رقم ١٤٠٩.

(٢) محمد بن مكي العاملي، القواعد والفوائد، منشورات منتدى النشر، النجف الاشرف، ج ١، ص ٧٤.

(٣) محمد بن مكي العاملي، ذكرى الشيعة لإحكام الشريعة، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ج ١، ص ٥٢.

(٤) زين الدين علي بن احمد العاملي، حقائق الايمان (رسالة الاقتصاد والارشاد الى طريقة الاجتهاد في ←

ويتلو الشهيد الثاني فقهاء كالمحقق الكركي في رسالته (استنباط الاحكام)[١] والشيخ البهائي (المتوفى ١٠٣١هـ) في (زبدة الاصول)[٢]، وعبد الله بن محمد التوني (المتوفى ١٠٧١هـ) في (الوافية في اصول الفقه)[٣] ليجعلوا من الدليل العقلي: أحد المصادر الأربعة في التشريع، ولكنهم ـ كسلفهم الشهيد الأول ـ يقتصرون فيه (الدليل العقلي) على طائفة من الأصول اللفظية أو العملية.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن هذه الطائفة من القواعد العملية والتي عرفت فيما بعد بـ(الأصول العملية)[٤] قد اندمجت بشكل مشوّش بدليل العقل إلى جانب مجموعةٍ من الموضوعات التي باتت تشتهر اليوم باسم المستقلات وغير المستقلات العقلية، الأمر الذي أدّى بدوره الى أن يتخذ مفهوم العقل شكلاً أكثر إبهاماً وغموضاً.

وقد قدم الفقهاء المتأخرون نظريات مختلفة حول الدليل العقلي يمكن تصنيفها في قسمين:

١ ـ قسم من الفقهاء لا يورد الدليل العقلي ضمن سائر الادلة الأخرى، وباستثناء بعض الموارد لم يبحثوا العقل بشكل مستقل، ومن الفقهاء في هذا القسم

← معرفة الهداية والمعاد واحكام افعال العباد)، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٩ ص١٨٨ ـ ١٩٠. وص١٩٤ ـ ١٩٦، وكذا انظر كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ط أوفسيت قم، ج ٣، ص٦٥.

(١) علي بن الحسين الكركي (المحقق الثاني)، رسائل مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٢، ج٣ ص٤٠، ٤٩.

(٢) زبدة الاصول، نسخة مخطوطة، مكتبة الكلبايكاني رقم ٨١٧٦ الورقة ١٨.

(٣) عبدالله بن محمد التوني، الوافية في اصول الفقه، مجمع الفكر الاسلامي، قم ١٤١٢، ص١٧١ وما يليها.

(٤) اشارة إلى أن لفقه الشيعة أربعة مصادر، القرآن، السنة، الاجماع والعقل، والهدف الأساسي لعلم الاصول الدلالة على كيفية استخراج الاحكام الفقهية من المنابع أعلاه، ومع كل هذا، وفي بعض الموارد، لا يمكن أخذ الاحكام الفقهية من هذه المصادر مباشرة، وقد وضعت اصول كلية خاصّة لمثل هذه الموارد دعيت بالاصول العملية، مقدمة على فقه الشيعة ص١٦.

حسن بن زيد الدين (المتوفى ١٠١١هـ) والشيخ مرتضى الانصاري (المتوفى ١٢٨١ هـ) ومحمد كاظم الخراساني (المتوفى ١٣٢٩).

٢ ـ وفي مقابل المجموعة الأولى نهض فقهاء آخرون لتحديد ماهية الدليل العقلي وحدوده في دائرة التشريع، رغم كل الاختلاط الذي وقع بين العقل وموضوعات لا تمتّ إليه بصلة، ويبرز في هذه المجموعة من الفقهاء كل من السيد محسن الأعرجي (المتوفى ١٢٢٧ هـ) صاحب كتاب المحصول في علم الأصول، ومحمد تقي الاصفهاني (المتوفى ١٢٤٨هـ) مؤلف كتاب هداية المسترشدين في شرح معالم الدين، محمد حسين بن محمد رحيم الاصفهاني (المتوفى ١٢٤٨هـ) مؤلف كتاب (الفصول في علم الاصول) وأخيراً ابو القاسم بن حسن الجيلاني المشهور بالميرزا القمي (المتوفى ١٢٣١هـ) مؤلف كتاب (قوانين الاصول).

ب: نظرية الاخباريين:

وفي مقابل فهم الفقهاء الاصوليين للعقل تبرز نظرية الاخباريين التي تلغي العقل، ليس في اعتباره مصدراً من مصادر التشريع المعتبرة، بل حتى في حالة غياب الدليل الشرعي أيضاً[١] بل أن قسماً من الاخباريين يحصر الاعتبار في دلالة (السنة) فقط، ذلك ان أي فهم للكتاب مرفوض الاّ عن طريق الائمة[٢].

ويبرز اسم يوسف البحراني هنا كمنظّر للاتجاه الاخباري، وقد اشتهر باعتداله بسبب اقتراب آرائه الفقهية من آراء الفقهاء الاصوليين، وهو يعتقد ان المجتهدين الاصوليين يقدمون استنباطاتهم العقلية في الشريعة على الادلة النقلية، فإذا كان

(١) انظر في هذا الموضوع:
ـ محمد امين الاسترابادي، الفوائد المدنية ص٥٦.
ـ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، الفوائد الطوسية، ص٣٥ (فائدة ٧٩).

(٢) عبدالله بن صالح السماهيجي، منية الممارسين في اجوبة مسائل الشيخ ياسين، نسخة مخطوطة ورقة رقم ٤٨.

المراد من الادلّة العقلية مجموعة البراهين أو الاستدلالات النظرية التي هي معتبرة لدى الجميع فان الجواب على ذلك هو نفي وجود هكذا استدلالات أصلاً. ذلك أن مراتب الادراك البشري ـ كما نعرف ـ متفاوتة، وكل واحد من العقلاء يستند الى قسم من الادلّة التي قد يرفضها الكثيرون في نفس الوقت.

فليس اعتباطاً ان يعترف الفخر الرازي بانه لو ارتقى مجموع الاستنباطات العقلية كما هو المشهور الى مستوى (البرهان) لأدّت الى اليقين ولأضحت مقنعة للجميع لا يعترض عليها أحد أو يحاول نقضها، لكنّ البراهين عموماً لا تؤد الى اليقين ولا تبعث على الطمأنينة، بل ان كل فرقة تسعى لإثبات نظريتها بحذف النظرية المنافسة، وخلاصة القول: ان البرهان لا يعدو ان يكون مجموعة من الاستحسانات العقلية التي تنهض على بعضها البعض دون أن تمنحنا سوى الظن.

اما اذا كان المقصود من الدليل العقلي الأمور الفطرية أو الضرورية فمن المؤكد ان هكذا عقل سيؤدي الى اليقين وسيكون موافقاً للشريعة. وكما جاء في كثير من الروايات فإن هذا القسم من العقل رسول باطني ـ في مقابل الرسول الظاهري وهو النبي ـ يمثّل المعيار الاساس في قيمة الانسان[1]، شريطة ان يكون في مأمن عن كل المؤثرات كالظنون الباطلة والأوهام الفاسدة وأشكال التعصب. وفي هذه الحالة فقط يمكن أن يكون العقل حجة الهية موصلةً لليقين.

من جهة أخرى من الضروري أن نذكر ان الاحكام الفقهية سواء في العبادات أو في غيرها هي جميعاً توقيفية مرهونة بالنقل. وكثير من الروايات أيضاً وبخاصّة مشهورة عمر بن حنظلة تمنعنا صراحة من ابداء أية فتوى أو إعمال الرأي، وهذا ما يعبّر عن عجز العقل عن استنباط الحكم الشرعي؛ وعلى هذا الاساس فان

(١) يعدّ محمد الحسن الحرّ العاملي نفس هذه الروايات بلحاظ السند ظنية وغير معتبرة، وبلحاظ المتن مبهمة وغير صريحة أو موافقة لأهل السنة ـ يعني بسبب التقية ـ (الفوائد الطوسية ص٣٥١).

وظيفة العقل في دائرة التشريع لا تعدو أن تكون متابعة الأوامر الالهية. أما في القضايا غير التوقيفية أي في دائرة البديهيات من قبيل (الواحد نصف الاثنين) فان حكم العقل معتبر ويؤدي الى اليقين[١].

وعلى أية حال فان نظرية الاخباريين حول العقل تستند الى ثلاثة أركان:

١ ـ تفسير (العلم) بالاعتقاد القطعي أو الجزمي المطابق للواقع[٢]، وهذا التفسير متأثر صراحة بالمنطق اليوناني ولا يمت بصلة الى الاستخدام الديني للمفردة ولا ذاك اللغوي، وهو كذلك يجعل من العلم أمراً ذا مراتب يشتمل حتى الاحاديث غير المتواترة ـ التي تدعى الخبر الواحد ـ ذلك ان هذه المجموعة من الروايات وإن كانت لا توصل الى اليقين الاّ أنها وبسبب بعض المؤشرات العلمية والعملية تبعث على الطمأنينة[٣]، ومن جهة أخرى أدّى هذا التفسير بجميع العلوم العقلية ـ كالكلام، الفلسفة، المنطق وحتى اصول الفقه والتي تستند الى الاستدلالات النظرية والظنية وتفتقد حالة القطع والطمأنينة ـ إلى فقدانها الاعتبار والقيمة جملة وتفصيلاً[٤].

٢ ـ كمال وشمولية الشريعة، أي ان لله حكماً معيناً في كل أمر.

ما يجدر الانتباه اليه هنا هو ان عموم الشيعة ـ وبخاصّة الاخباريين ـ يعتقدون بأن كمال الشريعة وشموليتها لا يكون الاّ من خلال الامام، وانطلاقاً من علمه وعصمته، أي أن الله سبحانه قد جعل لكل حوادث العالم احكاماً معلومة من قبل، غير أن غالب هذه الاحكام مستورة، والامام وحده هو الذي يظهر هذه

---

(١) يوسف بن احمد البحراني، الحدائق الناضرة، ج١، ١٢ ـ ١٣٣ (المقدمة العاشرة)؛ وكذا الدرر النجفية ط حجرية، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ص١٤٥ ـ ١٤٨.

(٢) عبدالله بن صالح السماهيجي، منية الممارسين في اجوبة الشيخ ياسين، ورقة رقم ٤٨.

(٣) حسين بن شهاب الدين الكركي، هداية الابرار الى طريق الائمة الاطهار، مؤسسة احياء الاحياء ص١٣.

(٤) مرتضى الانصاري، فرائد الاصول، مؤسسة النشر الاسلامي (جماعة المدرسين)، ١٣٦٥، ص١٥ و٢١.

الاحكام، ان علم الائمة ـ باعتبارهم ورثة الانبياء ـ هو ذاته المعنى الباطني للوحي الالهي الذي لا يأتي عن طريق (القياسات المنطقية) بل هو علم موروث لا يمكن نقله الى شخص آخر. إن للأئمة إحاطة بكل العالم، كما ولديهم في كل (حادثة) حكم قطعي.

وعلى أساس هذا اللون من التفكير، تطفح العالمَ سيول الدلائل والاحكام الالهية التي هي عين الواقع، غير ان بعضها ظاهر (مبيّن) (تم بيانه بواسطة الائمة)، فيما لبعضها الآخر وجود خاف (مجمل)، والكشف عن هذا القسم من الاحكام يكمن فقط في العلاقة بين الأمر المجمل والأمر المبيّن. لا أن نستنبط أو نخترع أحكاماً جديدة متجاوزين الدلائل والادلّة الموجودة في دائرة الكتاب والسنة (تعاليم الائمة)[1]. ذلك أنه وفي هذه الحالة لن يؤدي سعي الفقيه إلى الكشف عن حكم الواقع، بل سيكون عمله شكلاً من الابداع (الاجتهاد)]ومن هنا نشأ التقابل بين مفردتي السنة والبدعة، ليحتل مساحة واسعة في التراث الاسلامي.[

٣ ـ أصل (التقية) وهي في اللغة: حفظ الشي مما يؤذيه ويضرّه، وهي عند البعض: اخفاء الحق ومصانعة الناس في غير دولتهم تحرّزاً من التلف، وبسبب الجو السياسي وضغوط الاجهزة الحاكمة المنتمية مذهبياً الى المذهب السني، عمد الائمة الى انتهاج مبدأ التقية في اخفاء معتقداتهم اتّقاءً للخطر، كما دعوا شيعتهم الى العمل بالتقية لتصبح مع مرور الزمن واحدة من خصائص المذهب الشيعي.

وينظر الاخباريون الى مبدأ التقية من زاويتين:

الأولى: من خلال ردّهم على الاشكال الوارد حول وجود التقية في الكثير من الروايات المنقولة عن الائمة الأمر الذي سبّب تشويشاً جاداً حول مدلول أي

---

(١) وفي هذه الحالة المراد من العقل، شكل من الذاكرة الجمعية من الحديث الموروث الذي يتذكر عن طريق التكرار المستمر.

منها؛ ذلك أن صدور الرواية قد لا يعبر عن بيان حكم حقيقي، وانما تقية وصيانة للنفس ودفع خطر احكام الجور عنها[١]، ومن هنا نجد هذا التضارب بين روايات الآحاد في المسألة الواحدة. وانطلاقاً من هذا أيضاً اتخذ المجتهدون الاصوليون موقف الشك والترديد ازاء حجية الاحاديث الواردة في الكتب الاربعة واعتبروها غير (قطعية الصدور)[٢].

والاخباريون بدورهم وفي معرض الرد على هذا الاشكال أعلاه ـ واضافة الى اعتبارهم الكتب الاربعة قطعية الصدور ـ لم يعدّوا التقية عاملاً مساهماً في سلب الاعتبار عن الاحاديث أو اعتبارها ظنية في المعنى، وقد صرّح كل من عبدالله السماهيجي ويوسف البحراني في هذا المضمار بأنّ الاختلاف الموجود في الروايات أو صدور الاحكام المتعددة حول المسألة الواحدة لم يكن ناجماً عن وضع الاحاديث وتزويرها، وانما قام الائمة أنفسهم بذلك عن وعي ومصلحة بغية خلق حالة من الاختلاف بين الشيعة حول قضية واحدة، وإبداء احكام متعددة لها من أجل اسقاط اعتبارهم لدى العدو، وبالتالي حمايتهم من الأذى وعاديات الحكام، وبالنتيجة فان وجود التقيّة لا يسلب من الروايات والاخبار حجيتها واعتبارها[٣].

---

(١) محي الدين الغريفي، قواعد الحديث، مكتبة المفيد، قم، ص١٣١.

(٢) بحثت قطعية أو عدم قطعية روايات الكتب الاربعة الحديثية في كثير من الكتب ذات الاهتمام بمسألة الدراية والرجال. انظر على سبيل المثال: أبو القاسم الخوئي، معجم رجال الحديث، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٩ج١ ص١٧ ـ ٣٦.

(٣) يوسف بن احمد البحراني، الدرر النجفية، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ص١٦٢ ـ ١٦٥، وكذا منية الممارسين، ورقة رقم ٥٥، اذ يذكر في هذا المضمار بعض الاحاديث منها: «قد قيل للصادق عليه السلام: اني خلفت اصحابك مختلفين.. قال أنا خالفت بينهم، ثم يقول: انه اذا كان الاختلاف من الائمة وكان ذلك بسبب التقية فلا يرد اشكال. طبعاً هكذا اختلاف يفرق مع الاختلاف في المسائل الاجتهادية التي تنهض على بعض من أصول الفقه العامة، والقواعد العقلية في الاستنباط.

الثانية: وهي زاوية بالغة الأهميّة، وتتصل بالبعد المعرفي لاستنباط الأحكام الشرعية، ذلك أن الاخباريين ـ وفي بحثهم حول أصل مشروعية استنباط الحكم وكيفيته ـ يعدّون وجود عنصر يدعى التقية عاملاً ردعياً أو محدِّداً؛ بمعنى اننا لو قبلنا: (بأن كل واقعة الى يوم القيامة لا تخلو من حكم شرعي ظاهراً كان أم مستوراً) فكيف يمكن ـ كسائر المجتهدين الاصوليين ـ الاستناد الى (اصالة العدم)؟!

ويتوسّل فقهاء النظام الحقوقي لأهل السنة ـ ومن أجل اثبات حكم شرعي في قضية ما وبعد اليأس من العثور على حكم قطعي لها في الكتاب والسنة ـ بمجموعة من القواعد العقلانية من قبيل القياس والاستحسان، معالجين بذلك النقص الحاصل في المصادر التشريعية، وغالباً ما يتم هذا بالاستناد الى (اصالة العدم)، أي ان عدم العثور على حكم قطعي أو دليل شرعي لقضية ما يدلّ على عدم وجوده، وبهذا تتبلور قاعدة (عدم الوجدان يدلّ على عدم الوجود). أما في النظام الحقوقي للشيعة فان التمسك بهذه القاعدة يواجه اشكالاً جاداً؛ ذلك أنه، وكما ورد في الروايات، لا توجد واقعة جزئية كانت أم كليّة الاّ ولها حكم شرعي، غير أنه وبسبب الظروف الصعبة التي عاشها الائمة جرى الاحتفاظ بها انتظاراً لظرف مناسب يمهد لبيانها. ومن هنا فان عدم صدور حكم معين من قبل الائمة لا يدلّ على عدم وجوده أبداً، بل ان الظروف هي التي حالت دون صدوره وبيانه، وبهذا يعاد تشكيل القاعدة: (عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود).

وخلاصة القول، وانطلاقاً من مرتكزات الشيعة، لا يمكن للفقهاء في حالة عدم عثورهم على حكم قطعي لمسألة ما التمسك ببعض الاصول الاجتهادية أو

العقلية[١].

وهنا، يعمد الاخباريون ـ بغية تفادي اشكاليّة عدم جواز تأخير بيان طائفة من الاحكام[٢] لما ينجم عن ذلك من عسر وحرج وعدم انسجام ذلك مع كثير من الروايات التي تفيد وجوب تبليغ العلم وحرمة كتمانه ـ الى الاشارة الى التقية كمبدأ يجيز التأخير في بيان الاحكام، وان ذلك لا يستلزم أي عسر وحرج، إذ يمكن التمسك بالاحتياط في حالة عدم صدور الحكم الشرعي. وأما فيما يرتبط بالروايات الدالة على حرمة كتمان العلم فقد وجد الأخباريون في مقابلها روايات أخرى تسوّغ كتمان العلم والتأخير في بيانه[٣].

---

(١) يوسف بن احمد البحراني، الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٤٥.

(٢) اشارة الى القاعدة المعروفة "لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة"، ويذكر الشيخ عبدالله السماهيجي هذه القاعدة كأحد وجوه تمايز الاخباريين عن المجتهدين؛ بمعنى ان الاخباريين يقولون بجواز التأخير، أما عموم المجتهدين فيقولون بعدم جواز ذلك. (منية الممارسين، وانظر كذلك أجوبة مسائل الشيخ ناصر الجارودي، نسخة مخطوطة، مكتبة المرحوم المرعشي النجفي، رقم ٦٣٢٢).
يقول محمد أمين الاسترابادي في هذا المضمار: إن وظيفة الشارع وطبقاً لقواعد المذهب الاخباري أحد أمرين، اما بيان مراده في وقت الحاجة أو نصب شخص يقوم بشرح وبيان الاحكام الشرعية.
والشارح المنصوب من قبل الله ايضاً لا يجب عليه ذلك قبل أن يُسأل، وحتى لو سئل احياناً فانه لا يجب عليه (الجواب) رعايةً لبعض الضرورات (حاشية محمد امين الاسترابادي على معارج الاصول للمحقق الحلّي، نسخة خطية، مكتبة المرحوم ملك رقم ١٠١٣ ص٨).

(٣) يوسف بن أحمد البحراني، الحدائق الناضرة، ج ١، ص ١٦٠ ـ ١٦١، وينقل عبدالله السماهيجي في هذا المضمار حديثاً عن الامام الباقر في تفسير آية "فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" في ان بيان الاحكام انما هو وظيفة الائمة غير انها واقعة في دائرة صلاحياتهم (يعني انه لا يجب عليهم تقديم اجابة على كل سؤال) ويشير الى الاختلاف في الاراء بين الاصوليين والاخباريين، ويستند الى بعض الروايات الواردة عن الائمة في جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة. ثم يقول انه حتى الشيخ سليمان بن عبدالله الماحوزي]الذي له آراء قريبة من المذهب الاخباري [يعتقد انه لو نقل ألف حديث حول جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، فلا ينبغي العمل بمفادها، لان القول بالجواز يتعارض مع الادلّة النقلية والعقلية، ويضيف السماهيجي بعد ذلك ان كلامه حالة من الاجتهاد في مقابل النص، لأن عدد النصوص كثير أيضاً.
والسماهيجي، ومن أجل ايجاد حالة من التوافق بين الروايات الدالة على حرمة كتمان العلم وتلك الدالة ←

وكما لاحظنا، بدت إلى جانب مشكلة (محدودية الاحكام ازاء لا نهائية الحوادث) ظاهرة أخرى هي: (تعليق بيان الاحكام الشرعية)، والتي يستدعي فهمها تقديم مشهد اكثر دقة عن الاسس المعرفية للفقه الشيعي الأمر الذي يستدعي هو الآخر الالتفات الى قضية غيبة الامام الثاني عشر وآثارها الكلامية.

وعلى أية حال فقد سوّغ الفقهاء الاصوليون ـ وبعكس الاخباريين ـ الافادة من بعض الاصول العقلية حالةَ فقدان الدليل على الحكم الشرعي، وسرعان ما تحولت هذه المسألة ـ التي عرفت فيما بعد بأصل البراءة أو البراءة العقلية ـ إلى محورٍ للجدل بين الاخباريين والاصوليين[١].

(الحسن والقبح العقليان) و(المستقلّات العقلية)

طرح عموم الفقهاء العقل بوصفه مصدراً مستقلاً في التشريع، ونشأ عن ذلك مبدأ (الحسن والقبح العقليين)، وفيما بعد (قاعدة الملازمة) أي استنتاج حكم شرعي من آخر عقلي منطلقاً في الاستناد كدليل. وفي الوقت الحاضر يقسم فقهاء الامامية مباحث الدليل العقلي الى قسمين رئيسيين:

١ ـ المستقلات العقلية.

٢ ـ غير المستقلات العقلية.

← على جواز الكتمان، يشير ـ وبالاضافة الى اعتبار روايات المجموعة الأولى عامّة وروايات المجموعة الثانية خاصّة ـ الى رأي جاء في حاشية اصول الكافي حول امكانية العمل بالمناهج الدالة على وجوب تبليغ العلم وحرمة الكتمان في حالة عدم ترتب مفسدة أو ضرر في ذلك، لأنه في حالة حصول ضرر أو ترتب مفسدة تقدم الروايات الدالة على جواز الكتمان على تلك الدالة على وجوب التبليغ. (منية الممارسين، ص١٤٦).

(١) الوحيد البهبهاني، الرسائل الاصولية، ص٣٤٩ ـ ١٣٨٢ (باب فيما لا نص فيه).

والمقصود من المستقلات العقلية مجموعة الاحكام التي بامكان العقل بمفرده استنتاجها، بخلاف غير المستقلات العقلية التي هي قضايا أو أحكام ليس بمقدور العقل وحده استنتاجها، بل انه يستمد من الشرع العون من أجل ذلك.

وسنبحث في قسم المستقلات العقلية مسألتين، ترتبط احداهما بالدائرة الكلامية، فيما تحمل الأخرى صبغة فقهية، وهي لذلك مطروحة عموماً في كتب علم الاصول.

المسألة الأولى وهي المسألة التي اشتهرت بـ(الحسن والقبح العقليين)، فمنذ القدم راود المتكلمين هذا السؤال: هل ان الافعال الارادية للانسان تتصف، وبغض النظر عن الحكم الشرعي، بالحسن والقبح؟ وهل ثمة منبع أو دليل مستقل غير الشرع في تحسين أو تقبيح الافعال؟ ام ان (الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبحه)؟ وبعبارة أكثر دقة هل أن طريق معرفة الاحكام محدود بدائرة (الشريعة) أو مضاف اليها؟ وهل أن الأحكام القطعية للعقل النظري والعملي تتمتع بالاعتبار أيضاً؟

المسألة الثانية في أفق هذه النقطة هي: على افتراض ان الافعال قابلة للاتصاف بالحسن والقبح، ومع التصديق بأن العقل يمكنه وبدون الاستمداد من الشريعة تشخيصَ حسن أو قبح الافعال الانسانية فهل يمكن استنتاج حكم شرعي من خلال الحكم العقلي؟ بعبارة أخرى هل يتخذ حكم العقل الوجوبي بعد ادراكه حسن الفعل صفة وجوبيةً شرعيةً وكذا الحرمة بعد ادراكه قبح الفعل؟[1]

وهل يمكن القول بالملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع؟ أو لا يمكن أن يكون حكم الشرع مواكباً ومطابقاً لرأي العقل، وأنه لا توجد أية ملازمة بين

---

(١) علي رضا فيض، مبادئ الفقه والأصول، منشورات جامعة طهران، ص٤٦ (بالفارسية) وانظر أيضاً: العقل عند الشيعة الامامية، ص١٧٩.

الاثنين؟ وهنا نجد اختلافاً شديداً بين المدارس الاسلامية ومن بينها المدرستين الاخبارية والاصولية.

غير أنه وقبل كل شي يفترض بنا التدقيق اكثر في تحديد معنى الحسن والقبح العقليين في افعال الانسان، واساساً ما هو المعنى المراد هنا من (حكم العقل)؟

لقد وضع الاقدمون، في الغالب، حكم العقل بحسن وقبح الافعال في حقل الأوليات أو الضروريات؛ فالقضايا التي هي بالذات مورد تصديق العقل، أي أ، الشي الذي يوجب اليقين بها هو ذاتها لا أمر آخر، هذه القضايا هي بذاتها معلومة وواضحة وبديهية وتملك قدرة إقناع الجميع، مثلاً هذه القضية (الكل اكبر من جزئه) قضية عقلية وأولية، ومن ثم لم تأتِ من خلال الملاحظة والمشاهدة أو الاستقراء والتتبّع أو أي طريق آخر، بل ان التصديق بأكبرية الكل من الجزء أمر جبلّي فطري(١).

ومن هنا يطل هذا الاشكال: اذا كان ادراك الحسن والقبح العقلي من القضايا الضرورية فمن المفترض حظيانه بنفس النسبة من الوضوح والاعتبار التي تتمتع بها سائر القضايا الضرورية الأخرى، في الوقت الذي نجد فيه بوناً شاسعاً بين قضية (الكل أعظم من الجزء) وقضية درك الحسن والقبح. فالقضية الاولى لا ينكرها احد، اما القضية الثانية (الحسن والقبح العقليين) فقد اثارت وتثير جدلاً واسعاً(٢).

هذا هو بالضبط ما حدا بعلماء الاصول، ومن أجل دفع هذه الاشكالات، إلى تقديم تفسير اكثر انسجاماً لـ(حكم العقل)، ومن هنا قاموا ابتداءً بذكر المعاني

---

(١) محمد الخوانساري، منطق صوري (بالفارسية) منشورات آگاه، طهران ج ٢، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٢) علي رضا فيض، المصدر السابق، ص٤٨.

المختلفة للحسن والقبح العقليين، مفكّكين في هذا السياق بين ثلاثة معاني[١].

١ ـ مرّة يكون المقصود من الحسن والقبح، (الكمال والنقصان)، وعلى سبيل المثال: عندما يقال الشجاعة أو العلم حسنان، وفي مقابل ذلك الجبن أو الجهل قبيحان، فالمقصود ذكر جوانب من كمال النفسية الانسانية.

٢ ـ ومرّة يكون المقصود من الحسن والقبح انسجام وعدم انسجام عمل ما مع الطبيعة البشرية، وحينئذ يتخذ حسن وقبح الافعال حالة أخرى من ادراك (اللذة والألم).

٣ ـ والمعنى الثالث للحسن والقبح العقليين (ما ينبغي وما لا ينبغي)، بمعنى أن فاعل الفعل الحسن ممدوح لدى كل العقلاء وفاعل الفعل القبيح مذموم لديهم جميعاً، من هنا فان المدح والذم انما يرتبط بأفعال الانسان الارادية فقط، وجميع العقلاء لهم رؤية متوحدة إزاء هذه القضايا وبها يحكمون. بعبارة أخرى أن العقل يدرك جيداً ما ينبغي وما (يتوجب) العمل به، وما لا ينبغي و(لا يتوجب) العمل به.

والمحور الاساس في الاختلاف بين الكلاميين هو المعنى الثالث، فـ(المعتزلة) يرون ان الافعال ودونما استعانةٍ بالشرع قابلة للاتصاف بالحسن والقبح، وأن العقل قادر على ادراك ذلك كذلك. وفي مقابل هذه الرؤية يبرز (الأشاعرة) القائلون بعدم اتصاف الافعال بالحسن والقبح ذاتياً. وهنا تجب الاشارة الى هذه النقطة الاساسية، وهي ان المراد من عقلية الحسن والقبح في الافعال أنّ العقل العملي هو المسؤول عن تعيين ذلك، بل وحتى تحمّل مهمّة تحديد الضرورة المنطقية للافعال، وتحميل الفاعل المسؤولية[٢].

وكما نعرف، فقد ميّز حكماء الإسلام بين: العقل النظري والعقل العملي، فـ

---

(١) محمد رضا المظفر، اصول الفقه، ج ٢، ص١٨.

(٢) محمد الحائري اليزدي، كاوشهای عقل علمي، ص٨١ (بالفارسية).

(العقل النظري) هو ذاك العقل الذي ينضوي فيه قسم الحقائق العينية الخارجة عن ارادة الانسان، والتي يبدو الانسان عاجزاً عن التأثير فيها إذ قدرته ازائها تنحصر بالعلم والاطلاع فقط. وفي مقابل ذلك (العقل العملي) الذي يبحث في مجموعة القضايا، وبعبارة ادق مجموعة الافعال الخاضعة لارادة الانسان، أي تلك التي يكون قادراً على إيجادها.

إن الادراك العقلي للحسن والقبح مرتبط بالقسم الثاني، أي ان العقل ـ وبالالتفات الى المصالح العامة في حفظ النظام الاجتماعي وبقاء النوع الانساني ـ يستحسن بعض الافعال ويمتدحها فيما يستقبح بعضاً آخر ويذمّه؛ ومن هنا فان حسن وقبح الافعال ينطوي تحت مظلّة «القضايا المحمودة» أو «التأديبات الصلاحية» والتي هي من أقسام «المشهورات»، وليست في قائمة الأوليات «أو الضروريات». و«المشهورات» قضايا تفرض الاعتقادَ بها شهادةُ الجميع، أو ما عرف باتفاق العقلاء. «وهذا النوع من القضايا ليس قضايا أولية ولا قضايا وهمية»[١].

ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما ورد آنفاً، يتضح المقصود من (حكم العقل) أيضاً، حيث معناه ادراك عقلي وليس شيئاً آخر؛ بمعنى ان الذين يمنحون الاعتبار لحكم العقل في دائرة الأحكام الشرعية ويرونه مستلزماً للحكم الشرعي انما يهدفون الى إثبات هذه النقطة، وهي ان العقل ـ ومع الالتفات الى تطابق الآراء في أمر ما ـ يمكنه أن يواكب الشريعة في هذا الأمر من خلال الكشف عنه، لا ان يقوم بشكل مستقل عن الشريعة بتحديد مصلحة أو مفسدة ما أو اصدار الاحكام.

ان دور العقل أن يقوم فقط بالكشف عن رأي الشريعة وحكمها، فهو ليس

---

(١) محمد الخوانساري، منطق صوري، منشورات آگاه طهران، ج ٢ ص ٣٨ (بالفارسية).

بـ(حاكم)، لان المشهورات ـ وكما قلنا ـ ليست في قائمة (الأوليـات)، ولا فـي عداد (الفطريات).

ان مطلق التطابق في الآراء في أمر لسبب ما لا يقتضي وجوبه أو حرمته؛ من جهة أخرى ان العقل غير قادر على ادراك المقاصد الحقيقية للشريعة في جـعل المصالح والمفاسد، لكي يمكنه وفقاً لذلك أن يصدر أحكاماً مشابهة باستثناء عدّة محدودة من الاحكام هي الأخرى ذات طابع كلّي وعام، من قبيل "العدل حسن" و«الظلم قبيح»[١]، وهي قضايا لو حللناها أكثر لما استطعنا وضع اليد على معنى دقيق وواضح لها.

والحقيقة ان عموم الذين يمنحون الاعتبار لحكم العقل إنما يضعونه في قالب قضية شرطية؛ أي بهذه الصورة: اذا تـمكن العـقل مـن ادراك مـصالح ومـفاسد الاحكام الشرعية، فسوف يصدر حكمه وفقاً لذلك[٢].

المصالح المرسلة وقيمة العقل:

ويتضح اكثر مرادهم الحقيقي من حجية دليل العقل لدى بحثهم عن مشروعية «المصالح المرسلة» بوصفها مصدراً مستقلاً في التشريع.

أمّا فقهاء أهل السنة فإنهم يقسمون المصلحة الى قسمين:

الأول: مصلحة تنهض بشكل كلي على الشريعة فتكون بمثابة مصداق واضح للاحكام الالهية مثل: (ان الله يأمر بالعدل والاحسان)، (وما جعل عـليكم فـي الدين من حرج) و(لا ضرر ولا ضرار)، وفي رأيهم ان هذا القسم يصبّ في زمرة

---

(١) محمد تقي الحكيم، الاصول العامة للفقه المقارن، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣ ص٢٨٧.

(٢) أبو القاسم القمي، قوانين الاصول، ط حجرية، ج٢ ص٤، (قوله: لو اطلع العقل على الوجه الذي دعى الشارع الى تعيين الحكم الخاص في ذلك الشي، لحكم العقل موافقاً له).

(القياس) وبالنتيجة يعدّ معتبراً.

الثاني: مصلحة لا تنهض على الشريعة بمعنى عدم وجود نص شرعي فيها. وهذا هو القسم الذي يطلق عليه فقهاء السنة (المصالح المرسلة).

وغالباً ما يستدل على مشروعية المصالح المرسلة بوصفها منبعاً مستقلاً في التشريع بهذه الطريقة، فهم يذهبون من جهةٍ إلى أنّ الشريعة جاءت لكل زمان ومكان، أما من الجهة الأخرى فيرون ان المنابع الاصلية للشرع محدودة ومتناهية، فيما المسائل والحوادث لا نهائية. وبالنتيجة فان النصوص الشرعية الأولية ليست قادرة على تلبية جميع القضايا الحادثة، ومن هنا كان من الضرورة بمكان البحث عن منابع جديدة في التشريع، وهنا بالتحديد يمكن للعقل أن يلعب دوراً مؤثراً.

وفي المقابل، يرى المنكرون لحجية المصالح المرسلة عدم وجود أساسٍ مسوّغٍ لأيّ شكل من أشكال التحولات والتغيرات الاساسية خارج دائرة النصوص والمفاهيم الشرعية، ويقولون بأن عموم التغيرات الحاصلة بسبب المؤثرات الزمانية انما هي بمثابة تغير في المصاديق ولا توجد أي تحوّلات جوهرية في ذات المفاهيم أو النصوص من قبيل الآية: (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة(، فقد ترجمت فيما مضى باعداد السيوف والرماح والاسلحة المتداولة آنذاك، أما اليوم فيتجلى معنى الآية في اعداد الاسلحة المتقدمة والمتطورة، أما مفهوم الدفاع ومواجهة العدوان فهو هو لم يتغير[١].

واستدامةً في عملية النقد هذه يرى الطرف الرافض ان العقل البشري، وباستثناء موارد قليلة، غير قادر على معرفة المقصد الحقيقي الالهي من تشريع

(١) محمد تقي الحكيم، المصدرالسابق، ص٣٨٨.

الاحكام، ناهيك عن قدرته على جعل المصالح والمفاسد[1]، ونستنتج من ذلك ان المراد من حكم العقل ليس قدرته على تحريم أو ايجاب أمر ما؛ ذلك ان الحاكمية لله وحده، وما دور العقل الاّ الكشف عن المراد الحقيقي للشارع.

قانون الملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع:

وحول المسألة الثانية وهي: هل يمكن القول بوجود ملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع؟ أم أنه ليس ثمّة تلازم بين الاثنين؟ وقع خلاف بين المدارس الحقوقية ازاء هذا الموضوع، وبخاصة في الفقه الشيعي، ذلك أنّ بوناً شاسعاً في الرؤية رسم خارطة الخلاف بين الاصوليين والاخباريين:

١ ـ يقول المعتزلة ومعظم الاصوليين بوجود تلازم بين حكم العقل وحكم الشرع سواء في دائرة الأصول أو الفروع، ونجد في هذا المضمار قاعدتين مشهورتين: ١ ـ (كل ما حكم به الشرع حكم به العقل) ٢ ـ (كل ما حكم به العقل حكم به الشرع).

ومعنى القاعدة الأولى أن كل وجوب أو حرمة شرعية يتبعها حسن وقبح عقلي، لأن الأحكام الالهية تابعة للمصالح والمفاسد، فكل فعل يوجبه الاسلام ينطوي على مصلحة الزامية، وكلّ حرمةٍ تشتمل على مفسدة الزامية[2].

والقاعدة الثانية تعني انه متى ادرك العقل (حسن) فعل اصدر الشرع حكماً مشابهاً من الوجوب، وهكذا في مورد (قبح) الافعال[3]، بصيغة أخرى ان حكم العقل يكشف عن مطابقة الشرع لذلك. من هنا لو ان العقل حكم بالثواب أو العقاب

---

(١) ابو الحسن علي بن أبي علي الآمدي، الاحكام في اصول الاحكام، ج ٣ ص١٣٨.

(٢) علي رضا فيض، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٣) المصدر نفسه.

فان الشارع (الله) الذي هو سيد العقلاء يحكم بذات الحكم ثواباً أو عقاباً[١].

هناك عقلان: عقل ظاهري وهو النبي، ورسول باطني وهو العقل البشري وهما حجتان. وعلى هذا لا يمكن أن يوجد أي تعارض بين الاثنين، بل يتوجب ان يوجد توافق وانسجام وتساوٍ في حكميهما بل وتطابق، بمعنى ان كل ما يدلّ عليه رسول الباطن (العقل) يدلّ عليه رسول الظاهر أيضاً.

وعمدة ادلّة القائلين بالملازمة هي العقل والاجماع والنقل، وكما اشير اليه فإن جوهر الدليل العقلي الذي يأخذون به إنما هو مبدأ ضرورة التلازم بين حكم العقل والشرع، وهو دليل يرفضه المعارضون بادعائهم ان الملازمة تستند الى مجرد تصوّر ان العقل قادر على درك المصالح والمفاسد في الافعال، في الوقت الذي بينا فيه قبل قليل ان العقل لا يحظى بقدرةٍ كهذه، اضف الى هذا ان ادراك الحسن والقبح في الافعال أمرٌ يقع في دائرة القضايا المشهورة، وهي ليست ضرورية ولا أولية.

واذن فالمزاعم القاضية بضرورة التلازم بين حكم العقل وحكم الشرع لا تستند الى أساس، لأن مقدمات ضروريته في اتفاق جميع العقلاء واجماعهم في حين لا وجود لهذه الرؤية المتوحدة، وعلى هذا الاساس فان الزعم بوجود اجماع من قبل هؤلاء ليس صحيحاً أيضاً؛ ذلك ان كثيراً من الفقهاء الآخرين ـ كما سنذكر فيما بعد ـ ينكرون التلازم بين حكم العقل والشرع. وان الاستناد الى الآيات من قبيل: (ان الله يأمر بالعدل والاحسان(و(يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر(ـ بمعنى ان الله قد أمر بالقيام بافعال كان قد حكم من قبل بضرورتها ـ لا يثبت أيضاً مقولتهم. لأن الآيات المذكورة انما تشير فقط الى أفعال من قبيل

---

(١) ابو القاسم القمي، قوانين الاصول، ص٢٥٨؛ وايضاً محمد تقي الاصفهاني، هداية المسترشدين ص٣٠٨.

العدل والاحسان ولا تشمل جميع أفعال الانسان.

أما الروايات الدالة على تفوّق العقل ومنزلته الخطيرة من قبيل: العقل حجة الباطن والعقل اساس الثواب والعقاب، فيجب القول: ان هكذا روايات انما تبيّن ان الشرط العام والاساس الأوّلي في كل تكليف هو وجود العقل في الانسان، الأمر الذي لا ينطوي على أية دلالة تتصل بتلازم حكم العقل وحكم الشرع[١].

من جهة أخرى، وفي مقابل الروايات التي وظّفت لإثبات الملازمة؛ توجد روايات أخرى تفيد عجز العقل عن فهم مقاصد الشريعة.

٢ ـ تنفي طائفة من أهل السنة (الماتريدية)[٢] وعموم الاخباريين ـ كما مرّ آنفاً ـ وحتى جماعة من الاصوليين أي شكل من اشكال التلازم بين حكم العقل وحكم الشرع، ويعتقد هؤلاء أنّ استحقاق المدح أو الذم على فعل لا يستلزم استحقاق ثواب أو عقاب شرعي على ذلك الفعل؛ ذلك أنّ التكاليف تنهض برمّتها على النقل، أمّا العقل وحده فلا يستطيع استنباطها، ويستند المنكرون للملازمة أيضاً الى بعض الدلائل النقلية والعقلية من قبيل الآية: (ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا(؛ ومعنى هذا ان لا وجود لأي تكليف الهي (عقلي أو نقلي)، ولا لأي مصلحة أو مفسدة الزامية؛ وانما يتّخذ الثواب والعقاب معنيهما بعد نزول الشريعة، وفي هذا ما يدلّ على عدم وجود تلازم بين حكم العقل والشرع.

ويقول المدافعون في معرض جوابهم، ان الآية الانفة الذكر انما تدل فقط على نفي العذاب، ولكنها لا تنفي مسألة استحقاق العقاب، إذاً فيمكن أن يستحقّ هؤلاء العقاب بيد أنّه صرف عنهم لطفاً من الباري بهم[٣].

---

(١) قوانين الاصول، ص٢٥٨.

(٢) اتباع ابي منصور محمد الماتريدي، من فقهاء الاحناف يدعون بـ(الماتريدية).

(٣) قوانين الاصول، ص ٢٦٠، والشيخ مرتضى الانصاري، فرائد الاصول، ص١٩٤.

ويتمسّك الاخباريون لإنكار الملازمة ببعض الروايات، من قبيل الحديث الوارد عن الامام الصادق: (كل شي مطلق حتى يرد فيه النهي)، ومعنى هذا اباحة الافعال ما لم يرد منع محدد. وهذا الحديث ينفي بوضوح أية ملازمة؛ لأنه لو كان للعقل تأثير في تحقق الوجوب أو الحرمة لأضيف قيد العقل الى حكم الشرع ولقال الشارع: (كل شي مطلق حتى يرد فيه نهي أو يمنعه العقل) في الوقت الذي كانت الحرمة فيه مشروطة بوجود حكم شرعي لا شي آخر[١].

وفي معرض الجواب عن هذا، يشير المجتهدون الاصوليون الى هذه النقطة، وهي ان الرواية تختص بالاشارة الى مجموعة من الأمور التي لم يرد فيها حكم شرعي مشخص، وأما تلك المجموعة من الأمور التي يشخص حكمها عن طريق العقل فهي مستثناة من دلالة الرواية ومفادها، لان حكم العقل يعد بذاته حكماً مستقلاً[٢].

الاخباريون أيضاً، يتمسكون بدورهم ببعض الأدلة العقلية مستهدفين بذلك نفي الملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع، ومن هذه الادلة (قاعدة اللطف) والتي تعني ان الله لا يجزي عباده ثواباً أو عقاباً إلاّ بعد ارساله الرسل وترغيب عباده بالطاعة وتحذيرهم من المعصية. وعلى هذا فان الامور التي لا يأتي بها حكم من الله لا تستلزم أي ثواب أو عقاب بالرغم من قدرة العقل على تشخيص حسنها أو قبحها بشكل مستقل. وهذا ما يدلّ على عدم وجود أي شكل من اشكال الملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع[٣].

---

(١) السيد محسن بن حسن الاعرجي الكاظمي، المحصول في علم الاصول (المقام الثاني في الملازمة)، نسخة مخطوطة، مكتبة مؤسسة آل البيت، قم.

(٢) قوانين الاصول، ٢٦١.

(٣) محمد حسين الاصفهاني، الفصول الغروية في الاصول الفقهية، طبعة حجرية، ٣٤٢، المحصول (أدلّة منكري الملازمة).

ويرد الاصوليون على هذا الدليل، بدعوى انه حتى لو آمنا بان اللطف واجب على الله فانه لا يمكن القول بان كل لطف واجب، ذلك ان اللطف الواجب يشمل فقط الاحكام النازلة من الله الى عباده، أما في الأمور التي لم ينزل الله فيها حكماً فلا قبح في استحقاق العقاب في موردها دونما لطف[١].

٣ ـ وهناك طائفة ثالثة تذعن بوجود ملازمة بين الحكم العقلي والحكم الشرعي في دائرة العقائد الدينية فقط، أما في دائرة الفروع فليس ثمة ملازمة بين الحكمين.

غير المستقلات العقلية وأقسامها:

على خلاف المستقلات العقلية، ثمة طائفة من الاحكام التي لا يدركها العقل بشكل مستقل، بل يستمد العون في ذلك من حكم الشرع وهي ما يُدعى بـ(غير المستقلات العقلية).

ويقسم المجتهدون الاصوليون غير المستقلات العقلية الى خمسة أقسام نعرضها بايجاز:

القسم الأول: (الاجزاء) والمراد بالاجزاء هو ان الاحكام الالهية تستلزم من المكلف تحقق الامتثال كما امر الله بها بحيث تغنيه عن القيام بها مجدداً.

وهنا يمكن التساؤل حول علاقة هذا المبحث بالعقل؟ وجواباً تجب الاشارة الى أن علماء الاصول يقسمون الأوامر الالهية الى مجموعتين: أولية (حقيقية) وثانوية، والأوامر الثانية الى قسمين أيضاً: أوامر اضطرارية وأوامر ظاهرية.

١ ـ الاحكام أو الأوامر الحقيقية الأولية أحكامٌ وضعها الله (في مقام

---

(١) المصدر نفسه.

التشريع) بغض النظر عن حصول العلم بها لدى المكلف أو عدمه، وبغض النظر أيضاً عن قدرة المكلف على أدائها أو عدم قدرته.

٢ ـ الاحكام أو الاوامر الاضطرارية وهي احكام وضعها الله في الحالات الاضطرارية فيما يتعلق بظروف المكلف من قبيل التيمم في حالة فقدان الماء.

٣ ـ الاحكام أو الأوامر الظاهرية وهي احكام وضعها الله في حالة جهل المكلف بحكم حقيقي؛ من قبيل الاصول العملية كالاستصحاب، البراءة والاحتياط.

والمثال المتداول بين الفقهاء لهذا القسم هو التدخين، فالتدخين له حكم شرعي بذاته، والمكلف جاهل به إذن فلا مفر له من الرجوع إلى الاصول العملية ومعالجة مشكلة فقدان الحكم الشرعي.

ويقسّم علماء الاصول بحث الاجزاء الى ثلاثة أقسام:

١ ـ هل ان عمل المكلف بالامر الحقيقي الاولي سيكون مجزياً أم لا؟ بمعنى هل تبقى ثمة وظيفة أخرى اذا ما قام المكلف بذلك العمل؟ أم أنه يتوجب عليه القيام بالعمل مرّة أخرى وتكراره؟ وبعبارة أدق: هل سيكون القيام بالفعل الحقيقي الأولي وعلى النحو المنشود من قبل المكلف مقتضياً للاجزاء أم لا؟

والمراد من (الاقتضاء) العلّية والتأثير، يعني وجود ملازمة بين القيام بالعمل على النحو المطلوب وبين الاجزاء، وهي ملازمة تنهض على حكم العقل وتشكّل جزء من وظائفه؟ ومع كل هذا يتوجب القول هنا ان العقل لا يعمل هنا بشكل مستقل، بل انه بمعيّة الحكم الشرعي ـ باعتباره أحد مقدمات البرهان ـ يحكم بالاجزاء أو عدمه. ومن هنا صنف علماء الاصول الاجزاء في مباحث غير

المستقلات العقلية[١].

ويتفق الاصوليون في هذا الموضوع على وجود ملازمة عقلية بين امتثال الحكم الحقيقي الأولي وبين الاجزاء، وان العقل يحكم بأن المكلّف غير موظف بتكرار ما قام به، لان الامتثال المجدد في حكم تحصيل الحاصل[٢].

٢ ـ هل يقتضي عمل المكلف بالأمر الاضطراري الاجزاء أم لا؟

ونجد هنا أيضاً جميع علماء الاصول، وبالطبع كثير من الفقهاء، يذهبون إلى القول بالاجزاء، أي انه بعد ارتفاع حالة الاضطرار سيكون المكلّف مستغنياً عن تكرار العمل، ذلك أن الأوامر الاضطرارية تنهض على اساس المصلحة في عمل المكلف؛ ومن غير اللائق الطلب من المكلف تكرار العمل بعد ارتفاع حالة الاضطرار.

٣ ـ هل يقتضي عمل المكلف بالأمر الظاهري الاجزاء أم لا؟

ورأي الفقهاء ايضاً ان العقل يحكم بوجود ملازمة بين عمل المكلف وبين الاجزاء وسقوط التكليف بشرط أن يكون عمل المكلف طبقاً لمفاد أصول عمليّة يمكنها ترشيده في حالة فقدان الدليل الشرعي. ومن الضروري أن نشير الى ان هذا القسم وثيق الصلة جداً بالبحث المشهور والاساسي (الامارات الظنّية) ودورها في التشريع، وهو بحث يترتب عليه التصويب والتخطئة في الاجتهاد، بمعنى التساؤل حول القضايا التي لم يرد فيها نص شرعي حاسم، هل تفتقد الحكم الشرعي المحدد أم أن الله في ذات الامر قد اصدر احكامه لكل الأمور، غير ان المكلف وفي حالة جهله بها يمكنه الرجوع الى الامارات الظنية ـ نموذجاً فتاوى المجتهدين ـ والعمل بها؟

---

(١) محمد حسين الاصفهاني، نهاية الدراية في شرح الكفاية، مؤسسة آل البيت، ج ١، ص ٣٦٥.

(٢) الآمدي، الاحكام في اصول الاحكام، ج ٢، ص ٢٦.

وقد انتخب بعضهم الرأي الأول الذي يقول: ان الأمور التي لم يرد فيها نص شرعي تفتقد حكماً الهياً بشأنها؛ لأن الله بلغ احكامه جميعاً الى الناس من خلال النبي، وفي حالة فقدان الحكم الشرعي يمكن الاتكاء وبراحة بال الى عدم وجود حكم حقيقي أولي بشأنها أيضاً. وفي هذه الحالة فان الامارات الظنيّة سوف (تجعل) حكماً و(تبدع) حقيقةً، لا أن تعيد بناء الحقيقة بشكل ظاهري.

ويضيف القائلون بهذه النظرية: ان حكم الله سيغدو تابعاً للامارات، وفي حالة حصول خطأ فيها، فان المكلف معذور عند الله ومأجور في نفس الوقت (المعذريّة والمنجزيّة في الامارات) وقد عرفت هذه النظرية بـ(التصويب)[١].

واختارت طائفة من المتكلمين والمعتزلة والامامية في المقابل القول الثاني، ورأت الحكم الحقيقي الأولي مستقلاً عن مفاد الامارات الظنية. وتعتقد هذه الطائفة بان وظيفة المجتهدين الكشف عن الاحكام الشرعية، وفي حالة الخطأ ـ وهو أمر ممكن ـ فان الله، وانطلاقاً من قاعدة اللطف، سيجعل مصحلة ازاء فتاواهم لجبر ما فات من المصلحة الحقيقية. وتعرف هذه النظرية بـ(التخطئة)، وهي نظرية ـ كما ذكر سابقاً ـ تنهض على مصادرات هي بحاجة ماسة الى اثبات من قبيل (اكمال الشريعة) وبخاصة لدى الشيعة، القول بـ(التقية) الذي يعلق الحكم حول تمامية الابلاغ أو تناهي احكام الشريعة.

القسم الثاني: (مقدمة الواجب) والمراد من المقدمة كل أمر يكون أساساً لأمر آخر؛ من هنا فان كل جزء من اجزاء العلّة التامة يدعى (مقدمة)، وهنا سؤال لو ان الشارع أوجب عملاً ما، فهل ان مقدمات ذلك العمل واجبة أيضاً وهل يجب على المكلف الذي يريد القيام بالعمل الواجب ان يقوم ايضاً بمقدماته؟ بعبارة أوضح

---

(١) ابو حامد الغزالي، المستصفى من علم الاصول، ج٢، ص١٠٩.

هل يمكن من خلال اثبات الرابطة العقلية بين وجوب أمر ووجوب مقدماته كشف الوجوب الشرعي لها وإثباته أو أنه لا توجد ثمة ملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع؟

القسم الثالث: (النهي عن الضد) بمعنى لو ان الشارع أوجب عملاً ما فهل ينهى عن ضده أيضاً سواء كان نقيضاً (الضد العام) أو بمعنى القيام بافعال منافية لذلك العمل (الضد الخاص)؟

وبعبارة أدق: (هل ان الأمر بشي يقتضي النهي عن ضده أو لا؟ والمراد هنا من الاقتضاء ـ كما اشير اليه في بحث الاجزاء ـ الاستلزام العقلي؛ من هنا يمكن ترتيب مسألة (النهي عن الضد) بهذه الصورة: هل بامكان العقل الكشف عن نهي الشارع عن الضد الخاص أو الضد العام من خلال الوجوب الشرعي العملي، وهل توجد ملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع؟ أم ان الاستنتاج لا يفرز حكم الشرع؟ وعلى هذا الاساس فان بحث النهي عن الضد ـ وعلى خلاف رأي طائفة من الاصوليين ـ يقع في صلب المباحث العقلية ومن اقسام غير المستقلات العقلية.

القسم الرابع: (جواز إجتماع الأمر والنهي في الأمر الواحد). والمراد من اجتماع الأمر والنهي هو ان الفعل يكون واجباً على المكلف بسبب انطباق عنوان الواجب عليه، ولكن من جهة أخرى يكون نفس الفعل حراماً لانطباق عنوان الحرام عليه[1]، وذلك من قبيل الصلاة في الارض المغتصبة فهي من جهة امر واجب ومن جهة أخرى ـ تصرف في الأرض الغصبيّة ـ حرام.

ومن الضروري هنا الاشارة الى ان قيد (الجواز) المأخوذ في عنوان المسألة

---

(١) رشدي عليان، العقل عند الشيعة الامامية، ص٣٨٥، علي رضا فيض، مبادى الفقه والاصول ص٧٧ (بالفارسية).

يعني الامكان العقلي. فيتحوّل البحث تلقائياً إلى جدل حول إمكانية أو امتناع اجتماع الأمر والنهي وهو جدلٌ يقع في إطار وظائف العقل، من هنا فان هذه المسألة لا يمكن تصنيفها في دائرة الكلام[١] ولا في زمرة المسائل الفقهية، بل في عداد مسائل اصول الفقه وفي اقسام غير المستقلات العقلية[٢].

القسم الخامس: ان النهي الشرعي عن عمل ما ـ بمعنى حرمة ذلك العمل ـ مستلزم بطلانه وفساده أيضاً؟ بعبارة أخرى هل ثمة تلازم بين تعلق النهي بشي وبين بطلانه أم لا؟

وبما أن المراد من الاستلزام في التعريف المذكور الاستلزام العقلي فان الحكم في هذه الملازمة أو عدمها سيكون من شؤون العقل، أي ان العقل قادر على استنتاج البطلان أو الفساد من تعلق النهي الشرعي بعمل ما. طبعاً يجب الانتباه الى هذه النقطة وهي ان معنى البطلان ـ الذي يقابل الصحة ـ في العبادات كالصلاة والصوم يختلف عنه في المعاملات.

الاستنتاج:

ومن خلال ما مضى يمكن الخروج بهذه النتيجة: بالرغم من كون العقل قادراً وبشكل مستقل على ادراك طائفة من الاحكام من قبيل حسن وقبح الافعال، بيد انّ هذه القضايا تبدو محدودةً للغاية، ومن جهة أخرى لا يمكن استنتاج تطابق الاحكام الشرعية مع الادراكات العقلية لانه، وكما اشير سابقاً:

أولاً: على اساس ان حسن وقبح الافعال العقليين لا يدخل في زمرة القضايا الأولية أو الضرورية بل في عداد القضايا المشهورة. واذن فان الادعاء بوجود

(١) يعتقد ابو القاسم القمي بأنها مسألة كلامية بالرغم من استنتاج بعض المسائل الفقهية منها (قوانين الاصول، ص٦٧).

(٢) محمد رضا المظفر، اصول الفقه، ج٢، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

ملازمة ضرورية بين حكم العقل وحكم الشرع سيغدو ادعاءً باطلاً.

ثانياً: ان المصالح والمفاسد لا تعني بالضرورة الحسن والقبح العقلي، وبالرغم من وجود بعض المصاديق الكلية في هذا التطابق إلا أنّ هناك موارد كثيرة تنفى فيها هذه التبعية، فما أكثر المصالح التي تكمن في أمور يقبحها العقل.

ثالثاً: لا يعني توحد رؤية الجميع في الحسن أو القبح العقلي اتفاقاً مع رؤية الشارع بالضرورة[١]، وعلى هذا الاساس يمكن الاستنتاج بان العقل يفقد اعتباره في دائرة المستقلات العقلية.

أما في دائرة غير المستقلات العقلية فبالرغم من اعتبار الدليل العقلي فيها، لكنّ العقل لو دققنا النظر سيظهر لنا ـ وبشكل واضح ـ أنه وقبل أن يكون مصدراً مستقلاً في التشريع كان بمثابة اداة من أجل العثور على الحكم المحدد سلفاً من قبل الفقهاء. وليس اعتباطاً أن يعمد الفقهاء المتأخرون الى تحديد عمل الدليل العقلي في دائرة القطع بالاحكام الشرعية (وتلك المنزلة التي يتخطّى فيها العقل مجال الأحكام الشرعية إنما تكمن في تعيينه مصاديق تلك الأحكام عينها لا أكثر).

وقد بينوا هنا بصراحة ان قطع المجتهدين ـ وهم القادرون على استخراج الاحكام الفرعية ـ هو وحده الذي يتمتع بالاعتبار، أما قطع الآخرين (عموم المقلدين) فليس ذا اعتبار على الاطلاق[٢].

وانطلاقاً من هذا يمكن القول بان ادعاء بعض الفقهاء وعلماء الاصول اعتبار العقل مصدراً مستقلاً في التشريع هو ادعاءٌ فاقدٌ للمعنى وغير ذي أساس.

ومن الضروري هنا أن نشير بشكل عابر الى الخلفيات أو العناصر المعرفية

---

(١) محمد باقر الصدر، دروس في علم الاصول (الحلقة الثالثة)، ج ١، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) محمد حسين النائيني، فوائد الاصول، مؤسسة النشر الاسلامي، ج ٣ ص ٣ ـ ٤.

والتي أسهمت في عملية تصنيف شملت العقل إلى جانب بقية المصادر الاجتهادية، وهي عناصر كان لها دور أساسيّ ساعد على تعيين وظيفة هذه المصادر، وتحديد قيمتها المعرفية في ظل النظام المعرفي الإسلامي العام، وبمعرفة هذه العناصر فقط يمكن أن نقدم تصويراً دقيقاً للعقل المستقل عن الوحي.

وخلاصةً، يمكن القول أنه ومنذ الفترات الأولى لتأسيس التراث عومل العقل لا باعتباره جوهرة أو وجوداً مستقلاً عن سائر الوجودات الأخرى بل بمثابة وسيلة باتجاه انسجام دلالات نصوص الوحي وبسط نفوذه فهو أداة وظيفته الرئيسية التمهيد لحاكمية النص على كل ابعاد المعرفة وذلك من خلال مناهج مختلفة بدءً من (التأويل) الى ارجاع (الفرع) الى (الأصل) و(قياس حكم المجهول على المعلوم).

وبالرغم من الحاجة الى بحوث تاريخية مستفيضة وأخرى معرفية لتحديد الفترة التي تبلور فيها اصطلاح (الاصل / الفرع) في دائرة الفكر الاسلامي، بيد أنّه يمكن القول بثقة ان هذا المفهوم ثنائي القطبية ـ الذي يشغل الهرمية من الناحية القيمية حيث القيمة أعلى من الأخرى ـ قد أخذ طريقه بشكل متواكب وبصورة ظاهرة وخفية في مثلث العلوم: علم النحو، علم الكلام وعلم الفقه كأداة هامّة لاستنباط وانتاج المعرفة ليصبح بسرعة اطاراً نظريّاً للفكر الاسلامي؛ بمعنى ان يصبح الأنموذج المقبول والمتداول لدى علماء الاسلام في قياس وانتاج المعرفة قائماً على شكل مسير يبدأ من «الاصل» أو ينتهي به، حيث تدعى الحالة الاولى بـ(الاستنباط) فيما تسمّى الثانية بـ(القياس).

ومن الواضح ان ماهية الاسلام تنهض من جهة على (الوحي ـ الكتابة) ومن جهة أخرى على طبيعة الثقافة العربية، وهذا ما جعل هذين سبباً في جعل (النص) مثالاً مرجعياً أو أصلاً تعاد اليه كل نظرية أو موضوع جديد (النوازل أو الحوادث

الواقعة) من خلال ترتيب لساني ـ كلامي. بعبارة أكثر دقة ان (النص الديني) هو الذي يمنح كل النظريات العلمية مشروعيتها لأن هدف علم النحو على سبيل المثال وإن كان معرفة لسان العرب أو فهم مقاصد كلامهم، بيد أنّه بات يسعى إلى دراسة الجوانب المختلفة الادبية ـ البلاغية للقرآن (الوحي المكتوب) من أجل التمهيد لفهم النص المقدّس وفي النهاية تشديد سلطته بشكل أكثر وأعمق، وكذا الحال مع (علم الكلام) الذي مهمته البحث في حقيقة الله النبوّة والمعاد غير ان وظيفته في الواقع غالباً ما اتخذت منحى اثبات اصالة القرآن وصونه عن التحريف والرد على شبهات الزنادقة، وعلى العموم ايجاد سد منيع لمواجهة هجوم الافكار الباطلة. وفي غمرة هذا الوضع تمددت النواة المركزية في منظومة الفكر الاسلامي (الشريعة) لتشمل مساحات مختلفة في الفكر البشري، وذلك من خلال الافادة من (علم اصول الفقه) وكذا الافادة المثلى من علمي (الكلام) و(النحو). وشيئاً فشيئاً وباستمرار هذه الوتيرة في بسط نفوذ الوحي ورقعته أصبح النص في مقام التفوق على الطبيعة والانسان لا على اساس انه الضمان في سعادة الانسان الأخروية، بل باعتباره المثال والمرجع لمجموع السلوك الانساني. ومن هذا الافق طبعاً تصبح اهم وظيفة للعقل هي معرفة وتفسير النص.

إن (النص الديني) ليس منظومةً من الاستدلالات النظرية أو الاحكام العقلانية، وانما كمٌّ هائلٌ من الاحاديث المنقولة التي تتطلب اثباتاً لأصالتها (وثائقيتها)؛ وعلى هذا الاساس فان مشروعية النص لا تتوقف على عوامل داخل النص، بقدر ما تتوقف على عوامل خارجة عنه، والتي هي (اصالة النص).

واصالة النص تعني جعل (الخبر المنقول) صحيحاً بالاستناد الى قائله وراويه. وهنا تظهر العلاقة الوثيقة بين ماهية الخبر المنقول ومفاهيم الصحة والوضع.

ومع بدء تبلور العلوم الاسلامية في الثقافة الاسلامية نشأ مفهوم عن (الخبر

المنقول) يختلف تماماً عن معناه المنطقي؛ يعني اذا كان (الخبر) في علم المنطق يعني حديثاً قابلاً للتصديق والتكذيب في ذاته[١]. حيث تشكل (المطابقة) و(عدم المطابقة) ركناً اساسياً فيه، فانه أُكسي في الثقافة الإسلامية حلّةً جديدة فأصبح صحيحاً وموثقاً أو كذباً ومزوراً لكن استناداً هذه المرّة إلى قائله لا إلى عنصر المطابقة للواقع، الأمر الذي حدا بعلماء الاسلام إلى أن ينبروا ـ وفي مراحل مبكرة ـ الى وضع مجموعة من القواعد والشروط لاثبات صحة أو كذب الخبر لتدعى فيما بعد بـ(علم الحديث)[٢]. الذي سيعلمنا بان ما هو مهم في الخبر المنقول اصالته، واثبات هذه الاصالة فقط، أما مسألة مطابقة أو عدم مطابقة الحديث ـ بمعناه المنطقي ـ للواقع فلا اهمية لذلك.

والنقطة التي تلفت الانتباه هي ان (الاصالة) لها معنى حسي / عملي وتنهض على اساس شهادة كثير من الرواة على صحة استناد الخبر. وهذه الصبغة الحسية / العملية تلاحظ حتى في مضمون الخبر ايضاً، وعلى سبيل المثال ذكر علماء الاسلام شرطين لصحة الخبر المتواتر:

الاول: ان نقل الخبر المتواتر يجب ان ينهض على العلم لا على الظن والحدس والمراد من علمية الخبر يتضح في بيان الشرط الثاني الذي هو عبارة عن ان الخبر يجب أن ينهض على أمر محسوس (قابل للمشاهدة) وعلى هذا الاساس وعلى قول الغزالي لو نقل أهل بغداد خبراً عن حدوث العالم وصدق بعض الانبياء، فلن يؤدي الى اليقين والطمأنينة[٣].

---

(١) الخوانساري، منطق صوري، ج ١، ص ٦٧ (بالفارسية).

(٢) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي (نقد العقل ٢)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٦، ص ١١٦.

(٣) الغزالي، المستصفى من علم الاصول، ج ١، ص ٤٤.

فعلماء الاسلام بنوا العلم ـ من ناحية ـ في معناه الحسي / العملي تارة على النقل وتارة أخرى على المضمون، فيما شادوه من جهة أخرى على حصول اليقين وطمأنينة النفس، وفي هذه الحالة يغدو (ضرورياً) وفي صدر القائمة. وفي مقابل ذلك توجد احكام ظنية لا تبعث الطمأنينة في النفس. وعلى أساس هكذا رؤية ـ والتي تكوّن الحجر الأساس في النظام المعرفي الاسلامي ـ يصبح العلم برمته مبتنياً على عوامل نفسية تمنحه معنى حسياً / عملياً (لا بالمعنى السطحي للكلمة) قبل أن يكون له مفهوم عقلاني.

نظريتان في تكوين علم الفقه

في تكوين علم الفقه يمكن الاشارة الى نظريتين مختلفتين:

١ ـ نظريّة العقل العربي لمحمّد عابد الجابري:

النظرية الأولى: طرحها المنظر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري حيث اعتقد بأن منشأ هكذا فهم للعلم عموماً هو الثقافة العربية قبل الاسلام. ورؤية الجابري هذه متأثرة بالمدارس البنيوية قبل أن تكون (ماتريالية) أو مبتنية على نحو من الجبر التاريخي أو الجبر الجغرافي ـ وهو ما ينفيه الجابري بصراحه[١].

وينحت الجابري اصطلاح (العقل العربي) بغية تبيين العلاقة بين النظام المعرفي الاسلامي والثقافة العربية قبل الاسلام، وهو اصطلاحٌ سيكون له دور محوري في فكر الجابري عموماً.

والمراد من (العقل العربي) ـ كما سبقت الاشارة اليه[٢] ـ ليس أداة التفكير، بل

---

(١) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١، ص٣٠٩.

(٢) نقد ونظر (مجلة فارسية)، عدد خاص بالتراث والحداثة (١) (ع١٧ ـ ١٨)، ص٤١٥.

ولا التفكير عينه في روحه وجوهره، بل منظومة الاصول والمفاهيم التي تبلورت في الثقافة العربية، وفي النهاية ما يكوّن رؤية العرب للعالمَ المحيط بهم. ويعتبر الجابري العقل العربي (بيانياً) في خصائصه، على خلاف العقل اليوناني الذي ينهض على (البرهان).

ويقصد الجابري بالبيان النظام المعرفي الموحّد الذي يشتمل في طيّاته مختلف أشكال الفهم والتعبير والبيان، ليخلقها وفقاً له، وتشاد أعمدة البيان على ركنين: ١ ـ مبدأ الانفصال بين الاشياء ٢ ـ امكان صدور أي شي عن أي شي آخر، ومن ثَمّ فقدان علاقة السببية (العلّية) بين الاشياء.

الأصل الأول: ويبيّن الجابري هذا الأصل انطلاقاً من نظرة العرب وبحكم طبيعة حياتهم ـ التي هي في الغالب صحراوية ـ القائمة على عدم الاستقرار، والمتكوّنة على حالة من الانفصال بين الاشياء؛ وكأن عناصر واجزاء العالم غير مرتبطة ببعضها البعض وغير منسجمة، والعلاقة التي يمكن ملاحظتها هي علاقة (الجوار)، وذهنية العرب هذه تتجلّى بوضوح على صعيد اللغة أيضاً.

الاصل الثاني: إن العرب ـ وبحكم وجود حالة الانفصال بين الاشياء في ذهنيتهم ـ يرون امكانية ظهور أيّ شي من أيّ شي آخر، وبتعبير آخر ان العلاقة بين الاشياء في ذهنيتهم تنهض على حالة من التشابه أو الاحتمال، وليس على علاقة سببية ويقينية. وفي الوقت الذي تأتي مفردة (العلّة) في اللغات الاوروبية بمعنى الفاعل (Cause) تكتسب المفردة عينها في اللغة العربية (وبالطبع الانطباع العربي) معنى (الواسطة) التي يقوم المسبّب من خلالها بذلك العمل[1].

ويخلُص الجابري في النهاية الى هذه النتيجة وهي: أن تكوين العقل العربي

---

(١) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي (نقد العقل ٢)، ص٢٤٣.

وبشكل عام فاقد لعنصر العلّية (سلسلة منظمة من العلل) وانما من الممكن الاستدلال الكلي وتعميم الاحكام عن طريق التشابه بين الاشياء. وهذا التشابه (التشبيه) وقبل أن يكون له معنى انتزاعي له مفهوم حسي / عملي مرتبط بشكل وثيق بالطبيعة الجغرافية، الانسانية والثقافية لشبه الجزيرة العربية.

كما يعتقد أيضاً بأن الفقهاء والمتكلمين (أو علماء البيان) اختاروا لا شعورياً هذا التكوين وجعلوا منه الحجر الاساس في النظام المعرفي الاسلامي. ويشير ضمن بيانه لهذا الانتخاب اللاشعوري الى مفهوم صنع الباطن (interiorisation)[1]، وهو يعني بذلك بعض الاصول المرماة في باطن أو أعماق الافراد والتي تظهر في أوهامهم على شكل قوالب وصور ذهنية، وتهيمن هذه المفاهيم الداخلية على السلوك الاجتماعي والمعرفي للعلماء، في وقت يغفل فيه معظمهم عنها. ومن هنا يطرح الجابري الفقه ـ ونتيجة القواعد المتحكمة فيه ـ علماً ذا منشأ عربي، تقوم اركانه برمّتها على أصل التشابه بين الاشياء.

٢ ـ نظرية المراحل الارتقائية لحسن عبد الحميد:

النظرية الثانية: وهي نظرية حسن عبدالحميد عبدالرحمن الفيلسوف والمؤرخ[2]، والمدرجة في كتابه: (المراحل الارتقائية المنهجية للفكر العربي

---

(١) محمد عابد الجابري التراث والحداثة، ص ٣١٠

(٢) حسن عبدالحميد خريج جامعة السوربون والاستاذ المساعد / فلسفة / جامعة الكويت. اضافة الى كتاباته ومقالاته بالفرنسية، وترجمته كتاب «نظرية المعرفة العلمية».

له كتابات ومقالات عديدة حول المنهج العلمي منها:

ـ المدخل الى الفلسفة، في فلسفة العلوم، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ١٩٨٠ (بالتعاون محمد مهران).

ـ الابعاد الحقيقية لنظرية القياس الارسطية، مجلة كلّية الآداب جامعة صنعاء، العدد الثامن ١٩٨١، ص ٧٩ ـ ١٥٠.

ـ أوهام المنهجية، ضمن الكتاب التكريمي الصادر عن قسم الفلسفة بجامعة الكويت، بمناسبة بلوغ د. زكي

←

الاسلامي؛ المنهج في النسق الفقهي الاسلامي)[١]، وهاجس عبدالحميد الاساس هو نقد رؤى العلماء العرب الاسلاميين المعاصرين حول حقيقة العلم وشكل توظيف المناهج العلمية.

ومن هنا فهو يبدأ من السؤال التالي: ما المراد من المنهج؟ هل المراد منه تلك المجموعة من الاستدلالات العقلية والمنطقية من قبيل قياس التمثيل (Analogy)، الاستقراء أو البرهان؟ أو مجموعة الطرق الاستدلالية التي يوظفها العقل من أجل كسب المعرفة واثبات الحقيقة؟ أو أن المنهج يعني الادوات والسبل التي يستعين بها الباحث من أجل الوصول الى مرحلة أعلى؟ أو أنه ليس ما ورد، بل الافق والزاوية التي ينظر منها الباحث في تحليله ودراسته مسائلَ البحث ومفرداته؟ جدير ذكره ان المعنى الأخير يعني البعد الايديولوجي وذهنية الباحث.

وفي رأي حسن عبدالحميد، مفردة (المنهج) ليست وحدها مليئة بالغموض والابهام، بل إن مفردة (منهج التفكير الاسلامي) هي الأخرى محاطة بالإبهام مبتلاةٌ بالتفاسير الخاطئة[٢].

ويقع حسن عبدالحميد تحت تاثير افكار (علم المعرفة التكويني) لجان بياجه عالم النفس السويسري المعروف، و(علم المعرفة الانتقادي التاريخي) لغاستون باشلر المؤرخ والفيلسوف الفرنسي.

← نجيب محمود سن الثمانين.

ـ التفسير الابستمولوجي لنشأة العلم، مجلة عالم الفكر الكويت، مجلد ١٧، العدد٣، ١١٨٦، ص١٣١ ـ ١٧٨.

(١) حسن عبدالحميد عبدالرحمن، المراحل الارتقائية لمنهجية الفكر العربي الاسلامي؛ المنهج في النسق الفقهي الاسلامي، حوليات كلية الآداب، قسم الفلسفة بجامعة الكويت، الحولية الثامنة. ١٩٨٧، (الرسالة الرابعة والاربعون).

(٢) المراحل الارتقائية، ص١١.

وكما نعرف، فإنّ باشلر طرح رؤى جديدة حول ماهية العلم ومنهجه، وكذلك حول كتابة تاريخ العلم، وقد ابتعد بذلك عن الرؤى الرسمية والشائعة في هذا الموضوع، واعتبر لذلك من اكثر المنتقدين تشدّداً لكشوفات العقليين، تلك الكشوفات التي ترجع بجذورها إلى معطيات فلسفية لعقليين من أمثال أرسطو وديكارت، والتي تعتقد اعتقاداً راسخاً بعقلانية المنهج العلمي.

ويعتقد هذا الاتجاه بأن المنهج العلمي هو ذاك المنهج الذي يقوم على بعض المبادئ اليقينية الثابتة التي تحظى بقبول الجميع، وعلى سبيل المثال، عندما ابدع ارسطو (القياس) في كتابه التحليلات الاولى وشرح اركانه كان يعتقد بان القياس هو المنهج الوحيد القادر على تكوين حجر الزاوية في كل العلوم، واساساً يتوجب بيان علمٍ ما عن طريق الاستدلالات القياسية[1].

واعقب أرسطو ديكارت في كتابه (مقالة في المنهج)، فشرح القوانين العامة للعلم منطلقاً من هذه المصادرة القاضية بأنّ العالم قائم على اصول (أو العلل الأولية) والتي يتوجب معرفتها وتدوينها، وهو ما يدّعي القيام به.

وقد استمر هذا التصور لما بعد وحتى اليوم ليتأثر به بعض المفكرين الغربيين وغالب الفلاسفة العرب / الاسلاميين، وليس اعتباطاً أن تصدر عن هؤلاء الباحثين كتب في موضوع (المناهج العلمية)[2].

غير ان المعطيات الجديدة في تاريخ العلم تشطب على مجموع هذه الافهام برمّتها؛ ذلك أنّه ليست فقط الرؤى والمفاهيم العلمية وعلى مدى المراحل التكاملية تتغير فحسب، بل لغة العلم ايضاً عرضة للتغير في كل مرحلة، اضافة الى

---

(١) حسن عبدالحميد، التفسير الابستمولوجي نشأة العلم، ص١٥٩.

(٢) أنموذجاً، مناهج البحث عند مفكري الاسلام عن علي سامي النشار، مناهج البحث في الفقه عن محمد سلام مدكور، مناهج البحث في علم النفس، تأليف عبدالرحمن يسوي.

هذا، أدّى الاعتماد على العقلانية (التي تقوم على مجموعة من الاصول والمبادئ الثابتة) الى انفصال (المنهج) عن (السياق التاريخي). بعبارة أخرى، إذا ما وضعنا خطّاً فاصلاً بين (المقولة في المنهج) و(المقولة في العلم) فان العقلانية نفسها ستفقد قيمتها العلمية[١]، ذلك أنه ـ وكما اشير اليه ـ يؤلّف المنهج الركن الاساس في البناء العلمي.

من جهة أخرى، لم يدرِ المفكرون المذكورون في أي الدوائر يستخدم منهج التفكير الاسلامي؟ كما أن المشهور ان المؤرخين المسلمين من جابر بن حيان وحتى (طاش كبرى زاده) اعتبروا العلوم اليونانية من قبيل الرياضيات، الفيزياء، المنطق، الطب والنجوم علوماً دخيلة (اجنبية) في مقابل العلوم الشرعية واللسانية (علم النحو وعلم البيان) التي عدت علوماً اسلامية.

وهذا التمايز بين العلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة يلقي علينا اسئلة منها:

هل أن المنهج المعتبر في العلوم الاسلامية غير المنهج المعتبر في العلوم الدخيلة؟ وعلى سبيل المثال، هل ان المنهج الذي استخدمه سيبويه في علم النحو ذات المنهج الذي استخدمه الاشاعرة أو المعتزلة في علم الكلام؟ وهل ان منهج النحويين والمتكلمين كمنهج الشافعي في (الرسالة)؟

ولو اردنا الاجابة عن هذه الاسئلة جميعاً إجابةً سلبيةً، تضع لكل علمٍ منهجه الخاص فسيغدو من المنطقي استخدام مفردة (المناهج الاسلامية) بدل مفردة المنهج الاسلامي[٢].

ويعتقد حسن عبدالحميد ان التمييز الرسمي والشائع بين العلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة، وما نجم عن ذلك من اعتقاد بوجود منهج اسلامي ومنهج غير

---

(١) التفسير الابستمولوجي، ص١٦٠.

(٢) المراحل الارتقائية، ص١٢.

اسلامي...، جرّ المفكرين والمؤرخين الاسلاميين قديماً وحديثاً الى متاهة؛ ذلك انهم ـ وفي تمييزهم بين المنهجين ـ اضطروا الى اعتبار قياس التمثيل، التشبيه ونظائر ذلك منهجاً اسلامياً فيما اعتبروا البرهان والاستقراء مناهج دخيلة، غافلين عن ان (علم المعرفة التكويني) يعلمنا نقطة فائقة الاهمية، وهي ان قياس التمثيل، الاستقراء أو البرهان انما هو تجل من مراحل تكوين المعرفة العلمية، وليس أيّ منها بقادرٍ على بناء علم سواء كان ذلك علماً اسلامياً أو غير اسلامي[1].

وكما سنرى، سيؤدّي (قياس التمثيل) دوره فقط في المرحلة الأولى من العلم ـ التي هي الوصف ـ كما ان العلم في المرحلة الثانية من التكوين يعتمد على الاستقراء.

ومن المؤكد أنه يمكن القول ان خطأ المفكرين العرب المعاصرين يعود الى افهام الاقدمين خاصّة في علم النحو واصول الفقه، حيث جعلوا قياس التمثيل المصدر الرابع في التشريع بعد القرآن والسنة والاجماع.

وقد أدى هذا الى ان يتوهم بعض الاقدمين ومعظم المفكرين المعاصرين ان المنهج المعتبر في الفقه واستنباط الاحكام الفرعية هو القياس.

أما لماذا انتخب مؤلف الكتاب المذكور المنهج الفقهي من بين المناهج المختلفة في التراث الاسلامي؟ فيجيب المؤلف نفسه بان ذلك يعود الى المكانة الخاصّة التي شغلها علم الفقه في الثقافة العربية / الاسلامية. وهو يتفق مع الجابري في ان (المنهج الفقهي) هو المنهج الأهم والاكمل الذي أبدعه العرب.

وقد خصّص الكاتب الفصل الأول من كتابه لرسم الخطوط الرئيسية للمثال التفسيري، وتكوين العلم ومعرفة الأدوات والعمليات العقلانية المنهجية وطريقة

---

(١) المصدر نفسه.

تكاملها، مثيراً آراء جان بياجه وغاستون باشلر.

وكما نعرف فان (بياجه) ـ الذي ركز اهتمامه على كيفية تكامل النموّ العقلاني للطفل من سنيّه الأولى وحتى نضجه الفكري ـ يعتقد باعتماد نتائج تحقيقاته في مجال علم النفس داخل مسائل علم المعرفة، والتي (مسائل علم المعرفة) حرّكته اساساً للخوض في قضايا علم النفس عينه[1].

وفي اطار نشاط واهداف (مركز الدراسات الدولية لعلم المعرفة التكويني) اطلع بياجه في هذا المضمار على بحوث واسعة جداً، اسفرت عن صدور مجموعة من ثلاثة مجلدات تحت عنوان (مدخل إلى علم المعرفة التكويني).

والكتاب المذكور ينهض من جهة على نتائج تحليلات علم النفس الذهني والمفاهيمي للطفل (من قبيل تصور الطفل مفهوم العدد، العليّة والاحتمال)[2]، فيما يتأثّر ـ ومن جهة أخرى ـ ببحوث واتجاهات بنيوية لمؤرخين سعوا الى تقديم تفسير منطقي لبُنية العلم والمعرفة.

ويعتقد حسن عبدالحميد ان اطروحة علم المعرفة التكويني الهادفة إلى بيان المراحل التكوينية للمنهج في الفكر العربي / الاسلامي تمكّننا من فهم دقيق للمسألة مورد البحث، لأن علم المعرفة التكويني يقدم نظريته في كيفية نمو العلم وتكوّنه، وهي نظريّة تأخذ بنظر الاعتبار الرؤى التاريخية في تحول المعرفة دون أن تغفل عوامل المعرفة الاجتماعية. وفي النتيجة يمكن وصفها بانها نظرية متكاملة وشاملة وتبدو انها قادرة قبل غيرها من النظريات المنافسة على تقديم

---

(١) هربرت جينز برغ ـ سيليف أوبر، رشد عقلي كودك از ديدگاه ضبياژه]بالفارسية [ترجمة فريدون حقيقي ـ فريده شريفي، منشورات فاطمي ١٣٧١، ص٣٩.

(٢) Chance.

تفسير علمي ودقيق في نفس الوقت عن الحصيلة المعقدة للعلم البشري[١].

وقبل الاشارة الى النتائج المعرفية في توظيف علم المعرفة التكويني في مناهج العلوم الاسلامية، من الضروري ان نبين ـ ومن اجل فهم أفضل لدعوى مؤلف كتاب (النظرية العامة للنمو) والمراحل المختلفة للنمو الذهني للطفل ـ آراء بياجه باختصار.

يعتقد بياجه أن ذهن الطفل يمرّ بأربع مراحل الى أن يصل مرحلة البلوغ الفكري: المرحلة الأولى: مرحلة الحس ـ الحركة (من ولادته وحتى عامين من عمره). المرحلة الثانية: مرحلة ما قبل العمليات (٢ ـ ٧ سنوات)، وفي هذه المرحلة يتعلّم الطفل التفكير وتتكوّن في ذهنه شواخص وصور ذهنية، غير ان تفكيره يفتقد الى نظام منطقي. المرحلة الثالثة: مرحلة العمليات المحسوسة (٧ ـ ١١ سنة)، وفي هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يفكر بطريقة منظمة، الاّ ان تفكيره ينحصر في الاشياء والاعمال الملموسة. بعبارة أخرى ان الطفل يستطيع أن يفكر بطريقة منطقية فقط في الاشياء الموجودة والتي لها خصائص عينية. المرحلة الرابعة: مرحلة العمليات الصورية (الانتزاعية) والتي تبدأ في سن الثانية عشر تقريباً، وتتجذر في مرحلة المراهقة، وفي هذه المرحلة يكتشف الطفل قدراته ليفكر في مستويات إنتزاعية ومجرّدة بالكامل بطريقة منظمة.

والنقطة التي تثير الانتباه هنا، ان بياجه، وعلى خلاف علماء النفس الآخرين، له فهم متميز تماماً لمفردة (مرحلة)، بمعنى انه اذا كان استخدام علماء النفس لـ(المرحلة) كأداة مناسبة لترتيب كشوفاتهم العلمية، فان بياجه واتباعه يعتبرون المرحلة متضمنة لكثير من الاعتقادات الراسخة والثابتة في ماهية البلوغ والنمو،

(١) المراحل الارتقائية، ص١٥ ـ ١٦.

وكل مرحلة في التفكير من الناحية الكيفية تختلف عن المراحل الأخرى، وعلى سبيل المثال، التفكير في مرحلة (العمليات المحسوسة) يختلف أساساً من الناحية الكيفية مع التفكير في مرحلة (العمليات الصورية).

وهذه الاختلافات ـ وعلى نطاق واسع في المظاهر الذهنية، اللغة وكيفية استدلال الطفل في كل مرحلة قياساً بالمراحل الأخرى ـ أمور قابلة للملاحظة في هذا المضمار، اضافة الى ان بياجه يؤكد على ان الطفل يقطع هذه المراحل بشكل متسلسل ومتوالي ثابت[١].

وبعد بيان النقاط اعلاه نعوذ الى البحث الأساسي في دعوى مؤلف كتاب المراحل الارتقائية... اذ يعتقد حسن عبدالحميد ان الافادة من (علم المعرفة التكويني) في مضمار اعادة بناء المنهج الفقهي للمسلمين سيعود بنتائج اساسية.

أولاً: إن علم المعرفة المذكور قادر على ايجاد توافق بين المراحل المختلفة في بناء وتكوين العلم ومراحل النمو الذهني الانساني. وبعبارة أخرى ان التحليل التكويني يدلّنا على ان تاريخ التفكير العلمي يخضع لذات المراحل التي يخضع لها التحول الفكري الفردي، وعلى هذا الاساس فان دراسات علم المعرفة التكويني ستكون مجدية كثيراً جداً لمؤرخي العلم[٢].

ثانياً: وسعة وثراء علم المعرفة التكويني في تحليل البناء المعرفي، أي ان التحليل التكويني يفرض تحليلاً بنيوياً للمعرفة، سواء من افق نفسي أو من أفق اجتماعي بالشكل الذي يقصده بياجه، بمعنى انه لا يمكن النظر الى تاريخ العلم ـ الذي هو تاريخ العقلانية البشرية ـ نظرةً كميّة أو تراكمية، بل انه، وبعد تقسيم تاريخ العلم الى مراحله الأساسية، يمكن فقط الوصول الى فهم عميق وتحليل

(١) Invariant Sequence.

(٢) المراحل الارتقائية، ص١٦.

دقيق له.

ان كل مرحلة من تاريخ العلم، هي حصيلة مجموعة عوامل مترابطة مع بعضها البعض أوجدت تلك المرحلة؛ ومع كل هذا فان كل مرحلة لها بناؤها الخاص الخاضع لقوانين تلك المرحلة والذي يميزها عن المراحل السابقة واللاحقة.

أما لو نهضت كل مرحلة على بنيّات وعناصر منطقية ثابتة، فكيف يمكن حينئذٍ توضيح التغيرات الباطنية فيها؟ وأساساً كيف يمكن ايجاد التوافق والانسجام في النظام الواحد بين مجموعتين من العوامل احداهما ثابتة (عناصر البناء المنطقية) والأخرى متحركة متغيّرة (عناصر معرفية نفسية، معرفية اجتماعية وتاريخية)[١].

وهنا يسعى المؤلف وبالاستناد الى رؤية باشلر للاجابة على السؤال المذكور، وهذه اجابته باختصار:

على خلاف الرؤى الرسمية في تاريخ العلم التي تصوّر العلم من البدء وحتى الآن على شكل حصيلة منطقية منسجمة، يطرح باشلر مفهوم (الانفصال المعرفي) ليدّعي بصراحة عدم الاستمرارية في العلم. ووفقاً لرؤيته فان أية نظرية علمية جديدة لا تعدّ استمراراً أو نتيجة منطقية لنظريات سابقة بل إن التحول العلمي أساساً، لا يشكل مساراً خطياً، من هنا فان النظريات الرسمية في بناء وتكوين العلم ليست قادرة على شرح الانفصالات المعرفية الموجودة في كل مرحلة بصورة جليّة، وفي النتيجة تبقى عاجزة عن انشاء نظرية دقيقة في التحول العلمي.

ويؤكد باشلر ـ حلافاً لآراء العقلانيين كأرسطو وديكارت ـ على ان العلم لا يبدأ من مبادئ أو أصول ثابتة ولا يطّرد على نحو تراكمي، بل انه في كل فترة

---

(١) ص١٧.

تحدث انفصالات معرفية كبرى تميز كل مرحلة عن المراحل الأخـرى دون أن تدع مجالاً للمقارنة.

ان التحليلات العلمية الدقيقة تدلّنا على أن كل مرحلة جديدة تتبلور تـدفع بالمناهج التي كانت مقنعة في المراحل السابقة الى وادي النسـيان، وعـلى هـذا الاساس فان تدوين تاريخ العلم لا ينبغي ان يبدأ من (الماضي) الى (الحاضر) أو من المراحل الأولى الى المراحل التالية، بل يتوجب التـحرك بـالعكس، أي انـه يجب البدء بالمراحل النهائية لذلك العلم، وفي هذه الحالة فقط تتجلّى الانفصالات العلمية الموجودة في ذلك العلم[١].

وعلى هذا الاساس، ينحو باشلر منحى ادعاء عدم الاستمرارية فـي العـلم، ويوضح في هذا المضمار انه لا يمكن ـ وعلى سبيل المثال ـ ان نعتبر علوماً مثل الكيمياء أو الفيزياء الجديدة استمراراً أو نتيجة منطقية للكيمياء والفيزياء القديمة؛ لأنه لا توجد خلفية أو اساس مشترك بينهما، بعبارة أكثر دقة ان العلم من وجهة نظره ـ وقبل أن يكون وليد الاستمرار والتعاقب المـنطقي ـ يـعبّر عـن حـصيلة الانفصالات والتنقلات الدائمة التي تحدث في دائرة المفاهيم وفي دائـرة اللـغة أيضاً.

ويخلص حسن عبد الحميد وعلى اساس ما ورد آنفاً الى هذه النتيجة وهي ان العلم ـ أي علم ـ كسائر الكائنات الحيّة الاخـرى لم يـظهر الى الوجـود كـاملاً وشاملاً، بل انه يصل الى الكمال بعد طيّه مراحل مختلفة تماماً. ويـضيف: ان أي علم ولأجل الوصول الى مراحل البلوغ والنضج لا مفر له من أن يـطوي ثـلاث مراحل هي حسب الترتيب كما يلي: ١ ـ مرحلة التوصيف ٢ ـ مرحلة التجربة ٣ ـ

(١) التفسير الابستمولوجي لنشأة العلم، ص ١٣٩.

مرحلة التبيين.

ويضيف طبعاً مرحلة رابعة ايضاً هي (المرحلة الاكسيوماتيكية)، وهذه المراحل الثلاثية تصدق على جميع العلوم، ولا يوجد علم لم يطو هذه المراحل في حصيلته التكاملية.

ومن البديهي أن يشكّل فهمٌ كهذا نقطة التقابل مع التقسيم التقليدي والشائع للعلوم، ليس فقط في مدوّنات الاقدمين، بل وحتى في كتابات المفكرين العرب المعاصرين ايضاً، وعلى سبيل المثال عبدالرحمن بدوي[١] وزكي نجيب محمود[٢] و... الذين قسموا ـ متأثرين بالأفهام التقليدية المتداولة ـ العلوم الى ثلاثة أقسام:

١ ـ العلوم الاستدلالية ٢ ـ العلوم التجريبية ٣ ـ العلوم الانسانية.

ومن المؤكد جداً ان هكذا أفهام خاطئة قد وقفت سداً في طريق التقدم العلمي والفلسفي[٣].

وكما ورد آنفاً، فإنّ تصنيف العلوم المذكورة له جذوره الفلسفية في القرون الوسطى الى تلك الفترة التي قسم فيها الفلاسفة يومذاك العلوم الى قسمين: القسم الأول ويشمل الرياضات والقسم الثاني ويشمل الفيزياء، والذي يستوعب وبشكل عام كل ابعاد الطبيعة (ومنها الانسان)، وهذا يعني ان فلاسفة تلك الحقبة صنفوا العلوم الانسانية جزءً من العلوم الطبيعية.

ان هذا التقسيم أو التصنيف ينهض على رؤية عمودية للعلم، ويهمل المراحل

(١) عبدالرحمن بدوي، النقد التاريخي، ص أ (مقدمة الكتاب).

(٢) زكي نجيب محمود، المنطق الوضعي، الانجلو مصرية، القاهرة، ج٢ (في فلسفة العلوم)، ص٦، ج، ١٤٣، ٣٣٣.

(٣) التفسير الابستمولوجي لنشأة العلم، ص١٤٨.

التكاملية لـه ـ أي علمٍ كان ـ غير أن تاريخ العلوم الجديد يعتبر هذا الفهم مجانباً للصواب تماماً مقدّماً رؤيةً جديدةً وبديلةً هي الرؤية الافقية. وعلى أساس هذه الرؤية لا يوجد علم يكون بذاته توصيفياً، تجريبياً أو استدلالياً، بل ان العلم سواء كان عقلياً (كالفلسفة والرياضيات) أو نقلياً (كالفقه واصول الفقه) لا بد وان يمرّ بتلك المراحل الثلاثية في محصّلة تكامله، ولكي يصل مراحله اللاحقة لابـد أن يطوي المراحل السابقة[١].

١ ـ المرحلة التوصيفية: من الخصائص الهامّة في هذه المرحلة ـ والتي هـي أول مرحلة في بناء وتكوين العلم ـ ظهور حالة من الترتيب أو التصنيف مـن المشاهدات المبعثرة والتفاصيل؛ بشكل يقدم العلم على اساسه حكـماً ابـتدائـياً وعاماً. والمنهج الرئيسي في هذه المرحلة هو (قياس التـمثيل)، فـبالاستناد الى التشابه ووجوه الاشتراك ترتبط التفاصيل والاجزاء مع بعضها البعض. طبعاً المراد من القياس هنا معناه العام. وكما لاحظنا فان الطفل في المراحل الأُولية من البلوغ الذهني يستخدم هذا النوع من الترتيب أو التشبيه لمعرفة العالم من حوله، أي أنّه يقوم من خلال الاستدلال التمثيلي بايجاد رابطة بين أمرين محسوسين أو أكثر[٢].

٢ ـ المرحلة التجريبية: وهي المرحلة الثانية للعلم، والتي تبدأ مـباشرة بـعد المرحلة التوصيفية وتنهض أساساً على منهج الاستقراء. وفي هذه المرحلة يـقوم العالم ـ كذهن الطفل ـ بملاحظة (الأمور الجزئية) للوصول الى (نتائج كلّية)، وذلك عن طريق التعميم، وبعبارة أخرى ان العلم ـ الذهن يـصل مـن المـحسوس الى المعقول أو من الواقعة الى القانون.

٣ ـ المرحلة الاستدلالية: وفي هذه المرحلة يشهد العلم ـ ونـتيجةً للـتراكـم

---

(١) المصدر نفسه ص١٤٩.

(٢) رشد عقلاني كودك (بالفارسية)، ص١٤٠.

المعرفي الذي حصل عليه في المرحلتين السابقتين ـ تحولاً كيفياً، أي أنّه يسعى في هذه المرحلة وعلى أساس قياس التمثيل والاستقراء الى تنظيم المعطيات السابقة بشكل مختلف ومن ثمّ وضع قانون لها، كما يستخرج الطفل في مرحلة العمليات الصورية من المشاهدات المحسوسة ومن بعض الاحكام الكلية قوانينَ عامة.

وعلى أية حال، لا مفر للعلم ومن أجل الوصول الى هذه المرحلة من قطع المراحل السابقة. ان المنطق مقارنة بالعلوم الأخرى هو أول علم استطاع أن يضع قدمه في هذه المرحلة، فقد نجح ارسطو في القرن الرابع قبل الميلاد بتأليفه كتاب (التحليلات الأولية) في وضع قواعد كليّة أسماها (القياس).

وكذا الحال مع القانون الروماني، فمن خلال المراحل التوصيفية والتجريبية ـ التي كانت تنهض عموماً على الدين واحكام العرف الاجتماعي[١] ـ نجح في النهاية (من سنة ١٣٠ ق.م حتى سنة ٢٨٤م) في وضع قوانين عامة في مصادر التشريع. وفي هذه المرحلة استفاد فقهاء الرومان وبشكل واسع ـ كفقهاء الاسلام في عصور تالية ـ من المناهج الاستدلالية المنطقية والرياضية اليونانية بغية تأسيس القواعد الفقهية والحقوقية[٢].

ان وصول العلم الى هذه المرحلة يعني ان المفاهيم الاساسية والمناهج المستخدمة فيه قد وصلت على صعيد النمو والتكامل الى الحد الذي يمكّنها من بيان جميع المشاهدات الجزئية والاحكام المترتبة عليها في قالب مجموعة من (القضايا)، هذه القضايا التي تبحث جنساً واحداً أو مجموعةً واحدةً معيّنة فيما تكون في نفس الوقت صادقة وضرورية.

---

(١) التفسير الابستمولوجي لنشأة العلم، ص١٥٥.

(٢) ص١٥٦.

ويشير حسن عبدالحميد الى ان وصول العلم الى هذه المرحلة لا يـعني ان قياس التمثيل أو الاستقراء ـ وهما المنهجان الرئيسيان في المرحلة الأولى والثانية ـ قد وضعاً جانباً بالمرّة بل العكس، حـيث يسـعى العـلم والى جـانب المـنهج الاستدلالي الى الافادة منهما، مع الفارق انه في المرحلة الثالثة لا ينحصر المنهج الاستنتاجي بقياس التمثيل أو الاستقراء[1]، وهذا يعني ان قياس التمثيل لا يبني برهاناً بمفرده؛ لان النتائج الحاصلة عنه ظنّية، ومن هنا تبرز الحاجة الى اشكال أخرى في الاستدلال للحصول على نتائج يقينية، وهذا الحكم يصدق ايضاً على الاستقراء[2].

ويسعى حسن عبدالحميد في القسم الثاني مـن كـتابه الى تـوظيف المـثال التفسيري السابق في النظام الفقهي الاسلامي، فهو يشير وقبل الولوج فـي بـحثه الاصلي الى هذه النقطة، وهي ان نتائجه التحليلية في بيان كيفية بناء وتكوين الفقه الاسلامي هي نتائج معرفية صرفاً ولا علاقة لها بأي من الاتجاهات الايديولوجية أو الميول المختلفة؛ ومن هنا اذا اتفقت نتائج هذا البحث مع مقاصد أحد اتجاهات التفكير الاسلامي، فـهو مـجرد مـصادفة، وليس عـملاً مـخططاً له مـن قـبل أو تحيّزي[3].

وهكذا يبدأ بحثه الاصلي مع هـذا الاسـتنتاج وهـو أن عـلم الفـقه كسـائر الكائنات الحية لم يولد من الفراغ، بل إنّ له منشأ وماضياً معرفياً خـاصاً، وهـو الاعراف والعادات الحقوقية الشائعة في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام.

وكذلك الفقه، حصيلة تكاملية لتلك المراحل الثلاثية التي يـطويها أي عـلم

---

(١) المراحل الارتقائية.

(٢) م. روزنتال، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٧، ص٢٥.

(٣) المراحل الارتقائية، ص٣٢.

آخر ويخبرها، ومن هنا يفقد التقسيم الشائع لتاريخ الفقه وفق المعايير السياسية، التاريخية أو الجغرافية الى عصور مختلفة كعصر النبي، عصر الخلفاء الراشدين وعصر الخلافة العباسية يفقد قيمته العلمية تماماً، ذلك اننا رأينا ان المراحل الثلاثية التوصيفية، التجريبية والاستنباطية لا تحفل ولا تنظر الى المراحل أو الانفصالات التاريخية المعينة فضلاً عن أن تكون هذه المراحل التاريخية متداخلةً مع بعضها البعض.

الفقه الإسلامي ونظريّة المراحل الارتقائية

١ ـ المرحلة التوصيفية للفقه الاسلامي:

وبدء هذه المرحلة يمكن اثباته من خلال وقوع ظاهرتين: الاولى: ظاهرة اقتراض علم الفقه من الاحكام الحقوقية في العصر الجاهلي؛ الثانية: ظاهرة قياس حكم الأمر المجهول على الأمر المعلوم[1].

وعلى صعيد الظاهرة الأولى يجب الاشارة الى ان الاسلام لم يقم بابطال كل الاحكام والقوانين الحقوقية الشائعة بين العرب في شبه الجزيرة العربية، بل على العكس، اذ منح بعضها الصبغة الشرعية (على سبيل المثال منح الشرعية للطرق الشائعة في الطلاق زمن الجاهلية، الظهار، الايلاء، الخلع البائن والرجعي). بمعنى ان الاسلام وفي باب السنن مارس حالة من الانتخاب فأبطل بعض العادات الحقوقية ومنح البعض الآخر منها صبغة الشرعية.

ومن المؤكد ان الاسلام لم يكن ليستطيع تحقيق ذلك الاّ بعد تحديد جميع صيغ الزواج أو الطلاق حيث ينهض هذا العمل بذاته على منهج معين، الا وهو

---

(١) قياس الغائب على الشاهد.

منهج (قياس التمثيل). بعبارة أخرى انتخابٌ سبقته حالة من التصنيف. ومن ناحية تاريخية ـ وكما رأينا ـ وظف الاسلام ايضاً هذا المنهج واختار هذا الأسلوب.

الظاهرة[١] الثانية: (قياس حكم الأمر المجهول على الامر المعلوم) وقد كان شائعاً بين المسلمين سواء في زمن النبي أو بعده، وهو ما عرف بـ(الاجتهاد)، فقد استطاع المسلمون وبالاعتماد على القياس تعميم حكم الامور المعلومة (التي بينها الكتاب ثم السنة فيما بعد) على الأمور المجهولة (التي لم تبين في الكتاب ولا في السنة)، والقياس كما ذكرنا ينهض هو الآخر على التشابه أو الاستدلال التمثيلي[٢].

والقياس في هذه المرحلة له طبيعةً معنى عام وبسيط، يفتقد بالمقارنة مع توظيف الشافعي في (الرسالة) التعقيداتَ العلمية والمنطقية. بتعبير آخر، ان الاجتهاد في مراحله الاولية كان بسيطاً جداً ولمّا يعرف بعد كأداة هامّة في التشريع، غير ان هذا التوظيف الابتدائي للقياس وتعميم حكم الاصل على الفرع كان على كل حال مبتنياً على حالة من الحصر والتحديد لأوصاف وخصائص الاصل.

والنقطة التي تلفت النظر في هذه المرحلة من بناء وتكوين علم الفقه ان قياس التمثيل قد نهض بدور أساسي؛ بمعنى ان احكام الأمور الغائبة قد قيست تدريجياً في الأمور المعلومة، وتهيأت من ثَمّ خلفية تراكمية لعلم الفقه.

ومن الضروري أن نعرف كذلك، وعلى خلاف رأي المفكرين في الماضي والحاضر، ان قياس التمثيل قد اضطلع بدور محوري في هذه المرحلة فقط، ولم يجد النظام الفقهي الاسلامي في المراحل التالية حاجة إلى توظيف القياس؛ لان

---

(١) المراحل الارتقائية، ص٣٧.

(٢) محمد الخوانساري، منطق صوري، ص٣٢٨.

النظام المذكور كان قد ولج في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وعلى ايدي فقهاء مثل ابي حنيفة ومالك والشافعي المرحلة الاستدلالية مستفيداً من مناهج أخرى (غير قياس التمثيل)[١].

٢ ـ المرحلة التجريبية (الاستقرائية) للفقه الاسلامي:

ليس المراد من الاستقراء هنا استخراج حكم كلي من تحليل موارد جزئية فقط، بل استنباط كل فكرة عامة يمكنها مساعدتنا في فهم الادراكات الجزئية والاحساسات غير الدقيقة التي تحصل من مشاهدات عينية، ومن خلالها ايضاً يمكننا منح الاستنباطات الاستقرائية صورة منطقية.

من جهة أخرى، ونظراً للتداخل الحاصل بين المرحلة التجريبية والمرحلة التوصيفية وبالاستناد ايضاً الى مثال علم المعرفة التكويني، يمكن استنتاج تقدّم المرحلتين المذكورتين على المرحلة الاستدلالية في النظام المعرفي للفقه الإسلامي.

ان تكوين الآيات القرآنية والسنة النبوية يعبّر عن وجود هذا البعد أو الصبغة التجريبية في الفقه الاسلامي حيث يستقبل تكوين علم الفقه اشكالاً متعددة أهمها:

ـ الحاجات العملية وآيات الاحكام: ان كيفية نزول القرآن يدلّ على ان كثيراً من الآيات كانت احكاماً تلبي حاجات المجتمع آنذاك، فليس اعتباطاً أن تتصدّر كثير من الآيات مفردات مثل: (يسألونك) و(يستفتونك).

ـ وجود اصل النسخ في الآيات القرآنية والسنة النبوّية الذي يعبر عن صبغة عملية ـ تجريبية للاحكام الشرعية.

---

(١) المراحل الارتقائية، ص٤٢.

ـ التدرج في نزول القرآن، حيث لم ينزل دفعة واحدة، وذلك ان الاسلام نزل في بلاد كانت تتبع آداباً وعادات وقوانين خاصة، وعلى هذا لم يكن بمقدوره فرض كل احكامه على سكان تلك البلاد، إذ كان هذا العمل بحاجةٍ الى وقت طويل. من هنا اكتسبت الاحكام التشريعية الاسلامية صبغة تدريجية. بعبارة أخرى ان الانتقال من الاحكام القديمة الى الاحكام الجديدة قد تبلور على صعيد التجربة حيث نهض على أساس المشاهدة والاستقراء، وقد تمكن الاسلام من بيان المراحل التالية فقط عندما استقبله الناس بمراحله الأولية، وعلى سبيل المثال ان تحريم الربا وشرب الخمر أو وجوب الصلاة والزكاة حصل بعد طي مراحل متعددة.

ـ الصورة الاستقرائية لبعض القواعد الفقهية: فقد اصبح الاستقراء بمعناه المنطقي أساساً لكثير من القواعد الفقهية منذ بدء مراحل تكوين الفقه؛ ومن ذلك تحديد مدّة الحيض لدى النساء بما لا يزيد عن عشرة أيام، وهو ينهض على استقراء ناقص، وكذا في موارد أخرى قد أثبتها التاريخ.

والمراد من توظيف الاستقراء، استخراج بعض من القواعد الكلية التي يمكن على اساسها تنظيم السلوك البشري. بعبارة أخرى إن الهدف النهائي للقرآن من التحريم التدريجي للربا هو وضع القاعدة الكلية في تحريم الربا[١].

وفي جميع الأحوال، وعلى أساس ما سبق، يمكننا استنتاج ان التراكم الكمي للقواعد الفقهية في مرحلتيه التوصيفية والتجريبية قد مهّد الارضية المساعدة لكي يخطو الفقه مرحلته الثالثة، وهي مرحلة الاستدلال.

٣ ـ المرحلة الاستدلالية للفقه الاسلامي:

---

(١) ص٤٩ ـ ٥٠.

ان علم الحقوق (الاسلامي وغير الاسلامي) كسائر العلوم الأخرى يجب أن يتوفر فيه شرطان لكي يصل الى المرحلة الاستدلالية:

١ ـ امكانية تصوير القوانين الحقوقية.

٢ ـ تقديم نظرية منسجمة حول العلم، يمكن على ضوئها تحديد مصادر التشريع وقيمتها، جدير ذكره ان هذين الشرطين يرتبطان بعلاقة عضويّة وطيدةٍ تُحيل التفكيك بينهما، فمن جهة توفّر مصادر التشريع المادة الاساسية للقوانين الحقوقية، فيما يكون وضع هكذا قوانين حقوقية مسبوقاً ـ من جهةٍ أخرى ـ بوجود نظرية علمية دقيقة فيها[1].

والنظام الفقهي الاسلامي ليس استثناءً من هذا الحكم، ذلك انه ومنذ مراحل الولادة الأولى للفقه تألفت في هذا العلم قواعد كلّية، وفي مرحلة أدنى قدّمت أعداد كبيرة من مصادر التشريع ضمن صيغ عقلانية كان في حصيلتها الاجماع والقياس والاستصلاح والاستحسان (جدير بالذكر أنّ هذه المصادر وقيمتها كانت وما تزال سبباً في اختلاف آراء الفقهاء حولها).

غير انه وانطلاقاً من قيام كل عمل على نظرية تعنى بالعلم نفسه، وحيث إن نظرية العلم واضافة الى مصادراتها المرتبطة بموضوع العلم نفسه تستصحب معها العقائد الدينية، الاجتماعية والتجربة البشرية، انطلاقاً من ذلك لم تتولّد من أعماق الإسلام صيغة موحّدة لنظام فقهي، بل ظهرت نظمٌ فقهية عديدة نتيجة وصلةٍ قائمة مع هذا الاختلاف الموجود في الرؤى والاعتقادات، وهذه النظم هي ما يمثل أمامنا من مذاهب فقهية معروفة والتي يختص كل واحد منها بنظم ترتيبي خاص للقوانين الفقهية وتوظيف محدّد للمصادر التشريعية.

---

(١) ص٥١.

وليس المراد الاختلاف في حكم جزئي هنا أو هناك، بل ذاك الناجم عن ترتيب الأولويّات التي يمنحها كل مذهب فقهي لمصادر التشريع (القرآن، السنة، الاجماع والقياس)، الأمر الذي يعبّر بمجمله عن حصيلةٍ للاعتقادات الدينية والاجتماعية.

وانطلاقاً من هذا يمكن الادعاء بان علم الفقه الاسلامي لا يختزن نظاماً واحداً، بل يشتمل نظماً متعددةً ولدت في أعماقه، وعلى سبيل المثال، استند المذهب المالكي في البداية الى الكتاب والسنة، ثم استند فيما بعد الى الاجماع والقياس، اما المذهب الحنفي فقد قدم القياس على الاجماع، هذا في الوقت الذي كان المذهب الظاهري يعمل وفق معطيات ظواهر الكتاب والسنة النبوية ولا يستند الى الاجماع الاّ في حالة فقدان النص الشرعي بشرط أن يكون معنى الاجماع اتفاقاً للامة الاسلامية جمعاء، ومن الواضح جداً ان تحقق هكذا شرط أمر عسير للغاية.

والمذهب الظاهري يرفض بشكل عام الرأي، القياس والاستحسان لأنه يعتقد بكمال الكتاب والسنة وغناهما.

والنقطة الهامّة هي ان بلوغ النظام الفقهي الاسلامي لا علاقة له أبداً بالكثرة أو الندرة في مصادر التشريع، ذلك أن المذهب الظاهري ومع نزرة المصادر استطاع ان يبني نظامه الفقهي ليصل الى المرحلة الاستدلالية[١].

وابن حزم الفقيه الظاهري المعروف يرفض قياس التمثيل ((Analogy) كمنهج في استنباط الاحكام، غير انه يؤكد بدل ذلك على اهمية القياس المنطقي

((Syllogism)، اذ يشير في كتابه: (التقريب لحدّ المنطق والمدخل اليه بالالفاظ

(١) ص٥٦.

العامية والامثلة الفقهية) الى ان القياس المنطقي أعلى درجات اليقين، أمّا قياس التمثيل فلا يفيد سوى الظن والاحتمال[١].

ويثبت حسن عبدالحميد في القسم الثالث من كتابه بعض النتائج:

الاولى: ان التفكيك التقليدي الشائع بين علم الفقه وعلم اصول الفقه تفكيك غير منطقي ولا يستند الى اساس، ذلك ان هذين العلمين يرتبطان بعلاقة هي نفس علاقة (نظرية العلم) بـ(العلم) ذاته، وبما ان كل علم ينهض على اصول تعيّن في نظرية العلم، فنتيجة لذلك يكون تمييز الفرع عن الاصل أمراً غير منطقي بالمرّة[٢].

الثانية: وعلى خلاف الاعتقاد الشائع والحاكم في تاريخ الفقه لم يكن قياس التمثيل ((Analogy)المنهج المعتبر الوحيد في تكوين الفقه، بل ان هذا القياس وكما ذكرنا قد عمل به في المرحلة الأولى لعلم الفقه ـ وهي المرحلة التوصيفية ـ أما في المرحلة الثانية والثالثة فان بنية الفقه قامت على استخدام منهجين هما منهج الاستقراء ومنهج الاستدلال وكان لهما دور اساسي، ولم يحذف قياس التمثيل دفعة واحدة، بل ظل يقوم بدور فرعي الى جانب هذين المنهجين.

الثالثة: ان القياس ـ سواء أخذ به كأحد منابع التشريع أو كان المراد منه قياس التمثيل ـ لم يكن قادراً بمفرده على تأسيس علم أو نظام معرفي، ذلك ان القياس بمعناه الأول عمل عقلاني / استدلالي يكوّن منهجاً فقهياً يُستند اليه لاستنباط قسم من القوانين الفقهية فقط. أما في معناه الثاني فهو عمل عقلاني بسيط يؤسس فقط لنتائج ظنية واحتمالية، وفي هذه الحالة سيكون هو نفسه بحاجة الى بعض الاصول اليقينية.

ويبدو ان ابن حزم هو أول من فطن الى هذه النقطة في أوساط الفقهاء، كما

---

(١) ص٥٧.

(٢) ص٦١.

اعقبه الغزالي ايضاً في التأكيد على هذا الأمر، وهذان الفقيهان ـ على خلاف عموم الفقهاء الذين يعتبرون المنهج الفقه الاسلامي قائماً على القياس (Analogy) ـ يعتقدان ان الفقه كأي علم آخر لا بد له من أساس يقيني ينهض عليه من أجل الوصول الى المرحلة الاستدلالية، فيما لا يفيد القياس المذكور سوى الظن[١].

ومن هذا الافق ينقد المؤلف كلام ابن تيمية في رد القياس، وكما نعرف انه يرفض ابن تيميّة بالمرّة توظيف القياس المنطقي في العلوم الشرعية، ويؤسس لقياس التمثيل بديلاً عنه.

وحسن عبدالحميد في نقده، يبين ان ابن تيمية يعتقد باعادة علم الفقه ـ الذي اجتاز مراحل كما له وبلوغه ـ الى مراحله الأولى؛ كما لو أنه يعرض عن التحولات الفقهية سواء على صعيد المناهج أو على صعيد المفاهيم، ثم يضيف الى ذلك اعترافه بالعجز عن فهم كلامه (ابن تيمية) أو أن يقدّم تفسيراً معقولاً له[٢].

الرابعة: سلب الاعتبار عن كثير من البحوث الحديثة التي يطرحها المفكرون الاسلاميون في مجال المناهج الاسلامية.

نقد عبد الحميد للجابري:

ويتعرض المؤلف في هذا القسم من الكتاب بالنقد لهذه البحوث خاصة نقده لسامي النشار في كتابه عن مناهج مفكري الاسلام، وحسن حنفي في أطروحة الدكتوراه تحت عنوان مناهج التفسير؛ محاولة في اصول الفقه؛ وأخيراً نظرية محمد عابد الجابري في كتابه تكوين العقل العربي، وإذ بيّنا آراء الجابري في

---

(١) ص٦٤.

(٢) ص٦٦.

النظرية الأولى وكذا النظرية المقابلة وهي نظرية حسن عبدالحميد (بوصفها النظرية المنافسة)، فمن المناسب هنا أن نكتفي بنقد حسن عبدالحميد لنظرية الجابري، ذلك وعلى الرغم من تمجيد حسن عبدالحميد لكتاب تكوين العقل العربي، بيد أنّه يعتبر أنّ نظرية الجابري حول ماهية ومنهج الفكر الاسلامي قد وقعت في نفس العيوب التي وقع فيها المفكرون الذين سبقوا الجابري نفسه، وذلك لأن الجابري يصرح في كتابه بان قياس التمثيل هو المنهج الذي تبلور على اساسه كل التفكير العربي، ومن هنا يمكن اعتبار اصول الفقه حجر الزاوية في العقل العربي وليس العقل الفقهي بمفرده.

ويضيف حسن عبدالحميد في هذا المضمار، ان الجابري ـ كغيره من المفكرين ـ قد وقع تحت تأثير الفهم الرسمي الشائع في ادعائه ان الشافعي هو أول من أسس للمنهج المذكور، ومن هنا يمكن اعتبار (الرسالة) بمنزلة: قواعد في توحيد العقل العربي / الاسلامي.

وبعد أن يبين مؤلف الكتاب آراء الجابري، يتعرض لنقد آرائه مذكراً في هذا المضمار باهمال مفكر مثل الجابري لحقيقة قياس التمثيل ودوره المحدود في بناء وتكوين العقل البشري، ليرى فيه الحجر الأساس للعقل العربي / الاسلامي.

والأعجب من ذلك كيف اختصر كل المناهج المعمولة في الفقه في قياس التمثيل ليتعاطى معه بصفته المنهج الوحيد للتفكير الاسلامي، كلامٌ كهذا من شخص يدّعي تحليل تكوين العقل العربي عجيب جداً.

فما هو الفرق بين الجابري والمستشرق المعروف جوزيف شاخت الذي يدّعي وجود منهجين رئيسيين على صعيد الاستنباط وتنظيم القوانين الحقوقية: المنهج التحليلي (Analytical method) ومنهج قياس التمثيل (Analogy method)، حيث يمكن البحث عن عينات للمنهج الأول في القانون الروماني، والذي أفضى إلى

وضع ضوابط حقوقية، فيما يمثّل الفقه الاسلامي عيّنةً من عيّنات المنهج الثـاني حيث يرتكز على اساس التشابه القائم بين شيئين ليسري حكم أحـدهما عـلى الآخر دونما إرساء أو افتراض لعلاقة حقيقية بينهما[١].

ويضيف عبدالحميد: أن الجابري وشاخت كذلك قد غفلا عـن هـذه النـقطة الأساسية، وهي عدم الخلط بين القياس (باعتباره مصدراً في التشريع) وقـياس التمثيل، فالقياس في توظيفات علماء الاصول يمثّل مصدراً من مصادر التشريع لاستخراج بعض القواعد الفقهية، ولكنه مع كل هـذا ليس المـصدر الوحـيد فـي التشريع، اذ يمكن ايضاً استنباط القواعد الفقهية مـن طـرق أخـرى مـن قـبيل الاستدلال القياسي، الاستحسان والاستصلاح.

وعندما وصل النظام الفقهي الاسلامي مرحلة اصبح قادراً فيها على تـحديد وتعيين مصادر استنباط القواعد الفقهية يعني انه قد ولج المرحلة الثالثة من تكامله وهي مرحلة الاستدلال، في هذه المرحلة اصبح القياس أو الاستنتاج المنطقي (Deduction) بديلاً لقياس التمثيل والاستقراء كما لو أن المنهجين المذكورين قد حذفا بالمرّة ليستقرا في وادي النسيان.

وانطلاقاً مما سبق يمكن القول بأن الخطأ الذي يقع فيه هؤلاء الكتاب يعود الى اعراضهم عن الخلفية التاريخية للمنهج المستخدم في النظام الفقهي الاسلامي؛ من هنا فانهم اخطئوا في ظنهم بان قياس التمثيل ـ الذي لعب دوراً محورياً فـي المرحلة الأولى من علم الفقه فقط ـ قد بنى سائر مراحل النـظام الفـقهي أيـضاً. واستنتاجهم بان قياس التمثيل الذي نهضت عليه أول مرحـلة للـفقه فـي صـدر الاسلام له منشأ عربي / اسلامي. وهناك من شارك الجـابري فـي رأيـه حـول

(١) ص ٧٢ (نقلاً عن كتاب تراث الاسلام، شاخت وبوزورث، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨،القسم الثالث، ص١٨).

اعتباره (قياس التمثيل) الركن الاساس في العقل العربي[١].

وأخيراً يعتبر حسن عبدالحميد نقد هذه الآراء والرؤى أو الافـهام الخـاطئة شرطاً أساسياً في تقدم العلم.

ملاحظات على نظرية المراحل الارتقائيّة

ومن الضروري هنا أن نثير بعض النقاط فيما يتعلق ببناء وتكوين الفقه وفق ما يطرحه حسن عبدالحميد في كتابه (المراحل الارتقائية):

١ ـ ان تكامل علم الفقه هو كسائر العلوم أمر متفق عليه، وينهض على شواهد علمية كثيرة؛ خاصّة اذا اخذنا بنظر الاعتبار آراء البعض من قبيل (شاخت) الذي يعتقد بأن بداية هذا العلم ـ ليس كما هو شائع مـن عـودتها الى احكـام القـرآن والاحاديث النبوية ـ بل الى (مدارس الفقه القديمة). وفي هذه المرحـلة كـانت مرحلة استنباط الاحكام عملية بسيطة وبدائية، وتنهض بشكل عام على العرف السائد في المجتمع. ولكن تدريجياً خرج العمل الاجتهادي من شكله الابتدائي الخام، ليكتسب شكله الاستدلالي. كما نجح الفقهاء في ابـداع مـناهج جـديدة، ووضع مصادر للقانون عديدة[٢].

ومن هذا الافق يمكن القول أن كتاب المراحل الارتـقائية قـد تـمكن مـن الابتعاد عن التفاسير التقليدية ذات الصبغة الجدلية غالباً، كما وفّق في تقديم بيان علمي عن كيفية بناء وتكوين الفقه. ويبدو أن هذه النقطة من الامتيازات الايجابية التي تسجل لصالح الكتاب. ومع كل هذا فان آراء حسـن عـبدالحـميد تـتضمن تعميمات خاطئة ونقصاً رئيسياً نورد بعضها بايجاز.

---

(١) ص٧٤.

(٢) شرح المؤلف رؤية شاخت في مقالة أخرى بشكل أكثر تفصيلاً: «شافعي ومعرفت شناسي»، مجلة نقد ونظر، السنة الرابعة، العددان (٣ و٤)، صيف وخريف ١٩٩٩، ص٢٧١ ـ ٢٨٨.

٢ ـ وكما لاحظنا، سعى المؤلّف الى تعميم نتائج البحوث النفسية وعلم المعرفة التكويني لـ(بياجه) وكذا علم المعرفة الانتقادي التاريخي لـ(باشلر) على دائـرة العلوم الشرعية / الاسلامية (كالفقه واصول الفقه). وهذا تعميم يبدو خاطئاً ويفتقر الى الدقة، لأنه أهمل من جهة ماهية تلك النتائج ومن جهة أخرى العلاقة التي تأبى الانفكاك بين (الموضوع) و(المنهج) المتعلق به. بعبارة أدق، إن مـثاله فـي عـلم المعرفة التكويني الذي قدمه من أجل تفسير بناء وتكوين العلم لم يكن قادراً على بيان مراحل بناء وتكوين علم الفقه واصول الفقه. على سبيل المـثال، ان مـؤلف الكتاب وبعد بيانه ان المرحلة التوصيفية أول مرحلة في تكامل العلم سـعى الى اثبات وجود هكذا مرحلة في علم الفقه واصوله على أسـاس بـعض الشـواهـد التاريخية والفقهية؛ والحال ان (التوصيف) وعلى خلاف فهم مؤلف الكتاب ليس معناه مجموعة من المشاهدات البسيطة، بل كل مشاهدة مسبوقة بنظرية تتصل بها، وعلى هذا فمن أجل حصول معرفة توصيفية يتوجب أولاً تبديل مجموعة تـلك المشاهدات أو المحسوسات الى (موضوعات قابلة للمعرفة)، وفي النتيجة يفرض كل توصيف بالصورة السابقة وجود نظرية تـجعل ذلك قـابلاً للـتوصيف ويـهيأ امكانية معرفته.

وبالالتفات الى النقاط أعلاه، اذا اردنا دراسـة المـرحـلة الأولى مـن بـناء وتكوين الفقه (التي يعتبرها عبدالحميد مرحلة توصيفية) فسوف نرى ان عـلماء الفقه واصوله في ذلك العصر يفتقدون هكذا نظرية في التنظيم والبيان، ذلك أنهم قدموا آراءً مختلفة في بيان واقعة ما أو حادثة معينة[١].

---

(١) انظر هذا الموضوع:

سالم يفوت، حفريات المعرفة العربية الاسلامية؛ التعليل الفقهي، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٠١و ٢٠٢.

٣ ـ ان المؤلف ومن أجل اثبات وجود مرحلة استقرائية في الحصيلة التكاملية للفقه استند مرّة أخرى الى بعض الاحاديث او الشواهد الفقهية التاريخية، ولكنه مع كل هذا لم يستطع وبشكل منطقي اثبات ان الفقه في هذه المرحلة قد استخدم منهج الاستقراء لاستنباط الاحكام؛ لان الاحاديث والشواهد التاريخية المذكورة والتي تتعلق في الغالب بعصر النبي والمسلمين في صدر الاسلام تشير الى أن منهج الاستقراء كان معروفاً ومعمولاً به منذ البداية، وهذا يعني ان التقسيم المقترح من قبله لا ينسجم مع الشواهد التاريخية التي قدمها؛ لان هذه الشواهد التاريخية ـ الفقهية تشير إلى ان مرحلة الاستقراء كانت قد تبلورت مع المرحلة التوصيفية ولم تكن متأخرة عنها، وفي هذه الحالة فان التوصيف والاستقراء ـ وعلى خلاف تصور الكاتب ـ سيكونا شكلين من المناهج، وليسا تعبيراً عن (مرحلتين متواليتين)[1].

اضافة الى هذا، فان الشواهد التاريخية الفقهية التي يستند اليها تنطبق على المرحلة التوصيفية وتنطبق ايضاً على المرحلة الاستقرائية، ولهذا فان حسن عبدالحميد اضطر في النهاية الى الحكم بالتداخل بين المرحلتين[2]، مع التأكيد على الاشارة الى ان الفقهاء المدافعين عن قياس التمثيل (على خلاف رأي حسن عبدالحميد) لم يستفيدوا لا من الاستقراء ولا من الحالات النوعية أو الاحكام الكلية، بل إنّ قياس التمثيل ـ ووفقاً لرأيهم ـ كان هو المنهج الوحيد الذي يسير من خاص إلى خاصّ آخر، ويختلف تماماً عن الاستقراء الذي ينطلق من القضايا

---

(١) للمزيد من الاطلاع انظر:

نقد جمال الدين عطية على كتاب المراحل الارتقائية، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٥٣، ١٩٨٨، ص١٣٦.

(٢) المراحل الارتقائية، ص٤٣.

الجزئية ليصل الى القضايا الكلية(١)، وهذا ما أشار اليه الغزالي أيضاً في بيانه ماهية القياس الفقهي حيث ذهب إلى أن القياس مستلزم لشيئين يرتبطان مع بعضهما البعض على اساس نوع من التشابه(٢)، وبصيغة أخرى ان القياس عمل بسيط طرفيني، فلا يسير من خاص الى عام لكي يصل مرّة أخرى الى الخاص(٣).

٤ ـ يشير المؤلف لدى اثباته المرحلة الاستدلالية للفقه (المرحلة الثالثة) الى مسألة احلال منهج القياس المنطقي محل القياس التمثيلي، عادّاً ذلك دالّة على انتقال علم الفقه من المرحلة الثانية الى المرحلة الثالثة.

ودليله الرئيسي على مدّعاه، الآراء الانتقادية لابن حزم الاندلسي الفقيه الظاهري الذي رفض بالمرّة استخدام القياس التمثيلي في دائرة العلوم الشرعية. ويستند المؤلف في هذا المضمار الى الآراء الفقهية لكل من ابي حنيفة ومالك، غير انه يكتفي ببيان بعض الكليات.

اما الدلائل الأخرى التي يقدمها المؤلف فقابلة للكثير من المناقشة وتنهض على عدم ادراك مقاصد النظام الفكريّ لابن حزم، بعبارة أخرى ان حسن عبدالحميد يهمل تماماً السياق التاريخي والمعرفي لآراء ابن حزم؛ ذلك انه ـ ومن ناحية تاريخية ـ كان استخدام القياس مقارنة بمنابع التشريع الأخرى متأخراً، ولم يعرف بين المسلمين الاّ في أواخر القرن الثاني(٤).

---

(١) عبدالمجيد تركي، مناظرات في اصول الشريعة الاسلامية بين ابن حزم والباجي، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار القرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ص٣٤٦.

(٢) ابو حامد الغزالي، المستصفى من علم الاصول، ص٥٤.

(٣) مناظرات في اصول الشريعة، ص٤٤٦.

(٤) كتب ابن حزم في هذا لمضمار قائلاً: ان استعمال القياس في استنباط الاحكام الشرعية كان متداولاً في القرن الثاني الهجري، واضاف ان استعمال الاستحسان والتعليل وحسب الترتيب مرتبط بالقرن الثالث والقرن الرابع الهجريين (ملخص ابطال القياس، تحقيق سعيد الافغاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩، ص٨ ـ ١٠).

وفي رأي شفيق شحاتة يجب اعتبار القياس كمصدر في التشريع معلولاً بالمرّة لعوامل تاريخية[1]، ومع كل هذا لا ينبغي التوهم بان استخدام القياس في هذه المرحلة مؤشر على بلوغ علم الفقه المرحلة الثالثة (المرحلة الاستدلالية)، لان حكماً كهذا يهمل تماماً حقيقة وبنية القياس والاستحسان وحدود استعمالهما (نذكّر هنا بما ورد من نفس الكلام في موضوع العقل).

وفي نقد كلام حسن عبدالحميد يمكن القول انه بالرغم من ان ابن حزم يعتقد ان التشابه أو التماثل بين الاشياء لا يستلزم تعميم حكم الاصل على الفرع لان جميع المخلوقات في العالم يشبه بعضها البعض على نحو ما؛ وعلى هذا فيجب حينئذ الحكم بحليتها جميعاً أو حرمتها كذلك[2]، غير ان هذا الكلام لا يعني ابداً ان علم الفقه قد وضع خطاه في المرحلة الاستدلالية بعد أن طوى مراحله التكاملية، بل ان كلام ابن حزم وكذا احلال القياس المنطقي محل قياس التمثيل نهض من رؤيته الفكرية الخاصّة؛ وهذه هي النقطة التي غابت بالمرّة عن ذهن مؤلف كتاب (المراحل الارتقائية).

وابن حزم في ابطاله قياس التمثيل بيّن بصراحة مبادئه الفكرية ومن جملتها:

أ ـ ان الله هو العالم القادر المطلق ولا يوجد حكم في الشرايع الاّ بأمر ونص، وهو (المؤلف) في هذ المضمار يعتبر اللغة، الاسماء والصفات أموراً توقيفية بالمرّة وتنهض على اذن الشارع؛ يعني ان الله سمى العنب عنباً والعنب ليس موزاً أو ... ولا يمكن أن يكون حكمهما واحداً؛ من هنا فانه يعتبر احكام الله منطبقة على احكام اللغة[3].

---

(١) مناظرات في اصول الشريعة، ج٧ ص ٣٣٠

(٢) ابن حزم الاندلسي، الاحكام في اصول الاحكام، ص١٩٢ ـ ١٩٤.

(٣) للاطلاع اكثر راجع:

سالم يفوت، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والاندلس، المركز الثقافي العربي، المغرب، ١٩٨٦، ص١٥٠ ـ ١٥٤.

ب ـ ان الانسان اساساً مخلوق جاهل، والعلم البشري كلّه ظنّي.

ج ـ ان الشريعة تتمتع بالغنى والكمال ولا يوجد نقص في بيان أي حكم فيها، ولهذا فان ابن حزم ـ على اساس من هذه المبادئ الفكرية ـ لا يعتبر قياس التمثيل مصدراً معتبراً في الاحكام الشرعية؛ لأنه أولاً: لا يوجد نص شرعي في مشروعية استخدامه، وثانياً: ان القياس المذكور لا يفيد سوى الظن والاحتمال، علاوة على ان القياس يشكل اضافة على أمور الحلال والحرام. بعبارة أخرى اضافة نصوص جديدة الى النص الشرعي وهذا هو عين البدعة، ثالثاً: ان كمال الشريعة يغنينا عن استخدام هكذا مناهج ليست اكيدة.

من هذا الافق، يمكن وعي دفاع ابن حزم عن القياس المنطقي؛ ذلك انه يعتقد ان القياس المنطقي مجموعة القضايا التي تحصل منها (نتيجة) ضرورية؛ نتيجة لا تعطي حكماً جديداً، بل هي موجودة ضمناً في المقدمات. ويستخدم ابن حزم في هذا الباب مفردة (انطواء) وهي مفردة زاخرة بالمعنى؛ لانه على اساس هذه النقطة يستدل على ان (نتيجة) البرهان منطوية في المقدمات وليست شيئاً أعلى منها؛ على خلاف منهج القياس الذي يعمم حكم شي ما على شي آخر؛ على اساس الظن بوجود وجه مشترك بين الشيئين.

انطلاقا مما سبق، يمكن استنتاج ان دفاع ابن حزم عن استخدام القياس المنطقي بدل قياس التمثيل إنّما كان حفاظاً على الشريعة وصيانةً لها قِبال مجموعة احكام لم يورد الشرع فيها نصوصاً، ومن ثَمّ فلا توجد أدنى علاقة مع مدّعى مؤلف كتاب المراحل الارتقائية، اضافة الى هذا ان اتكاء ابن حزم على القياس المنطقي وابطاله القياس التمثيلي كان لمجرد بيان الرؤى الفقهية، ولا يثبت مدّعى المؤلف في ان الفقه مع ابن حزم قد وضع خطاه في المرحلة الثالثة، لأن لازمة كلام عبدالحميد هي ان الفقه بعد ابن حزم قد أصّل القياس المنطقي بدل منهج قياس

التمثيل. في حين ان التحولات التاريخية للفقه اتخذت اتجاهاً آخر وجاءت بنتائج معاكسة؛ أي ان فقهاء العصور التالية استخدموا في الغالب نفس منهج القياس التمثيلي واستخدموا على نطاق ضئيل جداً القياس المنطقي. ولهذا لم يجد حسن عبدالحميد سرّ العداء الذي يضمره ابن تيمية ازاء المنطق والقياس؛ لانه وطبقاً لمثاله التفسيري ينبغي أن يكون ابن تيمية الذي عاش بطبيعة الحال في المرحلة الثالثة من المؤلفين عن منهج القياس المنطقي، في الوقت الذي كان فيه ابن تيمية في الجانب المعاكس، اذ أبطل القياس المنطقي واحل مكانه القياس التمثيلي، وكأنه يعيد علم الفقه الى مراحله الأولى من البناء والتكوين(١).

اضافة الى ان مؤلف الكتاب وفي شرحه لمراحل التكامل في العلم يشير الى مرحلة رابعة ايضاً هي مرحلة (التأصيل الموضوعي)، بمعنى ان العلم وبعد أن يطوي المرحلة الاستدلالية يلج مرحلة وضع القوانين العامة. وهو يصرح في هذا المضمار ان علم الفقه الاسلامي وعلى خلاف القانون الروماني لم يتمكن من بلوغ هذه المرحلة. ومع كل هذا فان المؤلف لم يوضح للقارئ الاسباب، وحصر بحثه فقط في شرح المراحل الثلاثية السابقة(٢). بعبارة أخرى إن نظرية حسن عبدالحميد ـ ومن الناحية العلمية والتاريخية ـ لا تستطيع الاجابة على هذا السؤال الاساسي: لماذا عجز علم كالفقه ـ والذي استطاع ان يجتاز كل مراحله الثلاث ـ من بلوغ المرحلة الرابعة؟ وأساساً لماذا أصيب النظام الفقهي الاسلامي وهو في أوج بلوغه وازدهاره بالانحطاط دفعة واحدة؟

ان الالتفات الى هذا الأمر في الطريقة التي ينظر فيها حسن عبدالحميد الى علم الفقه يشير بصراحة الى انه ـ وعلى خلاف مدعاه من انه من انصار باشلر ـ

---

(١) المراحل الارتقائية، ص٦٦.

(٢) المصدر نفسه.

واقع تحت تأثير ذات الأفهام التي سعى في طول كتابه الى نقدها، تلك الافهام الشائعة والتقليدية التي تنظر الى علم الفقه وتاريخ التحولات فيه خطأً متواصلاً ومستمراً، ولا تدرك الانفصالات والتشكّلات مهملةً بالمرّة سياقه التاريخي ـ الاجتماعي.

بين العقل العربي والمراحل الارتقائية

والآن يجدر ان نشير ـ وكنقطة أخيرة ـ الى انتقاد حسن عبدالحميد لنظرية الجابري في بيان تكوين العقل العربي إذ ان مؤلف الكتاب المذكور (المراحل الارتقائية) يرفض بشكل كامل فهم الجابري في الفقه الاسلامي مصنفاً هذا الفهم في خانة الأفهام الشائعة وغير المعتبرة. فالجابري يعتقد ان علم اصول الفقه لم يهيأ فقط المناهج والقواعد في استنباط علم الفقه، بل انه ومنذ البداية (وبخاصّة الشافعي في هذا الاتجاه) اصبح الحجر الاساس للعقل العربي، وهو علم أيضاً نهض على قياس التمثيل.

وعبدالحميد في نقده لهذا الكلام يقول: لو وافقنا على كلام الجابري فأنه يشمل فقط أول مرحلة في علم الفقه (المرحلة التوصيفية)، ولا يتعدّاها إلى المراحل الأخرى، ومنها المرحلة الاستدلالية.

وبغض النظر عن خطأ أو صواب نظرية الجابري في بيان العقل العربي، ينبغي الاشارة الى ان حسن عبدالحميد قدم تفسيراً خاطئاً ازاء آراء الجابري، لأن مراد الجابري من قياس التمثيل ليس منهج الاستنباط أو الاستدلال الذي ينحصر بمرحلة معينة من علم الفقه، بل ان مراده شرح الخصلة البيانية للعقل العربي، والتي تنهض اساساً على عدم وجود علاقة ورابطة سببية وعلّية بين الاشياء. بعبارة أخرى، ان العلاقة بين الاشياء في العقل العربي لا تقوم على اليقين، وانما على

اساس حالة من التشابه أو الاحتمال. من هنا فان الجابري في كتابه نقد العقل العربي سعى الى أن يبين كيف اصبح أصل التشابه ـ حيث جذوره في تفكير العرب قبل الاسلام ـ الحجر الاساس لكل العلوم الاسلامية ومنها علم الفقه؟

وكما بينا في العلوم الثلاثة: النحو، الكلام والفقه، فان اصل التشابه أو التمثيل بين الاشياء وعودة الفرع الى الاصل لا تنهض على مشاهدات أو تعميمات بسيطة لتكون بمثابة مرحلة عابرة، بل ان هذه التعميمات قد اصبحت في الاطار النظري العلمي الخاص ضمن ما يهدف إلى بناء نظام علمي ينهض على الوحي وبسط نفوذ سلطة ومشروعية النصوص الدينية، وهذا الهدف الرئيسي قد أخذ بنظر الاعتبار سواء في البناء الكلي للعلوم الاسلامية أو في سائر الاجزاء والعناصر أو في عمليات الانتاج المعرفي.

ونرى تدخّلاً لهذا الأمر أيضاً على صعيد (القياس) و(العقل) اللذين يعدّان المنهج الأكثر عقلانيةً وسط مناهج استنتاج القوانين الكلية، ومن هنا يمكن القول: انهما متساويان من حيث العمل؛ أي ان وظيفتهما إحالة حكم المجهول (الفرع) على المعلوم (الأصل) عن طريق التعدية (التعميم) أو التسوية أو الأمارة، وهي وظيفة تنبني على فرضية مسبقة تقضي بضرورة وجود أساسٍ قبلي لكل حالة أو ظاهرة جديدة[١].

من جهة أخرى، ان نفس التعميم (التعدية) أو الأمارة ـ واللذين يمثّلان أداة تحليل ومعرفة أوصاف (الاصل) بغية تسرية الحكم إلى (الفرع) ـ يكتسب هو الآخر مشروعيته من (النصوص الدينية) و(الاجماع) دون أن يملك القدرة على اثبات أي حكم أو تعيين أية صفة متجاوزاً الاطار الذي حددته

---

(١) محمد أركون، تاريخية الفكر العربي، ترجمة هاشم صالح، مركز الانماء القومي، بيروت، ص٨٠.

النصوص الدينية سلفاً.

وخلاصة هذا الكلام، ان السلطة والمرجعية مزايا النصوص الدينية، أمّا مناهج الاجتهاد المختلفة (من قبيل العقل، القياس، الاستحسان والمصالح المرسلة) فهي مجرّد أدوات لمعرفة أصعدة جديدة وتعميم احكام النصوص الدينية عليها، وعلى هذا فان هذه الادوات أو المصادر الاجتهادية تشغل على الدوام مرتبة أدنى من النصوص الدينية نفسها، ولا يمكن أبداً أن تقف على صعيد واحد مع الكتاب والسنة أو أن تؤثر فيهما، ذلك ان هذه الادوات الاجتهادية ظنية من جهة ولا تبعث على الطمأنينة لدى الانسان، ولا تعد (علماً من جهة أُخرى)، بل يمكن ان تستخدم من قبل الشرع وفي حالة غياب الحكم القطعي فقط، (انظر في هذا الموضوع في دلائل حجية الظن وبخاصة دليل انسداد باب العلم مع مقدماته الاربعة التي بسط فيها الحديث في معظم كتب الفقه)[١].

ومن جهة أخرى انها تعد أحكاماً ظاهرية في حين ان احكام الشرع وكما يُبين (في بحث الإجزاء) احكام حقيقية وأولية. ويجب أن نذكّر بهذه النقطة أيضاً وهي ان الفقهاء لم يقدموا حتى الآن معنىً دقيقاً ومنسجماً للحكم الظاهري واختلافه عن الحكم الحقيقي الأولي.

إنّ هذا التسلسل المراتبي لمصادر التشريع كان على الدوام أساسً هامّا وبنيوياً لدى علماء الاسلام، ولم يكن منحصراً بالعصور الأولى لتبلور العلوم الاسلامية فحسب، بل كان مواكباً لنمو وتكامل العلوم الاسلامية، ومتجذراً وبارزاً أيضاً.

(محمّد تقي الكرمي)

---

(١) انظر في هذا الموضوع: كتاب فرائد الاصول، الشيخ مرتضى الأنصاري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم ص١٨٣.

ثقة الاسلام الكليني / المتوفىٰ ٣٢٩هـ

من «كلين» الى «خمين» احد عشر قرناً من الزمن ليس أكثر، والله سبحانه يعلم ماذا جرى خلال هذا التاريخ واية سياط كانت تلهب اجساد الأبرار وكم تدحرجت من رؤوسهم فوق مذبح الفضيلة والتقوىٰ لينهض الصرح الذي بدأ بناءه الكليني على يد الخميني.

الكليني والخميني هما طرفا سلسلة امتازا بميزة واحدة هي انما لم ينطقا من عندهما شيئاً، فإذا نطقا فقد كانا ينطقان عن الله عز وجل واذا سطرا يرعاهما فانما عن الله.

حياة الكليني لم تثمر غير «الكافي»، والكافي انما هو هوية الكليني والكافي انما هو مرآة الكليني تتجلىٰ فيه شخصيته أمجاده.

وأصبح كتاب الكافي تلك القمة التي لا يرقاها الاّ المجتهدون بل لا مجتهد من دون الكافي، والكافي ذلك المحيط المتلاطم ومن دون خوض عباب ذلك المحيط لن يتيسر للدين فهماً وللمعارف الدينية ادراكاً وسيراً.

الكافي تلك المجموعة الحديثية الشيعية التي تعكس لك ايماناً ونوراً وزهداً امتازت به شخصية ثقة الاسلام الكليني هذا الرجل الذي سطعت شمسه في دنيا الاسلام في القرن الرابع الهجري وما تزال تشعّ عبر التاريخ والأجيال الى يومنا هذا.

ولادته ونشأته

في زمن لا يسمع فيه سوىٰ وقع سنابك خيل بني العباس تجوس الأرض الاسلامية وفي الأرض الايرانية وفي قرية كلين[١] وفي بيت مفعم بحب أهل البيت عليهم السلام ولد صبي اقترن ميلاده مع نهاية الغيبة الصغرىٰ وبدء الغيبة الكبرىٰ للإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام وكان محمد الذي هو أحلىٰ الأسماء اسماً للوليد اختاره يعقوب بن اسحاق الذي ابتهج بمولده فأذّن في أذنه اليمنىٰ وأقام في أذنه اليسرىٰ.

ونشأ محمد في تلك الأحضان الطاهرة لأم طاهرة الذيل نقية الثوب، وكانت المحبّة والرحمة والعطف هي أولىٰ الدروس التي تشرّبها الصبي.

ومنذ نعومة اظفاره راح محمد يتلقىٰ دروسه الابتدائية على يد والده وخاله علي بن محمد بن ابراهيم بن ابان حيث الأخير من اساتذة علم الحديث.

وبعد أن طوى هذا التلميذ الفطن هذه المرحلة من تلقي المعارف ولج أولىٰ دراسته في التعرف على مصادر الحديث ومنابعه الرجالية. ثم ليشدّ الرحال مهاجراً الى مدينة ري وقد تشكلت لديه ملامح من مدرسة أهل البيت عليهم السلام كان يشدّه الى ذلك طلب المزيد والمزيد من المعرفة والعلوم كانت أعماقه المضطرمة بحب أهل البيت تتفتح من أجل أن تتشرب من تلك المعرفة السماوية ومن تلك الأخلاق السامية.

لقد كان يودع كلين الى الأبد وسوف يتحمل عناء الغربة والفراق والبعد عن الأحبة والديار كل ذلك من أجل أن يلج طريق الله وفي سبيل الله وليحيا من أجل رسالة الله الخالدة. وهذا ما جعل معاناته تتضاءل أمام هدفه الكبير وغايته النبيلة.

---

(١) تقع قرية كلين الى الجنوب من مدينة ري وعلى بعد ٣٨كم.

الهدف

عندما وصل الكليني مدينة ري كان انتماء معظم السكان المذهبي يتوزع على المذهبين الحنفي والشافعي غير وجود بعض الشيعة في ضواحي المدينة كان له تأثير كبير من خلال ما اشتهروا به من اخلاق رفيعة وسلوك نبيل لتصبح هذه المدينة السنّية الانتماء شيعية بعد حين.

كانت ري في ذلك الوقت من حوافز الاسلام الكبرىٰ وقد سادت فيها أفكار واتجاهات مذهبية متباينة الاّ انها عرفت حالة من التعايش السلمي فريدة ولهذا نعمت هذه المدينة العريقة بالاستقرار والهدوء الاّ ان بعض الحركات السياسية لم تكن تترك هذا الهدوء والاستقرار يستمر. فالفرقة الاسماعيلية نشطت في هذه المدينة فكرياً واعلامياً بغية السيطرة على ايران ولهذا اتخذت من هذه المدينة الكبيرة قاعدة أساسية في نشاطها الدعائي.

ومن هنا حدث الاصطدام الفكري من خلال الاحتكاك مع الاتجاهات الفكرية والمذهبية المخالفة من قبيل المذهب الشافعي والحنفي والإمامي أيضاً.

وفي هذه الفترة لم يتعرف الكليني - بالاضافة الى تلقيه دراسته - على عقائد وأفكار المذاهب والفرق الأخرىٰ بل تسنّىٰ له أيضاً أن يتعرف على بعض الفرق التي كانت ترمي الى حرف التشيع عن مساره الحقيقي. لقد عرف الكليني موضع الداء كما انه اكتشف الدواء لقد كانت العلّة تكمن في ذلك الانفصال بين الناس وأحاديث أهل البيت وكان الدواء بطبيعة الحال هو في ايصال حديث أهل البيت الى عموم الناس؛ من هنا انتخب الكليني طريقه وبالرغم من كل الضجيج وسار فيه قُدماً وراح يبحث عن أحاديث أهل البيتعليهم السلام ويدوّنها. وقد تتلمذ الكليني في هذا المسار على أيدي أساتذة كبار في طليعتهم: «ابو الحسن محمد بن اسد

الكوفي»[١] الساكن في مدينة ري.

وراح يتلقىٰ علم الحديث ويسجل بحوثه ومناقشاته حول ذلك ليعكس في هذا المضمار نباهة وفطنة. لقد أوقف الكليني حياته على الحديث الاّ ان ذلك لم يصرفه عما يدور حوله عن قضايا عصره وعمّا ابتلي به الشيعة آنذاك. انه ليس من اولئك الأشخاص الذين انتخبوا العزلة للنجاة بأنفسهم بل انه كان يعيش في قلب الاعصار الفكري الذي ضرب تلك الفترة من الزمن وتصدّىٰ لكل الأفكار والتيارات الانحرافية لم يتردد لحظة من نقد الفكر الاستلابي للقرامطة ولم يسكت ازاء عقائدهم التي هي مزيج غير متجانس من الفكر الاسلامي والفكر المانوي والزرادشتي[٢]، والقرامطة الذين بدأوا هجومهم العنيف علىٰ عقائد ومقدسات المسلمين. لقد تصدّى الكليني للمدّ القرمطي ونقد بشجاعة فكرهم الاستلابي هذا في كتابه «الرد علىٰ القرامطة» وقدم جهده هذا للوسط الشيعي من أجل تحصينه ضد الغزو القرمطي الفكري.

ويتوجب هنا أن نطلق على عصر الكليني بأنه عصر الحديث ذلك ان نهضة وحركة واسعة لتدوين الحديث قد بدأت في تلك الحقبة من الزمن، وكان الظامئون لتلقي الحديث يسافرون من هذه المدينة الى تلك؛ بحثاً عن الحديث الشريف وقد شهدت تلك الفترة مجموعات كبيرة من الرواة تجوس خلال الديار الاسلامية من أجل البحث عن المحدثين والرواة. ولقد نشط أهل السنّة في هذا المضمار نشاطاً واسعاً جداً بحيث أن المجموعات الحديثية السنية الكبرىٰ انما ولدت في تلك الفترة وفي ذلك العصر الذي شهد ظهور الصحاح الستة المشهورة في الوسط السنّي.

---

(١) مفاخر الاسلام، علي الدواني ٢ / ٢٦.

(٢) معجم الفرق الاسلامية، محمد جواد مشكور / ٣٩٥.

عاش الكليني في عصر تلامذة الامام الهادي والامـام الحسـن العسكـري وحتى الامام الرضاعليه السلام غير اولئك الرجال لم تكن لديهم سوى مدوّنات حديثية محدودة جداً بل وأن بعضها تعرض للتلف في نفس تلك الفترة.

لقد كان الفناء والزوال يهددان ذلك الميراث الحديثي النبوي النفيس وكذا ما تركه أهل بيتهعليهم السلام فمع موت حملة الحديث الشريف للنبيصلى الله عليه وآله وآلهعليهم السلام وكذا بدء الغيبة للامام الثاني عشر سوف يحرم الشيعة من هذا الميراث الكبير من هنا فان عصر الكليني يمتاز بالحساسية البالغة وأن اجتياز هذه الطائفة تلك الفترة بسلام يعني تحصنهم ضد الاستلاب والانحراف في خضم ما يموج من أفكار وتيارات كانت تموج في ذلك العصر.

ولقد ادرك الكليني حراجة الوضع وحساسيته فشدّ الرحـال الى مـدينة قـم مدينة المحدثين والرواة الشيعة وقد كانوا بالعشرات يملؤن المساجد حيث تنعقد بهم حلقات العلم والحديث وكان فيهم رواة يروون بشكل مباشر عن أئمة أهـل البيتعليهم السلام فهم يروون ما سمعوه من الامام المعصوم دون واسطة.

ان وجود هذه الشريعة الممتازة من الرواة هو ماجذب الى مدينة قم عشاق الحديث الشريف وكان الكليني في طليعة من هاجر الى هذه المدينة.

ولذا ما ان وصل الكليني حتى انتظم في حلقات علم الحديث متتلمذاً على أيدي أبرز أساتذته وفي طليعتهم أحمد بن محمد بن عيسىٰ الأشعري، أحمد بن ادريس القمي (المعروف بالمعلم)، عبد الله بن جعفر الحميري (مؤلف كتاب قرب الأسناد) ونجله محمد بن عبد الله الحميري، وقد ناهز عدد من تتلمذ الكليني على ايديهم ونهل من معين ما انطووا عليه الخمسة والثلاثين راوياً ومحدثاً ولا ريب فقد أسهم أولئك الأفذاذ في بلورة فكر وشخصية الكليني.

غير ان اسماً سوف يتألق من بين ذلك الحشد الكبير أجل سوف نجد اسـماً

لامعاً يقترن كتاب الكافي به فهما متلازمان دائماً بحيث يتدعىٰ عند ذكر أحدهما ذكر الآخر انه المحدّث والراوية الكبير علي بن ابراهيم القمي. هذا الاسم الذي سيحتل التسلسل الثالث في اسناد الكافي والذي روى عنه الكليني ما يناهز الـ (٧١٤٠) حديث انه يتألق في سلسلة الاسناد كنجم ساطع[١].

نعم انه علي بن ابراهيم صاحب التفسير المعروف باسمه والذي يعد في الطليعة من بين تفاسير الشيعة.

ولولا الكليني ومثابرته وسعيه وملازمته لعلي بن ابراهيم يدور حوله كشمعة تهوى النور لولا ذلك لضاعت احاديث وأحاديث ولضاع ميراث كبير جلداً ولكن الله سبحانه قيض لذلك رجلاً حفيظاً وأميناً أوقف حياته على تدوين الحديث الشريف وأدرك اين توجد كنوزه المبعثرة هنا وهناك لقد كان علي بن ابراهيم القمي واحداً من تلك الكنوز الحديثية الكبرىٰ ويعود اكتشاف ذلك الى الكليني دون منازع.

كان علي بن ابراهيم بحراً زاخراً يموج بالاحاديث وراح الكليني الظامئ ينهل وينهل ويغرف من بحر لا ينزف ومن الكليني بدأ ينبوع الحديث يتدفق لتمتلأ أودية الشيعة بقدر.

هجرة أخرىٰ

كانت قم المقدسة في طليعة المراكز العلمية آنذاك ولكن الكليني المظامئ كان يطلب المزيد المزيد ولهذا ما إن شعر بان قم لم تعد تروى ذلك الظمأ المتوقد حتى نراه يشدّ الرحال الى مدينة أخرىٰ انها مدينة الكوفة حاضر العالم الاسلامي آنذاك

---

(١) معجم رجال الحديث، آية الله الخوئي ١١ / ١٩٤.

وأحد أكبر المراكز العلمية على الاطلاق.

ومن المؤكد أنك لن تجد محدثاً أو راوياً مشهوراً الاّ مرّ بتلك المدينة التي كانت تموج برجالات العلم والمعرفة في كل الحقول العلمية المعروفة آنذاك.

وكانت الكوفة تمثل في ذلك العصر ميداناً رحباً للحوار الثقافي والفكري بما نعمت به في تلك الفترة من حريّة فكرية وحرية التعبير عن الرأي.

وفي مسجدها الكبير انعقدت حلقات الدرس والمناقشة والحوار وسرعان ما عثر الكليني على ضالته في أحد أكبر حفظة الحديث الشريف انه «ابن عقدة» الراوية الذي اتخذ من الكوفة موطناً له وقد عرف الرجل بذاكرة جبارة جعلته آية من آيات الذكاء في العالم الاسلامي آنذاك[1].

ولقد تتلمذ الكثيرون على يده وبالرغم من انتمائه «الزيدي الجارودي» لكنه عرف بالتقوى والزهد وكان ثقة لدى الجميع في الرواية والحديث ومن هنا نجد أن الكليني يأخذ عنه ويروي الكثير.

ثقة الاسلام

وراح الكليني يشدّ الرحال الى هذه المدينة والقرية وتلك الى أن القىٰ عصاه في بغداد بعد طول أسفار، هذه الأسفار التي اثرت تصوراته عن التجمعات الشيعية هنا وهناك ولهذا فانه عندما وصل الى بغداد لم يكن شخصاً مجهولاً. لقد كان الشيعة في بغداد يفخرون به وكان أهل السنّة أيضاً يثنون عليه ويمجدونه. وما لبث الرجل أن طار صيته من خلال علمه وتقواه وزهده حتىٰ أصبح مرجعاً دينياً ليس للشيعة فحسب بل وأهل السنة أيضاً، كان الجميع يرجع اليه في حل مشكلاتهم

---

(١) مفاخر الاسلام ٣ / ٥٥.

الدينية ومسائلهم العقائدية والشرعية وكان العامة والخاصّة يأخذون بفتاواه وسوف نجد أن الكليني يكون أول من حصل على لقب ثقة الاسلام وهو اللقب الذي اشتهر به آنذاك[١].

كان الكليني أشهر شخصية في عصره وهو العصر الذي شهد تناحي تيار الحديث وتعدد علمائه الكبار والذي يمتد الى عصر النائب الرابع للامام صاحب العصر عليه السلام، وهو العصر الذي شهد نوعاً من المضايقات للكيان الشيعي ورموزه فكان على الكليني أن يتحمل مسؤوليته ازاء الطائفة ثقافياً واجتماعياً وهذا ما حصل.

كتاب الكافي

كانت بغداد بالنسبة للكليني مكاناً للتأليف. ولقد وجد فيها فرصة مواتية لينتج فيها معارفه التي عانىٰ ما عانىٰ في كسبها وتحصيلها، ان تلك الشجرة التي مدّت بجذورها في الأرض وكدحت في النمو أن لها أن تؤتي ثمارها الناضجة، وأن للكليني وهو يرىٰ ماحل بالطائفة الشيعية بعد غياب الامام الثاني عشر عليه السلام وتعذر اتصال الطائفة بسفراء الامام أن يعدّ جهده الموفي في مجموعة حديثة كبرىٰ تنطوي على تعاليم الاسلام الحنيف لتكون نبراساً للشيعة ومنهجاً ينظم حياتهم الاجتماعية وحياتهم الدينية وستكون هذه المجموعة ضوءاً كشافاً يضيء الطريق وتفسيراً لما ورد في القرآن الكريم.

وهكذا جاءت مجموعة الحديثية الكبرىٰ في كتابه المعروف «الكافي» فالأصول في مجلدين والفروع في خمسة مجلدات وروضة الكافي في مجلد

(١) ريحانة الأدب، الميرزا محمد علي مدرس التبريزي ٥ / ٧٩.

واحد لتضم الجميع: «١٦١٩٩» حديث عن النبي ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام وهذه المجموعة الحديثية استغرقت من عمره المبارك عشرين سنة كان خلالها يعمل بجد واجتهاد دون ملل أو كلل.

وقد عدّ كتاب الكافي هذا أثراً خالداً وفريداً ليس في عصره فحسب بل وعلى مدىٰ العصور من تاريخ الاسلام، وما انتجه الكليني بمفرده في عشرين سنة قام به ستة من أكبر علماء أهل السنة في مئة عام، وقد عدّه علماء الشيعة في طليعة الكتب الأربعة واكثرها اهمية في المذهب الامامي[1].

وفي الوقت الذي كان الكليني مستفرقاً في بيان القيم الأخلاقية والاسلامية كانت أوربا تعيش عصر الظلمات في همجيتها وبربريتها وكانت القبائل الاوربية تتقاتل فيما بينها من المراعي وكانت تلك القمارة غارقة تماماً في الجهل ولم تكن هناك أية اصداء للعقل ولا وجود للعلم في حين كان يراع الكليني يخط الفصول الاولىٰ في كتابه المشهور الكافي فكانت في «العقل والعلم» اجل كان العقل والعلم هو الباب الأول في الكافي ليلي ذلك التوحيد والقيم الالهية والانسانية.

ويعد امتيازاً كبيراً لكتاب الكافي ان اهتم به الفلاسفة والفقهاء عن حد سواء فقد شرحه الفقيه الشيعي كما قام بشرحه الفيلسوف الامامي وكان:

١ - مرآة العقول شرح فقهي قام به العلّامة المجلسي.

٢ - فيما قام بشرحه صدر المتألهين الفيلسوف الامامي المعروف «ملاّ صدرا» فجاءت رؤيته عرفانية فلسفية.

٣ - كما قام الفيض الكاشاني (ملّا محسن) في شرحه أيضاً في كتابه «الوافي».

٤ - وشرحه أيضاً الملّا صالح المازندراني.

(١) الكتب الثلاثة الأخرىٰ هي: من لايحضره الفقيه للشيخ الصدوق والتهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي.

اسلوب الكليني

انتهج الكليني طريقة في ترتيب احاديث مجموعته الكبرىٰ من خلال جمعها في ابواب فالحديث الأصحّ والواضح يتصدّر الباب لتليه في بعد الأحاديث ذات الدلالة الغامضة[١].

كما ابتكر مفردة جديدة وفرت عليه ذكر سلسلة سند طويلة وهي «عـدّة» فجاءت هذه المفردة الأجانب راوي الحديث مباشرة وهذا الابتكار وفـر عـليه الكثير من الوقت الكثير من الجهد كما وفر له مساحة كبيرة للحديث كان تنافسه عليها سلاسل السند.

وأصبحت هذه المفردة المبتكرة الّا عدّة من الرواة فهي حيناً ترمز الى رواة من قبيل أحمد بن محمد بن عيسىٰ وحيناً آخر ترمز الى سهل بن زياد ومرّة ترمز الى أحمد بن محمد بن خالد البرقي.

وربما كانت هذه المفردة ترمز الى رواة آخرين[٢] فمثلاً تـرمز «عـدّة» الى أحمد بن محمد بن عيسىٰ عن طرِيق خمسة رواة هم: محمد بن يحيىٰ العـطار، علي بن موسىٰ الكميداني، داود بن كورة، أحمد بن ادريس وعلي بن ابراهيم بن هاشم[٣] ولقد كان لهذا الابتكار أثره الكبير لدىٰ العلماء الذين جاءوا بعد الكليني، فالطوسي في كتاب الفهرست والنجاشي في رجاله اعتمدا هذه الطـريقة ونـقلوا رواياتهم بهذا الاسلوب[٤] وربما جاءت احـاديث مـن دون ذكـر اسـم الراوي وتحت عنوان (قد قال العالم) أو (في حديث آخر) فتنقل عن الكليني وهذا مـا جعل البعض يستند في وجود هكذا احاديث مروية بهذه الطريقة في اثبات دعوىٰ

---

(١) اصول الكافي (المقدمة) (مقدمة الترجمة الفارسية) سيد جواد مصطفوي ١ / ٩.

(٢) ريحانة الأدب ٤ / ١١٣.

(٣) المصدر السابق / ١١٤.

(٤) المصدر نفسه.

حول وجود علاقة مابين الكليني والامام المهدي عليه السلام قائلين ان من الممكن ان يكون كتاب الكافي قد تم تصويبه على يد الامام الغائب[١].

وقد روىٰ بعض العلماء أن الامام المهدي عليه السلام قال: **«الكافي كافٍ لشيعتنا»**.

عاش الكليني حياةً حافلة بالعمل والعطاء فاضافة الى تأليفه مجموعته الحديثية الكبرىٰ «الكافي» فقد فند آراء القرامطة في كتابه «الردّ على القرامطة» وله كتاب آخر «تفسير الرؤيا» وكان ينظم أشعاره في مديح أهل البيت عليهم السلام محدداً مناقبهم وفضائلهم وخصالهم الحميدة كما ترك وراءه كتاباً آخر تحت عنوان «رسائل الأئمة عليهم السلام» اضافة الى مؤلف في علم الرجال.

الكليني استاذاً ومعلماً

اهتم الكليني منذ وصوله الى مدينة بغداد حاضرة الدولة الاسلامية الكبرىٰ بتربية تلامذه ولم يغفل عن هذه المهمة الحساسة أبداً وقد تتلمذ على يديه رجال أصبح لهم شأناً في الحياة العلمية والثقافية منهم أحمد بن ابراهيم المعروف بابن ابي رافع الصميري، أحمد بن أحمد الكاتب الكوفي، أحمد بن علي بن سعد بن سعيد الكوفي، ابو غالب أحمد بن محمد الرازي، عبد الكريم بن عبد الله بن نصر البزار التنيسي، علي بن أحمد بن موسىٰ الدقاق، محمد بن أحمد السناني الزاهري، ابو الفضل محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني، محمد بن علي ماجليويه، محمد بن عصام الكليني، جعفر بن قولويه القمي مؤلف كتاب الكامل في الزيارات، هارون بن موسىٰ التلعكبري، محمد بن أحمد الصفواني ومحمد بن ابراهيم النعماني مؤلف كتاب «الغيبة» التي عرفت باسمه (غيبة النعماني[٢].

---

(١) المصدر نفسه ٥ / ٨١.

(٢) مفاخر الاسلام ٣ / ٢٧ و ٩٠.

رحيل الكليني

عاش الكليني سبعين سنة قضىٰ منها عشرين سنة في تأليف كتابه الخالد الكافي وقد تحمل في ذلك الغربة وفراق الأحبة والديار وبعد هذا العمر الحافل عرجت روحه الطاهرة الى الملأ الأعلىٰ ولكن هل غاب الكليني ان اسمه ما يزال في سماء التشيع مشرقاً في روحه الطاهرة ترفل بحلل الجنّة وتشفياً اشجارها الخالدة وكيف يموت من خالطت روحه كلمات أهل البيت عليهم السلام وأحاديثهم فامتزجت روحه مع أرواحهم ونفسه مع أنفاسهم وكلماتهم المضيئة الخالدة.

في شهر شعبان المعظم من عام ٣٢٩ هـ[١] عرجت روح ذلك العظيم، وقد فجع برحيله ليس الشيعة فحسب بل كل أتباع المذاهب الاسلامية وعم الحزن والحداد مدينة بغداد وصلّىٰ على جثمانه الطاهر أبو قيراط محمد بن جعفر الحسني[٢] وهو من كبار الشخصيات في عصره ومن أعلام العاصمة بغداد، وسار الموكب الحزين للمشيعين الى باب الكوفة ليواريٰ الثرىٰ قريباً من الجسر.

سلام على الكليني يوم ولد ويوم عرجت روحه الطاهرة الى السماء ويوم يبعث حيّاً.

---

(١) ريحانة الأدب ٥ / ٨٠.

(٢) المصدر السابق.

الشيخ الصدوق /المتوفىٰ سنة ٣٨١هـ

الميلاد

ولد محمد بن علي بن بابويه[١] المعروف بالشيخ الصدوق في حدود عام (٣٠٦هـ) في مدينة قم المقدسة.

ومدينة قم تقع في وسط ايران الى الجنوب من العاصمة طهران على بعد ١٣٥ كم منها. وقم مدينة عريقة اشتهرت بالعلم وحفلت بالعلماء والمجتهدين، وقد اقترن اسم هذه المدينة بتاريخ وثقافة الشيعة والتشيع كما عرفت هذه المدينة العريقة بولائها وحبها لأهل بيت النبيﷺ وسرعان ما استمالت هذه المدينة الى جامعة كبرى للعلوم الاسلامية ومركز كبير للتشيع في اطار مدرسة أهل البيتعليهم السلام.

وكان لعلماء قم دور كبير وواسع في نشر الفكر الامامي بالرغم من الظروف العصيبة التي مرّ بها التشيّع الامامي في ظل الحكمين الأموي والعباسي وبلغ من حماس أولئك العلماء أنهم كانوا يفعلون المستحيل من أجل لقاء الأئمة الطاهرين والنقل عنهم. وهذه اضرحة ومقابر العلماء في هذه المدينة تشهد على تاريخ مدينة قم العلمي فهذه المدينة الصغيرة تضم رفاة سبعمئة محدث وراوية معروف وما أكثر العلماء الذين ولدوا في هذه البقعة المباركة وتلقوا فيها دروسهم الدينية قبل أن يشدّوا الرحال الى مدن أخرى في ارجاء الوطن الاسلامي الكبير.

---

(١) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه حيث يختصر بـ(محمد بن علي بن بابويه).

والشيخ الصدوق هو احدى من تلك الشخصيات العلمية الكبيرة التي عرفها تاريخ الاسلام الثقافي.

نسبه

ان اسرة «بابويه» هي من الأسر العريقة في مدينة قم والتي اشتهرت على مدىٰ قرون ثلاثة برموزها العلمية في دنيا الثقافة والفكر الاسلامي. وبابويه هو الجدّ الأكبر للشيخ الصدوق وأول من اشتهر بلقب «ابن بابويه» هو والد الشيخ الصدوق: «علي بن الحسين بن موسىٰ بن بابويه».

وابن بابويه نفسه يعد في طليعة علماء الشيعة في عصره وله مؤلفات تربو على المئة كتاب ورسالة في موضوعات عديدة ويعد من أئمة الشيعة في قم وضواحيها في عصر الامام الحسن العسكري وابان الغيبة الصغرىٰ للامام المهدي عليه السلام وفي عهد سفارة «الحسين بن روح» السفير والنائب الثالث للامام المهدي عليه السلام.

وكان لهذا العالم الجليل الذي اشتهر بتقواه وورعه دكان هو مصدر كسبه ورزقه يعمل فيه الى جانب نشاطه العلمي والثقافي ومن هذا الدكان كان الرجل يعطي نفقات اسرته وكان يحظى باحترام الجميع حيث عبرت شهرته مدينة قم بسبب نبوغه العلمي وما عرف به الرجل من زهد وتديّن وحكمة.

ميلاد محمد

عانىٰ ابن بابويه من حرمانه من الذرية وها هو يذرف على الخمسين دون أن يرزق ولداً أنه يضع قدميه في طريق الشيخوخة ولمّا يرزق من الذرية وطالما تضرع الى الله سبحانه أن يرزقه ولداً يرثه ويحمل اسمه ويخلد ذكره ولكن..

وسطعت في قلبه فكرة أن يكتب رسالة الى امامه المهدي عليه السلام يطلب منه أن

يدعو له فقد يرزقه الله ما يصبو اليه بعد عشرات السنين من الحرمان. وكان ابن بابويه يبحث عن شخص يثق به لكي يحمل رسالته وفيما هو يفكر كانت قافلة من أهل قم تنتظم للسفر الى بغداد دار السلام وعرف ان أحد اصدقائه قد عزم السفر مع هذه القافلة وكان «ابو جعفر»(١) هو من يبحث عنه ويطمئن اليه ويثق به. وقام ابن بابويه والأمل يملأ قلبه بتسليم رسالته طالباً من صديقه أن يوصلها الى سفير الامام المهدي عليه السلام الحسين بن روح. ويروي أبو جعفر كيف سلم الرسالة الى السفير وكيف أخبره السفير بعد ثلاثة أيام بأن الامام يقول ان الله عز وجل سوف يرزقه ولداً مباركاً فيه من الخير الكثير(٢) ويثبت الشيخ الطوسي في كتابه الغيبة هذه الحادثة من خلال رواية عدة من علماء قم في أن ابن بابويه كان قد تزوج بابنة عمه ولم يرزق منها ذرية وأنه كتب الى الامام بواسطة سفيره الحسين بن روح وجاء الجواب انه لا يرزق من زوجته هذه وانه سيتزوج من جارية ديلمية يرزقه الله منها صبيين يكون لهما شأن كبير(٣).

وقد عدّ الشيخ الطوسي هذه الحادثة من دلائل وجود الامام المهدي عليه السلام ويروي الشيخ الصدوق نفسه هذه الحادثة ودعاء الامام لوالده في كتابه «كمال الدين» ويضيف اليها انه ان ابا جعفر محمد بن علي الأسود كان لما يراه ذاهباً لطلب بشوق كان يقول له لا عجب في ذلك فانت ولدت بدعوة الامام وهكذا شاء الله سبحانه أن يبشر ابن بابويه بجواب رسالته وما لبث الرجل أن تزوج من جارية ديلمية(٤) يرزقه الله صبياً سماه «محمداً» فكان فرحة قلبه وقرّة عينه ثم ما لبث

---

(١) ابو جعفر محمد بن علي الأسود.

(٢) تنقيح المقال ٣ / ١٥٤.

(٣) الغيبة، الشيخ الطوسي ١٨٨.

(٤) قبيلة ايرانية تقطن في شمال ايران وقد حكمت هذه القبيلة ايران في مرحلة تاريخية عرفت بالحاكم الديلمي.

مرةً أخرى حتى رُزق صبياً آخر سماه «حسيناً» واذا بـ«محمد بن علي بن بابويه» و «حسين بن علي بن بابويه» يصبحان أشهر عالمين وفقيهين أماميين ليسا في قم بل في كل مراكز العلم الامامية.

مرحلة الطفولة والشباب

لقد رزق علي بن بابويه الذرية بعد أن ذرف على الخمسين وقد أصبح رئيس الطائفة في قم واحدى الشخصيات العلمية المبرزة، ونساء القدر أن يولد محمد في هذه الظروف بعد «انتظار» وأمل ليتربىٰ في ظلال «العلم» وينمو في أحضان «الفضيلة» والطهر.

مرحلة الدراسة وطلب العلم

بدأ محمد دراسته العلوم الدينية منذ نعومة أظفاره فقد تتلمذ على يدي والده وبدأ يتلقىٰ العلوم وينهل من فيض المعارف من ينابيع قم وما أكثرها آنذاك.

عرف الصبي بجدّه واجتهاده وهمّته العالية وكان انصرام كل يوم يعني لدىٰ ذلك التليمذ الشغوف بالعلم والمعرفة المزيد من معارف أهل البيت عليهم السلام، كان دائم الحضور في محافل العلم والأدب وقد توفرت لذلك الطالب الفطن فرصة ذهبية من خلال وجود حشد كبير من الأساتذة فكل علم وفي كل حقل من المعرفة وقد أورد العلّامة والمحقق الشيخ عبد الرحيم الربّاني الشيرازي في مقدمة كتاب «معاني الأخبار» أسماء ٢٥٢ من الاساتذة من الذين درس الشيخ الصدوق عندهم[١].

---

(١) معاني الأخبار / ٣٧.

وفي طليعة من درس الشيخ الصدوق لديهم في مدينة قم كل من محمد بن الحسن بن الوليد، أحمد بن علي بن ابراهيم القمي، محمد بن يحيىٰ بن عطار الأشعري القمي، الحسن بن ادريس القمي والحمزة بن محمد العلوي.

اضافة الى من التقاهم أو درس لديهم خلال اسفاره الى المدن والحواضر الاسلامية.

اقامته مدينة ري

بعد صعود آل بويه وتسلمهم حكم الدولة العباسية في الحوادث الهامّة التي عاصرها الشيخ الصدوق وقد حكمت هذه الأسرة الايرانية في الأعوام (٣٢٢ - ٤٤٨ هـ) وكانت تسيطر بشكل مباشر على مساحات واسعة تمتد من ايران شرقاً حتى الى العراق وحتى اقليم الشام.

وقد هاجر الشيخ الصدوق الى مدينة ري استجابة لطلب من ركن الدولة البويهقي[١].

وجاء في موسوعة المعارف الاسلامية الكبرىٰ حول هذه الاسرة مايلي:

في أواسط القرن الثالث الهجري واجهت الدولة العباسية حركات انفصالية وثورات شعبية أسهمت بشكل وآخر في زعزعة النفوذ السياسي تدريجياً في المناطق التي كانت تشهد حركات العصيان والتمرد وأصبح بنو العباس خلفاء بالاسم فقط.

وقد شهدت ايران حركات مسلحة كانت تهدف الى الخلاص من ظلم بني العباس وجورهم، وبعد ظهور الدولية الصفارية والسامانية والزيارية ذروة

---

(١) يعرف بـ«ركن الدولة الديلمي» في الكتابات الايرانية، وقد اكتسب هذا اللقب من خلال سكن الأسرة في اقليم الديلم شمال ايران. المترجم.

ماوصلت اليه تلك حركات التمرد وهذا ما دفع بالديلم الذي لم يخضع أبداً للحكم العباسي بشكل فعلي الى الخروج على الدولة العباسية لتبدأ التداخل في شمال ايران وتتخذ اشكالاً خطيرة بخروجها عن اطار الاقليم الايراني الشمالي، فقد قامكل من «ماكان بن كاكي» و «أسفار بن شيرويه» و «مرداويج الزياري» بتعبئة آلاف المحاربين ومغادرة اقليم الديلم. وقد التحق علي وحسن ابنا «ابو شجاع» البويهي وهو صيّاد سمك بما كان القائد الساماني وكان علي يعمل قبل ذلك مع النصر بن أحمد الساماني.

ولكي يلفتا نظر السامانيين قام علي وحسن بالالتحاق بمرداويج الذي سيطر على اقليم جرجان وطبرستان وقام مرداويج بتكريم الأخوين ليرسلهما الى كرج حاكمين لكنه ما لبث ان ندم على ذلك ولهذا بعث الى حسين بن محمد الملقب بالعميد برسالة يطلب فيها منه منع الأخوين من دخول كرج وقام العميد باطلاعهما على مضمون الرسالة والتي تأمره باعادتهما أيضاً. وقد دفع ذلك بالأخوين الى الاسراع في دخول كرج والتحكم بزمام الموقف من خلال السيطرة على القلاع فيها ليكوّنا قوّة عسكرية انارت فزع مرداويج. وقد ضاعف من فزعه ان القوّة التي ارسلها الأخير لاعتقالهما استحقت بهما. وقام علي بالهجوم على اصفهان واحتلالها وقد استطاع ان يحطم جيش محمد بن ياقوت ويسبطر على المدينة ولكن هجوم شقيق مرداويج أجبره على التراجع والانسحاب من اصفهان.

لكنه ما لبث أن احتل كل من «أرّجان» و«نصربندجان» فيما بعث أخاه الى احتلال «مدينة» «كازرون»، وقد استطاع الأخير من السيطرة على المدينة ولكن جيش محمد بن ياقوت الذي استعاد اصفهان تحرك للقضاء على الأخوين وقد هزم حسن ليعود الى شقيقه علي، ولم يمض عام حتى هاجمه آل بويه حسن وأحمد وعلى شيراز وتمكنوا من احتلالها ليؤسسوا دولتهم المستقلة، ويعدّ

المؤرخون احتلال مدينة «أرّجان» بداية صعود الاسرة البويهية[١].

ويورد العلّامة الشوشتري ظروف هجرة الشيخ الصدوق من مدينة قم الى مدينة ري كما يلي: كان ركن الدولة[٢] مهتماً بنشر المذهب الحق ولهذا طلب من الشيخ الصدوق الحضور الى دار الخلافة وكانت لديه معلومات عن الشيخ ولهذا عندما حصل اللقاء سأل من الصدوق بعض الأسئلة حول حقانية المذهب الامامي فأجابه ما جعل ركن الدولة ينظر اليه باحترام واجلال وقد اجازه وخلع عليه[٣].

ويبدو أن السبب الأساس الذي يكمن وراء هذه الدعوة هو الفراغ الذي نجم عن رحيل الشيخ الكليني من الري وهجرته الى العاصمة بغداد. وهو أمر ادركه الشيخ الصدوق ولهذا لبّىٰ دعوة الأمير البويهي على وجه السرعة، فغادر مسقط رأسه متجهاً صوب مدينة الري. وتؤيد المناقشات والجدل الذي احتدم بين الشيخ الصدوق وزعماء التيارات والاتجاهات الفكرية المختلفة حول موضوع الامامة وغيبة الامام المهدي عليه السلام مايذهب اليه الباحثون في ظروف هجرة الشيخ الصدوق الى هذه المدينة وقد دارت حوارات حول هذه المواضيع الحساسة في بلاط الأمير البويهي ركن الدولة نجم عنها آثار رائعة تشهد بعظمة الفقيه الكبير.

عصر الحديث

يتوجب ان نطلق على عصر الشيخ الصدوق بـ«عصر الحديث» والذي بدأ مع خطى الشيخ الكليني واستمرت حثيثة بجهود الشيخ الصدوق، وكان الشيخ الكليني قد هاجر من كلين الى مدينة الري ليؤلف كتابه الكافي الذي يتصدّر كتب

(١) موسوعة المعارف الاسلامية الكبرىٰ ١ / ٢٦٩.

(٢) هو لقب حسن بن «ابو شجاع» الديلمي.

(٣) مجالس المؤمنين، القاضي الشوشتري ٢ / ٣٢٥.

الامامية الأربعة في الرواية والحديث، ومع بدء هذه الحركة العلمية الجديدة تكونت مدرسة أهل البيت في التدوين الروائي والحديثي وكان الشيخ الصدوق أحد الأعمدة الكبرىٰ في هذه المدرسة المباركة.

وتعد جهود الشيخ الصدوق استمراراً لمنهج الشيخ الكليني ولهذا اتبع منهجه في القيام بأسفاره العلمية ليبدأ فصل جديد في هذه الحركة الخالدة.

أسفاره العلمية

يكتشف المرء وهو يبحث في حياة الشيخ الصدوق حبّه العميق في جمع الحديث الشريف لقد كان يشعر أنه أمين على أحاديث السلف الصالح من أئمة الهدىٰ ومعدن الوحي وكان يعتبر ذلك واجبه الانساني والشرعي ومهمته في الحياة ومزرعته في هذه الدنيا ولم ينحصر عمله في جمع الحديث وتدوينه بل كان يسعىٰ جاهداً الى نشره واشاعته في عصره ومجتمعه. ولهذا يجد الدارس لحياته انه شدّ الرحال الى كثير من المدن والحواضر والمراكز الدينية في العالم الاسلامي.

ولم تقتصر اسفاره على المدن الشيعية بل شملت جميع المدن والمراكز الثقافية والعلمية، فلقد شدّ رحال السفر الى مدينة بلخ وبخارىٰ ومنها الى الكوفة وبغداد ومن بغداد الى مكة والمدينة وعانىٰ في اسفاره البعيدة تلك الكثير من المشاق وكان زاده في السفر شوقه الكبير في جمع الحديث الشريف يحمله معه اين ما حل ورحل.

وكان اذا وصل مدينة أو حاضرة اسلامية قصد النخبة فيها واعلامها لينهل منهم ما حفظوه من حديث ورواية وكان يتشرّب العلم والمعرفة لا يسأم ولا يمل ولا يرتوي أيضاً.

في رجب من سنة ٣٥٢ هـ شدّ الرحال الى مدينة «مشهد» ليزور الضريح

الطاهر للامام الرضاعليه السلام ويعود بعد ذلك الى مدينة الري وفي شعبان من العام نفسه سافر الى «نيشابور» وهي يومئذ مركز اقليم خراسان وعاصمته وكانت هذه المدينة تعيش حالة من الضياع والتشتت الفكري خاصّة في موضوع غيبة الامام المهدي‌عليه السلام وقد تمكن من ترشيد المجتمع الشيعي في تلك المدينة من خلال سلسلة حوارات ومحاضرات ومناقشات والوصول الى قناعات مستقرة في هذا المضمار. وقد نظر الشيخ الصدوق الى ذلك في كتابه «كمال الدين وتمام النعمة» وخلال فترة اقامته فى نياشبور دوّن ما سمعه من أحاديث رواها بعض علماء الحديث في تلك الديار من بينهم: حسين بن أحمد البيهقي، أبو الطيب حسين بن أحمد وعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

كما سافر الشيخ الصدوق الى مدينة مرو في أقصى الشرق من خراسان وسمع من رواة الأحاديث منها ومن بينهم: محمد بن علي شاه الفقيه وابو يوسف رافع بن عبد الله بن عبد الملك.

ثم انطلق الى بغداد ودوّن ما سمعه من أحاديث رواها حسين بن يحيىٰ العلوي، ابراهيم بن هارون وعلي بن ثابت الواليبي.

وفي عام ٣٥٤ وصل مدينة الكوفة وحضر حلقات الحديث عند مشايخها.

فرویٰ عن محمد بن بكران النقاش، أحمد بن ابراهيم بن هارون، الحسن بن مجمد بن سعيد الهاشمي، علي بن عيسىٰ، الحسن بن محمد المسكوني ويحيىٰ بن زيد بن عباس بن الوليد.

وفي نفس هذا العام عزم على حج بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج الابراهيمي فشدّ الرحال الى الحجاز وفي طريق الحج سمع الحديث في «همدان» من القاسم بن محمد بن أحمد بن عبدويه والفضل بن فضل بن عباس الكندي ومحمد بن فضل بن زويدويه الجلاّب وروىٰ عنهم.

وبعد ادائه مناسك الحج وفي طريق العودة سمع الحديث في منطقة «الفيد» في طريق مكة فروىٰ عن أحمد بن ابي جعفر البيهقي.

ويسافر الشيخ الصدوق مرّة أخرىٰ الى بغداد في عام (٣٥٥ ﻫ) ويبدو أنه وصلها بعد عودته من الحج.

كما اننا نفهم من كتابه المجالس أنه ذهب الى مدينة مشهد مرّتين احداهما تمت في عام (٣٦٧ ﻫ) وقرأ الحديث على السيد ابي البركات علي بن الحسين الحسيني وابي بكر محمد بن علي ليعود من رحلته هذه الى مدينة الري قبل حلول محرم الحرام.

أما سفرته الثانية فقد تمت عندما عزم الذهاب الى مدن ماوراء النهر حيث وصل «مشهد» ليغادرها الى مدينة «بلخ» ويحضر مجالس علمائها من قبيل الحسين بن محمد الاشناني الرازي والحسين بن أحمد الاسترابادي والحسن بن علي بن محمد بن علي بن عمرو العطار والحاكم ابي حامد أحمد بن الحسين وعبيدالله بن أحمد الفقيه.

وفي قرية «ايلاق» سمع الحديث لدىٰ محمد بن عمرو بن علي بن عبد الله البصري ومحمد بن الحسن بن ابراهيم الكرخي وغيرهم.

وفي نفس هذه القرية طلب شريف الدين ابو عبد الله محمد بن الحسن[1] المعروف بـ«النعمة» أن يؤلف كتاباً في الفقه فجاء كتابه المعروف «من لا يحضره الفقيه» والذي سنتطرق في الحديث عنه لاحقاً.

ومن ايلاق شد الشيخ الصدوق الرحال الى مدينة «سرخس» ومنها الى مدينة «سمرقند» والى «فراغنة»[2].

---

(١) من احفاد الامام موسىٰ بن جعفر عليهما السلام.

(٢) مقدمة بحار الأنوار ط بيروت / ٦٩.

وفي سفرته الى جرجان سمع الحديث من ابي الحسن محمد بن القاسم الاسترابادي[١].

منزلته العلمية

وشيئاً فشيئاً تجلت نبوءة الامام المهدي عليه السلام ودعوته المستجابة وظهرت كاجلىٰ ما تكون بركة هذا الشيخ الوقور وطار صيته في الآفاق وكانت الالسن تلهج بالثناء عليه.

فما أن حلّ في مدينة بغداد حتىٰ أصبح قطب الرحىٰ في ساحتها الثقافية والعلمية ومركزاً في اوساطها الدينية.

ومن الصعب أن نعتبر الشيخ الصدوق محدّثاً فقط ونحصره في علم الحديث فلم يكن محدثاً فحسب بل كان فقهياً أصولياً ومفسراً تشهد لكفاءاته المتعددة كتبه ومؤلفاته وما تركه من آثار خالدة يقول عمر رضا كحالة في حقه كان محمد بن علي بن الحسين الشيعي (ابو جعفر) مفسراً وفقيهاً واصولياً ومحدثاً وحاذقاً في علم الرجال[٢] أوقف حياته على جمع الحديث وتدوينه وتبويبه وكتب مؤلفات عديدة في مختلف الحقول العلمية ما يشهد بقدرته العلمية الموسوعية وتعمقه في العلوم الاسلامية.

وكان لجهده المضني في عصر قلت فيه الامكانات المتوفرة ما يعكس همته العالية وارادته الصلبة ومثابرته لتثمر مساعيه وجهوده وجهاده موسوعته الحديثية التي ما تزال نبعاً ثراً يرتوي منه الظامئون الذين ينشدون معارف أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) حاشية شرح اللمعة (١٠ مجلدات) ٩ / ٢٦٧.

(٢) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ١١ / ٣.

فقيه الامامية

يشهد كتاب الشيخ الصدوق «من لا يحضره الفقيه» على طول باعه في الفقه، هذا الكتاب الذي هو أحد الكتب الأربعة المشهورة لدىٰ الامامية. وقد اثبت فيه بعض الروايات التي تشكل مرتكزاته الفقهية واشار في مقدمة كتابه الى أن ما أورده في هذا الكتاب يمثل فتاواه[١] مايعني أن ذلك يطابق نظرياته في الأحكام. واضافة الى كتابه اعلاه فله كتاب آخر المعروف بـ«المقنع» ويعدّ من الكتب الفقهية المعدودة لدىٰ الشيعة الامامية وهو بمثابة رسالته العملية اذ ينطوي على فتاواه في كثير من المسائل الحياتية واعتبر الكتاب من قبل اللاحقين من العلماء بانه يمثل نظريات الشيخ الصدوق الفقهية وهم يستندون اليها في ما بحثوه من شؤون الفقه.

ومن هنا فان الذين كتبوا عن فقهاء الشيعة أخطأوا بتجاوزهم اسم الشيخ الصدوق في عدم تصنيفه ضمن الفقهاء. وهذا الشيخ الطوسي الذي لا يبارىٰ ولا يمارىٰ عدّ من ضمن فقهاء الامامية في كتابه الفهرست وذكره بعبارات تحمل معاني الأجلال والاحترام: كبيرنا وفقيهنا و...[٢]

كما عدّه علماء الرجال ضمن فقهاء الشيعة المبرزين[٣] وقد المعنا الى اثبته الشيخ الطوسي في غير مناسبة في حق الشيخ الصدوق واعتباره فقيهاً للامامية ومفخرة من مفاخر الشيعة[٤].

---

(١) من لايحضره الفقه ١ / ٣.

(٢) الفهرست / ٣٠٤.

(٣) راجع الصدوق في آراء الآخرين.

(٤) الفهرست / ٣٠٤.

الصدوق في آراء الآخرين

قلما نجد تمجيداً لشخصية أجمع الفريقان من شيعة وسنّة على احترامها والاذعان لمنزلتها العلمية، اثنىٰ عليه الشيخ الطوسي ووصفه بالشيخ الجليل حافظ الحديث من علماء الرجال البارزين والذي امتاز بذاكرة قوية قلما نجد من يضاهيه في منزلته العلمية في علماء قم[١].

وذكره محمد بن ادريس في كتابه «السرائر» وعدّه من العلماء الكبار والناقد للآثار وعالم الرجال وحافظ كبير للحديث وهو استاذ امامنا الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان[٢].

وذكره النجاشي العالم الرجالي المعروف ووصفه بالشيخ والفقيه والشخصية المبرزة لدىٰ الشيعة الامامية في خراسان وذكر سفره الى بغداد عام (٣٥٥هـ) وهو في سنيّ الشباب وتتلمذه على أيدي اساتذتها[٣] كما وصفه السيد بن طاووس بسعة العلم والتقوىٰ ومن اجمع عليه الناس في الثقة به[٤] وقال عنه الشيخ اسد الله الشوشتري في كتاب «مقابس الأنوار» رئيس المحدثين ومحيي الدين ومن ولد هو وأخوه بدعوة الامام العسكري وولي العصر[٥]وقال عنه المامقاني في كتاب: «تنقيح المقال» مثل ذلك وذكر نشره العلم بين الناس[٦].

وعدّه السيّد حسن الصدر من مؤسسي العلوم وذكر ان مؤلفاته تربو على ال

---

(١) المصدر السابق / ١٥٧.

(٢) مفاخر الاسلام ٣ / ١٧٧، مقدمة معاني الأخبار / ٩ نقلاً عن سفينة البحار ٢ / ٢٢.

(٣) شرح اللمعة، الكلانتر ٩ / ٢٦٥ ط بيروت.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) تنقيح المقال ٣ / ٥٤ ط النجف، منشورات الأعلمي.

٣٠٠كتاب ورسالة وانه قل نجد له نظيراً[١].

ولم يقتصر ذلك على علماء الشيعة فقد ذكر علماء السنة ايضاً وأثنوا على شخصه وجهوده العلمية فقد أثنىٰ عليه خير الدين الزركلي في كتابه المعروف «الاعلام» وقال انه لا يوجد له نظير بين علماء قم وذكر اقامته في مدينة الري وشرق خراسان واشار الى وفاته في هذه المدينة ومواراته الثرىٰ هناك كما أشار الى عدد مؤلفاته التي تناهز الثلاثمئة كتاب ومؤلف[٢].

الأمانة في النقل والرواية

تعتبر الأمانة والصدق والثقة في نقل الأحاديث والروايات من الأركان الأساسية في علم الرجال وهو ما يطلق عليه احياناً بصحة السند وقد اشتهر الشيخ الصدوق بوثاقته وأمانته في رواية الحديث، وقد اثني عليه الشيخ الحر العاملي المحدث الامامي الكبير ومؤلف الكتاب القيم «وسائل الشيعة» ونعته بالعالم الكبير والرجالي الخبير والثقة بلا نظير ومن لا تخفىٰ شهرته في ذلك على أحد[٣].

وذكر البحراني ان كثيراً من الأصحاب عدّوا مراسيل الشيخ الصدوق احاديث صحيحة وانها ليست دون مراسيل ابن ابي عمير[٤] وقد شهد له العلّامة والشهيد في شرح الارشاد بالفقاهة[٥] وعدّ المامقاني الرجالي المعروف التردد في وثاقة الشيخ الصدوق بمثابة شك في ضوء الشمس قال الحجة عليه السلام في حقه: ان الله ينفع به

---

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، ٢٦٢.

(٢) الاعلام، خير الدين الزركلي ٦ / ٢٧٤ ط بيروت.

(٣) الفرائد الطوسية / ٧.

(٤) ابن ابي عمير اعتقل وصودرت آثاره الحديثية فكان يحدث دون ذكر السيد واجمع العلماء على صحة مايروي بسبب ذلك المترجم.

(٥) معاني الأخبار المقدمة / ١٤، روضات الجنات ٦ / ١٣٣.

وهذه شهادة كبيرة بوثاقته وعدالته[١] فيما عدّه آخرون على صعيد الوثاقة في مستوىٰ سلمان الفارسي وابو ذر الغفاري[٢].

آثار الصدوق

ان محاولة تقصّي آثار الشيخ الصدوق نحتاج الى كتاب مستقل اذا لم نقل الى «موسوعة الصدوق» حيث يتوجب تعريف الأوساط العلمية الاسلامية بآثاره القيمة.

وقد ذكر الشيخ الطوسي ان للصدوق ما يربو على الثلاثمئة كتاب مصنف ومؤلف[٣].

كما أشار الى ذلك النجاشي في رجاله واثبت عناوين ١٩٨ منها[٤].

ولا تكمن أهمية ما قام به الشيخ الصدوق في حجم انتاجه المعرف في هذا المضمار بل في منهجيته في التدوين والتبويب اذ يبدو ما قام به ابتكاراً وضع حدّاً لما كان على الحديث تشتت وغياب التنظيم وفي هذا ما يعكس عبقرية الرجل وباعه الطويل في علم الحديث.

من لايحضره الفقيه

وبعد هذا الكتاب أشهر ما ألفه الشيخ الصدوق بعد كتابه الآخر «مدينة العلم» اذ يعد من الكتب الأربعة.

---

(١) تنقيح المقال ٣ / ١٥٤.

(٢) شرح اللمعة، الكلانتر ٩ / ٢٦٥.

(٣) الفهرست / ٢٠٤.

(٤) رجال النجاشي / ٣٨٩ - ٣٩٢.

ويضم الكتاب ما يناهز الستة آلاف حديث في مختلف الموضوعات ومن المفيد أن نذكر السبب من وراء تأليف الكتاب والذي أورده في مقدمة الكتاب في قراره بأنه لن يكون مثل سائر المصنفين في تدوين كل ما يسمعه من أحاديث بل انه أورد الأحاديث والروايات التي تتطابق مع ما يفتي به وينسجم مع آرائه ونظرياته بحيث يورد الأحاديث التي يقطع قطعاً يقينياً بصحتها ويؤمن ايماناً راسخاً بأنها حجّة بينه وبين الله عز وجل ويروي المرحوم المامقاني عن السيد بحر العلوم قوله ان بعض الأصحاب يرجح روايات كتاب الشيخ الصدوق (من لايحضره الفقيه) على سائر الكتب الأربعة لعدّة أسباب منها:

- ذاكرة المؤلف القوية ما يوفر ظروفاً أفضل في ضبط الروايات.
- اثباته في النقل.
- ان الشيخ الصدوق يقطع قطعاً تاماً بصحة ما أورده فيه من روايات.
- ان هدفه من نقل تلك الروايات ليس لمجرد الرواية وانما تصريحه بأن ما أورده من روايات وأحاديث يطابق فتاواه وآراءه[١].

كمال الدين وتمام النعمة

وقد ألف الشيخ الصدوق في أواخر عمره كتاب «كمال الدين وتمام النعمة» وقد جاء تأليف هذا الكتاب في عصر شهد تنامي نفوذ الفرقة الاسماعيلية من جهة وتعرض الفرقة الامامية الى انتقادات فكرية من قبل الزيدية واتباع جعفر الكذاب وكثير من أهل السنّة وقد احدثت هذه الضغوطات تشويشاً في اذهان الرأي العام الشيعي الامامي، ومن هنا جاء تأليف الشيخ الصدوق للكتاب. وقد تناول في

---

(١) تنقيح المقال ٣ / ١٥٥.

مطلع كتابه اشكالات المخالفين فأوردها جميعاً ثم بدأ بالدفاع من خلال ردوده على الشبهات وتفنيدها وتركزت بحوثه حول القائم من آل محمد ﷺ[١].

وبالرغم من انصرام ما يقرب تسعين سنة على بدء الغيبة الكبرىٰ فقد بدأ واضحاً أن الكثيرين قد بدأوا يشككون في مسألة الغيبة وراحوا ينعون على الشيعة ايمانهم بذلك وهذا ما المع اليه الشيخ الصدوق في كتابه.

معاني الأخبار

وهو من آثار الشيخ الصدوق القيمة ويشتمل هذا الكتاب على الروايات التي تلقي اضواءً كاشفة على الغامض من الأحاديث الشريفة وفي ما يساعد على فهم أكثر واقعية لبعض آيات القرآن الكريم.

عيون أخبار الرضا عليه السلام

وهو من الكتب القيمة الأخرىٰ ألفه الشيخ الصدوق وأهداه الى الوزير والعالم البويهي الصاحب بن عباد ويتضمن الكتاب الأخبار والروايات حول الامام الرضا عليه السلام.

كتاب الخصال

ويشتمل هذا الكتاب على المسائل والقضايا الأخلاقية والعلمية والتاريخية والفقهية أو على مواعظ وعبر وقد رتبت فصوله وفق التسلسل الرقمي في التدوين وهي طريقة حسنة واسلوب جيد فهو يورد من الروايات بقدر ما يعادل النقاط الأخلاقية التي يشير اليها.

---

(١) ألفية الشيخ الطوسي / ٥٢٢.

الأمالي

ويشتمل الكتاب على مجموع دروسه وقد قام تلامذته بتحريرها.

علل الشرائع

ويشير اسم الكتاب بوضوح الى موضعه فهو يبحث فلسفة الأحكام وعللها وقد أورد المؤلف جميع الروايات والأحاديث التي تهتم ببيان فلسفة حكاما وتشير الى العلّة والسبب الذي يكمن وراء تشريعه ولعل الكتاب رائد في هذا المضمار واضافة الى ما ذكرناه فان للشيخ الصدوق مؤلفات عديدة وكثيرة نذكر من بينها:

١ - ثواب الأعمال.

٢ - عقاب الأعمال.

٣ - المقنع.

٤ - الأوائل.

٥ - الأواخر.

٦ - المناهي.

٧ - التوحيد

٨ - دعائم الاسلام.

٩ - اثبات الوصية

١٠ - المصابيح.

١١ - التاريخ.

١٢ - المواعظ.

١٣ - التقية.

١٤ - الناسخ والمنسوخ.

١٥ - ابطال العلو والتقصير.

١٦ - السر المكتوم الى الوقت المعلوم.

١٧ - مصباح المصلّى.

١٨ - مصادقة الاخوان.

١٩ - الهداية في الاصول والفقه.

٢٠ - المواعظ والحكم.

٢١ - كتب عديدة في فضائل بعض الأعمال.

٢٢ - رسائل في موضوعات مختلفة.

٢٣ - عدة كتب في فضائل النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الاطهار.

٢٤ - كتب عديدة في بيان زهد النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من آله عليهم السلام.

٢٥ - كتب عديدة تتضمن اجوبته على اسئلة طرحت عليه.

الجوهرة الضائعة

وهو كتابه الفريد: «مدينة العلم» وقد فقد في ظروف غامضة اذ يبدو انه كان موجوداً حتى زمن والد الشيخ البهائي وهو ذروة ما وصلت اليه الدولة الصفوية من حضارة وثقافة وحتى خلال كتابات بن شهر آشوب في معالم العلماء فان كتاب مدينة العلم يقع في عشرة مجلدات يعني ضعف حجم كتاب من لا يحضره الفقيه[1].

وذكره الشيخ الطوسي كابرز مؤلفات الشيخ الصدوق وكذا ما ذكره الشيخ

---

(١) معالم العلماء / ١١٢.

منتجب الدين و آخرون وقد نقل عنه كثيرون[١].

أما صاحب روضات الجنات فقد اعتبر كتاب «مدينة العلم» أفضل انتاج معرفي وأكد وجوده الى عهد الشهيدين الأول والثاني ثم اختفت آثاره فلم يره أحد أو يسمع به أحد في حين ذكر بعضهم استمرار وجود الكتاب الى عصر والد الشيخ البهائي الشيخ عبد الصمد وأن الأخير كانت لديه نسخة من الكتاب[٢].

ودليل ذلك ما ورد في كتاب الشيخ عبد الصمد «الدراية»: من اعتبار الاصول الحديثية المعتبرة خمسة وهي: الكافي، مدينة العلم، من لا يحضره الفقيه، التهذيب والاستبصار.

وقد سعىٰ العلّامة المجلسي وبعد السيد محمد باقر الجيلاني (السيد الشفتي) وبذل في سبيل العثور على الكتاب المفقود جهوداً كبيرة كلفتهما نفقات باهظة ولكن دون جدوىٰ! وظل الكتاب حتى اليوم جوهرة مفقودة كلؤلؤة في محارة في أعماق المحيط.

تلامذة الشيخ الصدوق

كان الشيخ الصدوق يدرك ما يتهدد ميراث أهل البيت عليهم السلام من أخطار ومن غارات المغيرين فاضاف الى طريقته في التدوين والتسجيل اسلوباً آخر وهو تربية نخبة من تلامذته لتنتقل ثقافة أهل البيت عليهم السلام عبر الأجيال، فكان كلما سمع حديثاً سجّله ودوّنه وبوبه وحدّث به غيره، فكان الشيخ الوقور نبعاً فياضاً يرتوي محل من حصد ومن أراد أن ينهل من علمه، ولهذا بلغ عدد تلامذته المئات ليكوّن بمفرده جامعة علمية كبرى ولا أدلّ ما ذلك من نبوغ تلميذه العبقري محمد بن

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة.

(٢) روضات الجنات ٦ / ١٣٦.

محمد بن النعمان المعروف بـ«الشيخ المفيد» وما قدمه الأخير من خدمات كبرىٰ عكسها بجلاء لقبه وما ترك من آثار وراءه. كما يمكن الاشارة في هذا المضمار الى بعض تلامذته:

- شقيقه: الحسين بن علي بن بابويه القمي.
- هارون بن موسى التلعكبري.
- الحسين بن عبد الله الغضائري.
- الحسن بن محمد القمي (مؤلف تاريخ قم)[1].
- علي بن أحمد بن عباس النجاشي.
- علم الهدىٰ السيد المرتضىٰ.
- السيد ابو البركات علي بن الحسين الجوزي الحسيني الحلّي.

غروب الشمس

بعد عمر ناهز الخامسة والسبعين قضاه في البحث والتحقيق والتأليف والتدوين أغمض الشيخ الصدوق عينيه عن هذه الدنيا في عام (٣٨١ ﻫ) وعرجت روحه الطاهرة الى الرفيق الأعلىٰ عند مليك مقتدر.

وغابت شمسه عن الدنيا لتشرق في عام آخر.

وكانت وفاته في مدينة الري وقد عمّ الحزن العالم الشيعي وفجعت بفقده الأوساط الدينية والعلمية والشعبية وشيّع جثمانه الطاهر ليوارى الثرىٰ عند مرقد السيد عبد العظيم الحسني في مدينة الري وتعرف بقعته اليوم بـ«ابن بابويه» وأصبح ضريحه مزاراً يؤمه المؤمنون وظهرت لهم كرامات ضاعفت من اجلاله في

(١) الكتاب هو الآخر مفقود وتوجد ترجمته باللغة الفارسية (المترجم).

قلوبهم. منها ما حدث سنة (١٣٣٨ هـ) عندما هطلت الأمطار بغزارة وأصابت اطراف المقبر باضرار واحدثت صدوعاً ولما أراد جمع من المؤمنين اصلاح القبر ووصلوا الى السرداب حيث مثواه وجدوا جسده سالماً كانه توفي بالأمس وما تزال آثار الحناء في اظافره، وقد تركت هذه الحادثة أصداً في طهران آنذاك ووصلت الى مسامع السلطان القاجاري فتح علي شاه الذي أمر بتوقف العمل ريثما يصل ويطلع بنفسه، فوصل وبرفقته جمع من العلماء وعلية القوم وشاهد الجميع هذه الكرامة الكبرى[1].

وقد سمع صاحب روضات الجنات هذه الحكاية من عدد ممن شاهدوا بأنفسهم هذه الكرامة.

رحم الله الشيخ الصدوق واسكنه فسيح جناته. والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) روضات الجنات ٦ / ١٤٠.

الصاحب بن عباد الوزير / المتوفى سنة ٣٨٥ هـ

ولادته

ولد ابو القاسم اسماعيل بن عبّاد بن عباس الملقب بالصاحب والمشهور بالصاحب بن عباد في مدينة اصفهان عام (٣٢٦ هـ).

أبوه وأجداده من أعيان مدينة اصفهان وقد تسنم بعضهم الوزارة وكان أبوه يلقب بالشيخ الأمين وقد رعاه أبواه وحرصا على تنشئته تنشئة حسنة فكان أبوه وهو يقوم بدور الأبوة استاذه الذي يهتم بتلميذه غاية الاهتمام. وقد ظهرت امارات النبوغ على التلميذ الذي تعلم من أبيه مقدمات العلوم لينطلق منها الى ما هو ارحب في علم الفقه الحديث التفسير، الكلام وغيرها من الحقول العلمية والمعرفية.

ولم يلبث التلميذ الفطن هذا أن أصبح استاذاً من اساتذة اصفهان المبرزين يهاجر الى مدينة الري حاضرة العالم الاسلامي وأحد مدنه العلمية الهامة، فانتظم في حلقة ابن العميد الوزير البويهي والعالم الشهير. وقد اكتشف الأخير مقدرة ابن عباد الأدبية وانشاء النصوص الرفيعة فاتخذه كاتباً في وزارته. وكان للياقة الصاحب بن عباد ونهوضه بما يكلفون مهام ومسؤوليات قد فتح له طريق التقدم والرقي حتى اذا انتدب ركن الدولة ابنه مؤيد الدولة لحكومة اصفهان اصطحب الأخير معه الصاحب بن عباد ليكون سكرتيره الخامس وكاتبه فعاد بذلك الى مسقط رأسه.[١]

---

(١) الصاحب بن عباد، أحواله وآثاره،أحمد بهمنيار / ٣٧، معجم الادباء، ياقوت الحموي ٦ / ٢٢١.

آل بويه

نشأت هذه الاسرة الشيعية في مناطق الشمال الايراني وحكمت مناطق واسعة من البلاد بين الفترة ٣٢٠ - ٤٤٨ ه‍، وقد شهد الشيعة انفراجاً لهم في تلك الفترة وراحوا يمارسون طقوسهم الدينية بحرّية فعادت الشهادة الثالثة بالولاية للامام علي أمير المؤمنين في اذانهم كما أصبح بمقدورهم الاحتفال بيوم عاشوراء وحادثة كربلاء حيث لقي سيدنا الحسين وأهل بيته وأصحابه مصرعهم في صحراء كربلاء اضافة «شعائر مرتبطة بالثقافة الامامية آنذاك».

وقد عمل معزّ الدولة البويهي علىٰ نشر التشيع في العراق واصدر أمراً بتعطيل اسواق بغداد ومحالّها التجارية في العشرة الأولىٰ من شهر محرم الحرام حداداً على حادثة كربلاء كما أصبح ارتداء السواد حداداً على تلك المأساة أمراً الزامياً واتخذ الاحتفال بعيد الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة الحرام صفة رسمية في كل المناطق الخاضعة للنفوذ البويهي، فكانت الاحتفالات البهيجة تقام لتكون مناسبة للحديث من فضائل ومناقب الأئمة الاطهار من آل البيت عليهم السلام، وكما قام البويهيون باعادة بناء اضرحة الأئمة من آل الرسول صلى الله عليه وآله فقد جدد بناء مرقد سيدنا علي أمير المؤمنين في النجف الأشرف وكذا مرقد سيدنا الحسين سيد الشهداء في كربلاء في عام (٣٤٧ ه‍) رافق الصاحب بن عباد مؤيد الدولة البويهي ووزيره أبا علي بن أبي الفضل الكاشاني في زيارة الى مدينة بغداد وهي يومئذ المركز الكبير للعلوم الاسلامية وخلال فترة اقامته في هذه المدينة راح ينهل من اساتذتها المبرزين فحضر مجالس وحلقات علماء من قبيل السيراني، القاضي ابي السائب، أبي بكر أحمد بن كامل، المهلّبي وزير الخليفة العباسي، ابي زكريا محيي

بن العلوي واساتذة آخرين[١].

وفي عام (٣٦٦ هـ) انتخب مؤيد الدولة وهو حاكم اصفهان الصاحب بن عباد وزيراً له بعد أن امضىٰ في عمله السابق سكرتيراً وكاتباً مدّة ثلاثة عشر عاماً، وقد شهدت مدينة اصفهان في رعايته تقدماً ونمواً علمياً وأدبياً من خلال تقدير للعلماء والأدباء ورعايته لهم، وشيئاً فشيئاً طار صيته في الآفاق فاتجه الى لقائه الأدباء والعلماء من كل حدب وصوب.

وخلال اقامة الصاحب بن عباد في اصفهان ظهر عديد من نوابغ العلم والأدب في هذه المدينة فذكر من بينهم: ابا علي المرزوقي الأديب الشهير، الحلاّج أبا منصور الاصفهاني، وهو من تلامذة ابي علي الفارسي أبا عبد الله الخطيب الاسكافي، ابن فورك الاصفهاني المتكلم الأشعري الكبير، ابن منده الاصفهاني والمحدّث والمؤرخ المعروف أبا نعيم الحافظ الاصفهاني وغيرهم.

كان راسخ العقيدة في مذهبه الامامي وعمل على نشر التشيع بكل ما أوتي من قوّة، وله مناظرات مع الفقهاء والعلماء في مسائل عقيدية، وكان قوي الحجة واسع الدليل، وتحولت مجالسه في أحيان كثيرة الى حلقات درس.

وقد ناظر في أحد مناقشاته ومحاوراته أبا الندىٰ محمد بن أحمد الأديب الشهير في أحدىٰ جلسات الاملاء للصاحب بن عباد[٢].

وبعد وفاة ركن الدولة في عام ٣٦٦ أصبح مؤيد الدولة حاكماً على الري اضافة الى حكومة اصفهان فقام بعزل وزير والده أبي الفتح ابن العميد واسند منصبه الى الصاحب بن عباد الذي منح صلاحيات واسعة جداً فقد كان مؤيد

---

(١) معجم الأدباء ٦ / ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرىٰ، نور الله الكسائي / ٢٢، ٢٤؛ الصاحب بن عباد أحواله وآثاره / ٣٩، ٤٠، ١١٤.

الدولة يثق - بوزيره الى ابعد الحدود بحيث فوض اليه ادارة البلاد وفتح له خزائنه ينفق منها كيف يشاء. وقد عمل الصاحب بن عباد ما أمكنه ذلك في ارساء دعائم العدل والاستقرار والرخاء في انحاء الدولة فازدهرت في ادارته الحياة الاقتصادية والأدبية والعلمية وشهدت مدينة الري في تلك الفترة تقدماً وازدهاراً واسعين[1].

وفي عام ٣٧٠ عندما انفجر النزاع بين مؤيد الدولة وعضد الدولة حاكم بغداد الأخير حشد قوّاته وزحف الى مدينة همدان استطاع الصاحب بن عباد بعقله الراجح وشخصيته القوية أن يضع حداً للصراع ويقوم بمصالحة أعادت الاستقرار الى البلاد، بل وتمكن من توحيد قوّات الطرفين وتكوين جيش استطاع أن يهزم جيوش خراسان بقيادة قابوس بن وشمگير.

وقد تحقق هذا النصر السياسي والعسكري الكبير في عام ٣٧١ الذي تزامن مع وفاة مؤيد الدولة وخلافة فخر الدولة، وفي عهد الأخير وصل الصاحب بن عباد، ذروة مجده السياسي وأصبح شخصية كبرىٰ لها من الصلاحيات السياسية واتخاذ القرارات الكبرىٰ حتىٰ فخر الدولة بدأ حذراً في التعامل معه.

وفي عهده فتحت بلدان جديدة لتنظم الى المناطق الخاضعة لنفوذ البويهيين، ومن خلال مساعي الصاحب بن عباد حصل فخر الدولة على امتيازات جديدة من الخلافة العباسية. كما تمكن الصاحب بن عباد بحنكته السياسية وتدابيره الادارية أن يخمد الفتن في اقليم طبرستان وارساء دعائم الاستقرار السياسي فيه.

---

(١) أعيان الشيعة السيد محسن الأمين العاملي ٣ / ٣٤١.

مذهب الصاحب

صرح كثير من الأعلام بتشيع الصاحب بن عباد وبعضهم عده من الاماميين، فالسيد ابن طاووس، الشيخ الصدوق، العلّامة المجلسي، الحرّ العاملي، الشيخ البهائي، آقا بزرک الطهراني، الشيخ عباس القمي، العلّامة الأميني، وكثير غيرهم وصرحوا بشكل قاطع بتشيع الوزير البويهي واستشهدوا بما ترك من اشعار يتغنىٰ فيها بحب الأئمة الطاهرين من آل بيت النبي ﷺ وأشعار تدلّ بما لا يقبل الترديد والشك على تشيعه[1]. ومن أشعاره قوله:

أبا حسن لو كان حبك مدخلي جهنم، ان الفوز عند جحيمها
فكيف يخاف النار من هو مؤمن بأنّ أمير المؤمنين قسيمها

أخلاقه وسيرته

ان البحث في سيرة الصاحب بن عباد وتجاربه الانسانية سوف يكشف عن اخلاقه وسجاياه كما هو الحال في دراسة النوابغ والعباقرة من البشر ولدىٰ دراسة حياة الصاحب بن عباد وسيرته الذاتية تسلط اضواءً كشافة على مخزونه الأخلاقي والانساني، لقد بهر الصاحب بن عباد كل الذين عرفوه بخلقه وأدبه الجمّ وأصبحت له شهرة واسعة في الأوساط الشعبية.

فقد عرف الرجل بكرمه ووجوده وسخائه وعرف بشهامته وتواضعه وكان يكرم العلماء ويحتفي بذرية الرسول ﷺ وكان مسامحاً يغض النظر عن هفوات الآخرين وعرف عنه فراسة وشجاعة وخلق كريم[2].

---

(١) للمزيد يمكن مراجعة أشعار الصاحب بن عباد في موسوعة العلّامة الأميني «الغدير» ٧ / ١٠٣ وكذا أعيان الشيعة ٣ / ٣٥٣ وكذا يتيمة الدهر للثعالبي ٣ / ٢٤٧.

(٢) الصاحب بن عباد، أحواله وآثاره / ٧٢.

منهجه السياسي والاداري

عندما تصدّىٰ الصاحب بن عباد الى منصب الوزارة شمّر عن ساعديه في العمل على ارساء دعائم العدل ومكافحة كل المظاهر والممارسات الظالمة وسعىٰ بجدّ على تحسين اوضاع الفقراء المعيشية والبدء في حركة عمرانية، وقد ازدهرت في ظل ادارته كثير من المدن في طليعتها قزوين، كاشان، قم واصفهان.

وقد اهتم الصاحب بن عباد بمدينة قم بسبب موقعها الديني واعتبارها مركز التشيع آنذاك وقاعدة الشيعة الكبرىٰ، وقد هدى مؤلف كتاب «تاريخ قم» محمد بن الحسن القمي كتابه هذا الى الصاحب بن عباد اذ انه لم يجد شيئاً اثمن من ذلك بهدية الى الوزير والأديب حسب تعبيره[1].

وقد شهدت الحياة الاقتصادية انتعاشاً في عهده وتكوّنت للدولة قوّة نقدية كبيرة مكنتنا من القيام بمشاريع عمرانية، واهتم الصاحب بن عباد الى جانب ذلك بالحياة الرياضية ودعم المسابقات. واسند الوظائف الحساسة الى اشخاص كفوئين ومؤهلين لضمان سير الأعمال بشكل صحيح ومنتج ولم يسمع بكفاءة معطّلة الاّ استثمرها فيما يخدم مصالح الدولة والبلاد.

طلب العلم ونشر العلوم

نشأ الصاحب بن عباد في بيئة علمية وكان مأخوذاً بطلب العلم والأدب منذ نعومة أظفاره وظل على ذلك الى آخر يوم في عمره وحياته حتىٰ مشاغله السياسية والادارية وموقعه الحساس في ادارة شؤون الدولة لم يلهه عن اقامة مجالس العلم والأدب. ظل يطلب العلم ويتعلم ويتشرّب الأدب والمعرفة. وكان

(١) المصدر السابق / ٦٨ - ٧٠.

هذا ديدنه فلم يفارق العلماء والأدباء حتى في المهام العسكرية كان يصطحب منهم الاعلام لتنعقد بهم مجالس العلم والأدب في تلك الظروف.

ودفع في أولوياته السياسية والادارية نشر العلوم والمعارف في المجتمع ولهذا كان يبعث بعلماء من بغداد الى اصفهان والري من أجل الارتقاء بالمستوىٰ العلمي هناك، وكان يعتقد بشكل راسخ أنه أية عملية تنموية اقتصادية لن تحدث اذا لم تسبقها تنمية ثقافية وعلمية ولهذا ناصب الجهل العداء وراح يكافح مظاهره في كل مكان ذلك ان المجتمع لن يدرك الفضائل الاّ بعد تحطيم قيود الجهل والسلاسل.

ولهذا أيضاً رعىٰ الطبقة المثقفة في البلاد واهتم بشؤونهم، وقد شجع على الاستنساخ من أجل توفير نسخ عديدة للكتاب ما يسهم في نشر المعرفة الى ابعد مايمكن. فلم يسمع بتأليف كتاب جديد حتى استنسخه ليحتفظ بنسخة منه في مكتبته فتكوّنت بجهوده مكتبة كبرىٰ حوت كل نتاجات ذلك العصر ولم يحتكر هذا الكنز لنفسه بل فتح ابواب المكتبة لكل الباحثين والعلماء والدارسين ينهلون منها ويفيدون منها في بحوثهم وتأليفاتهم وقد صرح المقدسي الجغرافي الشهير في القرن الرابع الهجري بذلك واشار الى عظيم الفائدة التي جناها من مكتبة الصاحب بن عباد. حتى ان فهارس مكتبته تقع في عشرة مجلدات وكانت قافلة من الجمال وحدها تستطيع حمل كتبه. وبلغ حجم مكتبته في مدينة الري انها كانت تعادل كل مكتبات القارة الاوربية كلها.

كان الصاحب بن عباد يكرم العلماء والأدباء ولهذا قصدوه وامتدحوه واثنوا عليه فهذا الصابي أحد كتّاب العصر آنذاك كتب اليه رسائل امتدحه فيها ومجّده وقدّر له سياسته وادارته، وهذا الشريف الرضي امتدحه في قصائده والق في بلاده قصيدة تعدّ من روائع الشعر العربي.

كان الصاحب بن عباد يرسل في كل عـام خـمسة آلاف ديـنار الى بـغداد لتوزيعها على الفقهاء والعلماء والأدباء..

كان من بين الذين لازموه وصاحبوه من العلماء والأدباء:

١ – ابو القاسم الزعفراني.

٢ – ابو القاسم بن ابي العلاء.

٣ – ابو العباس الضبّي.

٤ – ابو سعيد الرستمي.

٥ – ابو دلف الخزرجي.

٦ – ابو محمد الخازن الاصفهاني.

٧ – بديع الزمان الهمداني صاحب المقامات المعروف وآخرون[١].

وقد ذكر ياقوت الحموي في مـعجم الأدبـاء أن خـمسمئة شـاعر مـدحوا الصاحب بن عباد في اشعارهم ودواوينهم، ونقلوا عنه قوله أن مدح بمئة ألف بيت من الشعر العربي والفارسي.

وشملت رعاية الصاحب بن عباد القوافل المتجهة نحو مكة المكرمة والمدينة المنورة وهي قوافل الحج فكان يهدي الى الحجاج هدايا تتناسب مع شأنهم.

ربطت الصاحب بن عباد ومعاصريه من العلماء والشخصيات الأدبية علاقات طيبة للغاية وكانت علاقات وثيقة وكان الجميع يكن له الاحترام والاجلال. فهذا هلال بن هارون الصابي الحرّاني الكاتب المعروف يكتب له رسالة ويذكر له ان قبلها لأنه يعرف بصر الصاحب بن عباد سيقع على الرسالة والصابي شخصية أدبية كبيرة عمل فى بلاط الخلفاء والوزراء قرابة التسعين عام، كما قام الثعالبي بوصف مجالس الصاحب بن عباد التي تجمع العلماء والأدبـاء وتـنطلق فـيها الأفكـار

---

(١) المصدر نفسه / ١٤٣.

والعقول حيث بلاغة الصاحب بن عباد، تتألق في المجالس وتسحر الحاضرين شعراً ونثراً[١].

منزلته العلمية

كان الصاحب بن عباد من الذين يشعرون بالظمأ للعلوم فهو لن يرتوي أبداً وقد دفعه عمه الى طلب العلوم في مختلف حقول المعرفة والأدب وقد تعمق في بعضها وكانت له آراؤه الخاصّة. وقد تعمق في علوم عديدة من بينها القرآن والتفسير والحديث، والكلام، واللغة والنحو والعروض والنقد الأدبي وحتى الطب.

أ: مؤلفاته:

ترك الصاحب بن عباد وراءه مؤلفات عديدة تكشف عن شخصيته وقابلياته الموسوعية نشير الى طائفة منها:

١ - الابانة (في علم الكلام). ٢ - الاقناع (في العروض). ٣ - الأمثال السائرة (في الأدب). ٤ - التذكرة (في علم الكلام والاصول). ٥ - ديوانه الذي يضم أشعاره. ٦ - رسائل الصاحب (بحوث أخلاقية، عقائدية واجتماعية). ٧ - رسالة في فضائل السيد عبد العظيم الحسني عليه السلام. ٨ - رسالة في علم الطب. ٩ - عنوان المعارف. ١٠ - الفرق بين الضاد والظاء. ١١ - الكشف عن مساوئ شعر المتنبي. ١٢ - المحيط (في علم اللغة). ١٣ - المنظومة الفريدة.

ومن مؤلفاته التي لم تصل الينا كاملة: ١٤ - الأنوار. ١٥ - الروز ناحجة. ١٦ - السفينة. ١٧ - نهج السبيل. ١٨ - اسماء الله وصفاته. ١٩ - الأعياد وفضائل

---

(١) المصدر نفسه.

النيروز. ٢٠ – الامامة. ٢١ – تاريخ الملك واختلاف الدول. ٢٢ – التعليل. ٢٣ – جوهرة الجمهرة. ٢٤ – الحجر. ٢٥ – الزيدية. ٢٦ – الشواهد. ٢٧ – الفصول المهذبة للعقول. ٢٨ – القضاء والقدر. ٢٩ – الوزراء. ٣٠ – والوقف والابتداء. ٣١ – الكافي في الترسّل.

وكتب أخرىٰ[چ].

ب: اساتذته:

لا تتوفر معلومات دقيقة في هذا الموضوع غير أن الدارس لحياة الصاحب بن عباد يلاحظ بعض من درس لديهم وهم: ١ – عبّاد (والده) ٢ – ابن العميد ٣ – ابن الفارس ٤ – ابو الفضل عباس بن محمد الخوي ٥ – ابو سعيد حسن بن عبد الله السيرافي ٦ – ابو بكر محمد بن يعقوب ٧ – القاضي ابو بكر بن الكامل ٨ – ابو زكريا يحيىٰ بن عدي ٩ – ابو عمر الصباغ[1].

ج: تلامذته:

وفيهم نوابغ لمعت اسماؤهم في تاريخ الاسلام من بينهم: ١ – الشيخ عبد القاهر الجرجاني ٢ – ابو بكر بن المقري ٣ – القاضي ابو الطيب الطبري ٤ – ابو الفضل محمد بن ابراهيم النسوي الشافعي ٥ – ابو بكر الذكواني[2].

(چ) معجم الأدباء ٦ / ٢٦٠؛ الغدير ٧ / ٨٧، الصاحب بن عباد حياته وأدبه / ١٩٧، الصاحب بن عباد أحواله وآثاره / ٢١.

(١) وفيات الأعيان ٣ – ٢٢٨.

(٢) أعيان الشيعة ٣ / ٣٥١، الصاحب بن عباد وشرح أحواله وآثاره / ١٢٠.

د: الكتب التي ألفت باسمه أو أهديت اليه:

١ - عيون أخبار الرضاعليه السلام: الشيخ الجليل والفقيه الكبير الصدوق رحمه الله.

٢ - كتاب الرجال عن الحسين بن علي بن بابويه شقيق الشيخ الصدوق.

٣ - تاريخ قم عن الحسن بن محمد القمي.

٤ - لطائف المعارف عن الثعالبي (الأديب المشهور).

٥ - الصاحبي عن ابن الفارس.

٦ - التهذيب عن الكافي عبد العزيز الجرجاني.

٧ - الحجر، عن ابي جعفر أحمد بن ابي سليمان[١].

أشعاره:

للصاحب بن عباد قصائد في جميع اغراض الشعر وفنونه من قبيل: المدح، الرثاء، الوصف، الهجاء، الغزل، المواعظ وغيرها من الفنون التي تناولها الشعر يومذاك وكان في كل ذلك مبدعاً حوت اشعاره على مضامين جديدة وله في مديح الأئمة الطاهرينعليهم السلام سيما الامام عليعليه السلام اشعار كثيرة تناول فيها مناقبه وقد بلغ عدد قصائده في مديح الامام عليعليه السلام سبعة وعشرين قصيدة بعضها لم يستخدم فيها حروف بعينها (صفة الحذف) وظلت قصيدته الثامنة والعشرون الخالية من حرف «الخاء» ناقصة لم تتوفر له فرصة لاتمامها.

وقد ذكره ابن شهر آشوب في شعراء الشيعة المعدودين واستدلّ بأشعاره عن ولائه وحبّه لأهل البيتعليهم السلام:

ومن أشعاره قوله:

(١) المصدر السابق.

حب علـي بـن ابـي طـالب هـو الذي يـهدي الى الجـنّة
ان كــان تـفضيلي له بـدعة فـــلعنة الله عــلى الســنّة

وقوله:

نــاصب قــال لي: مــعاوية خــا لك خـــير الأعــمام والأخــوال
فــهو خـــال للــمؤمنين جــميعاً قلت خال ولكن من الخير خالي[1]

نثره:

كان الصاحب بن عباد قديراً في فن الكتابة وله يراع رائع في هذا الفن الأدبي وصفه الثعالبي بأنه يصل حدّ السحر في تعبيره من حيث جمال اللـفظ والمـعنىٰ وكان يزيّن نثره بآيات من القرآن الكريم من قبيل ما كتب الى أحد القضاة:

«ايّها القاضي بقم قد عزلناك فقم»[2]

وتؤكد توقيعاته (التوقيعات ما يذيل بها المرء عرائض مكـتوبة تـقدم اليـه وعادة ما يكون التوقيع موجزاً يمتاز بالاختصار والبلاغة فـي التـعبير وايـصال المعنىٰ المطلوب) بلاغة الوزير وفصاحته ومهارته في الفنون الأدبية.

الصاحب بن عباد واللغة الفارسية:

يظن البعض ان الصاحب بن عـباد بـترجـيحه الأدب العـربي عـلى الأدب الفارسي انما ينطلق من عصبية غير ان دراسة حياته تفند ما ذهب اليه من يـرىٰ ذلك، ولعل أفضل شاهد هو علاقة الصاحب بن عباد بشعراء الفارسية، من قبيل:

---

(١) الغدير ٧ / ١٠٣، يتيمة الدهر ٣ / ٢٤٧.

(٢) وكان القاضي في قم قد اتهم بتسلّم رشاوي أدت الى طرده من منصبه. راجع الصاحب بن عـباد شـرح أحواله وآثاره / ١٩٤ - ٢٠٠.

الغضائري والجنيدي والمنطقي (بندار رازي) وتكريمه لهم.

وما يتوفر من معلومات في هذا المضمار تؤكد عداءه فقط للذين يجنحون الى العودة الى المجوسية بذريعة الدفاع عن اللغة الفارسية وكانت لديه مخاوف وهواجس من عودة المجوسية خاصة وان اقليم الشمال الايراني (الديلم) ما يزال يقطنه أناس ظلّوا على ديانتهم القديمة في عبادة النار والاعتقاد بالزرادشتية وقد تسنّم بعضهم مناصب حساسة في الدولة ولهذا كان مستاءً من أولئك المسؤولين الكبار الذين اصرّوا على البقاء على ديانتهم المخالفة للدين الاسلامي الحنيف وهو عندما يهاجم أولئك فمن هذه الزاوية فقط لا غير[١].

غروب الشمس

في أواخر عمره لزم الصاحب بن عباد فراش المرض، ولم يكن في ظروفه الصحية المتدهورة ليغفل عن موقعه الحساس في ادارة شؤون البلاد.

وكان يستقبل العائدين له من مختلف الشرائح الاجتماعية وكان عموم الناس من الذين يمرون بداره يدعون له بالشفاء، ولكن روح الصاحب بن عباد قد فاقت ذرعاً بالقفص الجسدي الطيني وازفت ساعة الرحيل.

في ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر صفر عام (٢٨٥ هـ) عرجت روح الشاعر والأديب والوزير الكبير الى الرفيق الأعلىٰ.

وقد ارتدت مدينة الري فور وصول الخبر حلّة الحداد والحزن على الفقيد الراحل وتعطّلت الأسواق.

وشيع الراحل في موكب طويل يصلّي عليه تلميذه الوفي والعالم المبرز ابو

---

(١) المصدر السابق.

العباس الضبيّ، وارتدىٰ فخر الدولة غياب الحزن تحفّه كوكبات من الجنود غارقة في السواد واقيمت مراسم العزاء ومن الري ودع جثمان الفقيد الراحل الى مدينة اصفهان ليواري الثرىٰ في مسقط رأسه ليصبح قبره مزاراً يختلف اليه المؤمنون لقراءة سورة الفاتحة والدعاء[١].

وطار نبأ رحيل الوزير الصاحب بن عباد الى حواضر العالم الاسلامي مراكزه واقيمت مراسم العزاء في بعض المدن والقىٰ الشعراء قصائد في رثائه.

وقد رثاه الشريف الرضي بمئة واثني عشر بيت من الشعر وقد ألف أبو الفتح عثمان بن جنّي كتاباً في شرحها.

وقد اعترفِ العلّامة الأميني بعجزه عن بيان شخصية ذلك الأديب والشاعر الكبير وما امتاز به من خصال حميدة.

---

(١) ومرقده الآن في ميدان الطوقجي الى جانب مزار آية الله الطيبي.

الشريف الرضي /المتوفىٰ سنة ٤٠٦ هـ

كوكب في الافق

لم يكد يمضي قرن واحد على غروب شمس الامامة وبدء الغيبة الكبرىٰ للامام المهدي عليه السلام حتى اشرق كوكب في سماء بغداد.. كوكب يسطع بالنور والدفئ واذا العاشقون تتفتح قلوبهم للنجم الجديد.

في عام ٣٥٥ هـ[١] وفي شاطئ دجلة الغربي في منطقة الكرخ حيث يقطن شيعة أهل البيت عليهم السلام ولد صبي هو «محمد» ليزدان به ذلك البيت عبيراً وشذىٰ وابتهج ذلك المنزل المفعم بالايمان والاخلاص والتقوىٰ، واذا محمد سيكون له شأن وأي شأن سوف يعرف الصبي فيما بعد بالشريف الرضي والسيد الرضي ما يعكس منزلته الرفيعة بين أهله وقومه بل والعالم الاسلامي بأسره.

أبوه وأمه كلاهما من ذرّية النبي صلى الله عليه وآله فهدف ابناء علي والحسين عليهما السلام لا يفصله عن جدّه الحسين من أبيه سوىٰ خمسة آباء فقط حتىٰ يصل الى دوحة أهل البيت في غصن رطيب هو سيدنا موسىٰ بن جعفر الامام السابع[٢] في شجرة الامامة ودوحة الولاية ومن هنا اكتسب لقبه الذي عرف به أيضاً «الموسوي» أما نسبه من والدته العلوية الطاهرة فلا يفعله عن الشجرة الطيبة سوىٰ ستة آباء فقط فإذا أمه تنتمي الى الامام الرابع من ائمة الهدىٰ الامام علي بن الحسين زين العابدين وسيد

---

(١) النجوم الزاهرة، يوسف بن تغرى بردي الاتابكي ١٤ - ٢٤٠.

(٢) أعيان الشيعة ٩ / ٢١٦.

الساجدين عليه السلام[١]، ذكرها الشيخ المفيد في مقدمة كتاب له ناعتاً ايّاها بـ«سيدة بغداد» والسيدة الفاضلة[٢].

رؤيا المصير

يعدّ القرنان الرابع والخامس من تاريخ بغداد عصراً ذهبياً، ذلك ان هذه المدينة وهي عاصمة الدولة الاسلامية الكبرىٰ قد بلغت الذرىٰ في العلم والأدب وحيث تسطع في سمائها نجوم العلم والمعرفة وتموج بأولئك الذين يقصدونها ظامئين ليرتدوا من ينابيعها الثرة الصافية. ويكفي ان نشير الى شخصية العصر الكبرىٰ يومذاك وهو محمد بن محمد بن النعمان المعروف والمشهور بالشيخ المفيد. حيث ازدهرت الحياة الثقافية في ظلاله وكان لا يدخر جهداً في تربية تلامذته ليكونوا نجوم الغد وحتىٰ لا يحل الاسلام بعد غياب شمس الامام.

كان الشيخ المفيد رحمه الله وعلى عادته في طريقه الى مسجد «براثا» وقد ولج البداية ليلقي دروسه على تلامذته في ذلك المسجد العريق وما أن شرع بالدرس حتى اطلت امرأة عليه سيماء الوقار والجلال فنهض الشيخ محيياً: السلام عليكم ولم تكف المرأة بمفردها لقد كانت تصطحب ابنيها الصغيرين قالت المرأة: لقد جئت بابنيَّ السيد الرضي والسيد المرتضىٰ لتعلمهما الفقه، وما أن سمع الشيخ ذلك حتىٰ هملت عيناه بالدموع.. وهش الحاضرون من هذا المشهد ولم يجدوا له تفسيراً ولكن الشيخ سرعان ما فسّر لهم ذلك عندما قال: هذا تأويل رؤياي بالأمس.. كنت أقرأ في كتاب وهوّمت عيناي بالنوم فرأيت نفسي في هذا المكان وفي هذا الجمع فإذا أنا ببنت رسول الله سيدتي فاطمة الزهراء مع ولديها الحسن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) حول نهج البلاغة، السيد عباس الأهري ٢٠.

والحسين فقالت لي يا شيخ جئت اليك بولدي الحسن والحسين لتعلمهما الفقه، وها أنا أرىٰ تفسير رؤياي في هذه المرأة الجليلة وابنيها السيد الرضي والسيد المرتضىٰ.

ومن ذلك اليوم عكف الشيخ المفيد على تلميذيه السيدين الشريفين يعلمهما الحكمة والعلم وفصل الخطاب(١).

هائم بالعلم والمعرفة

عرف عن السيد الرضي منذ نعومة أظفاره عشقه العميق للعلم وهيامه بطلب المعرفة، وقد امتاز بوعي مبكرة وفطنة تجلت ملامحها في وجهه وعينيه النافذتين، فقد أقبل على الدراسة بكل جد واجتهاد، وكان يزداد في كل يوماً علماً وقد اسهمت الظروف الثقافية في نموه وتنشئته اذ شهدت تلك الفترة خموداً لكل النعرات الطائفية والتفرقة المذهبية واذا ابناء جميع المذاهب واتباعها يعيشون اخوة في انسجام وتفاهم ووئام.

وقد شهدت بغداد فترة ذهبية في التعايش السلمي بين جميع المذاهب في اجواء غاية في التسامح، وكان الجميع يسعىٰ لاثبات صوابيته وحقانيته بالكلمة الحسنة والدليل العقلي والمنطقي، ومن هنا فقد توفرت للشريف الرضي فرصة استثنائية وفريدة في تعلم الفنون والعلوم فراح يتشرّف الحكمة والمعرفة من قراءة للقرآن وتفسيره، ومن صرف ونحو وبلاغة وحديث ومن كلام وفقه وأصول وحتى فنون الشعر كل هذا وهو لمّا يناهز العشرين من عمره بعد حتى اذا بلغ العشرين من ربيع الحياة اذا به يقف في مصاف الأساتذة والمعلمين.

---

(١) راجع الغدير ٤ / ١٨٤.

لقد تتلمذ السيد الرضي في تلك الفترة من عمره على يد اساتذة عديدين من بينهم:

١ - ابو اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري (المتوفىٰ سنة ٣٩٣ هـ) وهو فقيه وأديب وكاتب قدير تعلم الشريف الرضي على يديه القرآن.

٢ - ابو علي الفارسي (المتوفىٰ سنة ٣٧٧ هـ) وكان في طليعة الأدباء والنحويين في عصره.

٣ - ابو سعيد السيرافي (المتوفىٰ سنة ٣٦٨ هـ) عالم كبير ونحوي معروف وأحد قضات بغداد في عصره.

٤ - القاضي عبد الجبار البغدادي، وهو من المختصين في علم الحديث والأدب.

٥ - عبد الرحيم بن نباتة (المتوفى سنة ٣٧٤ هـ) من خطباء الشيعة المرموقين وكان يعرف بالخطيب المصري تعلم السيد الرضي على يديه فنون الشعر.

٦ - ابو محمد عبد الله بن محمد الأسدي الاكناني (المتوفىٰ سنة ٤٠٥ هـ) عالم فاضل وتقي ورع عمل في القضاء وكان قاضياً في بغداد.

٧ - ابو الفتح عثمان بن جنّي (المتوفىٰ سنة ٣٩٢ هـ) اديب وعالم في النحو والصرف.

٨ - ابو الحسن علي بن عيسىٰ (المتوفىٰ سنة ٤٢٠ هـ) امام في اللغة والأدب.

٩ - ابو حفص عمر بن ابراهيم بن أحمد الكناني محدث ثقة تعلم السيد الرضي لديه الحديث.

١٠ - ابو القاسم عيسىٰ بن علي بن عيسىٰ بن داوود بن الجرّاح (المتوفىٰ ٣٩٠ هـ) لغوي ومحدث كبير.

١١ - ابو عبد الله المرزماني (المتوفىٰ سنة ٣٨٤ هـ) محدث معروف وصاحب

تصانيف في الحديث وكان ثقة لدىٰ الشيخ الصدوق يروي عنه.

١٢ - ابو بكر محمد بن موسىٰ الخوارزمي (المتوفىٰ سنة ٤٠٣ هـ) فقيه بارز ومحدث تعلم لديه السيد الرضي الفقه.

١٣ - ابو محمد التلعكبري (المتوفىٰ سنة ٣٨٥ هـ) فقيه جليل القدر وصاحب كتاب «الجوامع في علوم الدين».

١٤ - ابو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد (المتوفىٰ سنة ٤١٣ هـ) عالم كبير فذ وابرز علماء العالم الاسلامي في ذلك العصر[١].

الشعر الملتزم

كان السيد الرضي في طليعة البلغاء والفصحاء في عصره فقد أوتي موهبة أدبية وذوقاً سليماً وقد برزت موهبته الشعرية وهو في التاسعة من عمره وادهش معاصريه بأشعاره في هذه السن المبكرة، ولم يلبث ان أصبح في عداد الشعراء الكبار ليحصل على لقب «اشعر قريش» و «أشعر العرب» وقد ترك وراءه كما ذكر الثعالبي اربعة دواوين[٢].

ولا ننسىٰ ان نشير الى أن أباه كان سجيناً في قلعة شيراز ابان حكم عضد الدولة البويهي القوي وقد ظل في سجنه ثماني سنوات عاش الشريف الرضي خلالها طفولة خالية من فرح الأطفال.

وعندما تصدّىٰ صمصام الدولة الى الحكم افرج عن السيد أبي أحمد والد الشريف الرضي واطلق سراحه وقد حيّا الشريف الرضي هذه المناسبة البهيجة بقصيدة واستقبل فيها والده[٣].

---

(١) الشريف الرضي، محمد هادي الأميني ٦٠ - ٧٦.

(٢) يتيمة الدهر، ابن منصور الثعالبي ٣ / ١٣١.

(٣) السيد الرضي على ساحل نهج البلاغة محمد ابراهيم نجاد ٢٩.

انصرافه الى العلم والأدب

كان الشريف الرضي عالماً ملتزماً أدرك دوره الانساني في الحياة الاجتماعية، وكان جلّ همّه نشر الفكر الصحيح في صفوف أبناء مجتمعه وبالرغم من توفر اجواء مناسبة لأن يشكل كياناً سياسياً بما وهب من علم وأدب واحترام بين الناس واجلال الاّ انه انصرف عن حياة السياسة وصخبها وكان يجد لذّته في المسجد والمكتبة وحلقات الدراسة والعلم على أن ذلك لم يبعده عن دوره الانساني والاجتماعي فلم يكن منزوياً عن الحياة أبداً عاش هموم الفقراء والمحرومين متأسياً بجدّه علي بن ابي طالب أمير المؤمنين عليه السلام.

كان يمدّ يد العون للمحتاجين ويحاول جهده - في دفع الظلم عن المظلومين لهذا لم يرفض المسؤولية اذا كانت خدمة للناس والصالح العام فقد تزعم نقابة العلويين واعادة الحج وترأس ديوان المظالم في محاكم الاستئناف.

مواقفه السياسية

بالرغم من ابتعاد الشريف الرضي عن صخب الحياة السياسية الاّ ان ذلك لم يمنعه من تحديد مواقفه وبيان آرائه وكان معروفاً عنه اعتباره الجهاز العباسي مغتصباً للخلافة وكان شديد الكراهية لخلفاء بني العباس الذين عرفوا بالحقد على العلويين واضطهادهم لهم. خاصّة الخليفة «القادر بالله» ذلك أن الأخير كان أنانياً مغروراً ومتغطرساً ومتعصباً مليئاً بالحقد، وكان شديد التعالي على الشريف الرضي محاولاً النيل من شخصيته واجلال الناس له.

ولكن الشريف الرضي الذي عرف بالاباء والشمم ردّ على هذه السياسة الهوجاء والخليفة الأرعن باعلان مواقفه في اشعار تلتهب حماساً واعتداءً بالنفس مفتخراً بالدولة الفاطمية التي يتزعمها خلفاء من ابناء علي عليه السلام.

يقول في قصيدة له:

المـــجد يـــعلم أن المـــجد ابـــي
ولو تــــمادين فـــي غـــيٍّ وفـــي لعب
انـــي لمـــن مـــعشر إن جـــمّعوا لعـــلىً
تـــــفرقوا عـــن نـــبي أو وحـــي نـــبي
اذا هـــــممت فـــفتش عـــن شـــباهممي
تـــجده فـــي مـــهجات الأنـــجم الشـــهب
وان عـــزمت فـــعزمي يســـتحيل قـــذىً
تـــرىٰ مســـالكه فـــي أعـــين النـــوب
وموك صافحت أيـدي الحـمام بـه طـلى
الرجـــال عـــلى الخـرمان مـن كـثب[1].

ولك أن تعرف مدىٰ شاعريته وهذه القصيدة من شعره وله من العمر يـومئذ عشر سنين أو أقل من ذلك[2].

وقد استدعاه القادر الخليفة العباسي لاستجوابه حول بعض ما صدر عنه من تصريحات مناهضة لحكومة بني العباس ولكن الشريف الرضي بما عرف عنه من شجاعة واباء رفض الدعوة ما دفع بالخليفة الى اقالته من جميع مسؤولياته[3].

وعندما انفجر الصراع بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة العباسية قـامت الأخيرة باصدار اعلان يتضمن طعناً فيها موقعاً بأيدي علماء وفقهاء والأعيان في البلاد وقد رفض الشريف الرضي التوقيع عليه ما يـعني تأيـيده لشـرعية الدولة الفاطمية.

---

(١) الغدير ٤ / ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) السيد الرضي على ساحل نهج البلاغة ٣٠ - ٣٨.

روضة الحماسية

كان الشريف الرضي خطيباً مفوهاً وشجاعاً لا يخاف في قوله الحق لومة لائم، ولهذا فقد كان موفقاً في تسنمه رئاسة محاكم أو ديوان المظالم التي تستدعي في أحيان كثيرة محاسبة أكبر القضاة، وادانة الوزراء والقادة والأمراء.

لقد كان زاهداً في المناصب الاّ اذا كان ذلك أداءً للواجب في اقامة الحق ودفع الباطل كان لا يرىٰ شيئاً آخر غير العدالة ولم يكن يخشىٰ أحداً أو يحرص على مقام أو منصب وهو لا يسام في ذلك أبداً، وكيف له أن يفعل ذلك وأبوه الحسين في عاشورائه وجدّه علي بابائه وشجاعته وعدله ورسول الله جدّه في مجده!!

وهذه أشعاره تموج بالحماسة والاباء والشمم تشهد لهذه الروح الكبيرة بالسمو والمجد والشجاعة والاقدام[١].

حضر مرّة مجلس الخليفة الطائع وراح يداعب لحيته دون آبه للخليفة الذي حرص ان يبرز جبروته من خلال الحرس الذي يحيط به كان الشريف الرضي يقرب طرفاً من لحيته الى أنفه فقال الخليفة مستفزاً لعلك تستشم ريح الخلافة؟ فردّ الشريف الرضي على الفور بل استشم ريح النبوّة. فبهت الخليفة ولم يقل شيئاً[٢].

بستان المعرفة

انطلق السيد الشريف الرضي الى اسلوب فريد في الحوزة العلمية فالى جانب عملية التعليم وقبل أن يتخرج الطلاب عمل الشريف الرضي على تربية طلاب المعرفة فكانوا يرتعون في بستان المعرفة وأصبح بعضهم مفاخر علمية على درجة

(١) الشريف الرضي على ساحل نهج البلاغة / ٣٩.

(٢) مع علماء الشيعة ومدارسهم، السيد جواد الأميري الأراكي ٣ / ١٣٣.

كبيرة الرقي العلمي نذكر من بينهم:

١ - السيد عبد الله الجرجاني المشهور بأبي زيد الكبابكي.

٢ - الشيخ محمد الحلواني.

٣ - الشيخ جعفر الدويسيتي (المتوفىٰ سنة ٤٦٠ هـ).

٤ - أحمد بن محمد بن قدامة المشهور بابن قدامة (المتوفى سنة ٤٨٦ هـ).

٥ - الشيخ الطوسي (المتوفىٰ سنة ٤٦٠ هـ).

٦ - ابو الحسن الهاشمي.

٧ - الشيخ المفيد النيسابوري الخزاعي (المتوفىٰ سنة ٤٤٥ هـ).

٨ - القاضي ابو بكر العكبري (المتوفىٰ سنة ٤٧٢ هـ).

٩ - مهيار الديلمي[١].

الجامعة الأولىٰ

كان الشريف الرضي يشعر بعمق المسؤولية التي يتحملها تجاه مجتمعه والطائفة الشيعية التي تمر في احدىٰ مراحلها التاريخية الحساسة. ولهذا نهض بمسؤوليته لا يعرف للراحة طعماً.

تحمل الشريف الرضي مسؤولية نقابة الطالبيين ولم تكن بالأمر السهل وهي في حقيقة الأمر زعامة للطالبيين جميعاً يحكم بينهم ويتولّىٰ رعاية ايتامهم ويقيم على من ارتكب منهم جرماً الحد؛ وتزويج الأيامىٰ اللاتي لا يتعيّن أولياؤهم الحجر على السفهاء منهم. اضافة الى هذه المهمة فقد ترأس ديون المظالم وهي رئاسة لمحكمة الاستئناف التي تنظر في شؤون المتنازعين، وهذا الديوان هو

(١) الشريف الرضي / ١١٢ - ١٢٢.

أعلىٰ سلطة قضائية في الدولة يخضع له الوزراء والقادة والأمراء وتستدعي وجود رجل قوي على قدر كبير من العلم والهيبة والجلال وهذا ما توفر للشريف الرضي.

ومع كل هذا فقد انصرف الى تربية طلابه ليكونوا رجال الغد فأوجد من أجل ذلك وأسس ما يشبه الجامعة من خلال ما رأىٰ حوله من وجود طلاب لا ينفكون يراجعونه فهيأ لهم داراً اصبحت مدرسة علمية وسماها دار العلم وجهزها بما يلزم وفي طليعة ذلك بطبيعة الحال مكتبة كبيرة تلبّي احتياجاتهم من المراجع والمصادر[١].

جدير ذكره ان تأسيس دار العلم قد جاء قبل تأسيس المدرسة النظامية في بغداد بعشرات السنين على يد نظام الملك الطوسي وبدعم كامل من الخلافة العباسية (٤٥٧ هـ) لقد سبق الشريف الرضي الخلافة في تأسيس الجامعة الاسلامية بثمانين سنة[٢].

دروس في حياته

عرف الشريف الرضي بإبائه وشممه وعرف بعلمه وزهده وتقواه وقد شكل كل ذلك من الشريف الرضي شخصية فريدة قل أن نجد لها نظير في عصره والعصور التي تلته. كان غنياً جداً وكان غناه يكمن في قناعته بما وهبه الله سبحانه فلم يمدّ عينه الى جاه عريض أو منصب رفيع أو حياة غير حياته وكيف يفعل ذلك وهو من جمع نهج البلاغة بل هو من سمّىٰ خطب الامام علي وكلماته نهجاً للبلاغة وفيها أن الطمع أسر مؤبد والقناعة كنز لا يفنىٰ وفيها أحسن الىٰ من شئت تكن

(١) السيد الرضي مؤلف نهج البلاغة، علي الدواني، ١٦١.
(٢) المصدر السابق، ١٦٢.

أميره واستغن عمّن شئت تكن نظيره واحتج الى من شئت تكن أسيره.

وهذه حياته وتجربته وسيرته الذاتية تشهد على علوّ همته ومجده بين الناس يروي ابو محمد المهلبي وزير بهاء الدولة أنه سمع يوماً بمولود ولد للشريف الرضي فانتهز هذه المناسبة ليصل الشريف الرضي بصلة وهدية فأمر غلمانه أن يحملوا له طبقاً وضع فيه ألفي دينار.

فأعاد الشريف الرضي الطبق وصرار الدنانير ورسالة شفوية الى الوزير يعلم وان لم يكن يعلم فليعلم انني لا أقبل من أحد صلة.

فأعاد الوزير الطبق ووضع مكان الألفي دينار ذهباً وجواهر وقال انها هدية للقابلة فأعاده الشريف الرضي مرّة أخرىٰ قائلاً القابلة ليست غريبة وهي منّا وليس من عادتنا دخول الغرباء.

وللمرّة الثالثة أعاد الوزير الطبق أيضاً وأبلغه أن قسّمه بين تلامذتك فقال الشريف الرضي لطلابه أيكم يحتاج فليأخذ منه، فنهض أحدهم وأخذ من الطبق قطعة ذهب وقصّها بمقص ليأخذ جزءاً صغيراً منها فقط فسأل الشريف الرضي تلميذه عن ذلك فقال له الطالب: لقد نفد الزيت أمس ولم يكن الخادم موجوداً ليفتح لي المخزن فاقترفت زيتاً وأظن ان هذه القطعة تسدّ ما اقترفت.

وعندما سمع الشريف الرضي ذلك أمر أن يستنسخ المفتاح على عدد الطلاب ليكون بمقدور كل منهم أن يأخذ حاجته من المخزن ما شاء ومتىٰ شاء.

قطرة من بحر زخّار

منذ نعومة أظفاره كان الشريف الرضي يشق آيات القرآن الكريم؛ كان يهيم في جمالها ويعيش في معانيها فكان كثير الأنس بكتاب الله وقد حفظ القرآن الكريم في مدّة وجيزة وصد في الثلاثين من عمره وكان يشعر أن قلبه يضيء وهو

يتلو القرآن، معانيه السامية تضيء طريقه وجمال مفرداته تجعله يحلّق عالياً في عوالم مليئة بالنور وكانت ثمار تجربته مع القرآن الكريم لا يمكن عدّها ولعلّ ما كتبه عن ذلك هو غيض من فيض فقد ألف ثلاثة كتب هي:

١ - تلخيص البيان عن مجازات القرآن.

٢ - حقائق التأويل في متشابه التنزيل.

٣ - معاني القرآن.

ومن مؤلفات الشريف الرضي الأخرىٰ:

خصائص الأئمة، نهج البلاغة، الزيادات في شعر أبي تمام، تعليق خلاف الفقهاء، كتاب مجازات الآثار النبوية، تعليقه ايضاح أبي علي، الجيد من شعر أبي الحجاج، زيادات في شعر أبي الحجاج، مختار من شعر أبي اسحاق الصابي، كتاب «مادار بينه وبين أبي اسحاق من الرسائل»، وديوان أشعاره.

الرسالة الكبرىٰ:

ادىٰ الشريف الرضي من خلال انتاجه الوفير في الحقول العلمية والأدبية رسالة كبرىٰ للاجيال، فقد فسّر كتاب الله ودوّن أحكام الاسلام الفقهية وترك وراءه قصائد مطولة من روائع الشعر العربي وفيها ما فيها من رقة وحكمة وتجربة حياة، وجمع كتاباً فريداً من خطب انسان عاش تجربة الاسلام بروحه وحياته وبعقله وفكره وسلوكه ألا وهو سيدنا وامامنا علي بن ابي طالب عليه السلام فجاء كتاب نهج البلاغة اعظم سفر بلاغي وسياسي وأخلاقي بعد القرآن الكريم على الاطلاق ولم يكن نهج البلاغة نهجاً في البلاغة فحسب بل كان نهج حياة انسانية خالدة وكيف لا يكون كذلك وهو قبس من نور القرآن الكريم ورشحات من

بحره الواسع الكبير.

أجل ان نهج البلاغة ظهر الى النور بجهود مخلصة من الشريف الرضي ستذكرها الأجيال ما ظل الانسان سائراً في دروب الحياة.

ولو لم يكن للشريف الرضي جهداً غير نهج البلاغة لكفاه فخراً وشرفاً وخلوداً في ضمير الانسان.

وهو ليس في نظر الشيعة يمثل الرمز الكبير كان كذلك في نظر العلماء والأدباء والأحرار، لقد عاش الشريف الرضي حياته انساناً ورحل عن الدنيا كما ينبغي ان يرحل الانسان.

واذا كانت الشمس الساطعة تترك وراءها ظلاماً عندما تغيب فلقد ترك الشريف الرضي وراءه أسفاراً مشرقة تضيء الطريق لعشاق العلم وطلاب المعرفة بما يبدد ظلمة الحياة الفكرية وزواياها. من أجل هذا احترمه الجميع أعداءً وأصدقاء وأجمعوا على توقيره واحترامه واجلاله من الذين يخالفوه في مذهبه احترموه وعرفوا قدر ما قدم لعصره من خدمات كبرىٰ.

فهذا عبد الملك الثعالبي الشاعر الذي عاصر الشريف الرضي يذكره باجلال في كتابه الأدبي «يتيمة الدهر» وأشار الى عبقريته التي حيرت معاصريه وهو ينشد الشعر ولما يبلغ العاشرة من العمر. ويقول عنه انه انبل من عرفه الطرق واعظم الناس نسباً وفخراً وقد جمع الفضائل كلها[1].

وذكره الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» وأشار الى سفر الجليل في معاني القرآن واعتبر ما كتبه فريداً من نوعه[2].

وذكره جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري البردي الأتابكي في كتابه

---

(١) يتيمة الدهر ٣ / ١٣١.

(٢) تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب ٢ / ٢٤٦.

«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وأشار الى مواهبه المتعددة فهو اللغوي الفقيه النحوي والشاعر الفصيح الذي امتاز بهمته العالية وتدينه ولقد كان هو وأخوه وأبوه ائمة للشيعة[١].

الغروب الحزين

ماجت بغداد بأهلها ذلك اليوم، فلقد هز النبأ ابناء بغداد وكان خبر رحيل الشريف الرضي السيد العلوي الحسيني الموسوي عن الدنيا نبأ حزيناً لا يصدّق، وكان الناس ينتحبون بحزن وأسىٰ **﴿إنّا لله وإنّا اليه راجعون﴾**.

وجاء رحيله في موسم الحزن الذي يعيشه الشيعة جيلاً بعد جيل.. ففي السادس من شهر محرم الحرام عام (٤٠٦ هـ) أغمض الشريف الرضي عينيه عن هذه الدنيا المتصرفة بأهلها من حال الى حال.. توفي الشريف الرضي بعد عمر قصير نسبياً فقد بلغ السابعة والأربعين سنة. لكنه كان عمراً حافلاً بالعطاء وقد فوجىء شقيقه الشريف المرتضىٰ بالنبأ وحام على وجهه لتقوده قدماه الى مرقد جدّه الامام موسى بن جعفر عليه السلام ولم يحضر بسبب عمق الفجيعة التي هزّت كيانه من الأعماق مراسم التشييع ولم يحضر مراسم الصلاة وقد دفن الجثمان الطاهر في بيته على سبيل الأمانة لينقل فيما بعد الى كربلاء ويوارىٰ الثرىٰ هناك قرب جدّه الشهيد سيدنا الحسين بن علي عليهما السلام. وظل أخوه يندبه ويرثيه زمناً طويلاً ربما الى ان التحق به بعد ثلاثين عاماً من الزمن.

---

(١) النجوم الزاهرة ٤ / ٢٤٠.

الشيخ المفيد / المتوفىٰ سنة ٤١٣ هـ

يحفل تاريخ الشيعة بالامجاد الكبرىٰ والتغيرات والتحولات العظيمة تلك التغيرات التي عادة ما تحدث على أيدي علماء كبار وعباقرة ومعلمين وأناس صالحين ومصلحين.

وعندما نقف أمام اعمدة القرون الماضية وبالتحديد أواسط القرن الرابع الهجري سوف نواجه أحد اكبر اساطين التاريخ الاسلامي أنه العالم الامامي الكبير الذي هيمن على الحياة الفكرية والثقافية قرابة نصف قرن من الزمن.

إن الشيخ محمد البغدادي الذي اشتهر بالشيخ المفيد الذي كان بحق مجدداً للنهضة الفكرية في عصره والعصور التالية.

الميلاد

في الحادي عشر من ذي القعدة الحرام ومن عام ٣٣٦ هـ[١] ولده صبي في مدينة بغداد وقد سماه أبوه محمداً ليعرف الصبي بابن المعلم قبل أن يعرف فيما بعد بالعكبري والبغدادي[٢].

وظهرت على ملامح وسيماء الصبي ذكاء مبكر وفطنة وكياسة ما يبشر بمستقبل مشرف ينتظره بل وينتظر بغداد والعالم الاسلامي.

---

(١) رجال النجاشي، رقم ١٠٦٧.

(٢) مقالات وبحوث المؤتمر العالمي للشيخ المفيد مقالة رقم ٦٧ ص ٨.

وبدأ الصبي دراسته في طلب العلوم والمعارف وأقبل على ذلك بـحماس لا نظير له. ويكفي أن نذكر أن ابا الياس أجاز ذلك الصبي الذكي في الرواية وهو في الخامسة من عمره[١].

وعندما بلغ السابعة من عمره راح يروي عن ابن السمّاك ايضاً[٢]. وأصـبح محدثاً وهو في الثانية عشرة من عمره المبارك وكان هناك من يروي عنه.

دراسته وأساتذته

واذا ابن المعلم وهو في مقتبل الربيع يستميل الى نحلة تدور بين ينابيع بغداد العلمية تنهل من تلك العيون علماً وأدباً فقد درس ابن المعلم على ايدي من سبعين من أساتذة بغداد بينهم: المظفر بن محمد، أبو ياسر، وابن جنيد الاسكافي وقـد أخذ عنهم الكلام والعقائد وأخذ عن الحسين بن علي البصري، وعلي بن عيسىٰ الرماني، ودرس الفقه عند جعفر بن محمد بن قولويه ودرس علم الروايـة لدىٰ الأديب والمؤرخ محمد بن عمران المرزباني.

وتتلمذ عن أيدي اساتذة آخرين فيهم ابن حمزة الطبري وابن داود القمي، وصفوان، والشيخ الصدوق، كما نرىٰ أسماء علماء من مدن مختلفة من قبيل قم، الكوفة، البصرة، ساري، طبرستان، حلب، قزوين، بلخ، مراغة، همدان ومـدن أخرىٰ درس عندهم.

العالم الاسلامي في عصر المفيد

(١) أمالي الشيخ المفيد مطلع الجزء السادس، تاريخ بغداد ٨ / ٤٤٩.
(٢) المصادر السابقة، ٣٤٠، المصدر السابق؛ ١١ / ٣٠٢.

مضىٰ على رحيل سيدنا محمد ﷺ ثلاثة قرون تعرض الشيعة فيها الى ضغوط هائلة في ظل حكومات بني أمية وسياسات بني العباس وقد ظلت هذه الشريحة الاجتماعية التي تدين بالولاء لأهل البيت عليهم السلام مضطهدة حتى اواسط القرن الرابع الهجري حيث حصل انفراج كبير بسبب قيام الدولة الفاطمية القوية في مصر هذه الدولة التي تمكنت وفي ظرف قياسي من خطف بريق الحضارة من بغداد. والى جانب هذه الدولة نهضت دولة شيعية أخرىٰ هي الدولة الحمدانية في اقليم الشام كما شهدت تلك الحقبة من الزمن قيام دول وكيانات شيعية أخرىٰ في طليعة ما ظهر هو حكم آل بويه الذي امتد نفوذه من ايران الى العراق.

فقبل عامين من ميلاد الشيخ المفيد وصل معزّ الدولة البويهي مدينة بغداد ليؤسس للنفوذ البويهي في عاصمة الاسلام الكبرىٰ بغداد وذلك سنة ٣٣٤ هـ، لقد بدأ تاريخ جديد وعهد جديد لبغداد دار السلام.

وبهذا توفرت فرصة فريدة للشيعة لكي يستنشقوا الحرية التي حرموا من نسيمها عشرات السنين.

في عام (٣٥٢ هـ) شهدت بغداد ولأول مرّة في تاريخها اقامة مراسم العزاء على سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام كما شهدت أيضاً احتفالات العيد الاسلامي الكبير عيد الغدير.

لقد عاصر الشيخ محمد بن محمد النعمان هذه التغيرات الكبيرة وكان يحظىٰ بمنزلة كبرىٰ لدين حكومة آل بويه حتى ان عضد الدولة قام بعيادة الشيخ عندما لزم الأخير فراش المرض وهو في السادسة والثلاثين من عمره لكنه كان زعيم الطائفة ومرجعها الكبير.

الزعامة الشيعية

مع وفاة عضد الدولة بدأت عاصفة الأحداث وعادت الأيام السوداء من جديد ليتعرض الشيعة مرّة أُخرىٰ للضغوط، في عام (٣٧٢ هـ) تسنّم بعض البويهيين الأمارة لكنهم لم يكون كأسلافهم في الحزم والقوة ولهذا ما إن تسنم القادر بالله منصب الخلافة العباسية عام (٣٨١ هـ) حتىٰ تمكن من استعادة نفوذ الخلفاء العباسيين وسطوتهم ولم يعد الخليفة العباسي مجرّد خليفة بالاسم كما كان في ما مضىٰ وشيئاً فشيئاً انحسر نفوذ آل بويه وبدأت الفتنة الطائفية تستيقظ وبدأت القلاقل والاضطرابات وكان الصراع المذهبي هو أكثر الصراعات لهيباً[١].

كانت زعامة الشيعة في ذلك العصر المائج بالفتن بيد الشيخ المفيد وكان يتحمل مسؤوليته في ترشيد مسار الطائفة الشيعية والمذهب الامامي..

وراح هذا الرجل العظيم يواجه التيارات الفكرية المناهضة، فقد ردّ على المعتزلة وفنّد آراء الغلاة وواجه الزيدية وكان له في كل تلك الصراعات قصب السبق، وكانت الكلمة الأخيرة للشيخ المفيد في كل مناظرة مع أولئك وهؤلاء ليقف المذهب الامامي شامخاً بصرحه المنيف قويّاً بحجته باسقاً بأدلته ثابتاً بما ينطوي عليه من فكر انساني عميق وكان الشيخ المفيد زعيماً مباركاً ومسدداً[٢].

الصحف الخضراء

ان أوراق وصحائف الشيخ المفيد في دفتر حياته مضيئة مشرقة بالنور وكيف لا تكون حياته كذلك وقد كتب اليه امامه الامام المهدي بقية الله في أرضه رسالة وقد جاء فيها:

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٥ / ٥.

(٢) راجع المقالة ٦١ و ٥٥ من مقالات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد.

«للأخ السديد والولي الرشيد الشيخ المفيد..»[١] وقد كان ذلك في أواخر صفر سنة ٤١٠ هـ[٢] وفي توقيع آخر صدر بتاريخ السبت ٢٣ ذي الحجة خاطبه الامامعليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم سلام الله عليك ايها الناصر للحق الداعي اليه بكلمة الصدق[٣].

ويعتقد البعض انه على مدىٰ ثلاثين سنة صدر ثلاثون توقيعاً ورسالة عن الامام المهديعليه السلام الى الشيخ المفيد وكلها تخاطبه بالأخ[٤].

في مرايا الآخرين

اجمع العلماء على جلالة الشيخ المفيد وعلوّ شأنه فقد ذكره الشيخ الطوسي، والسيد شرف الدين العاملي، والعلّامة السيد بحر العلوم والقاضي نور الله الشوشتري، وابن شهر آشوب المازندراني، والشيخ آقا بزرگ الطهراني، والحاج الميرزا حسين النوري، وآخرون على فقاهة الرجل ويراعه وقد سطر به تآليفه وآثاره التي تربو على المئتين مؤلف وكتاب وكذا ورعه وتقواه ما جعله مرجعاً فكرياً وعلمياً وزعيماً للطائفة الامامية.

كما ذكره بالاجلال علماء من أهل السنة منهم ابن النديم، ابن الجوزي، ابن حجر العسقلاني، وآخرون، واعترفوا بمواهبه العلمية وضلوعه في كثير من حقول المعرفة من فقه وكلام ورواية اضافة الى ما تحلّىٰ به من صفات أخلاقية رشحته لزعامة الطائفة[٥].

---

(١) مستدرك الوسائل الميرزا النوري ٣ / ٥١٧ و ٥١٨.

(٢) الاحتجاج ٢ / ٤٩٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) راجع الفهرست، الشيخ الطوسي؛ رجال العلّامة وبحر العلوم ٣ / ٣١١؛ مستدرك الوسائل ٣ / ٥١٧؛

قصص من حياته

لقد بلور الايمان الراسخ والعلم الجمّ من محمد بن محمد بن النعمان شخصية مرموقة وقد وصل به علوّ الشأن ان فتاواه كانت تمثل مساراً صحيحاً ذلك انه أخطأ مرّة في الفتوىٰ فوصلته رسالة من الامام يصحح له خطأه فالتفت الشيخ المفيد الى خطأه وأصلحه وكان مضمون رسالة الامام: عليك أن تفتي وعلينا أن نقومك فلا تخطأ.

وذكر صاحب الدرجات الرفيعة: كان المفيد رأىٰ في منامه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ دخلت اليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين فسلّمتهما اليه وقالت له: علمهما الفقه، فانتبه متعجباً من ذلك، فلما تعالىٰ النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأىٰ فيها الرؤيا دخلت اليه المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواريها وبين يديها ابناها علي المرتضىٰ ومحمد الرضي صغيرين، فقام اليها وسلّم عليها، فقالت له: ايها الشيخ هذان ولداي قد احضرتهما لتعلمهما الفقه، فبكىٰ الشيخ وقصّ عليها المنام وتولّىٰ تعليمهما، وأنعم الله تعالى عليهما وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا وهو باق ما بقي الدهر[١].

وقد حدث مرّة أن اختلف الشيخ المفيد مع تلميذه الشريف المرتضىٰ حول مسألة علمية ولم يقنع كل منهما برأي الآخر فاتفقا علىٰ أن يقضي بينهما أمير المؤمنين علي عليه السلام فكتبا المسألة ووضعاها فوق الضريح الطاهر فلما كان صباح غد فإذا عريضتهما وقد ذيلت بتوقيع من الامام جاء فيه: «أنت شيخي ومعتمدي والحق مع ولدي علم الهدى»[٢].

← الفهرست لابن النديم / ٣٢٢؛ المقالة ٦٣ من مقالات المؤتمر العالمي للشيخ المفيد ص ١٠.

(١) الغدير ٤ / ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) قصص العلماء، الميرزا محمد التنكابني، ٣٩٩ - ٤٠٣.

العلم والأخلاق

ولم يلهه نشاطه العلمي وفتوحاته في هذا المضمار عن بعد آخر هام في حياة الانسان ألا وهو البعد الأخلاقي لقد نهضت شخصيته بشكل متوازن على بعدين العلم والأخلاق فكان مثالاً يحتذىٰ به ونموذجاً يقتدىٰ.

كان يزداد نبلاً في أعين الناس كلما ازداد تواضعاً ويزداد سمواً كلما تباسط في حياته البسيطة، لقد عاش الشيخ المفيد في قلب مجتمعه ومع شعبه يحيا همومهم ويشعر بآلامهم وآمالهم ولهذا فقد جاءت كلماته كالبلسم الشافي لمن ينشد الدواء وكانت آثاره تضيء الطريق لمن يبحث عن النور، وقد نشأ ابنه أبو القاسم في ظلال تلك المدرسة الأخلاقية فكان هو الآخر استمراراً لنهج والده العظيم.

في ميدان التأليف

كان الشيخ المفيد فعالاً في نشاطه الثقافي ولهذا التف حوله طلابه ليكون بمفرده حوزة علمية كبرىٰ نجم عنها آثار قيمة، وكان موفقاً جداً وهو يدافع عن حقانية المذهب الامامي بالحجة والدليل وبالكلمة الحسنة، وقد فتح آفاقاً واسعاً وهو يؤسس للفقه الامامي انطلاقاً من مرتكزات كلامية واصولية ومنطقية، هذا اضافة الى نشاطه الآخر والهام في تربية تلامذته ليكونوا مشاعل هدىٰ في طريق الحق، فالسيد المرتضىٰ علم الهدىٰ كان في طليعة من تخرج على يديه، والشريف الرضي، والشيخ الطوسي، والنجاشي، وآخرون يعدّون بالعشرات.

اغنىٰ أصول الفقه بعلم الكلام واستدلّ على صحة عقائده بالقرآن الكريم فقد استدلّ على امامة أمير المؤمنين سيدنا علي بن ابي طالب عليه السلام بآيات القرآن فكان ذلك أثراً رائعاً خالداً، وقد امتازت تأليفاته بأسلوب سلس خاصة ما كتبه في غيبة

الامام المهدي عليه السلام في كتاب «الارشاد» وكتابه الآخر «الجمل» ولهذا الاسلوب الرفيع والعلم والحجّة والاخلاص والأخلاق الرفيعة اثرها الواضح في كل ما كتب فظلّت آثاره شاهدة على سمو وخلود ذلك الشيخ الوقور.

انتاجه المعرفي

أ – علم الكلام والعقائد: وقد ألف الشيخ المفيد في هذا المضمار كتب عديدة ناقش فيها شبهات أو استدل في بعضها على صحة ما يعتقد به الشيعة من أفكار ومن مؤلفاته: «علم الكلام»، «أوائل المقالات»، «شرح عقائد الصدوق»، «اجوبة المسائل السروية» و «النكت الاعتقادية».

ب – علم الفقه: ويعدّ الثقافة التطبيقية للمجتمع ولهذا فهو على جانب كبير من الأهمية حيث يتحدد سلوك الانسان المسلم في ما يجب وما لا يجب وقد عرف عن علماء الامامية نمو مهم في هذا البحر العميق في بحار المعرفة يبحثون عن درر تستقر في الأعماق وللشيخ المفيد في هذا الصعيد كتب قيمة منها: «المقنعة»، «الاعلام»، «المسائل الصاغانية»، «جوابات أهل الموصل في العدد والرؤية»، «جواب أهل الرقة الاهلة والعدد».

جـ – الأخلاق: وللشيخ على الصعيد الاخلاقي كتابه الرائع: «الأمالي» بين فيه اخلاق الاسلام وفضائل الانسان.

د – الحديث: ويأتي علم الحديث في المرتبة التالية بعد علوم القرآن الكريم والذي يهتم بفحص وتدقيق ما ورد من أحاديث وأخبار عن الرسول صلى الله عليه وآله وآله الأطهار الذين هم امتداد لجدّهم العظيم وحيث الأوصياء هم حلقة أخرىٰ تتصل بالأنبياء وقد سلط الشيخ المفيد في هذا المضمار على ولاية أهل البيت عليهم السلام وفضائل الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

هـ – الامامة والفلسفة السياسية في الاسلام: ويرىٰ الشيخ المفيد: «العدالة والعصمة» شرطين أساسيين في الامامة والقيادة وقد انطلق في بحوثه من حديث الثقلين المعروف فكتب مجموعة فريدة من مؤلفاته هي: «الافصاح في الامامة»، «الارشاد»، «الجمل»، «الأمالي»، «الفصول المختارة»، «تفضيل أمير المؤمنين عليه‌السلام على سائر الصحابة»، وغيرها ما يناهز العشرين مؤلفاً تدور على محور الامامة والقيادة.

و – غيبة الامام الثاني عشر عليه‌السلام: وقد ألف في ظاهرة غيبة الامام المهدي كتباً عديدة وجاء بعضها موزعاً في كتبه الأخرىٰ فقد كتب عن الغيبة في كتابه: «الارشاد»، «الفصول العشرة في الغيبة»، «الجوابات في خروج المهدي»، ومؤلفات أخرىٰ[1].

جهات المناظرة

عاصر الشيخ المفيد تنوعاً هائلاً في الأفكار والاتجاهات المذهبية والتيارات العقائدية كما شهد عصره احتدام الجدل بين مختلف تلك العقائد وقد تمكن الشيخ المفيد بما أوتي من قوة في حجّته ومتانة في أدلته من الانتصار على مخالفيه في العقيدة والرأي، وقد دوّن قسماً من مناظراته في كتابيه: «تصحيح الاعتقاد» و «الفصول المختارة» حيث يورد فيها مناقشاته مع حوالي عشرين من علماء المذاهب الأخرى فقد ناظر الشيخ رحمه‌الله الأشاعرة والمعتزلة وأصحاب الحديث، والمتصوفة والمرجئة[2].

ولهذا فقد مثل الشيخ المفيد عنصراً جديداً في تاريخ المذهب الامامي بما

---

(١) راجع: «مفيد نامه» رقم (١) ص ٣٧.

(٢) راجع دراسة في مناظرات الشيخ المفيد المصدر السابق ١ / ٣٢ – ٣٧.

قدمهالى الثقافة الاسلامية من فكر ومعرفة(١).

وبالرغم مما تعرض له الشيخ المفيد من ضغوط سياسية ومن دسائس حاولت النيل منه ولكن الشيخ المفيد ظل يكافح في طريقه غير آبه بمن يتآمر عليه ذلك أن هدفه من السموّ بحيث لا يرىٰ شيئاً غيره(٢).

الغروب

في مطلع شهر رمضان المبارك سنة (٤١٣ هـ) آن لتلك الروح الكبيرة أن تغادر الدنيا وكان رحيله فاجعة لكل الذين عرفوه والذين نهلوا من فيض علوه وقد شيع الجثمان الطاهر عشرات الألوف كانوا يذرفون الدموع وهم يتجهون صوب مقابر قريش حيث مرقد الامام الكاظم والامام الجوادعليهما السلام وكانوا في الحقيقة يشيعون العلم والحكمة والفضيلة والتقوىٰ، ولكن وان غاب الشيخ المفيد بشخصه فان شخصيته ما تزال حيّة في ضمير العلماء والمثقفين بأفكاره وآثاره(٣).

وما يزال الشيخ المفيد مفيداً بكل ما قدمه الى الحضارة الاسلامية وما أغنىٰ به الثقافة الانسانية.

في مأتم الشمس

وجاء في بعض المدوّنات أن الامام المهديعليه السلام نعىٰ الشيخ المفيد بأبيات شعرية:

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات ط تبريز، ٤٩.

(٢) مقالات مؤتمر الشيخ المفيد رقم ٦٣ / ١٨.

(٣) من بيان للسيد علي الخامنئي قائد الجمهورية الاسلامية الايرانية بمناسبة مؤتمر الشيخ المفيد عام ١٩٩٩ م.

لا صوّت الشـاعر بـفقدك انـه | يوم على آل الرسول عظيم[١]

أما تلميذه العبقري الرضي فقد رثاه قائلاً:

من عـلى هـذه الديـار أقـاما | أو ضفىٰ ملبس عليه وداما[٢]

ألفية الشيخ المفيد

وبالنظر الى ما قدمه الشيخ المفيد واضافة الى الثقافة الاسلامية فقد تبلورت فكرة اقامة مؤتمر عالمي في الفية الشيخ الراحل، وقد عقد المؤتمر في مدينة قم المقدسة وكان ذلك خطوة رائعة من جامعة المدرسين في الحوزة العلمية بمدينة قم، وقد شارك في المؤتمر عشرات الباحثين وقدمت للـمؤتمر مـئة مـقالة فـي مواضيع ومحاور فكرية متنوعة ما يعكس مجد تلك الشخصية العلمية الفريدة وقد افتتح المؤتمر بقراءة بيان مرشد الجمهورية بهذه المناسبة كما اقيمت أمسية شعرية وانشدت قصائد تصف روح ذلك العالم الكبير والمرجع الفذّ والانسان.

---

(١) قصص العلماء / ٣٩٩ - ٤٠٤.

(٢) ديوان السيد الرضي ٣ / ٢٠٤ - ٢٠٦.

الشريف المرتضىٰ /المتوفىٰ سنة ٤٣٦ هـ

يعد الشريف المرتضىٰ واحداً من اساطين الفكر الامامي ليس فـي عـصره فحسب بل وفي كل العصور، وما تزال آثاره العـلمية مـصدر الهـام للـدارسـين والباحثين. وبالرغم من مرور ما يناهز الألف عام فما يزال الشريف المرتضى حيّاً بفكره وآثاره وانتاجه الثقافي والمعرفي.

ولادته:

ولد علي المرتضىٰ في رجب عام (٣٥٥ هـ) في مدينة بغداد، أبوه ابو أحـمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم نجل الامام موسىٰ بن جعفر عليه السلام لا تفصله عن شجرة الامامة ودوحة أهل البيت عليهم السلام سوىٰ خمسة آباء فقط. وكنيته ابو القاسم ولذا أصبح من القابه كما هو لقب أبيه الموسوي المـعروف بـ«الطـاهر الأوحد ذي المناقب» وقد تولىٰ نقابة الطالبيين وديوان المـظالم وهـما مـنقبان خطيران آنذاك[1].

أما والدته فهي السيدة العلوية فاطمة بنت الناصر من ذرية سيدنا علي بـن الحسين زين العابدين عليه السلام وكانت امرأة على جانب كبير من الجلال والوقار وقد دوّن الشيخ المفيد من أجلها كتابه أحكام النساء[2].

---

(١) مفاخر الاسلام، علي الدواني ٣ / ٢٦٨.

(٢) المصدر السابق، ٢٦٧.

دراسته:

كان الشيخ المفيد‏ رأىٰ في منامه السيدة فاطمة الزهراء‏ بنت رسول الله‏ دخلت اليه وهو في مسجده، براثا في الكرخ حيث يلقي دروسه هناك وقد دخلت اليه ومعها ولداها الحسن والحسين‏ صغيرين، فسلّمتهما اليه وقالت له علّمهما الفقه.

وانتبه الشيخ‏ متعجباً من تلك الرؤيا واستغرق في التفكير فيها، فلما تعالىٰ النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأىٰ فيها رؤياه العجيبة ذهب الى مسجده في الكرخ وفيما كان يلقي دروسه على تلامذته جاءت السيدة فاطمة بنت الناصر وحولها جواريها وبين يديها علي المرتضىٰ ومحمد الرضي صغيرين، فنهض الشيخ المفيد اليها وسلّم عليها فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي وقد أحضرتهما اليك لتعلمهما الفقه. فبكىٰ الشيخ وقصّ عليها رؤياه، وتولّىٰ الشيخ المفيد‏ تعليمهما وأنعم الله عليهما وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا[١].

اساتذته:

تتلمذ الشريف المرتضىٰ على أيدي أبرز اساتذة عصره وقد نهل من فيض علومهم الى حدّ النبوغ وكانوا اساطين العلم والمعرفة وفي طليعتهم:

١ - الشيخ المفيد (المتوفىٰ سنة ٤١٣ هـ) وهو مرجع الشيعة وزعيم الطائفة في عصره وكان فقيهاً كبيراً ومتكلماً لا يبارىٰ ومحدثاً قديراً وعبقرياً في كثير من الحقول العلمية والمعرفية. وما يزال الشيخ المفيد يحظىٰ بشهرة واسعة بالرغم من

---

(١) الفرائد الرضوية، الشيخ عباس القمي، ٢٨٥؛ مفاخر الاسلام ٣ / ٢٦٦.

مرور أكثر من عشرة قرون ويكفيه مجداً أن تخرج على يديه الشـيخ الطـوسي والشريف المرتضىٰ[١].

٢ – ابو محمد هارون بن موسى التلعكبري (المتوفىٰ سنة ٣٨٠ ﻫ) وكان عالماً جليلاً وفقيهاً مبرزاً ومحدثاً مشهوراً نقل عن الكليني ﷺ[٢].

٣ – الشيخ محمد الصدوق (المتوفىٰ سنة ٣٨١ ﻫ) وهو في الطليعة ومن كبار علماء الشيعة ومحدث كبير ترك وراءه سفراً حديثياً نفيساً في تبويبه ودقته ألف ما يناهز الثلاثمئة كتاب في مختلف الحقول العلمية.

٤ – الحسين بن علي بن بابويه شقيق الشيخ الصدوق: وكان أيضاً من كبار فقهاء الشيعة ومحدثيهم روىٰ الحديث عن ابيه وأخيه.

وهناك اساتذة آخرون درس عندهم الشريف المرتضىٰ أحـصاهم العـلّامة الأميني وأثبت أسماءهم في موسوعته التاريخية «الغدير» ومن بينهم: ١ – أحمد بن علي بن سعيد الكوفي ٢ – محمد بن عمران الكاتب المرزباني ٣ – ابو يحيىٰ ابن نباته ٤ – ابو الحسن علي بن محمد الكاتب ٥ – ابو القاسم عبد الله بن عثمان بن يحيىٰ ٦ – أحمد بن سهل الديباجي[٣].

تلامذته:

كان الشريف المرتضىٰ مدرسة تخرج منها تلامذة نوابغ وعلماء عباقرة من بينهم:

١ – الشيخ الطوسي: وقد تتلمذ لدىٰ الشريف المرتضى ﷺ ثـلاثة وعشـرين

---

(١) رجال النجاشي، أحمد بن عباس النجاشي، ٣٩٩.

(٢) روضات الجنات، الميرزا محمد باقر الخونساري ٦ / ١١٩.

(٣) الغدير، العلّامة الأميني ٤ / ٣٦١ – ٣٦٢.

عاماً فقد وصل الى مدينة بغداد قبل وفاة استاذه الكبير الشيخ المفيد بخمسة أعوام وانتقل بعد الى الدراسة على يد الشريف المرتضىٰ علم الهدىٰ وقد نهل من فيض علمه وأدبه حتى أصبح عالماً كبيراً فذاً وعبقرياً وكان في تلامذه الطوسي ثلاثمئة مجتهد يحضرون دروسه ويتعلمون منه أما تلامذته من أهل السنة فقد تجاوز هذا العدد[1].

٢ - ابو يعلىٰ سلاّر الديلمي: وهو من فقهاء الشيعة المعدودين وكان تلميذاً درس على الشيخ المفيد﵀، وهو في أصله من الديلم في شمال ايران (مدينة رشت وضواحيها) وقد هاجر الى بغداد وتتلمذ لدىٰ زعيم الطائفة الشيخ المفيد ثم لدىٰ علم الهدىٰ الشريف المرتضىٰ وقد انتدبه استاذه ليكون وكيله في مدينة حلب قاضياً بين الناس[2].

٣ - ابو صلاح الحلبي: وهو من العلماء والفقهاء المشهورين. ذكره ابن شهر آشوب وعدّه من تلامذة الشريف المرتضىٰ وله كتاب «البداية» في الفقه كما له شرح على كتاب «الذخيرة» لاستاذه الشريف المرتضىٰ[3].

٤ - القاضي ابن برّاج الطرابلسي: وهو في طليعة تلامذة الشريف المرتضىٰ، وكان الشريف المرتضىٰ يصرف له راتباً شهرياً كبيراً يبلغ ثمانية دنانير وقد جلس على كرسي القضاء في طرابلس (شمال لبنان) مدّة ثلاثة وعشرين عاماً ولهذا اشتهر بقاضي طرابلس، وهناك عشرات من تلامذته نذكر من بينهم:

١ - الشريف ابو يعلىٰ محمد بن الحسن الجعفري ٢ - ابو الصمصام ذو الفقار بن معبد الحسيني المروزي ٣ - السيد نجيب الدين محمد الحسن بن محمد بن

---

(١) روضات الجنات ٦ / ٢١٩.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٧٠.

(٣) أمل الآمل ٢ / ٤٦.

الحسن الموسوي ٤ - السيد التقي ابن ابي طاهر الهادي النقيب الرازي ٥ - الشيخ أبو الفتح بن علي الكراجكي المتوفى سنة (٤٤٩ هـ) ٦ - الشيخ ابو الحسن سليمان الصهرشتي صاحب كتاب قبس المصباح ٧ - الشيخ ابو عبد الله جعفر بن محمد الدوريستي ٨ - أبو الفضل ثابت بن عبد الله البناني ٩ - الشيخ أحمد بن الحسن بن أحمد النيسابوري الخزاعي ١١ - الشيخ المفيد الثاني، ابو محمد عبد الرحمن بن أحمد الرازي ١٢ - الشيخ ابو المعالي أحمد بن قدامة ١٣ - الشيخ ابو عبد الله محمد بن علي الحلواني ١٤ - ابو زيد بن كيابكي الحسيني الجرجاني ١٥ - الشيخ ابو غانم العصمي الهروي الشيعي ١٦ - الفقيه الداعي الحسيني وآخرين غيرهم[١].

حوزته العلمية:

لقد اتبع الشريف المرتضىٰ منهجاً خاصّاً في التدريس فقد كانت مجالسه العلمية مفتوحة على الجميع ومفتوحة على كل الحقول العلمية والمعرفية فقد ورد في بعض المدوّنات ان أحد طلابه من اليهود وقد أضرّ به القحط والجفاف فطلب من استاذه أن يدرسه علم النجوم، واستجاب الشريف المرتضىٰ لمطلبه وأمر بصرف راتب محدد لطالبه الذي ظلّ يطلب ذلك العلم ويؤمن حياته المعيشية من الراتب المصروف له. ويبدو ان الطالب اليهودي تأثر بعد مدّة بأخلاق وشخصية استاذه واعتنق الاسلام[٢].

وقد ذكر المحدّث النوري أن الشريف المرتضىٰ كان يدرس علوماً كثيرة[٣]

---

(١) الغدير ٤ / ٢٦١ - ٢٦٤.

(٢) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين العاملي ٨ - ٢٤١.

(٣) الفوائد الرضوية، ٢٨٥.

وفي هذا ما يكشف عن قابلياته الموسوعية.

وكان الشريف المرتضى يصرف رواتب لطلبته على قدر تقدمهم في الدراسة وفي هذا ما يحفز على الدراسة وطلب العلم والتقدم في الميادين العلمية فقد كان يصرف راتباً قدره اثني عشر ديناراً لتلميذ النابغة الشيخ الطوسي وهو مبلغ كبير آنذاك. وقد كانت دروسه غنية وثرية بالمادّة العلمية حتىٰ ان استاذه الكبير الشيخ المفيد ربما حضر بعضها للافادة ولقد أدهش معاصريه بشخصيته العلمية وبلاغته.

لقد كان عالماً كبيراً وخطيباً بارعاً وبليغاً لا يضاهيه أحد، جمع في شخصيته حكمة لقمان وزهد سلمان حتى ان تليمذه العبقري الطوسي اذا ذكره قال: صلوات الله عليه وكان اذا حضر درس شيخه ومربّيه المفيد نهض له الأخير اجلالاً لمقدمه وربما قدم له كرسي التدريس ولعلّه كان يستعيد تلك الرؤيا الخالدة التي لا تفارق ذاكرته[1].

دار العلم

شهدت بغداد خطوات متسارعة في النمو العلمي والأدبي واصبحت أكبر مركز حضاري يشع بالثقافة الاسلامية، وكان طلاب المعرفة وعشاق العلم يتدفقون من كل حدب وصوب ومن نقاط بعيدة قادمين الى بغداد يحدوهم الشوق الأمل بطلب العلم بعدما اصبحت بغداد مركز الدنيا والجامعة الاسلامية الكبرىٰ.

ولم تكن هناك ثمة مشكلة يعاني منها الطلاب، سوىٰ بعض الأزمات الاقتصادية التي تحدث اثر الجفاف وتضغط بقسوة على سكان العاصمة الكبرىٰ.

ومن هنا تبلورت فكرة تأسيس دار العلم من أجل تأمين حياة الطلاب

(١) علماء الشيعة الكبار من الكليني الى الخميني، جرفاد قاني، ٢٢.

المعيشية ليتفرّغوا من هموم الحياة الى هم الدراسة وطلب العلم؛ فكان الشريف المرتضىٰ أول من خصص قسماً من داره لسكنىٰ الطلاب ولتكون نواة لجامعة اسلامية فضمت داره مركزاً للبحوث والحوار العلمي[١].

وقد ذكر القاضي التنوخي قاضي المدائن ذلك وأشار الى مكتبة دار العلم هذه والى أنها تشتمل على ثمانين ألف كتاب وقد اطلع عليها الشريف المرتضىٰ جميعاً وأضاف الى هذه المكتبة من مؤلفاته وانتاجه[٢].

ولا يعلم ما اذا كانت الدار التي خصصها الشريف المرتضىٰ لطلبة العلوم سكنىٰ ودراسة ملكاً شخصياً أم كانت من الممتلكات العائدة لبيت المال وضعت تحت تصرف الشريف المرتضىٰ للافادة منها بما يخدم الصالح العام والأرجح انها كانت ملكاً عامّاً.

مؤلفات الشريف المرتضى

لقد وهب الله الشريف المرتضىٰ عقلاً راجحاً وذهناً متوقداً وذكاءً فريداً وقد استثمر حفيد رسول الله ﷺ كل هذه النعم الالهية في خدمة دينه ورسالته فكان كاتباً متديناً وشاعراً ملتزماً ومجتهداً عارفاً وباحثاً قديراً وفي كلمة واحدة كان خادماً للاسلام موالياً لأهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، ولم يغفل مع تعدد مشاغله عن مسؤوليته الاجتماعية فقد ربّىٰ تلامذة نبغوا وقدموا خدمات كبرىٰ للاسلام. وهذه آثاره الخالدة تشهد على عقله وفكره الموسوعي فقد ألف الشريف المرتضىٰ في الفقه والأصول والتفسير وعلوم القرآن الكريم وفي الكلام، والحديث والأدب، وكانت مؤلفاته ينابيع ثرة تنهل منها الأجيال على تعاقب

---

(١) الغدير ٤ / ٢٦٨؛ مفاخر الاسلام ٣ / ٢٨٥.

(٢) روضات الجنات ٤ / ٢٩٦.

العصور. وقد ذكر العلّامة الأميني في موسوعته الغدير تسعة وثمانين كتاباً[١] فيما أحصىٰ السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة تسعة وثمانين مؤلفاً ومن بين كتبه ديوانه الذي يشتمل عشرين ألف بيت من الشعر ذلك ان الشريف المرتضىٰ كان القلائل الذين جمعوا العلم والأدب فلم يكن في عصره عالماً وشاعراً وأديباً الاّ شقيقه الشريف الرضي، ومن كتبه الأخرىٰ الأمالي وهو كتاب في الفقه والتفسير والحديث والشعر وفنون الأدب. ولعل ما يثير الاعجاب انه ما ورد بحثاً الاّكان فيه سباقاً وقد ذكر الامام الخميني الراحلﷺ كتابه الفريد: «الشافي» لدى بحثه مسألة الامامة قائلاً: «ان كتاب الشافي للشريف المرتضىٰ علم الهدىٰ (المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) هو من أفضل ما كتب وألف في الامامة وهو أشهر المصنفات في هذا الباب، وكل ما كتب المتأخرون في موضوع الامامة لم يصلوا الى ما وصل اليه «الشافي» للسيد المرتضىٰ[٢].

وما تثير الدهشة مرّة أخرىٰ هو الكمّ الهائل في ما كتب الشريف المرتضىٰ في قضايا عصره فقد أجاب عن مسائل حيوية في زمانه فكتب «المسائل الناصرية، والمسائل الطرابلسية والمسائل الموصلية» كلها جاءت لتقديم اجابات شافية حول موضوعات غاية في الأهمية آنذاك، وفي هذا ما يؤكد ارتباطه الوثيق بهموم الناس في عصره.

الشريف المرتضىٰ شخصية القرن الرابع الهجري

لقد شاع بين المسلمين أن الله عز وجل يبعث على رأس كل قرن من يحيى دينه وينهض بالأمانة ويؤدي رسالة تبليغ احكامه الى عباده ومصدر ذلك حديث

(١) الغدير ٤ / ٢٦٥.

(٢) كشف الأسرار، ١٦١.

نبوي شريف رواه أبو داود في سننه[١].

وقد قام الكاتب محمد رضا الحكيمي في كتابه «الشيخ آقا بزرگ» باحصاء لزعماء وعلماء دين ظهروا وقاموا بحركات اصلاحية كبرىٰ في كل قرن، ويقول مؤلف كتاب «علماء الشيعة الكبار من الكليني حتى الخميني» ان مجدّدي مدرسة أهل البيت عليهم السلام هم الامام الباقر عليه السلام ونجله الامام الصادق عليه السلام في القرن الأول وفي القرن الثاني الامام الرضا عليه السلام وفي القرن الثالث محمد بن يعقوب الكليني، وفي الشريف المرتضىٰ في القرن الرابع الهجري[٢] ويتعين القول أن الامام الخميني الأصل هو مجدد المذهب في القرن الخامس عشر الهجري فهو من أحيا الدين ورفع رؤوس المسلمين.

وقد سئل الشاعر الكبير ابو العلاء المعرّي عن الشريف المرتضىٰ وكان قد زاره في العراق فقال للسائل:

يا سائلي لما جئت اسأله ألا هو الرجل العادي من العد
لو جئته لرأيت الناس في رجلٍ والدهر في ساعةٍ والأرض في دارِ[٣]

أشار ان مجد وعظمته وعلوّ شأنه العلماء والمؤرخون فقال فيه النجاشي: «ابو القاسم حاز من العلوم مالم يدانه فيه أحد في زمانه وسمع من الحديث فاكثر، وكان متكلماً شاعراً أديباً عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا[٤].

وقال الثعالبي: قد انتهت الرئاسة اليوم ببغداد الى المرتضىٰ في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم وله شعر في نهاية الحسن[٥].

---

(١) الشيخ آقا بزرك، محمد رضا الحكيمي، ٥٨٠.

(٢) علماء الشيعة الكبار من الكليني حتى الخميني.

(٣) الغدير ٤ / ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٤) الفهرست / ١٩٢.

(٥) يتيمة الدهر ٥ / ٦٩ رقم ٤٩.

وقال ابن خلكان في تاريخه: كان اماماً في علم الكلام والأدب والشعر، وله تصانيف على مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين»[١].

وقال السيد ابن زهرة في غاية الاختصار: علم الهدىٰ الفقيه النظار سيّد الشيعة وامامهم، فقيه أهل البيت، العالم المتكلم العميد، الشاعر المجيد كان له برّ وصدقة وتفقد في السرّ عرف ذلك بعد موته رحمه الله كان أسنّ من أخيه ولم يُر أخوان مثلهما شرفاً وفضلاً ونبلاً وجلالةً ورئاسة وتحاباً وتوادداً. لمّا مات الرضي لم يصلّ المرتضىٰ عليه عجزاً عن مشاهدة جنازته وتهالكاً في الحزن[٢].

وأشاد العلّامة الحلّي بالشريف المرتضىٰ قائلاً علم الهدىٰ كان فريداً في العلوم وقد اجمع العلماء على فضله وعلمه وكان ركن الشيعة ومعلمهم.

ووصفه السيد بحر العلوم بذي المجدين وصاحب الفخرين والرياستين ومروّج الدين وسيد الثقلين في القرن الرابع الهجري[٣].

المسؤولية الاجتماعية

عندما توفي الشريف الرضي سنة (٤٠٦ هـ) اسند نقابة الطالبيين وأمارة الحج الى أخيه الشريف المرتضىٰ، ومعروف في التاريخ ما عانى الطالبيون من قمع الحكومات الأموية والعباسية والذي استمر حتى نهاية حكومة المعتضد وخلال تلك الفترات الطويلة عاش معظم الطالبيين حياة أشبه بحياة التشرّد فقد اختطى المئات منهم الى الحياة بعيداً عن الأنظار وهاجر كثير منهم الى نقاط بعيدة اهليهم وأوطانهم وديارهم.

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ٣١٣ رقم ٤٤٣.

(٢) غاية الاختصار، ٧٦، الغدير ٤ / ٣٥٨.

(٣) مفاخر الاسلام ٣ / ٢٧٢.

وبعد أن حصل انفراج نسبي بسبب ضعف جهاز الخلافة العباسية تبلورت فكرة زعامة الطالبيين ونقابتهم حيث اسندتِ نقابة العلويين الى الشخصيات المرموقة من ذرية النبيﷺ في المنافقين التي يتواجدون فيها ويشكلون فيها نسبة سكانية ملاحظة.

وكان السيد الشرف المرتضىٰ قد انتهت اليه رئاسة الطالبيين بعد وفاة شقيقه الشريف الرضي ففي يوم السبت الثالث من صفر سنة (٤٠٦ هـ) قُلد الشريف المرتضىٰ ابو القاسم الموسوي: الحج، والمظالم ونقابة النقباء الطالبيين، وجميع ما كان الى أخيه الرضي، وجمع الناس لقراءة العهد الذي أصدره الخليفة العباسي القادر بالله[١].

ان امارة الحج مسؤولية في غاية الحساسية ولذا تتم بانتخاب الخليفة شخصياً كما كان ذلك جارياً في العهود الاسلامية جميعاً أما رئاسة ديوان المظالم وتعد هذه المسؤولية أخطر حلقات الجهاز القضائي في الدولة حيث يخضع له جميع القضاة والمسؤولين في الدولة.

وقد تسنّم الشريف المرتضىٰ هذه المسؤوليات الثلاث عدّة بلغت الثلاثين عاماً أي حتى وفاته سنة ٤٣٦ هـ

ولا لوم على اليراع اذا وقف عاجزاً عن وصف مجد ذلك الرجل فلقد كان اماماً في الفقه ومؤسساً لأصوله واستاذاً للكلام ونابغة في الشعر والأدب ورواية للحديث وبطلاً في المناظرات، وقدوة في اللغة تخشع عنده المفردات واماماً في علوم العربية كلّها وكان مرجعاً في تفسير كتاب الله وقراءة آياته وبكلمة واحدة ان المرء لا يجد فضيلة من فضائل عصره الاّ وكان الشريف المرتضىٰ ابن بجدتها.

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ١٥ / ١١١؛ ٧ / ٢٧٦؛ الغدير ٤ / ٣٦٩ - ٣٧٦.

وصية مزلزلة

جاء في وصيته ان يصلّوا عنه جميع صلوات الفريضة التي صلاّها طوال عمره وهي وصية أدهشت المقربين لديه ولما تساءلوا عن سرّ ذلك وكانوا يعرفون حبّه وعشقه للصلاة حتى انه ينتظر حلولها بشوق وكان يؤديها بلذّة ما فوقها لذّة قال الشريف المرتضىٰ أجل لقد كنت كذلك.. كنت أعدّ اللحظات وانتظر وقت الصلاة. وكنت اذا وقفت للصلاة أشعر بلذّة روحية واسبح في مناجاة الله وأسيح وانني أخشىٰ أن تكون صلاتي تلك غير خالصة لله بل بسبب ما أشعر به من لذّة روحية فاقضوها عنّي.

أجل لقد كان الشريف المرتضىٰ بحق شريفاً وكان بحق مرضياً وكان طاهراً[1].

الوداع

عن عمر ناهز الثمانين عاماً وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة (٤٣٦ هـ) وفي مدينة بغداد عاصمة البلاد عرجت روح ذلك العظيم الى الرفيق الأعلى[2] وقام تلامذته الاوفياء ابو الحسين النجاشي، ومحمد بن حسن الجعفري، وسلاّر بن عبد العزيز، وغيرهم من تلامذته باجراء مراسم الغسل وصلّىٰ عليه نجله محمد ليواريٰ الثرىٰ في داره في الكرخ، وبوفاته غابت شمس العلم والفضيلة والأدب. وبعد مدّة من الزمن نقل جثمانه الطاهر الى مدينة كربلاء المقدسة ليدفن الى جوار قبر أخيه الشريف الرضي في ظلال مرقد جدّهم سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام في مقبرة ابراهيم المجاب أكبر أغصان هذه الأسرة

---

(١) من ألقابه أيضا.

(٢) الفوائد الرضوية، ٢٨٥.

الطاهرة.

وجاء في كتابه «رجال بحر العلوم» ان أحد أمـراء الروم فـي حـوالي سـنة (٩٤٢ هـ) قام باصلاح قبر الشريف المرتضىٰ وذلك بعد مرور خمسة قرون ووجد جثمانه الطاهر سالماً حتى اثار الحنّاء في أظافره لم تتغير[١].

يقول الشريف المرتضىٰ في رثاء جدّه الحسين عليه السلام:

ألا أن يـوم الطـف أدمـىٰ مـحاجراً وأودىٰ قـلوباً مـالهن دواءُ

وإن مـصيبات الزمـان كـثيرة ورب مـصاب ليس مـنه عـزاء[٢]

---

(١) رسائل الشريف المرتضىٰ، ٣٩.

(٢) الغدير ٤ / ٣٩٠ - ٣٩١.

النجاشي /المتوفىٰ سنة ٤٥٠ هـ

اشارة:

إن دراسة حياة وتجارب العلماء والصالحين الأبرار مليئة بالدروس والعبر، فهذه التجارب الانسانية الفذّة تضيء الطريق لمن ينشد النور ويبحث عن الحقيقة والحق.

وأمامنا الآن تجربة انسان كبير عاش في عصر امتاز بالصراع فتقدم يرفع اللواء، لواء الفكر والعقيدة والمذهب انه أحمد الذي عرف بالنجاشي.

عاش هذا الرجل في زمن شهد هجوماً فكرياً وضغوطاً نفسية استهدفت الطائفة الشيعية وكان من بين الاتهامات التي وجهت لهذه الطائفة المحاصرة والمضطهدة عبر القرون أنها لا تمتلك آثاراً فكرية وتاريخاً ثقافياً، فنهض أحمد النجاشي ليفنّد هذه الأقاويل والأباطيل لينشر على الملأ موسوعة في رجالات الشيعة واعلامها ومفكريها واسهاماتها الثقافية والفكرية وكان لجهوده المغنية وسعيه ليلاً ونهاراً وأن تثمر وأنْ تسفر عن موسوعته الفريدة التي اشتهرت بـ «رجال النجاشي» والتي تعد حتىٰ الآن في طليعة المصادر الاساسية التي يستند اليها مفكرو الشيعة وعلماؤهم في البحث والتنقب والدراسات الفكرية وهكذا اقترن اسم أحمد النجاشي بميراثه الخالد الذي اثبت فيه اسماء المحدثين والرواة وليظلّ اسمه متألقاً في سماء الفكر الامامي.

ويعد أبو الحسين أحمد النجاشي من اساتذة علم الرجال ومؤسسيه في

أواخر القرن الرابع الهجري والنصف الأول من الخامس، ولا تتوفر مع الأسف تفاصيل عن حياته بالرغم من الشهرة التي حصل عليها من وراء أثره الفريد، ولكننا نسعىٰ ومن خلال بعض الشواهد والقرائن الى التلمس في مضمار البحث عن بعض التفاصيل فيما يخص حياته.

نجم في سماء بغداد

عندما غابت شمس الحقيقة وتناثرت النجوم في بغداد ذلك العام[1] ومضىٰ على ذلك ثلاث وأربعون سنة عاش الشيعة خلالها محنتهم وأصبح المؤمن منهم كالقابض على الجمر بسبب ما كانوا يلاقونه من ضغوط الحكومات العباسية المتعاقبة.

ولكن الله سبحانه وتعالىٰ شاء أن يتنفس المظلومون الصعداء وأصبح الحكم العباسي مجرداً عن السطوة والبطش بسبب صعود أمراء ووزراء ذوو ميول الى العلويين وقواعدهم الشعبية، وبسبب النمو العلمي وظهور طاقات وكفاءات علمية وفكرية كبيرة أصبح للشيعة ثقلاً علمياً ونفوذاً أساسياً، وأصبح الكرخ وهو الجانب الغربي من دجلة في بغداد منطقة شيعية ومركزاً علمياً للمذهب الامامي وفي هذه المحلّة الشيعية في عام ٣٧٢ ولد أحمد بن علي النجاشي في أحد تلك البيوت المتواضعة في الكرخ وربما استفتح والده في كتاب الله فظهرت له الآية المباركة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فسمّاه بذلك.

ونشأ أحمد في بغداد أما لقبه النجاشي فقد جاء من أحد أجداده وهو عبد الله وكان حاكماً على الأهواز وقد دعي بالنجاشي واشتهرت الأسرة بهذا اللقب.

---

(١) في سنة (٣٢٩ هـ) تناثرت النجوم وسمى ذلك العام بـ«عام تناثر النجوم» وهو نفس العام الذي اعلن فيه السفير الرابع للامام المهدي علي بن محمد السمري بدء الغيبة الكبرىٰ للامام الثاني عشر الىٰ يأذن الله.

أما كنيته فقد كانت «أبو الحسين» وله كنية أخرىٰ «أبو العباس» أيضاً ولعل ذلك كان من ولدين له بهذين الاسمين(١).

وأسرة النجاشي تنحدر في الأصل من الكوفة ولكن والده هاجر الى بغداد بعد وصول الشيخ الصدوق العاصمة الكبرىٰ عام (٣٥٥ هـ) فقرر أن يتتلمذ على يد الشيخ الصدوق ولذا فمن المؤكد أن ولادة أحمد كانت في بغداد وهذا ما ذهب اليه العلّامة والمحقق الشوشتري من النجاشي بغدادي وكذا الشيخ المفيد والشريف المرتضىٰ والرضي والشيخ الطوسي يذكرون في أن جد النجاشي في بغداد على الأشهر(٢).

من نسل اسماعيل

ان من أمجاد النجاشي أن يكون من ذرية سيدنا اسماعيل عليه السلام واسماعيل شجرة طيبة نبتت في الحجاز وامتدت أغصانها لتملأ تلك الأرض وقد أكرم الله ذرية اسماعيل فجعل خاتم الأنبياء من هذه الشجرة المباركة ولتخصصه في علم الرجال فقد تمكن أن يورد اسماء آبائه وأجداده من خزعة الى عدنان(٣).

وقد أورد أحمد النجاشي نسبه في كتابه كما أشرنا(٤).

---

(١) لم نعثر على مصادر تؤكد ذلك.

(٢) قاموس الرجال، العلّامة الشوشتري ١ / ٥٢٣.

(٣) كان عدنان متولياً لأمور الكعبة وأول من وضع الستائر على البيت الحرام، وعدنان آخر اجداد النبي صلى الله عليه وآله. الكامل في التاريخ ١ / ٤٤٩.

(٤) وقد ذكرهم كالآتي:

علي، أحمد، عباس، محمد، عبد الله، ابراهيم، مجد، عبد الله النجاشي عثيم، أبو السمأل سمعان، هبيرة، مساحق، بجير، اسامة، نصر قنين، حرث، ثعلبة، دودان، أسد، خزيمة، مدركة، الياس، مضر، نزار، معد عدنان رجال النجاشي رقم ٢٩ و ٢٥١.

وكانت لأسلافه سدانة البيت العتيق[١] وأسرته أسرة معروفة في الكوفة حيث جدّه العاشر أبو السمأل مشهور بتشيعه وولائه لأهل البيت عليهم السلام وقد ظهر فيها رواة ومحدثون من قبيل أبي يزيد داوود بن فرقد المحدث الكوفي المشهور وكان ثقة لا يشك في روايته أحد. وكذا ابراهيم بن محمد وأخوه اسماعيل كانا من محدثين معروفين أيضاً ومن أصحاب الامام موسى الكاظم عليه السلام وقد رويا عنه؛ أما جدّه السابع فهو أبو الحسين عبد الله النجاشي فقد كان في أول أمره زيدياً واستبصر على يد الامام الصادق عليه السلام وأصبح من اصحابه ورواة حديثه وكان لا يفعل شيئاً الاّ باذن الامام واجازته، والرسالة الأهوازية عن الامام الصادق كان مخاطبها النجاشي هذا يوم كان في الأهواز والياً من قبل المنصور لكنه كان يعمل في ضوء تعليمات الامام مع خطورة ذلك.

أما جدّ الأول أحمد بن عباس فقد كان من علماء الحديث ورواته من الشيعة وقد روىٰ عنه ابنه علي والد أحمد النجاشي وروىٰ عنه أيضاً هارون بن موسى التلعكبري[٢].

لغة الوحي

تتلمذ النجاشي وهو ما يزال صبياً على يدي والده ليتلقىٰ معارفه الأولية ثم بدأ يتعلم القرآن في مسجد «نفطويه النخوي»[٣] والمعروف بمسجد اللؤلؤي وكان امام المسجد من قام بتعليمه[٤].

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٧٥؛ ابن الأثير ١ / ٤٦٥.

(٢) رجال النجاشي ٢ / ٨١؛ رجال الطوسي، ٤١٢.

(٣) ابو عبد الله ابراهيم بن مجد بن عرفه (٢٤٠ - ٣٢٣ هـ) تايخ بغداد ٦ / ١٥٩.

(٤) المصدر السابق.

وكانت بغداد آنذاك تكتظ بمدارسها العديدة وقد استحالت بيوت الفقهاء الى مدارس تجتذب اليها طلاب العلوم من كل صوب، وكانت محلة الكرخ في الجانب الغربي من نهر دجلة منطقة السكنىٰ لدىٰ الشيعي وكذا مراكزها الثقافية والعلمية وقد اشتهرت من خلال وجود فطاحل علماء الشيعة يومذاك. وكان الطلاب من هذه الطائفة يشدّون الرحال الى هناك كفراشات تبحث عن النور نور أهل البيت وينابيعهم الثرّة(١).

وهكذا نشأ النجاشي في هذه البيئة الثقافية وترعرع وكان يتلقىٰ علوم أهل البيت مذ كان صبياً. ولم يكن يتلقىٰ العلم والمعرفة بل كان يتشرّب التقوىٰ والايمان في ظلال أولئك الأعلام من محدثين ومفسرين وفقهاء مبرزين. فقد تعرف على كبار العلماء وهو ما يزال يافعاً وكانت كلماتهم تنطبع على شغاف قلبه وتجد لها مكاناً مرموقاً في رفوف الذاكرة. وعندما كان صغيراً ربطته علاقة وثيقة من الصداقة مع أبناء هارون بن موسىٰ التلعكبري وهو من الشخصيات المتألقة في بغداد(٢).

وقد شعر بعمق الفجيعة وهو ما يزال في الثالثة عشرة من عمره عندما رحل موسى بن هارون عن الدنيا سنة ٣٨٥ هـ، هذا الاحساس الذي يشعر به الى سنوات مديدة في حياته.

مع الأساتذة والرواة:

بالنظر الى ان علم الرواية والرجال يتبلور من خلال السماع الكثير ولقاء الرواة والمحدثين المشهورين في هذا المضمار لهذا فقد تقدّم النجاشي في ذلك

---

(١) مقدمة اللمعة الدمشقية بقلم الشيخ الآصفي ١ / ٥٢.

(٢) رجال النجاشي ٢ / ٤٠٧؛ خلاصة الأقوال العلّامة الحلّي ط طهران، ٨٧.

من خلال الحشد الكبير من أشهر الرواة والمحدثين الذين تعرف عليهم النجاشي في حياته العلمية والثقافية وقد نقل عنهم الكثير من الأخبار والاحاديث ما جعله متألقاً في هذا الفن وفيما يلي طائفة من أولئك الرواة:

١ - علي بن أحمد بن عباس النجاشي (والده) وقد درس النجاشي بعض كتب الشيخ الصدوق لدىٰ والده وأجازه والده بالرواية عن كتب الشيخ الصدوق رحمه الله[١].

٢ - أحمد بن محمد بن عمران المعروف بـ«ابن جندي» (٣٠٥ - ٣٩٦ هـ)[٢].

٣ - أحمد بن محمد بن موسى المعروف بـ«ابن الصلت الأهوازي» (٣٢٤ - ٤٠٩ هـ).

٤ - أحمد بن عبد الواحد بن أحمد البزاز المعروف بـ«ابن عبدون» أو «ابن الحاشر» (٣٣٠ - ٤٢٣ هـ).

٥ - أحمد بن علي بن عباس السيرافي المعروف بـ«ابن نوح السيرافي»[٣].

٦ - ابو اسحاق ابراهيم بن مخلد (٣٢٥ - ٤١٠ هـ).

٧ - ابو الحسن اسد بن ابراهيم بن كليب (المتوفى سنة ٤٠٠ هـ).

٨ - القاضي ابو عبد الله الجعفي.

٩ - ابو الحسين بن محمد بن ابي سعيد.

١٠ - حسن بن محمد بن ابراهيم (٣٣٩ - ٤٢٦ هـ).

١١ - حسن بن أحمد بن محمد المعروف بـ«ابن الهيثم العجلي».

١٢ - حسن بن محمد بن يحيىٰ الفحام (المتوفي سنة ٤٠٨ هـ).

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣١٦، ١ / ٢٢٠؛ طبقات اعلام الشيعة العلّامة آقا بزرك الطهراني ٢ / ١٩.

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٤؛ الخلاصة / ١١.

(٣) رجال النجاشي ١ / ٢٢٦، ٢ - ٤١٧؛ رجال الطوسي، ٤١٧؛ الخلاصة، ١١.

١٣ – ابو عبد الله حسين بن عبيدالله الغضائري (المتوفي ٤١١ ﻫ).

وقد روىٰ عنه النجاشي الكثير وكان عالماً بأحوال الرواة وقد أجاز النجاشي بنقل الرواية[1].

١٤ – حسين بن أحمد بن موسىٰ.

١٥ – حسين بن جعفر بن محمد المخرومي المعروف بـ«ابن الخمري».

١٦ – سلامة بن ذكاء أبو الخير الموصلي.

١٧ – عباس بن عمر بن عباس المعروف بـ«ابن ابي مروان»[2].

١٨ – عبد الواحد بن مهري (٣١٨ – ٤١٠ ﻫ) وقد قرأ عليه النجاشي كتاب «مسند عمار بن ياسر»[3].

١٩ – عبد السلام بن جعفر الأديب (٣٢٩ – ٤٠٥ ﻫ) وقد قرأ عليه النجاشي كتاب «المهدي عليه السلام»[4].

٢٠ – عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بـ«ابي محمد الحذاء الدعلجي»[5].

٢١ – عثمان بن حاتم المنتاب التغلبي.

٢٢ – عثمان بن أحمد الواسطي.

٢٣ – علي بن أحمد القمي المعروف بـ«ابن ابي جيد» (المتوفىٰ سنة ٤٠٨ ﻫ).

٢٤ – ابو القاسم علي بن شبل بن أسد[6].

---

(١) المصدر السابق ١ / ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٢٠ و ٣٠٦ ج ٢ / ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٤٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ١٥١.

(٥) المصدر نفسه، ٣٦؛ الخلاصة، ٥٥.

(٦) المصدر نفسه ١ / ٩٥ و ٤٥٨.

٢٥ – ابو الحسن محمد بن أحمد القمي.

٢٦ – محمد بن جعفر الأديب المعروف بـ«ابي الحسن التميمي» (٣٠٣ – ٤٠٢ هـ).

٢٧ – محمد بن عثمان بن الحسن المعروف بـ«النصيبي المعدل» قرأ عليه النجاشي «كتاب مارووا من الحديث» لأبي شجاع الارجاني وما كتبه عبد الله بن علي ومحمد عن الامام الرضاعليه السلام[1].

٢٨ – محمد بن علي بن شاذان القزويني.

٢٩ – محمد بن علي بن يعقوب المعروف بـ«ابي الفرج القنائي الكاتب»[2].

في رحاب المفيد والشريف المرتضىٰ

كان الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد و«ابن المعلم» استاذ الشيعة ومرجعهم الفكري وكان من أبرز الشخصيات الامامية في عصره وقد بلغ من العظمةوالمجد أن الذين جاؤوا من بعده قد أخذوا عنه وقد ترك وراءه ميراثاً فكرياً من خلال مؤلفاته التي يناهز عددها المئتين في كل الحقول العلمية والثقافية فكان الشيخ المفيد وحده بحق دائرة معارف كبرىٰ في الفكر الامامي.

وقد درس النجاشي وتتلمذ على يد استاذ عبقري وقرأ عليه معظم كتب جعفر بن محمد قولويه (هو استاذ المفيد)[3] وقد انتهت هذه المرحلة من الدراسة. في عام (٤١٣ هـ) أي سنة وفاة استاذه المفيد وكان ذلك ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، وبعد رحيل الشيخ المفيد انتقلت الزعامة الفكرية والمرجعية

(١) المصدر نفسه ١ / ٩٨ ح ٢ / ٢٢ و ١٧٥.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٣٢٦؛ أعيان الشيعة ٣ / ٣٣؛ مشيخة النجاشي، محمود درياب النجفي ط ١ قم، ٩٨.

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٢١ و ١٥٣ و ١٥٤ و ٣٠٦.

الدينية الى علم الهدىٰ الشريف المرتضىٰ﵀ وكان وحيد عصره ونـادرة زمـانه ودهره ومن أجمع الناس على فضله وعلمه وقد درس النجاشي على يد الشريف المرتضىٰ سنين متمادية طويلة وكان استاذه الجديد يجسد في نظره مثال التقوىٰ والطهر ولم يكن النجاشي لينقل عن الشريف المرتضىٰ الرواية والحديث بل درس على يديه كثيراً من العلم كما صرح بذلك الخوانساري[١].

وقد توفي المرتضىٰ وانتقل الى الرفيق الأعلى بعد عمر حافل بالعطاء وذلك سنة ٤٣٦ في ربيع الأول في مدينة بغداد وقد كان النجاشي متعلقاً باستاذه الكبير وقد اثر رحيله بالنسبة اليه حادثاً مأساوياً لطول ما استأنس به وبالدراسة عـلى يديه ولهذا شارك في اجراء الغسل مع أبي العلىٰ محمد بن حسن الجعفري وسلّار بن عبد العزيز كما شارك في الصلاة عليه ومواراته الثرىٰ[٢].

التشّيع في عصر النجاشي

يتوجب أن نعتبر على النجاشي عصر انتشار التشيع ونمو مجده وعظمته ذلك ان مجموعة عوامل تظافرت في القرن الرابع الهـجري وسـاعدت عـلى ظـهور المذهب الامـامي كأقـوىٰ المـذاهب الاسـلامية فكـرياً وسـياسياً، فـقد أسس الفاطميون وهو من أتباع المذهب الاسماعيلي دولة قوية في مصر ليمتد حكمهم من سنة ٢٩٦ حتى سنة (٥٥٧ هـ) وكان الاسماعيليون قد نشطوا فيما مضىٰ فـي المجال الدعائي بشكل كبير وامتدت دعوتهم الى خراسـان والى مـاوراء النـهر وأصبح لهم نفوذ سياسي في بعض مدن العراق.

وقد تنامىٰ نفوذهم بسبب قدراتهم الفكرية والدعائية وأصبح لهم نفوذ كـبير

---

(١) روضات الجنات، محمد باقر الخونساري ط اسماعيليان قم ١ / ٦٣.

(٢) رجال النجاشي ٢ / ١٠٤؛ الخلاصة / ٤٦.

بحيث قرأت الخطبة في بغداد باسمهم في نفس العام الذي توفي النجاشي (٤٥٠ هـ) واستمر ذلك عاماً كاملاً وقد فرّ الخليفة العباسي من بغداد وهكذا الحال في مناطق أخرىٰ التي انقادت لهم[١].

ومن جانب آخر ظهرت زعامة آل بويه في بغداد عاصمة العباسيين وأصبح الخليفة العباسي مجرّد اسم لا أكثر وكانت الدعاية للمذهب الامامي قد وصلت الىالذروة بسبب ما توفر من حرّية في ظل وزارة شيعية مثلها البويهيون[٢].

وفي مثل هذه الظروف سطع اسم النجاشي الذي قام بجهده العلمي الواسع والكبير في اعداد قوائم طويلة جداً تحفل باسماء الرواة الشيعة وقد تألق اسم مع ظهور الحكم البويهي وليرحل من الدنيا مع أقوالهم أيضاً ان القرنين الرابع والخامس الهجريين هما أكثر الفترات التاريخية تألقاً في تاريخ الحضارة الاسلامية بما شهده هذا المقطع التاريخي من ازدهار في الفكر والعلم والأدب.

فقد شهدت هذه الفترة من تأريخ الحضارة الاسلامية ظهور أعلام وعباقرة كان لهم دور كبير في ترشيد واثراء الثقافة الاسلامية من قبيل الصاحب بن عباد، ابن سينا، ابو الفضل بن العميد الملقب بـ«الجاحظ الثاني» كما ان ظهور وزارات كانت تحترم وتوقر العلماء والأُدباء وتشجع على ازدهار الحركة الفكرية كما هو الحال في ظهور الحكم البويهي الذي ساعد على اثراء العلوم في مختلف المجالات والحقول، وفي هذه الفترة المشرقة من تاريخ الشيعة ظهر علماء كبار وعباقرة كان لهم الدور الكبير في الدفاع عن حياض الدين وارساء دعائم الشريعة من قبيل الشيخ الصدوق، الشيخ المفيد، الشريف المرتضىٰ، الشيخ

---

(١) الشيعة في الاسلام، العلّامة الطباطبائي ط خريف سنة ١٩٨٢ م ص ٣٠؛ تاريخ التشيع في ايران، رسول جعفريات، ط منظمة الاعلام الاسلامي ١٩٨٨ م ص ٢٨٤.

(٢) واثر المعارف الاسلامية الكبرىٰ، باشراف كاظم الموسوي البجنوردي ط ٢، ١٩٨٩ م ١ / ٦٢٩.

الطوسي، ابو العباس النجاشي ورجالات اثروا الثقافة الاسلامية، وقد استمر الوضع على هذا المستوىٰ من الازدهار والنمو حتى منتصف القرن الخامس الهجري وذلك مع بدء القلاقل والاضطرابات والفتن الداخلية والنزاعات الطائفية التي كان يذكيها بعض الطامحين. فمع أفول النفوذ البويهي وظهور السلاجقة بدأت الفتن الطائفية بالظهور في بغداد ساعد على اذكائها الحكام السلاجقة الذين شجعوا أبناء العاصمة على اضطهاد اخوانهم الشيعة.

وقد أدت هذه الفتن والقلاقل الى انهيار الحوزة العلمية الامامية في بغداد وانتقالها الى مدينة النجف الأشرف هذا الإنتقال الذي جاء بمثابة انقاذ للثقافة الامامية من الفناء وكان بطل هذه العملية الشيخ الكبير نصير الدين الطوسي فكانت سنة (٤٤٨ هـ) تاريخ هذا التحول الجغرافي والتاريخي التي كانت له معطياته الثقافية والعلمية.

لقد أغار المتعصبون على بيت الشيخ الطوسي في بغداد وأحرقوا مكتبته ومنبره في صفر من ذلك العام[1].

وقد شهد النجاشي في أخريات عمره هذه المحنة ولم تتوفر تفاصيل عن هذه الفترة وأين عاش النجاشي سنواته الأخيرة في بغداد، النجف، والكوفة أو سامراء.

معاصروه

مثل عصر النجاشي عصر الازدهار العلمي فقد كانت بغداد مركزاً حضارياً كبيراً وكانت اكثر المدن الاسلامية في تلك الفترة التي تكتظ بعدد الفقهاء والعلماء اضافة الى موقعها السياسي المتقدم كعاصمة عريقة للدولة السياسية الكبرىٰ.

---

(١) التبيان، آقا بزرك الطهراني ٢ / ٣٣٢؛ الفهرست الشيخ الطوسي، ١٨٨؛ رياض العلماء ١ / ٤٠؛ الخلاصة، ٧٢.

أما من عاصرهم النجاشي فقد كانوا في الواقع نجوماً تتألق في سماء العلم والثقافة والفكر.

فالشيخ الطوسي (٣٨٥ هـ - ٤٦٠ هـ) كان من معاصريه وقد وصل بغداد سنة (٤٠٨ هـ) ليتسنم زعامة الطائفة بعد وفاة الشريف المرتضىٰ. وقد أصبح في طليعة اساتذة بغداد الى جانب ابن عبدون، ابن الصلت الأهوازي، حسين بن عبد الله الغضائري، ابن ابي حيّة، الشيخ المفيد، والشريف المرتضىٰ. وبالرغم من ان اسم النجاشي لم يرد في رجال الطوسي ولكن النجاشي ذكر ذلك في رجاله كما أشار الى كتبه وآثاره ومن بينها «الرجال» و «فهرست الشيخ الطوسي»[1].

ومن معاصريه أيضاً أبو الحسين أحمد بن حسين بن عبيدالله الغضائري وهو من كبار محدثي الشيعة، كما كانت للنجاشي مناقشات مع أحمد بن الحسين واستفاد من بعض آرائه وتجاربه وكانت تربطه به علاقة صداقة حميمة، كما كانت له علاقات وثيقة مع الغضائري ومع ابن عبدون وقرأ كتاب النوادر لأحمد بن الحسين بن عمر الصيقل على الحسين بن عبيدالله.

وقد كان الغضائري من كبار الأساتذة في علم الرجال وقد كتب في هذا الحقل ولكن لم تصلنا كتاباته مع الأسف باستثناء كتابه: «الضعفاء»[2] وقد طبع ضمن آثار رجاليه أخرى في كتاب «مجمع الرجال» وقام بهذا الجهد عنايت الله القصبائي وممن عاصرهم النجاشي أيضاً، أبو يعلىٰ محمد بن حسن الجعفري، وسلّار بن عبد العزيز وهما في طليعة الفقهاء آنذاك ومن تلامذه الشيخ المفيد والشريف المرتضىٰ وقد قاما مع النجاشي بمراسم الغسل لاستاذهم الشريف المرتضىٰ وقد توفيا في نفس العام (٤٦٣ هـ).

---

(١) رجال النجاشي ٢ / ٣٣٢؛ رياض العلماء ١ / ٤٠؛ الخلاصة، ٧٢.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٨٤ و ١٠١؛ قاموس الرجال ١ / ٢٤١؛ روضات الجنات ١ / ٤٧.

ومن معاصريه أيضاً أبو الحسن الكاتب (المتوفى سنة ٤١٣ ﻫ)، وأبو الحسن الجرجرائي وكانا من أصدقائه الحميمين وقد اشترىٰ النجاشي بعض كتب أبي الحسن الكاتب وممن عاصرهم النجاشي فيلسوف العالم الاسلامي ابن سينا المتوفى سنة (٤٢٨ ﻫ) وكان قد تسنّم مناصب هامّة في حكومة آل بويه، وقد شهدت علوم مثل الطب والمنطق والفلسفة تحولات كبرىٰ على يديه.

كما عاصر أدباء مرموقين من قبيل الشريف الرضي المتوفى سنة (٤٠٦ ﻫ) والشاعر الايراني الكبير فردوسي المتوفىٰ سنة (٤١١ ﻫ) الذين أثريا دنيا الأدب بنتاجيهما الرائعين.

آثاره الخالدة

يبدو أن النجاشي كان هو السبّاق في هذا الفن وهو علم الرجال وقد أثبت تفوقاً ملحوظاً في المضمار وبالرغم من باحثين ومحققين قد سبقوا النجاشي والطوسي في التحقيق في رجال الاسناد والرواية والحديث وتركوا وراءهم مدوّنات ذات قيمة تاريخية وعلمية ولكن هذا الحقل العلمي لم يتبلور بشكل واسع الاّ على يد هذين الرجلين (الطوسي والنجاشي) بحيث يتوجب أن نعدّهم أبوي علم الحديث فقد شهد هذا الحقل العلمي قفزة كبرىٰ من خلال جهودهما الجبّارة[1] ولهذا عدّت آثارهما في هذا المجال اصولاً في علم الرجال بحيث لا نجد حتى الآن علماء تخصصوا في هذا الفن الاّ واعتمدوا منهج هذين العملاقين.

ويعتبر كتاب رجال النجاشي أكثر الكتب في علم الرجال من حيث قيمته العلمية وله موقعه المتميز في كتب الرجال من حيث قيمته العلمية وله موقعه المتميز في كتب الرجال الأربعة تماماً كموقع كتاب الكافي في كتب

---

(١) ان الكتب الأساسية في علم الرجال هي: ١ - اختصار الرجال ٢ - الفهرست ٣ - الرجال ٤ - رجال النجاشي.

الحديث الأربعة.

وقد ألف النجاشي كتابه هذا في حياة استاذه الشريف المرتضىٰ ﷺ وبعد تأليفات الشيخ الطوسي في هذا المضمار، ويبدو ان الباحث الذي يكمن وراء ذلك هو تصريحات استاذه الشريف المرتضى في احدىٰ محاضراته حول اتهام الشيعة بعدم امتلاكهم لأية آثار علمية وتاريخ فكري وقد أعرب الاستاذ عن ألمه من ذلك ما دفع بتلميذه الوفي النجاشي الى أن يشمّر عن ساعديه سنوات لتثمر بعد حين موسوعته الفريدة.

وتشتمل هذه الموسوعة على أسماء (١٢٧٠) الف ومئتين وسبعين من محدثي الشيعة ورواتهم حيث يبتدأ الاستاذ في معظمهم من النجاشي الى الراوي والى الشخصية صاحبة الأثر المعرّف واسم الكتاب كما هو موضح من خلال حديث النجاشي: «فهرس اسماء مصنفي الشيعة» حيث يقوم الكتاب بتعريف اسم الراوي وآثاره ولقبه وكنيته واسلافه ومحل سكناه وحياته ولهذا اشتهرت موسوعة النجاشي هذه بـ«رجال النجاشي» وقد ألف النجاشي كتابه في مجلدين وقد طبع على هذا النحو مرّات ومرّات[١].

وللنجاشي كتب أخرىٰ غير موسوعته هذه ولكنها لم تنشر وقد أثبت اسماء آثار في مدوناته وهي كما يلي:

١ - الجمعة: ويتمحور الكتاب حول أعمال يوم الجمعة العبادية.

٢ - الكوفة: وفيه تعريف لآثار الكوفة ومناطقها التاريخية وفضائلها.

٣ - أنساب بني النضر بن قعين: وفيه شرح لأحوال أسرة النضر بن قعين.

٤ - مختصر الأنوار ومواضع النجوم[٢].

---

(١) وآخر طبعة محققة قام بها محمد جواد النائيني باشراف الاستاذ جعفر سبحاني في عام (١٤٠٨ ﻫ) وقد طبعت في بيروت.

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٥٤.

الرواة

بالرغم من أن النجاشي لم ينشىء تلامذة كثيرين ولكن من نبغ من تلامذته كانوا في غاية النبل والفضل والتقوىٰ وفي طليعتهم:

١ - ابو الصمصام ذو الفقار بن معبد الحسيني، وهو من سادات العلويين روىٰ عن الشريف المرتضىٰ والشيخ الطوسي والنجاشي، ورروىٰ عنه فقهاء ومحدثون منهم القطب الراوندي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، وابن شهر آشوب المتوفى سنة ٥٨٨هـ[١].

٢ - ابو الحسن سليمان بن حسن الصهرشتي وهو من الفقهاء والشخصيات البارزة في أوساط الشيعة ومن تلامذة الشريف المرتضىٰ والشيخ الطوسي وقد روىٰ عنهما كما روى عن الشيخ المفيد والنجاشي وعن أساتذة الحديث ومن مؤلفاته «قبس المصباح» في الأدعية.

٣ - ابو الحسن علي بن أحمد النجاشي، وهو نجل النجاشي ويعد من الأساتذة الكبار والعلماء الأفذاذ[٢].

تجلّيات في حياته

كان النجاشي مسكوناً بعشق أهل البيت عليهم السلام والولاء لهم وامتزج حبهم بدمه وروحه وأصبح جزءاً من كيانه وشخصيته. فتراه مستبشراً ضاحك الوجه متشرق الفرحة في سلوكه اذا ما أحل عيد الغدير. عيد الولاء للامام عليه السلام، وربما بادر الى مدينة النجف الأشرف لزيارة بطل الاسلام الخالد علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وقائد الغرّ المحجّلين، وهو عندما يذهب الى هناك لا تفوته الفرصة لينهل

(١) طبقات اعلام الشيعة ٢ / ١٨٠؛ روضات الجنات ١ / ٦٣.

(٢) رجال النجاشي ١ / ١٩٠، ٢ / ٨٥ و ٢٠٤.

من ينابيع الرواية والحديث ويغترف من مصادر العلم والمعرفة والثقافة الأصلية[١].

حتى اذا اطل عاشوراء من محرّم الحرام اذا به يعيش مأتمه وفجيعته بقلب حزين ووجه باك.. ذلك أنه يعيش تفاصيل تلك المأساة بروحه وكيانه ووجدانه.

حتى عندما كان يذهب الى موطن آبائه وأجداده في مدينة الكوفة فانه كان يدرك ما لهذه المدينة من شأن في التاريخ وفي المستقبل.

وكان يعي ما لمساجدها من فضائل وما يضم ترابها من أضرحة لأنبياء الله وفيهم من أولي العزم[٢]؛ وما يشتمل عليه ترابها من ذكريات ورفات لأولياء عاشوا في هذه المدينة العريقة وقضوا نحبهم وكانوا من الصادقين؛ لقد عاش فيها أتقياء وزهاد وأولياء وقضىٰ فيها رسل وأنبياء.. آنهامدينة تسطع في سماء التاريخ كما تسطع في دنيا الفكر مدينة تضيء كما تضيء النجوم في السماء.

وكان النجاشي يكن في قرارة نفسه اجلالاً لعباقرة الشيعة سواء من عاش منهم في بغداد ومن التقاهم في أسفاره في المدن والحواضر الاسلامية وكان يحرص على لقائهم ويبادر شوقاً للحديث معهم والاصغاء اليهم.

الرحيل

ويشاء القدر أن تعصف القلاقل بمدينة بغداد هذه المدينة التي ازدهرت فكرياً وثقافياً وأصبحت رمزاً للاخوة الاسلامية والتعايش الودّي بين جميع التيارات الفكرية والطوائف الدينية.

هذه المدينة التي كانت تجتذب اليها عشاق الثقافة والفكر على اختلاف

---

(١) رجال النجاشي ١ / ١٩٠، ٢ / ٨٥ و ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٩٧ و ٣٧٨ و ٤٠٨.

أذواقهم وتنوع اتجاهاتهم.. هذه المدينة تسقط في براثن الفتن الطائفية.

لقد غربت شمس البويهيين ليأتي القدر يقوم غلاظ الأكباد وهمم السلاجقة الذين أشعلوا نار الفتنة حتى يسهل عليهم حكم هذه المدينة العريقة والعاصمة الكبرىٰ.

وراح الفقهاء يهاجرون من بغداد الواحد تلو الآخر، وولّىٰ بعضهم وجه شطر النجف وآخرون الىٰ مدن أخرىٰ. لقد كان عام (٤٤٨ هـ) عام الحزن لكل عشاق العلم وطلاب المعرفة لقد دمّرت الحوزة العلمية الامامية في بغداد؛ ومن المؤكد أن النجاشي كان فيمن ترك بغداد الى جهة أخرىٰ ربما ذهب الى النجف الأشرف وربما هاجر الى سامراء ليقضي ما تبقىٰ من أيام حياته وقد أطل على الشيخوخة مع بعض أقاربه ممن كان يقطن في تلك المدينة التي تضمّ مرقد الامامين الهادي والعسكري وذكريات من الامام الغائب عليه السلام.

انه يخطو نحو النهاية.. النهاية الحتم لكل كائن بشري وأن لشمسه أن تغرب في هذا العالم لتشرق في عالم آخر..

ولكن شمس هذا الرجل ما كانت لتغرب أبداً وقد ترك وراءه أثراً خالداً.. فما يزال النجاشي متألقاً في سماء الفكر حتى بعد أن دوّن التاريخ رحيله الى الملكوت في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٥٠ هـ[١]

---

(١) الخلاصة، ١٢؛ الكنىٰ والالقاب ٣ / ٢٣٩.

الشيخ الطوسي / المتوفىٰ سنة ٤٦٠ هـ

ولادته

ولد محمد بن الحسن الطوسي في شهر رمضان المبارك من سنة (٣٨٥ هـ) في بيت متواضع الاّ انه كان مفعماً بنور الايمان. مسقط رأسه في مدينة طوس[١] وقد نشأ في هذه المدينة وترعرع ومكث فيها حتى سنة (٤٠٨ هـ) وخلال هذه المدّة من حياته تعلم الطوسي علوم عصره وكان في ربيع شبابه في طليعة الطلاب فقد عرف بجدّه واجتهاده[٢].

صوب بغداد

لم تكن طوس تلك المدينة الصغيرة لتستوعب طموح شاب في الثالثة والعشرين من عمره فلقد كان ينشد الكمال ويدفعه التكامل الى البحث عن منابع النور كفراشة تنشد الشموع المتوهجة، ولهذا شدّ الرحال صوب مدينة بغداد عاصمة الثقافة الاسلامية ودار السلام وكان هدفه أن يلتقي العباقرة في هذه المدينة الكبيرة وهكذا وصل الطوسي الى مدينة بغداد في سنة ٤٠٨ هـ[٣]. كانت بغداد في ذلك المقطع التاريخي من مسار الحضارة الاسلامية مركزاً علمياً وفكرياً

---

(١) كانت تدعىٰ قديماً سناباد.

(٢) راجع ألفية الشيخ الطوسي، علي الدواني، ٤.

(٣) أعيان الشيعة ٩ / ١٥٩.

متقدماً وكان لوجود عباقرة في مستوىٰ الشيخ المفيد والشريف المرتضىٰ قد جعل من مدينة بغداد مركزاً علمياً كبيراً له وزنه العلمي الفريد، ولهذا كانت بغداد في ذلك تستهوي الطموحين وذوي الهمم. ومنذ أن وضع قدميه في بغداد هذه المدينة الكبرىٰ لم يشعر بالغربة لقد كان يحس انه في وطنه وهو جالس في رحاب الشيخ المفيد يتلقىٰ العلم والمعرفة. وعلا مدىٰ خمس سنين راح الطوسي ينهل من دروس استاذه العبقري حتى اذا وافاه الأجل سنة (٤١٣ هـ) انتقل على الفور الى تلميذ الشيخ المفيد العلّامة ونابغة عصره الشريف المرتضىٰ.

وقد وجد الطوسي نفسه مع زملائه من تلامذة الشيخ المفيد والشريف المرتضىٰ ولم يكونوا دونه في نبوغه واجتهاده.

لقد وجد لنفسه زملاء في مستوى النجاشي وابي الفتح الكراجكي ومحمد بن الحسن بن حمزة وغيرهم من الأفذاذ.

وخلال فترة وجيزة وما يزال الطوسي في شبابه عندما بلغ مرتبة الاجتهاد وهذا ما لفت الأنظار اليه بعد تأليفه كتابه الكبير والفريد تهذيب الأحكام[١] وقد جاء جهده العلمي الرائع هذا استجابة لاقتراح من استاذه الشيخ المفيد[٢].

ويعدّ الكتاب هذا أكبر دليل على ما وصل اليه الشيخ الطوسي من عبقرية وعقلية علمية جبّارة؛ وقد ظهرت قابلياته وكفاءاته العلمية في مختلف الحقول المعرفية من فقه واصول ورجال وقد حصل كل ذلك وهو لم يجتز الثلاثين من عمره بعد.

---

(١) الذريعة، آغا بزرگ الطهراني ٤ / ٥٠٤.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢ / ١٩٩ - ٢٠٠.

استاذه المفيد

عاصر ابن النديم الشيخ المفيد وعاش معه في بغداد فكتب عن الشيخ في كتابه الفهرست ووصفه بما ينبغي أن يوصف به العباقرة فقد كان ابن المعلم رئيس المتكلمين الشيعة في عصرنا وهو في علم الكلام متقدم على غيره وهو عالم جليل القدر عرف بذكائه وفراسته وقد رأيته وكان على قدر كبير من الجلال[١].

وذكره ابن عماد الحنبلي في حوادث سنة (٤١٣ هـ) وأشار الى وفاته في هذا العام كما اشار الى تراثه الكبير في العلم والمعرفة.

كما وذكره ابن طي في تاريخ الامامية ونعته بكبير كبراء الشيعة ولسانهم وكان استاذاً في الكلام والفقه وله مناظرات مع اصحاب العقائد المختلفة وكان على جانب كبير في التواضع كثير الصوم والصلاة ولباسه في غاية النظافة وقد خصّه عضد الدولة البويهي بالاجلال وطالما كان يخلو به، عاش ستة وسبعين عاماً وصنف أكثر من مئيتي كتاب وتوفي سنة ٤١٣ في رمضان المبارك وشيعه أكثر من ثمانين ألف انسان[٢].

وذكر العلّامة الحلّي الشيخ المفيد بالاجلال وأشار الى تراثه الضخم الذي أثرىٰ به الفكر الامامي وزعامة الطائفة[٣].

وبعد رحيل الشيخ المفيد﵀ تتلمذ الشيخ الطوسي لدىٰ الشريف المرتضىٰ الذي تزعّم الطائفة الامامية لينهض بهذه المسؤولية الكبرىٰ اضافةً الى مسؤولياته في رئاسة ديوان المظالم ونقابة الطالبيين وقد تتلمذ الشيخ الطوسي مدّة ثلاث

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢ / ١٩٩ و ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مفاخر الاسلام ٢ / ٢٤٣ و ٢٤٤؛ نقلاً عن مجالس المؤمنين ١ / ٤٦٣؛ وشذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي ٣ / ٢٠٠.

وعشرين سنة وذلك من وفاة الشيخ المفيد سنة (٤١٣ هـ) وحتى سنة (٤٣٦ هـ) وهي سنة وفاة الشريف المرتضىٰ وكان المرتضىٰ عبقرياً كبيراً ملأ عصره بالعلم[١].

وقد التفت الشريف المرتضىٰ الى نبوغ تلميذه الطوسي فصرف له راتباً شهرياً كبيراً بلغ اثني عشر ديناراً[٢].

يعد الشيخ الطوسي المدوّن الرئيس لاسس المدرسة الامامية حيث قام بجهود كبرىٰ في تبويب واصلاح العقائد الامامية في الاصول والفروع كما أشار الى ذلك العلّامة الحلي.

هذا وقد تتلمذ الشيخ الطوسي على يد آخرين غير العملاقين المفيد والمرتضىٰ ومن بين اساتذته: ابن الغضائري، ابن شاذان المتكلّم، ابن حسكة القمي، حسين بن ابي محمد التلعكبري، ابن بشران المعدل، ابو منصور الشكري، أحمد بن ابراهيم القزويني، ابن فهام السامري، ابو حسين الصفار، ابن ابي جيّد، ابن الحاشر وعشرات من عباقرة الفكر والعلم والمعرفة[٣].

الشمس

في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة (٤٣٦ هـ) عرجت روح الشريف المرتضىٰ الى الرفيق الأعلىٰ بعد أن بلغ الثمانين من عمر حافل بالعطاء[٤] وبعد رحيل هذا العظيم تسنّم زعامة الطائفة الشيخ الطوسي وكان اماماً ومرجعاً للشيعة حيث ظل في بغداد اثني عشر عاماً يقود الكيان الشيعي وأصبح منزله في الكرخ

---

(١) الفية الشيخ الطوسي، الدواني، ١١.

(٢) مقدمة التبيان، آقا بزرك الطهراني ١ / هـ ن ج.

(٣) رجال النجاشي، ٢٧١.

(٤) رجال النجاشي / ٢٧١.

في بغداد كعبة تهوي اليها الأفئدة والقلوب الباحثة عن العلم والمعرفة والثقافة وقد جاء في المدونات التاريخية ان ما يناهز الثلاثمئة من المجتهدين بين تلامذته اضافة الى عدد كبير من علماء السنّة[1].

وكان في طليعة تلامذته علماء مثقفون في مستوىٰ اسحاق بن بابويه القمي، ابو الصلاح الحلبي، ابو علي الطوسي (نجل الشيخ الطوسي)، سعدالدين بن البراج، شهر آشوب السروي المازندراني، عبد الجبار بن عبد الله المقري الرازي، محمد بن حسن الفتال، الكراجكي، حسين بن الفتح الجرجاني، جعفر بن علي الحسيني، ابو الصلت محمد بن عبد القادر، الناصر بن رضا العلوي، غازي بن أحمد الساماني وعشرات غيرهم[2].

في عام (٤٤٧ هـ) قام طغرل بيگ السلجوقي باحتلال بغداد وارتكب مذبحة كبيرة في الكرخ وهي منطقة سكنىٰ الشيعة وقام باحراق مكتبة ابي النصر سابور بن اردشير الكبرىٰ ولم يتورع هؤلاء البرابرة من احراق عشرات المصاحف النفيسة[3].

وقد استمرت هذه المحنة حتى سنة (٤٥١ هـ) قام خلالها السلاجقة والمتعصبون بمهاجمة منزل الشيخ الطوسي واحراق مكتبته كما أحرقوا مؤلفاته أيضاً خاصّة ما حدث سنة (٤٤٩ هـ) في شهر صفر عندما هاجم الجلاوزة منزله وأخذوا محتويات منزله من أثاث وغيره الا الميدان الكبير في بغداد ليضرموا فيها النار[4].

---

(١) مقدمة التبيان، آقا بزرك الطهراني ١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الاعلام، الزركلي ٦ / ٨٤.

(٤) كانت تلك الحوادث التي وقعت في منتصف القرن الخامس الهجري من أكثر الوقائع التاريخية مرارة وقد ←

وبسبب هذه الحوادث المريرة لم يبق أمام الشيخ الطوسي وبقية حماية ميراث أهل البيت الاّ أن يهاجر بدينه وعقيدته الى مدينة النجف الأشرف.

الهجرة

ازدهرت مدينة النجف الأشرف في ظل الحكم البهويهي فقد كان معز الدولة وعضد الدولة والوزراء والشخصيات الشيعية المتنفذة في طليعة من أبدوا اهتمامهم في تحسين الظروف العامّة لهذه المدينة التي يضم ترابها أنبياء وأولياء واشتهرت بوجود مرقد الامام عليعليه السلام، وبسبب الاهتمام الذي أبداه البويهيون بمرقد الامام فقد شهدت هذه المدينة حركة من الازدهار في العمران والبناء وبخاصّة اجراءات التوسعة في ضريح الامام عليعليه السلام.

وعندما وصل الشيخ الطوسي هذه المدينة المقدسة لم تكن في ازدهارها الذي شهدته في ظل الحكم البويهي. وعاش العراق ومعظم حواضره رعب السلاجقة فيما القت الفتن الطائفية بظلالها الشاتمة على مدينة النجف الأشرف كما هو الحال في مدن عراقية أخرى[1].

ولكن وجود العشائر الغيورة من عرب الشيعة قد فرض حماية لهذه المدينة، وأصبح العدوان على النجف الأشرف اعتداء على العشائر العربية الشيعية[2].

وهكذا توفرت ظروف مواتية لأن يقوم الزعيم الامامي الشيخ الطوسي بارساء دعائم حوزته العلمية التي طالها الدمار الكامل في بغداد.

← أورد المؤرخون تفاصيل مأساوية لما ارتكبه السلاجقة وعملاؤهم من فظائع بحق الطائفة الشيعية ولمن يريد المزيد يمكنه مراجعة الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير.

(١) ألفية الشيخ الطوسي ١ / ١٩ - ٢٠.

(٢) مقالات مؤتمر الشيخ الطوسي ٣ / ٣٨ مقالة محيط الطباطبائي.

لقد شمّر شيخ الطائفة الشيعية وزعيمها عن ساعديه لاعادة بناء ما دمّرته الفتن الطائفية والتعصب المذهبي ومحاولات الغاء الآخر.

وبسبب ما قام الشيخ الطوسي وما بذله من جهود جبارة ولدت حوزة علمية جديدة في النجف الأشرف ما تزال قائمة حتى اليوم وبالرغم من مضي ما يناهز الألف عام[١].

الميراث الغالي

يربو عدد الآثار التي تركها الشيخ الطوسي واحد وخمسين كتاباً ورسالة وربما كان الكتاب الواحد مؤلفاً من عشرة مجلدات ضخمة، ويمكن توزيع مؤلفاته على حقول عديدة من قبيل التفسير، الحديث، الفقه، أصول الفقه، الكلام، علم الرجال، التاريخ، فتاوىٰ شرعية وعقيدية وأدعية.

فالتبيان في تفسير القرآن موسوعة علمية تتألف من عشرة مجلدات كبيرة، والمسائل الدمشقية والمسائل الرجية في تفسير آيات القرآن هي من آثاره في علم التفسير.

أما التهذيب والاستبصار فهما موسوعتان حديثيتان وهما كما هو معروف من الكتب الأربعة الى جانب «الكافي» للكليني و «من لا يحضره الفقيه» للشيخ الصدوق.

ومن أهم آثار الشيخ الطوسي في الفقه فهي «النهاية»، «المبسوط»، «الخلاف» «الجعل والعقود في العبادات»، «الايجاز في الفرائض»، «مناسك الحج في مجرد العمل»، «المسائل الحلبية في الفقه»، «المسائل الجنبلائية في الفقه»، «المسائل الحائرية في الفقه»، «مسألة في وجوب الجزية على اليهود»،

---

(١) مقدمة التبيان ١.

«مسألة في تحريم الفقاع» و «مسألة في مواقيت الصلاة».

وفي علم الاصول ألف الشيخ الطوسي: «عدة الاصول»، «مسألة في العمل بخبر الواحد» و «بيان حجية الأخبار».

وله في علم الكلام مايلي: «تلخيص الشافي في الامامة»، «تمهيد الاصول – وهو شرح الكتاب» «حمل العلم والعمل» للشريف المرتضىٰ، وكذا «الشافي في الامامة» أيضاً. «الاقتصاد»، «الهادي الى طريق الرشاد»، «المفصح في الامامة»، «مقدمة في المدخل الى علم الكلام»، «رياضة العقول»، «ما يعلل وما لا يعلل»، «ما لا يسع المكلف الاخلال به»، «شرح الشرح في الاصول»، «اصول العقائد الغيبية»، «الفرق بين النبي والامام»، «مسألة في الأحوال»، «المسائل الرازية»، «النقض على ابن شاذان في مسألة الغار» و «مسائل اصول الدين والكافي» وله في علم الرجال أثران هما: «رجال الشيخ الطوسي»، «اختيار معرفة الرجال» والمعروف بـ«رجال الكشي» حيث قام الشيخ الطوسي بحذف الأخطاء واصلاح الكتاب وتنتقيحه» والكتاب الآخر هو «الفهرست» الذي عرّف فيه مؤلفي الشيعة ومصنفيهم وآثارهم.

وفي حقل التاريخ له اثرات مهمة هي «مقتل الحسين عليه السلام» و «مختصر أخبار المختار بن ابي عبيدة الثقفي».

وله آثار في الاجابة عن الأسئلة والشبهات منها: «المسائل الالياسية»، «المسائل القيمة»، «مسائل ابن البراج» و «تعليق ما لا يسع المكلف الاخلال به».

وله في حقل الدعاء مايلي: «مصباح المتهجد وسلاح المتعبّد»، «مختصر المصباح»، «مختصر في عمل اليوم والليلة»، «انس الوحيد» و «هداية المسترشد وبصيرة المتعبد»[1].

---

(١) الذريعة، ٥ / ٢٢٠ و ٢٠ / ٣٤٨؛ الفهرست للطوسي / ٢٨٦؛ رجال النجاشي، ٤٠٣؛ الفقيه الشيخ الطوسي، ١ / ٢٢٠ مقالة هاشم رسولي المحلاتي.

تلامذته

واضافة الى نشاطه العلمي الواسع وانتاجه من آثار قيمة خالدة فقد تـخرج على يديه عشرات بل مئات العلماء وقد تتلمذ على يده أكثر من ثلاثمئة مجتهد[١].

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية ومدونات تهتم بتاريخ الفكر ان تلامذته لم يكونوا من الشيعة فقط فقد درس على يديه عشرات من أهل السنة ونهلوا من فيض علومه.

دموع الملائكة

محرم الحرام هو موسم الحزن لدىٰ العالم الشيعي بأسره حيث يصادف ذكرىٰ مأساة كربلاء واستشهاد سيد الشهداء، وقد عرف عن الشيخ الطوسي تأثره الشديد في مثل هذه الايام وها هو الآن في عام (٤٦٠ ه‍) قد أصبح شيخاً ضعيفاً في بدنه ولكن روحه تتألق وتسطع آنها تنشد الرحيل الى عالم لا شرور فيه ولا نكد.

لقد آن لهذه الروح العظيمة أن تحلق نحو السماوات لتنهم بالحريّة والخلاص من هذا القفص الطيني المتكاشف.

في الثاني والعشرين من محرم الحرام سنة (٤٦٠ ه‍) أزفت ساعة الرحيل لتلك الروح العظيمة وامتلأ الفضاء باجنحة الملائكة مثنىٰ وثلاث ورباع ورحل الشيخ الطوسي بعد عمر حافل بالعطاء وقد ناهز السادسة والسبعين.

أجل آن لهذا العبد الصالح والعالم العارف أن يلقىٰ محبوبه فلبىٰ دعوة الحق.

ووفقاً لوصيته اجريت مراسم الدفن في منزله الذي سرعان ما استحال الى مسجد كبير ومدرسة لعلوم أهل البيت وما يزال حتى الآن شاهداً على عظمة

---

(١) الفية الشيخ الطوسي الدواني، ٢٣.

ومجد ذلك الرجل العظيم..

وان الذين يذهبون لزيارة مرقد بطل الاسلام الخالد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لابد وأن يلفت نظرهم مسجد الطوسي الواقع في شمال البقعة المباركة لحرم أمير المؤمنين عليه السلام، ان مسجد الطوسي اليوم معلم بارز من معالم هذه المدينة المقدسة مدينة النجف الأشرف[١].

(١) مقدمة تفسير التبيان ١.

العلّامة الطبرسي /المتوفى سنة ٥٤٨ هـ

العلّامة الكبير أمين الاسلام والدين، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي كان نادرة زمانه وكان امام المفسرين في عصره وبالرغم من المامه بحقول علمية عديدة ولكن شهرته في التفسير غطت على جميع جوانب شخصيته العلمية وفيها قبس من حياته وسيرته العلمية على مدى عمر بلغ التاسعة والسبعين أو الثمانين.

ميلاده

ولد الطبرسي في سنة ٤٦٨ أو ٤٦٩ هـ[١] وقد سماه أبوه «الفضل»[٢] وأصل ومنشأ الفضل بن الحسن في مدينة «تفرس» بين مدينتي ساوة و «قم» في ايران ولهذا اشتهر بالطبرسي[٣] بالرغم من عدم توفّر الأدلّة التي تؤيد أو تعزز ولادته أو نشأته في تلك الديار وفي مقابل هذا الاتجاه يشير بعضهم الى أن الطبرسي من أهل طبرستان وهو الاقليم الذي يعرف اليوم بـ«مازندران» في شمال ايران[٤] الاّ ان وجود ادلّة تؤكد أن تفرش هي طبرس تدحض مزاعم من يقول انه من طبرستان[٥] فالبيهقي (المعروف بابن فندق) كان من معاصري الطبرسي[٦] وقد

---

(١) الطبرسي ومجمع البيان، حسين كريمان ١ / ٢٠٧.

(٢) مجالس المؤمنين الشوشتري، ٢٠٢، أمل الآمل، العاملي ٢ / ٢١٦.

(٣) تاريخ بيهق، ابو الحسن علي بن زيد البيهقي، ٢٤٢.

(٤) رياض العلماء، الميرزا عبد الله الأفندي ٤ / ٣٥٧، أعيان الشيعة، محسن أمين العاملي ٨ / ٣٩٨.

(٥) راجع تاريخ البيهقي، تعليقات أحمد بهمنيار، ٣٥٣؛ الطبرسي ومجمع البيان ١ / ١٧٢.

اشار الى أن طبرس تقع بين قاشان (كاشان) واصفهان وأن أصله (الطبرسي) يعود الى هناك[٧].

في أكد كل بن اليعقوبي[٨] والعلّامة المجلسي[٩] على ان طبرس انما هي تعريب لـ«تفرش» وهي احدىٰ ضواحي قم وكانت تابعة لها ادارياً ثم عدّت من توابع المحافظة المركزية حالياً، وقد اعتنق أهلها الاسلام بسبب قربها الجغرافي من مدينة قم[١٠].

دراسته

امضىٰ الفضل بن الحسن الطبرسي فترة صباه ودراسته في مدينة مشهد المقدسة الى جوار المرقد الطاهر للامام علي بن موسى الرضاؑ الامام الثامن من أئمة أهل البيتؑ حيث تعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم ثم بدأ في دراسة العلوم الدينية التي تشتمل على دراسة العربية والتفسير، والحديث والفقه والاصول، والكلام وقد عرف الطبرسي بجدّه واجتهاده وبلغ من تبحره أن أصبح له رأيي في كثير من العلوم، كما اتجه الى دراسة الرياضيات، والجبر والمقابلة بالرغم من عدم رواجها يومذاك[١١] واساتذة امين الدين الطبرسي[١٢] كان لهم دور كبير في حقل شخصيته العلمية والأخلاقية وفي طليعة من تتلمذ الطبرسي

---

(٦) دون تاريخ البيهقي في سنة ٥٦٥ هـ

(٧) تاريخ بيهق، ٤٤٢.

(٨) البلدان، أحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي / ٣٨.

(٩) روضات الجنات، الخوانساري ١ / ٦٤.

(١٠) نزهة القلوب، حمدالله المستوفي، ٦٨.

(١١) تاريخ بيهق، ٢٤٢.

(١٢) من ألقاب الطبرسي أمين الدين وأمين الاسلام.

على أيديهم: «ابو علي الطوسي» نجل الشيخ الطوسي، جعفر بن محمد الدوريستي، عبد الجبار المقري النيسابوري، الامام موفق الدين حسين الواعظ البكر آبادي الجرجاني، السيد محمد القصبي الجرجاني، عبد الله القشيري، ابو الحسن عبيد الله بن محمد البيهقي، السيد مهدي الحسيني القايني، شمس الاسلام حسن بن بابويه القمي الرازي موفق عارف النوقاني وتاج القراء الكرماني[١].

في رحاب الشعر

نظم الطبرسي الشعر في أيام شبابه وتمتاز أشعاره بمضمون رفيع وكانت له قصائد في مديح أهل البيت عليهم السلام ما يؤكد اخلاصه وحبّه وولائه لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وهذا نموذج من شعره:

اطيّب يومي بذكراكم ... واسعد يومي برؤياكم
لئن غبتم عن مغانيكم ... فان فؤادي مغناكم
فلا بأس ان ريب دهري أي ... بما لا يسرّ رعاياكم
فنصر من الله يأتيكم ... وفضل من الله يغشاكم
وعقد ولائي لكم شاهد ... بأني فتاكم ومولاكم
لكم في جدودكم اسوة ... اذا ساءكم عيش دنياكم
وكم مثلها أخرجت عنكم ... وحطّ بها من خطاياكم
كما صفّي التبر في كورة ... كذلكم الله صفّاكم[٢]

---

(١) رياض العلماء ٤ / ٣٥٧؛ مستدرك الوسائل، النوري ٣ / ٤٨٧؛ الطبرسي، ومجمع البيان ١ / ٣٠٠ مفاخر الاسلام، الدواني ٣ / ٤١٢.

(٢) انباه الرواة، علي بن يوسف القفطي ٣ / ٧.

هجرته

كان أمين الاسلام الطبرسي في الرابعة والخمسين من عمره عندما غادر مدينة مشهد متوجهاً صوب «سبزوار» وكانت في طليعة المدن الخراسانية يومذاك، وقد جاءت هجرته تلك استجابة لدعوة من أعيان تلك المدينة وبسبب الامكانات الكبيرة التي تتوافر عليها خاصّة في المجال التدريسي ونشر الدين في سنة (٥٢٣ هـ) شدّ الطبرسي الرحال الى سبزوار، وقد حلّ ضيفاً عزيزاً عند «آل زبارة» والطبرسي يربطه بهم سبب فهم من اسرته وأقاربه ولهذا ولما تمتع به الطبرسي من منزلة علمية فقد قام آل زبارة بتهيئة الظروف المساعدة على اقامته في هذه المدينة العريقة[١].

وكان أول ما فعله الطبرسي تسنّمه رئاسة «مدرسة بوابة العراق»[٢] والتي شهدت توسعة ونمواً لتصبح حوزة علمية ومركزاً ثقافياً كبيراً.

وأصبحت سبزوار بعد هجرة الطبرسي اليها نقطة اجتذاب لعشاق العلم والمعرفة من يقصدونها حتىٰ من الأماكن النائية وقد نبغ من تلامذته الكثيرون في طليعتهم نجله رضي الدين حسن الطبرسي، قطب الدين الراوندي، محمد بن علي بن شهر آشوب، ضياء الدين فضل الله الحسني الراوندي، الشيخ منتجب الدين القمي، شاذان بن جبرئيل القمي، عبد الله بن جعفر الدوريستي، السيد شرف شاه الحسيني الأفطسي النيسابوري وبرهان الدين القزويني الهمداني[٣].

---

(١) تاريخ بيهق، ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) رياض العلماء ٤ / ٣٤١ – ٣٤٢؛ مقابس الأنوار، التستري، ١٤، روضات الجنات ٥ / ٣٥٧؛ الطبرسي ومجمع البيان ١ / ٣١٣.

الآثار الخضراء

لأمين الدين الطبرسي آثار خالدة تشتمل على كنوز من العلم والمعرفة وتعكس بشكل واضح قدراته العلمية والفكرية وسعة معارفه وثقافته وهي كما يلي:

«الآداب الدينية للخزانة المعينية»، «اسرار الامامة»، «اعلام الورىٰ باعلام الهدى»، «تاج المواليد»، «جوامع الجامع»، «الجواهر (جواهر الجمل)»، «حقائق الأمور»، «عدة السفر وعمدة الحضر»، «العمدة في أصل الدين والفرائض النوافل»، «غنية العابد ومنية الزاهد»، «الفائق»، «الكافي الشافي»، «كنوز النجاح»، «مجمع البيان»، «مشكاة الأنوار في الأخبار»، «معارج السؤال»، «المؤتلف من المختلف بين أئمة السلف»، «نثر اللآلي»، «النور المبين» و «رواية صحيفة الرضا عليه السلام»[1].

امام المفسرين

شغل كتاب الله عز وجل القرآن الكريم حيزاً هاماً في ذهن الطبرسي مذ كان شاباً في مقتبل العمر وقد اندمجت روحه بآيات القرآن المجيد معجزة الله الكبرى مرّ العصور ولذا كان طليعة اهتماماته أن يقوم بتفسير القرآن وقد سعىٰ جاهداً وهو يتقدم في حياته ودراسته أن يستثمر طاقته في هذا المضمار وعندما تجاوز الطبرسي الستين كان قد انجاز ثلاث مصنفات تفسيرية خالدة وكل مؤلف اسلوبه

---

(١) معالم العلماء، ابن شهر آشوب، ٣١٥؛ أمل الآمل ٢ / ٢١٦؛ بحار الأنوار ١ / ٣٠؛ كشف الظنون، حاجي خليفة ٢ / ١٦٠؛ ايضاح المكنون اسماعيل باشا البغدادي ٢ / ٤٢٣؛ الذريعة، الطهراني ٢ / ٤٢؛ منتهى المقال ابو علي الحائري، ٢٤١؛ معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ٨ / ٦٦؛ طبقات اعلام الشيعة (القرن السادس) الطهراني، ٢١٧؛ روضات الجنات ٥ / ٣٦١.

الخاص به.

وما تزال آثاره في التفسير ومنهجه في ذلك ينبض بالحياة، فمنهجه الذي اعتمده في فهم كتاب الله يمتاز بالدقة والعمق، ولا غرو في ذلك فلقد كان ملهماً في جهده بعد أن قضىٰ نصف قرن وهو يتسرّب ثقافة أهل البيت عليهم السلام وفيما يلي اشارة الى آثاره التفسيرية:

أ - مجمع البيان طليعة التفاسير

وقد أشار في مقدمته الى انه شمّر عن ساعديه وبجد واجتهاد وهمّة ونشاط وهو يمضي قدماً في جهده المغني هذا داعياً من الله عز وجل أن يوفقه في ترتيب تفسير يجمع بين الفائدة العلمية والاختصار واخراجه على نحو أجمل من خلال اثراء موضوعاته..

فتجد القراءة، والاعراب واللغة وشرح بعض الغوامض والمشكلات وأسباب النزول والأخبار والبحوث الروائية والقصص والتاريخ والحدود والاحكام في الحلال والحرام؛ معززاً كل ذلك بالادلّة والحجج والبراهين بعيداً في نفس الوقت عن الأطناب والاستطراد ملتفتاً الى ان افكار عصره لا تحتمل التثقيل في ذلك ما يجعلها عاجزة في ميادين السباق الكبرىٰ، إذ لم يبق من العلماء الاّ أسماء ومن العلوم سوىٰ الرمق[1].

جدير ذكره ان تفسيره وإن جاء متأخراً من الزمنية وبعد أن ناهز أو قارب الستين من عمره ولكن فكرة التفسير كانت في ذهنه منذ شبابه وقد بدأ عمله التفسيري بعد هجرته الى سبزوار حيث قام صديقه الحميم محمد بن يحيىٰ (وهو من سادات آل زبارة والشخصيات البارزة) بتشجيعه على ذلك هذان العاملان

(١) مجمع البيان، الطبرسي ١ / ١٠.

وهما تحقيق هدف كان قد راوده في شبابه وتشجيع ابن يحيىٰ كان وراء ظـهور تفسير غير ان بعض المؤرخين يضيف عاملاً ثالثاً أسهم في دفع الطبرسي الى انجاز عمله التفسيري الضخم وكان لذلك حكاية:

أصيب الطبرسي بالسكتة أو الجلطة الدماغية وظن أهله انه قد مات فاجريت عليه مراسم الغسل والكفن والدفن وشاء أن يفيق ليجد نفسه في القبر لا يستطيع الحراك فضلاً عن الخروج من القبر، وخطرت في باله فكرة النذر فنذر لله ان هو نجّاه أن يؤلف كتاباً في تفسير كتاب الله القرآن الكريم، فلما إن مضىٰ والوقت وقد جنّ الليل إذا به يسمع صوت وقد كان ذلك لنباش ينبش القبور ويسرق أكـفان الموتىٰ وقد جاء يسرق كفن الطبرسي، فلما حفر القبر ووصل الى الرجل المسجىٰ الميت أخذ بفتح الكفن فأمسك الطبرسي بيده وارتاع النباش وارتجف جسمه فلما كلمه الطبرسي زاد رعبه فهدأ الطبرسي من روعه وحكىٰ له ما جرىٰ عليه، فهدأ من روع الرجل النباش الذي بادر الى اخراج الطبرسي من قبره ليحمله الى منزله. وهناك أهدىٰ الطبرسي كفنه ومبالغ من المال الى الرجل النباش، وقـد هـزّ ذلك الحادث كيان الرجل الذي تاب الى الله وأناب. أما الطبرسي فقد كرر الوفاء بنذره فكتب تفسير مجمع البيان(١).

وقد استغرق الطبرسي في تفسيره سبع سنين مقتبساً من تفسير التبيان للشيخ الطوسي، لكنه اعتمد منهجه في تفكيك الموضوعات القرآنية المختلفة وصبت كل منها في قالب منظم، ولهذا سنجد علماء من الشيعة والسنّة يرجحون هذا التفسير

---

(١) رياض العلماء ٢ / ٣٥٨؛ روضات الجنات ٥ / ٣٦٢؛ مستدرك الوسائل ٣ / ٤٨٧، جدير ذكره ان نموذج مشابه لهذه الحكاية نسب الى فتح الله الكاشاني مؤلف تفسير منهج الصادقين (المتوفىٰ سنة ٩٨٨ ها) راجع روضات الجنات ٥ / ٣٦٢.

على غيره مستحسنين منهج الطبرسي في تفسيره[١].

ويقع «مجمع البيان في تفسير القرآن» في عشرة مجلدات مخطوطة وطبع في خمسة مجلدات. وتتصدر التفسير مقدمة مفيدة وموضوعات في سبعة حقول من قبيل عدد الآيات وثمار التعرّف عليها والانس بها مع ذكر لاسماء القرّاء المشهورين وآرائهم، تعريف التفسير، التأويل ومعناه، اسماء القرآن ودلالاتها ومعانيها، الى جانب من علوم والقضايا المرتبطة بها والكتب المؤلفة في ذلك والأحاديث المشهورة حول فضل القرآن وأهله وبيان ما يستحسن للقارئ (من تجويد الصوت واخراج الألفاظ).

وفيما يتعلق ببعض الموارد من استطراد في شرح معنىٰ الآيات. وبيان معناها في توضيحات اضافية فان الطبرسي يورد ذلك تحت عنوان: «فصل» حيث يثبت مفهوماً للحديث عنه من قبل التقوىٰ، خصوصية الهدايا والهدىٰ، التوبة وشروطها، الاخلاص، اسم محمدﷺ، وفي النهاية خلاصة لبعض المواعظ والحكم للقمان الحكيم وهذه نماذج لبعض عناوين الفصول.

وكذا نرىٰ وللاحاديث والروايات حضوراً متميزاً في هذا التفسير حيث يناهز عددها أكثر من ألف وثلاثمئة حديث ورواية.

ب - الكافي الشافي، منتخب من الكشاف

وبعد انهاء الطبرسي تفسيره مجمع البيان والذي عرف بالتفسير الكبير سوف يصادف الطبرسي تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري حيث يتولد في نفسه اعجاب لهذا التفسير من خلال ما اشتمل عليه من جذابية وجمال العرض فقرر تلخيصه منتخباً ما ورد فيه من معاني أخاذة وبديعة ليختصر الكشاف في مجلد

---

(١) الطبرسي ومجمع البيان ٢ / ٤٢ وقد استدل المؤلف على ذلك بمقارنة صفحات من تفسير الطبرسي مع غيره من التفاسير.

واحد سمّاه «الكافي الشافي»[١].

كما عرف لدىٰ مؤلفي التراجم بـ«الوجيز»[٢] وذلك بسبب حجمه ازاء «مجمع البيان» وتفسير الآخر الموسوم بـ«جوامع الجامع».

جـ - جوامع الجامع، التفسير الوسيط

ويأتي هذا الكتاب في المرتبة الثانية بعد مجمع البيان حيث الشهرة وقد استغرق العمل فيه عاماً تقريباً من شهر صفر لسنة (٥٤٢ هـ) الى محرم الحرام سنة (٥٤٣ هـ) وقد جاء تأليفه بعد انجاز التفسيرين السابقين[٣].

وفي هذا التفسير شذرات من منهج المفسر وقد اعتمد اسلوب انتخاب الموضوعات الهامة وبعض النقاط اللطيفة في التفسيرين السابقين وفي هذا التفسير نرىٰ تأثره بمنهج الكشاف للزمخشري ما سجّل امتيازاً له مقارنة مع مجمع البيان[٤] وقد أطلق على تفسير هذا نظراً لحجمه بالنسبة لمجمع البيان؛ اسم «الوسيط» فمجمع البيان هو التفسير الكبير والكافي الشافي هو الوجيز فيما سيشغل جوامع الجامع مرتبة الوسط وحمل بذلك اسم «الوسيط»[٥].

وقد اقتبست معظم مواضيعه من الكشاف للزمخشري كما نقل جزءاً من المواضيع في مجمع البيان. ولهذا التفسير قياساً مع الكشاف بعضرما يمتاز به من قبيل الاختصار وحذف الموضوعات الزائدة وغير الضرورية وربما وافقت الروايات الشيعية التي ينقلها تفسير الكشاف ولكن في أحيان كثيرة تصطدم بها

---

(١) جوامع الجامع (تنقيح ابو القاسم الكرجي)؛ أمين الاسلام الطبرسي ١ / ٢.

(٢) منتهىٰ المقال، ٢٤؛ أمل الآمل ٢ / ٢١٦؛ نقد الرجال، السيد مصطفىٰ التفرشي، ٢٦٦.

(٣) الذريعة ٥ / ٢٤٨؛ المستدرك على معجم المؤلفين عمر رضا كحالة، ٥٤٥.

(٤) الطبرسي ومجمع البيان ١ / ٢٨٠.

(٥) جوامع الجامع (تنقيح ابو القاسم الكرجي) ١ / ٣، وقد اشار البعض الى جوامع الجامع باسم الوسيط، راجع بحار الأنوار ١٠٢ / ٢٦؛ نقد الرجال، ٢٦٦.

وهنا يقوم الطبرسي ببيان متكلمي الشيعة الامامية التي تختلف مع آراء المعتزلة أو التي تتعارض كما يرىٰ الطبرسي مع آراء الكشاف فيطرح الأخيرة جانباً[١].

على ذرىٰ الفقاهة

ان علم الفقه هو استخراج واستنباط الأحكام الشرعية من مضانّها كالكتاب، السنّة، الاجماع والعقل؛ وهو علم دقيق كانت للطبرسي آراؤه الفقهية، وقد اعتبر علماء كبار الطبرسي مجتهداً وفقيهاً كبيراً[٢].

ومن هنا ضمّن الطبرسي كتابيه التفسيرين الكبير والوسيط موضوعات فقهية خلال وجود أكثر من خمسمئة آية قرآنية مختصة بالاحكام العبادية والمعاملات.

فقال ابتداءً بنقل أقوال وآراء الفرق الاسلامية المختلفة ثم بيان وجهة نظر الشيعة وبعد ذلك يطرح رأيه بمثابة فتواه في هذه المسألة أو تلك.

وقد أيد كثير من فقهاء الشيعة الكبار آراء الطبرسي وفيما يلي اشارة الى طائفة منها:

اعتبار جميع الذنوب جميعاً من الكبائر[٣] المعنى الشرعي للتيمم[٤] استحباب الاستعاذة في الصلاة وغيرها[٥] أركان وواجبات الحج والعمرة[٦] الحكم بين رأيين متعارضين[٧] الخمس[٨] القبض في الرهن[٩] دين

(١) جوامع الجامع (تنقيح ابو القاسم الكرجي) مقدمة التنقيح، ١٩.
(٢) روضات الجنات ٥ / ٣٥٧؛ مجالس المؤمنين ١ / ٤٩٠.
(٣) مسالك الافهام، الشهيد الثاني ٢ / ٣٢١؛ الحدائق الناظرة، البحراني ١٠ / ٥١.
(٤) الحدائق الناظرة ٤ / ٢٤٤.
(٥) المصدر السابق ٨ / ١٦.
(٦) المصدر نفسه ١٦ / ١٥٧ و ١٧ / ٨ و ٥٩ و ٢٧٧ و ٢٩٢ و ٣٠٤.
(٧) جواهر الكلام، محمد حسن النجفي ٤٠ / ٤٢٢.
(٨) كتاب الخمس، الشيخ مرتضىٰ الأنصاري، ٧٤ و ٢٩٧.
(٩) الحدائق الناظرة ٢٠ / ٢٢٤.

المفلس[١] حكم الديون في حالة موت المدين[٢] الشفعة[٣] حكم الربا[٤] عدم أخذ الجزية من الصابئين[٥] حكم الوقف على الكافر[٦] جواز الوصية على الذمية[٧] الصيد وذبحه[٨] الرضاع[٩] الخلع والمباراة[١٠] المراد من خوف الشقاق[١١].

مرآة الوحدة

إن النزاعات والاختلافات والصراعات المذهبية كانت واحدة من مشكلات عصر الشيخ الطوسي، وما ساعد على تجذر الروح الطائفية والمذهبية هو دعم الحكام السلاجقة الأتراك لمذهب معين ضد آخر وكان اضطهادهم للشيعة الامامية أن اتخذت الفرق والمذاهب الاسلامية مواقف عدائية للشيعة من دون النظر الى الاصول المشتركة للجميع واحترام آصرة الأخوة الاسلامية. وهذا ما زاد في حدّة الجدل والصراع المذهبي.

وقد وصل الشيعة ذروة نفوذهم السياسي في عهد آل بويه ولكن العهد

(١) جواهر الكلام ٢٥ / ٣٢١ و ٣٢٢.
(٢) الحدائق الناظرة ٢٠ / ١٦٤.
(٣) مسالك الافهام ٢ / ٢٢٦.
(٤) جواهر الكلام ٢٣ / ٢٩٨.
(٥) الحدائق الناظرة ٢٤ / ٢٣.
(٦) المصدر السابق ٢٢ / ١٩٣ و ١٩٥.
(٧) المصدر نفسه، ٥٢٣.
(٨) جواهر الكلام، ٣٦ / ١٤٢.
(٩) ضوابط الرضاع، المحقق داماد، ٣٠؛ شرح اللمعة، الشهيد الثاني ٥ / ١٦٥؛ كتاب النكاح؛ الشيخ الأنصاري ٣٢١، ٣٣٩.
(١٠) الحدائق الناظرة ٢٦ / ٥٧٩ و ٦٠٥.
(١١) المصدر السابق ٢٤ / ٦٢٥.

الغزنوي ومن ثم حكومة السلاجقة كان فترة مظلمة عن الشيعة الامامية[١].

ومع بروز هذه المصاعب والتحديات فان علماء الشيعة في ايران لم يتوقفوا في مسار التنمية الفكرية والثقافية، وفي السنوات الأخيرة من حكومة «ملكشاه» نفذت بعض الشخصيات الشيعية اجهزة الحكم السلجوقي وبعد عزل الخواجه نظام الملك واسناد الوزارة الى شخصية شيعية هي مجد الملك ابي الفضل القمي عاد النفوذ الشيعي السياسي مرّة أخرىٰ[٢].

لقد كان الطابع العام لعصر الطبرسي هو طابع الصراع المذهبي والنزاعات الفكرية الشديدة وربما أدّت بعض حلقات ذلك الصراع المرير الى اراقة الدماء فقد احتدم النزاع بين أئمة المذهب الحفي والشافعي حول مسألة الجبر والاختيار أو أفضلية المذهب الأشعري والمعتزلي، كما انفجرت الفتن الطائفية بين السنة والشيعة الامامية حول مسائل عديدة وانفجرت الصراعات مع الباطنيين وعقد جلسات وضبطت محاضر وسجلت تعهدات حول ترك عقيدة ما وتبني غيرها ونفي كثيرون أو قتلوا أو اعتقلوا وكان لابد من تفكير اصلاحي يوقف هذا التشرذم داخل الامة الاسلامية وكيف يتأتىٰ الاصلاح. هل يكون ذلك بالانزواء أم بالانجاز وراء الصراع المحتدم؟

ولقد أدرك الشيخ الطبرسي مكامن هذا المرض الخطير الذي يتهدد الوحدة الاسلامية بالفناء وقد انتهج الطبرسي طريقاً فريداً في التركيز على نقاط الاتفاق التي يشترك بها الجميع تاركاً للزمن حل الكثير من المشكلات بين أبناء الدين

---

(١) سياستنامه، الخواجه نظام الملك الطوسي / ٢١٥.

(٢) تاريخ الآداب في ايران، ذبيح الله الصفا ٢ / ١٨٦.

الواحد ولهذا نرى الطبرسي يحترم جميع آراء مخالفيه وكان قلمه نزيهاً وهو يتحرك في دنيا الثقافة والعلم والأفكار. وهذا ما يشاهد بوضوح في تفسيره الكبير «مجمع البيان» ففي هذا التفسير الكبير والسفر الجليل يجد القارىء والباحث آراء مخالفيه وآراءه على حد سواء ولكن الآراء التي ينقلها عن اخوانه في الدين هي آراء يشترك بها الجميع وهذا ما يعزز من نقاط الألفة بين المسلمين ويقلل من نقاط الاختلاف.

إن ثقافة الطعن والنقض والهجوم على ثقافة الآخر لا وجود لها في مؤلفات الطبرسي التي اتسمت بالاتزان والاعتدال ولهذا تألق اسمه في آثار الفريقين.

وقد اشار الى هذه النقطة في منهج الطبرسي العلّامة السيد محسن الأمين العاملي الذي أكبر في الشيخ الراحل روحه الكبيرة وتساميه عن السفاسف واسلوبه المهذب في عرض الأفكار كما أشار الى اجلاله للعلماء من أهل السنة مستشهداً باكباره لصاحب الكشاف الزمخشري[1].

كما نرىٰ شيخ الأزهر العالم الراحل الشيخ محمود شلتوت يشيد بالطبرسي بالتحرر من التعصب الطائفي انه يقدس العلم ويبحث عن الحق اينما كان ولهذا أفاد من آراء علماء يخالفونه مذهبياً كالزمخشري ليدمجها مع آراء جديدة تاركاً التعصب جانباً[2].

(١) أعيان الشيعة ٨ / ٣٩٨.

(٢) مجلة مشكاة العدد ٣٠ / ١٣ – ٢٥ نقلاً عن مجلة رسالة الاسلام ٣٤ السنة العاشرة.

غروب في عرفات

وبعد أن طوىٰ الطبرسي عن عمره تسعاً وسبعين أو ثمانين سنة آن لهذه الروح أن تعرج الى السماء وكان ذلك في التاسع من ذي الحجة الحرام عام (٥٥٨ ﻫ) في ليلة عيد الأضحىٰ في مدينة سبزوار ولبّىٰ الشيخ الوقور نداء الحق لترتدي سبزوار[١] خلة الحداد ويصفه بعضهم بالشهيد[٢] فقد رأىٰ بعضهم بانه قد دس السم في طعامه فيما يرى البعض الآخر انه قتل في ابان الفتنة التي اشعلتها قبائل «غز» التركمانية[٣] إذ لا يستبعد تصفيته في احدىٰ غاراتها الوحشية على مدن خراسان[٤].

نقل جثمان ذلك العالم الكبير الى مدينة مشهد ليوارى الثرى قرب مرقد الامام الثامن من أئمة أهل البيت عليهم السلام الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث يقع مرقده الآن في بداية شارع الطبرسي في مكان يدعىٰ مقبرة المقتل[٥].

وفي عام ١٩٩٠ م ادخل مرقد الطبرسي ضمن جنة الرضوان وذلك ضمن مشروع توسعة الحرم الرضوي المقدس[٦].

---

(١) تاريخ بيهق، ٢٤٢؛ ريحانة الأدب / ٢١؛ أمل الآمل ٢ / ٢١٦.

(٢) رياض العلماء ٤ / ٣٤٠؛ روضات الجنات ٥ / ٣٥٧.

(٣) قبائل التركمان الرحل التي كانت تقطن بلخ ونواحي ختلان في شرق خراسان وقد اصطدمت مع جيش السلطان سنجر الذي أبيد على ايديها لتبدأ هذه القبائل غارات القتل والنهب في جميع المدن الخراسانية كما واضرمت هذه القبائل في غاراتها النار في عديد من المكتبات وهدمت الكثير من المساجد وقتلت العشرات من علماء الدين. راجع تاريخ الكامل لابن الأثير ٧ / ٩٩ - ١٠١؛ راحة الصدور محمد بن سليمان الراوندي ١٦٧ - ١٨٣.

(٤) مجلة عقيدة الاسلام العدد ١٠ السنة الأولى، ٦٧.

(٥) تاريخ بيهق، ٢٤٢؛ رياض العلماء ٤ / ٣٤٥. والمقتل (قتلگاه) هو المكان الذي تم فيه اغتيال وتصفية الامام الرضا على يد المأمون بعد قرار عودة الأخير الى بغداد عائداً من «مرو» في أقصىٰ شرق خراسان وكان هذا المكان في أصله بستان كبير للقائد العباسي محمد بن قحطبة ومساحته أربعة كيلومترات مربعة. راجع مراقد المعارف محمد حرز الدين ١ / ٤١٥؛ تاريخ آستان رضوي عزيز الله العطاردي ١ / ٢٦٠.

(٦) جريدة جمهوري اسلامي العدد ٣٦٦٠ / ٤.

ابناه

ونختتم الحديث عن الطبرسي بالاشارة الى ابنيه:

١ - ابو النصر الحسن بن الفضل بن الحسن الطبرسي، وهو رجل فاضل كان محدثاً وفقيهاً وهو الذي طلب من أبيه تأليف تفسير في القرآن الكريم فكان جامع الجوامع ولابي السفر كتاب في الأخلاق موسوم بـ«مكارم الأخلاق»(١).

٢ - علي بن الفضل الطبرسي: ولا تتوفر أية معلومات عنه.

(١) الذريعة ٢٢ / ١٤٦.

قطب الدين الراوندي /المتوفىٰ سنة ٥٧٣

ايران في عصر الراوندي

شهد المقرن السادس الهجري صعود اسرتين حاكمتين ايرانيتين، السلاجقة الذين حكموا بغداد بقوّة من سنة (٤٢٩ هـ) وحتى سنة (٥٥٣ هـ) وكان لهم نفوذهم المطلق في ايران والذين تمكنوا من الحاق هزيمة بالروم البيزنطيين وضم أراض جديدة الى الدولة الاسلامية آنذاك.

أما الاسرة الثانية فهي الخوارزميين الذين قاموا ضد السلاجقة وتمكنوا من الانفراد بحكم ايران.

وفي عهد السلاجقة هذا تنامىٰ تيار أهل السنة على حساب الاتجاه العقلي في التفكير حيث شهدت تلك الفترة احراق عشرات بل مئات الكتب العقلية والفلسفية.

كانت الزعامات السلجوقية تناهض التفكير العقلي وبخاصّة الوزير المعروف «الخواجة نظام الملك» الذي كان سنّياً متعصباً والذي تزعم الهجوم على الاتجاه العقلي[١].

وبالرغم من كل ذلك اضافة الى بدء الحروب الصليبية التي شنها العالم المسيحي والغارة على العالم الاسلامي ونهب تراثه الفكري والعلمي فان القرن

(١) تاريخ العلم في ايران، مهدي فرشاد، ١ / ٩٠؛ تاريخ مفصل ايران من صدر الاسلام وحتىٰ زوال القاجار، عباس اقبال الآشتياني ٣٠٣ - ٣٠٧.

السادس يجب أن يعرّف باعتباره قرن العلم والمعرفة؛ اذ ظهر في تلك الفترة العاصفة من تاريخ الاسلام علماء ومفكرون قدموا خدمات ثقافية كبرىٰ[١] ومن بين اولئك الأفذاذ العالم الكبير والفقيه المحدث الشهير «سعيد بن هبة الله الراوندي» المعروف بـ«القطب الراوندي» الذي سنتحدث عنه.

ولادته وأسرته

كانت «راوند» في ذلك العصر قرية صغيرة من قرىٰ مدينة كاشان هذه القرية التي أنجبت بالرغم من صغرها علماء عديدين بحيث أحصى صاحب الذريعة منهم عشرة علماء ينتمون الى القرن السادس الهجري فقط[٢].

وكان القطب الراوندي من تلك الديار ومن ذلك الزمان بالرغم من عدم توفر معلومات عن أسرته الاّ ان ما توفر يؤكد ان أباه وجده كان عالمين[٣] هذا ولا تتوفر معلومات عن فترة طفولته ونشأته.

دراسته

درس الراوندي على يد اساتذة كان من بينهم والده وكانت ثقافة عصره قد امتلأت بأفكار عظماء عباقرة في طليعتهم الشيخ الصدوق، الشريف المرتضىٰ، الشريف الرضي، الشيخ الطوسي وغيرهم من أولئك الأفذاذ الذين اثروا الفكر والثقافة الاسلامية.

وتشير بعض المدونات العلمية الى ان القطب الراوندي كان يروي عن علماء

---

(١) تاريخ الآداب في ايران، د. ذبيح الله الصفا ٢ / ٣٢٠ - ٣٣١.

(٢) الثقات العيون في سادس القرون، آقا بزرك الطهراني، ١٠٣.

(٣) المصدر السابق، ١٢٤؛ أمل الآمل ٢ / ١٢٥؛ أعيان الشيعة ٧ / ٢٦٠.

الشيعة الأفذاذ في مدن: اصفهان، خراسان وهمدان[1] وهذا ما يشير في نفس الوقت الى اسفاره الى عديد من المدن والحواضر الاسلامية وهي أسفار كانت ولاشك لها طابع علمي على وجه التحديد. كما ان وجود ضريحه الطاهر في مدينة قم المقدسة يؤكد ذلك ويؤكد أيضاً أنه كان قد درس فترة من الزمن في هذه المدينة وتلقىٰ العلوم من اساتذتها وهم كما يلي:

١ - ابو جعفر محمد بن علي بن محسن الحلبي: الذي عاصر الشيخ الطوسي وروىٰ عنه والقطب الراوندي نقل عن الطوسي بواسطته.

٢ - ابو الحسن محمد بن علي بن عبد الصمد التميمي النيسابوري: وهو من تلامذة نجل الشيخ الطوسي.

٣ - السيد ابو البركات محمد بن اسماعيل المشهدي: وكان من تلامذة الشيخ الطوسي وكان من بين تلامذته أيضاً غير القطب الراوندي منتجب الدين (صاحب كتاب الفهرست) والامام ضياء الدين.

٤ - صفي الدين مرتضىٰ بن الداعي بن القاسم: وهو من تلامذة الشيخ الطوسي ومؤلف كتاب تبصرة العوام.

٥ - شيخ السادة مجتبىٰ بن الداعي بن القاسم وهو كأخيه محدث وقد روىٰ القطب عنه كما نقل عن شقيقه.

٦ - ابو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الشيباني.

٧ - ابو جعفر محمد بن المرزبان وهو من تلامذة الشيخ المفيد وقد روىٰ عنه القطب في كتابه قصص الأنبياء.

٨ - هبة الله بن دعويدار ويعد من تلامذة الشيخ الصدوق.

---

(١) رياض العلماء، الميرزا عبد الله الافندي ٢ / ٤٢٥.

٩ – أبو جعفر بن كميح.
١٠ – أبو نصر الغاري.
١١ – ابو صمصام أحمد بن سعيد الطوسي.
١٢ – ابو الحسين أحمد بن محمد بن علي المرشكي.
١٣ – ابو سعيد حسن بن علي اللارآبادي.
١٤ – ابو القاسم حسن بن محمد الحديقي.
١٥ – ابو صمصام ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسيني[١].

الاستاذ الكبير

كان أمين الاسلام المعروف بـ«الطبرسي» من كبار علماء ومفسري القرن السادس الهجري وكان «مجمع البيان» من أبرز كتب التفسير في ذلك العمل وما يزال.

هذا الكتاب والسفر الجليل يعد من أروع ما انتجه الطبرسي وما صدر في تلك الفترة من انتاج معرفي. من هنا يمكن أن يسجل للقطب امتياز انه كان من تلامذة ذلك العظيم[٢] لقد تأثر التلميذ الفذ باستاذه العبقري أيما تأثر ليس على الصعيد العلمي (وحتىٰ على الصعيد الأخلاقي أيضاً)[٣].

تلامذته

لقد تألق القطب الراوندي وأصبح من شخصيات القرن السادس الهجري

---

(١) النقاب العيون في سادس القرون، ١٥ – ٣٣٣؛ رياض العلماء ٥ / ٦٢؛ الغدير ٥ / ٣٨١.
(٢) انظر مجموعة «لقاء مع الأبرار» وما كتبه محمد باقر پور أميني عن هذه الشخصية العلمية.
(٣) الغدير ٥ / ٣٨٠؛ روضات الجنات، الخوانساري ٤ / ٧.

العلمية وقصده طلاب المعرفة وعشاق العلم لينهلوا من فيض ما أوتي من العلوم وقد أوتي منها حظاً وفيراً. وأصبح الراوندي مركز اشعاع ثقافي تضيء الطريق لمن يأتي بعده ويخلفه في تحمل الأمانة والمسؤولية.

لقد كان الرجل جامعة اسلامية تخرج فيها العديد من العلماء الذين غرفوا من بحر علمه ونقلوا عنه الرواية والحديث وهذه اسماء بعضهم:

١ – أحمد بن علي بن عبد الجبار الطبرسي: وقد تعلم منه القضاء وروىٰ عنه أيضاً.

٢ – حسين بن سعيد بن هبة الله: وهو نجله وكان يدعو والده بالشهيد.

٣ – علي بن عبد الجبار بن محمد: وهو من الفقهاء البارزين.

٤ – علي بن محمد المدائني.

٥ – محمد بن الحسن البغدادي.

٦ – محمد بن سعيد بن هبة الله، وهو نجله الآخر أيضاً[١].

وكان محمد بن علي المعروف بـ«ابن شهر آشوب» من أبرز تلامذة الراوندي حيث يشير الى ذلك في كتابه «معالم العلماء» وقد سجل اسماء بعض كتب استاذه الراوندي[٢].

آثاره ومؤلفاته

وعىٰ قطب الدين الراوندي مشكلات عصره كما وعىٰ أيضاً دوره في الحياة وكان يدرك جيداً ان الفكر الصحيح هو أساس التغيرات الاجتماعية من أجل شمّر

---

(١) الثقات العيون في سادس القرون، ١٣ – ٢٥٤.

(٢) انظر مجموعة «لقاء مع الأبرار» وما كتبه السيد محمد رحيم بيك محمدي؛ معالم العلماء لابن شهر آشوب، ٥٥

عن ساعديه ليسهم في بناء الفكر والثقافة في عصره وكان له باع في كـثير مـن الحقول العلمية والمعرفية وفيما يلي نُبذة من نتاجه المعرفي والفكري في العديد من الميادين.

أ - علم التفسير:

ان تفسير القرآن الكريم ومحاولة فهم معانيه ودلالاته أمر في غاية الأهمية لما لكتاب الله من دور عظيم في بناء الانسان والمجتمع والأمة.

وكان علي بن ابراهيم القمي والشيخ الطوسي والعلّامة الطبرسي ممن دخلوا هذا الحقل العلمي الواسع وقدموا ما قدموا من انتاج خالد فكانوا رواداً في علم التفسير.

وكان قطب الدين استمراراً لهذه الحركة المباركة فصنف بعض التآليف في هذا الحقل منها:

١ - ام القرآن.

٢ - تفسير القرآن ويقع في مجلدين.

٣ - خلاصة التفاسير ويقع في عشرة مجلدات.

٤ - شرح الآيات المشكلة في التنزيه.

٥ - اللباب في فضل آية الكرسي.

٦ - الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم(١).

ب - نهج البلاغة:

اهتم الراوندي بكتاب نهج البلاغة وحاول سبر مكنوناته وما ينطوي عليه من كنوز معرفية وهذا ما أشار اليه ابن ابي الحديد معترضاً باسبقية الراونـدي عـليه

(١) الذريعة ٢ / ٣٠٣ و ٤ / ٣٠١ و ٧ / ٢٢٠ و ١٣ / ٦٥٦ و ١٨ / ٢٨٠ و ٢٤ / ١٤.

ليكون الثاني بعد سعيد بن هبة الله بن الحسين المعروف بقطب الدين الراوندي[١] وقد اعتمد ابن ابي الحديد كتاب الراوندي مرجعاً من مراجعه في شرحه المشهور باسمه.

جـ - الكلام والفلسفة:

ان جذور علم الكلام تعود الى القرون الأولىٰ من تاريخنا الديني وينقسم الكلام الى مجموعتين: الكلام العقلي والكلام النقلي حيث يندمج الفكر والعقيدة الاسلامية مع كلام الله. ولقد كان الراوندي في الطليعة ممن يدافع عن المذهب الامامي وهذا ما يتجلىٰ في آثاره ومصنفاته بطابعها الروائي. ولقد نهض الرجل في الدفاع عن عقائد الشيعة وفند شبهات عصره وواجه المشكّكين في حقانية المذهب وهذه طائفة من اسماء عناوين آثاره:

١ - «الخرايج والجرايح» وهو في الطليعة من آثاره وبه اشتهر الراوندي ويشتمل على بيان المسائل الكلامية والعقيدية ويضم سبعة كتب حول المعجزة وسيرة النبي ﷺ وحياته.

٢ - «أم المعجزات»: وهو في حقيقته تتمة لكتاب الخرايج والجرايح.

٣ - «الاختلافات»: واثبت فيه المسائل الخلافية في الكلام بين الشيخ المفيد والشريف المرتضىٰ واشتمل الكتاب على احصاء «٩٥» من مسائل الاختلاف.

٤ - تهافت الفلاسفة: ويعكس الكتاب العمق الفلسفي في شخصيته العلمية حيث تعرض فيه الى التناقضات التي وقع فيها الفلاسفة.

٥ - «جواهر الكلام في شرح مقدمة الكلام»: وهو شرح على كتاب «مقدمة الكلام» للشيخ الطوسي في علم الكلام[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد المعتزلي، ١ / ٥.

(٢) رياض العلماء ٢ / ٤٢٤ - ٤٢٥؛ الذريعة ٤ / ٥٠٢ و ٥ / ٢٧٧.

د - الفقه:

للراوندي ما يقارب العشرين مؤلفاً في علم الفقه وهذه طائفة منها:

١ - «آيات الأحكام»: والكتاب كما هو واضح في عنوانه يشتمل على آيات الأحكام وما يرتبط منها بالمسائل والقضايا الفقهية والأحكام الشرعية وقد تعرض لها الراوندي بالشرح والتوضيح.

٢ - إحكام الأحكام.

٣ - الانجاز: شرح على كتاب «الايجاز في الفرائض» للشيخ الطوسي.

٤ - حل المعقود في الجمل والعقود.

٥ - الشافية في الغسلة الثانية.

٦ - الخمس.

٧ - من حضره الأداء وعليه القضاء.

٨ - مشكلات النهاية.

٩ - المنتهىٰ في شرح النهاية: وهو شرح على «النهاية» للشيخ الطوسي ويقع في عشرة مجلدات.

١٠ - الرائع في الشرائع.

١١ - النيات في جميع العبادات.

١٢ - نهية النهابة.

١٣ - فقه القرآن: وهو أيضاً استعراض لما يشتمل عليه القرآن الكريم أحكام فقهية حيث قام بترتيبها ضمن أبواب ويقع الكتاب في مجلدين يشتملان على شروح لآيات الأحكام ودراسة نتائجها الفقهية[١].

---

(١) رياض العلماء ٢ / ٤٢٤؛ الذريعة ١ / ٤١ و ٢٩١؛ ٢ / ٢٦٤؛ ١٤ / ٥٢ و ١٦ / ٢٨١ و ٢٠ / ٣٩١ و ٢١ / ٦٦ و ٢٤ / ٤٣١.

الحديث

وللراوندي في هذا الحقل المعرفي آثار خالدة تدلّ على قدرة علمية كبيرة وهذه اسماء بعضها.

١ - «تحفة العليل» وموضوع هذا الكتاب الدعاء وآدابه وما يرتبط به من أحاديث.

٢ - «رسالة في صحة أحاديث أصحابنا»: وهو واضح في اسمه حيث يناقش صحة الأحاديث التي يرويها على الشيعة.

٣ - شرح الكلمات المئة: ويتعرض الكتاب - للشرح لمئة من كلمات الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

٤ - ضياء الشهاب: وهو شرح على كتاب «شهاب الأخبار» للقاضي سلامة المصري.

٥ - لباب الأخبار: منتخب من الأخبار والروايات.

٦ - لب الألباب: ويشتمل على اخبار وأحاديث في موضوع الأخلاق.

٧ - «المزار»: وهو كتاب كبير في موضوع نصوص الزيارات.

٨ - «المجالس في الحديث».

٩ - «الدعوات»: وهو معروف بـ«سلوة الحزين» والكتاب يهتم بآداب الدعاء وفضيلته وآثاره الصحية في حياة الانسان المؤمن وحتىٰ آثار الدعاء في جسم الانسان كل ذلك من خلال ما ورد من أحاديث عن الأئمة الاطهار عليهم السلام في هذا الموضوع وكذا ما ورد من روايات حول الموت ونهاية الحياة ويتألف الكتاب من أربعة مواضيع أساسية[1].

---

(١) الذريعة ٣ / ٤٥٦ و ١٤ / ٤٢ و ١٥ / ١٢ و ١٨ / ٢٧٥ و ١٩ / ٣٥٤ و ٢٠ / ٣٢٣؛ مفاخر الاسلام، علي الدواني ٣ / ٤٧٦.

و - التاريخ:

وللراوندي في حقل التدوين والتسجيل التاريخي أثران هما:

١ - جنىٰ الجنتين: في تاريخ أولاد الامام الهادي عليه السلام والامام الحسن العسكري عليه السلام.

٢ - قصص الأنبياء: ويتناول بالشرح حياة الرسل والأنبياء من خلال الروايات والأخبار الواردة عن أهل البيت[١].

ز - أصول الفقه:

وللراوندي في هذا الحقل كتاب هو شرح على «الذريعة» للشريف المرتضىٰ في علم الاصول[٢].

ح - الشعر والأدب:

ولهذا العالم الجليل آثار شعرية وأدبية ما يدلّ على مقدرته في اللغة العربية وآدابها وقد نظم الشعر في مديح أهل البيت عليهم السلام وله آثار في العربية وآدابها وهي كما يلي:

١ - التغريب في التعريب.

٢ - الاغراب في الأعراب.

٣ - شرح العوامل المئة: وهو شرح في مئة عامل في النحو.

٤ - غريب النهاية: في شرح المفردات الصعبة التي وردت في كتاب الشيخ الطوسي في الفقه والموسوم بـ«النهاية».

٥ - نفثة المصدور: وهو ديوان قطب الدين الراوندي الذي يضم أشعاره[٣]؛

---

(١) معالم العلماء، ٥٥.

(٢) الذريعة ٢١ / ١٣.

(٣) الذريعة ٤ / ٢٢٨ و ١٣ / ٣٧٢ و ١٦ / ٥٠.

ومن أشعاره في مديح وتمجيد سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام:

قسيم النار ذو خبر وخير / يخلصنا الغداة من السعير
فكان محمد في الدين شمساً / علي بعد كالبدر المنير
هما فرعان من عليا قريش / مصاص الخلق بالنصب الشهير
وقال له النبي وأنت مني / كهارون وأنت معي وزيري
ومن بعدي الخليفة في البرايا / على جاه السرور عني سريري
وأنت عيانهم والغوث فيهم / لدىٰ الظلماء كالصبح البشير
ولائي في البتول وفي بنيها / كمثل الروض في اليوم المطير
محمد النبي غداً شفيعي / لان علياً الأعلىٰ ظهيري
ولا أرضىٰ بقسيم أو عديّ / أميراً خاب ذلك من أمير
مصيرى آل أحمد يوم حشري / ويوم الحشر حبّهم نصيري

آراء الآخرين

الراوندي عالم خلد باعماله وآثاره هذا ما ورد على لسان من جاء بعده فهو امام الشيعة وعلماء وأناس بسطاء وكان استاذاً فريداً في الفقه والحديث ومن نوابغ العلم والأدب خدم الدين وكان في كل ما كتب وصنف من المحسنين[١].

وذكره الميرزا عبد الله أفندي فقال في ترجمته له: شيخ وامام وفقيه كان فاضلاً عالماً، متبحراً، فقيهاً، محدثاً، متكلماً، وكان شاعراً وأديباً[٢].

كما ورد ثناؤه في روضات الجنات في أنه أكبر وأجل مما ذكر وخص بالذكر

---

(١) الغدير ٥ / ٣٨٠.

(٢) رياض العلماء ٢ / ٤١٩.

كتابه شرح آيات الأحكام للدلالة على فضله وعلمه[١].

كما امتدحه القمي ووصفه بالعالم المتبحّر والفقيه المحدث، والمفسّر المحقق والصادق ومن كبار محدثي الشيعة.

وبلغ من نبوغه الفكري والعلمي ووفرة ما كتبه وألفه وصنفه في عدد من الحقول العلمية أن أنار الى ذلك ابن حجر العسقلاني فقال عنه أنه فاضل في جميع العلوم وله تصنيفات في كل علم لا تحصىٰ[٢].

أولاده

لقطب الدين الراوندي ثلاثة أولاد وهم عماد الدين علي، ونصير الدين حسين، وظهير الدين محمد وقد عرفوا بهذه الأسماء[٣].

غير أن سطوع اسم والدهم ربما غطىٰ على شهرتهم لكن ذلك لم يطمس آثارهم ويمحو ذكرهم فعماد الدين من الفقهاء والمحدثين روىٰ بعد والده وكان له نشاط في تبليغ الدين ونشر علوم أهل البيت بين المسلمين، ذكره مؤلف كتاب أمل الآمل بالعالم الفاضل الصادق ومن نقل الرواية عن الشهيد الأول وكان نصير الدين حسين من علماء عصره وكتب اسمه في الشهداء فقد ورد اسمه في شهداء الفضيلة للعلامة الأميني لكن لم تتوفر تفاصيل عن كيفية استشهاده[٤].

أجازه والده في الرواية وقد وردت تلك الاجازة بخط والده قطب الدين.

---

(١) روضات الجنات ٤ / ٧.

(٢) لسان الميزان، ابو حجر ٣ / ٤٨؛ الكنىٰ والألقاب، عباس القمي ٣ / ٧٢.

(٣) شهداء الفضيلة، العلّامة الأميني، ٤٠.

(٤) المصدر السابق.

غروب الشمس

في الرابع عشر من شهر شوال وفي مدينة قم المقدسة انتقل قطب الدين الراوندي الى رحمة الله التي وسعت كل شيء. وكان أذان الظهر من ذلك اليوم يرتفع في السماء حيث كلمات الله التامّات تدور في الفضاء لتمتزج مع روح الفقيد الراحل.

وقد اجريت مراسم التشييع الى جوار المرقد الطاهر لكريمة آل البيت عليهم السلام السيدة فاطمة بنت الامام موسى بن جعفر عليه السلام وكان المحدثون يتمنون بالترحم على استاذهم وطافت هذه الجملة فوق الشفاه: «عاش سعيداً ومات سعيداً».

وبعد أن مرّت ثمانية قرون وبدأت اصلاحات في توسعة المرقد الفاطمي حيث ضمت المقبرة الى الصحن اذا بهم يواجهون جثمان الراحل قطب الدين الراوندي غضاً كأنه رحل بالأمس وكانت هذه الكرامة كافية لتبقىٰ شاهدة قبره شاخصة في وسط الصحن الفاطمي من بين عشارت القبور، ويشاهد الزائر وهو يتجه نحو باب النساء في الضريح شاهدة من الصحن شاخصة تتضمن تفاصيل عن حياته وأشعاراً وآيات خطت بشكل أخاذ وترىٰ بين الفينة والأخرىٰ مؤمنين ومؤمنات يقرأون سورة الفاتحة على روح ذلك العالم التقي الذي خدم الدين وكان علماً للمسلمين.

ابن شهر آشوب /المتوفى سنة ٥٨٨ هـ

البداية

ابن شهر آشوب واحد من أساطين العلم والمعرفة في تاريخ التشيع، وكان من الذين أخلصوا في ايمانهم وأعمالهم على طريق مذهب أهل البيت عليهم السلام بلغ من العلم شأناً وكان له في كل حقل علمي باعاً طويلاً ألف وصف وربّىٰ تلامذة ساروا على طريقه وهذه نبذة من حياته وسيرته العلمية.

ولادته

ولد ابو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني المعروف بـ«رشيد الدين» في جمادىٰ الثانية عام (٤٨٨ هـ) (وعلى قول آخر سنة ٤٨٩ هـ)[١].

وقد عرف جدّه بالسروي ما يعزز كون أصله من مدينة «ساري» شمال ايران، ولكن من غير المؤكد ما اذا كانت ولادة ابن شهر آشوب في ساري أو في بغداد اذ لا تتوفر معلومات تسهم في الجزم بذلك[٢] على أن هناك من يرجح أن تكون ولادته في بغداد[٣].

---

(١) لؤلؤة البحرين، الشيخ يوسف البحراني، ٣٤٠، مقدمة غرر الحكم للآمدي.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية الكبرىٰ ٤ / ٩٠.

(٣) يستنتج العلّامة السيد محمد صادق آل بحر العلوم ولادة ابن شهر آشوب في بغداد انطلاقاً من حياة جدّه ووالده في بغداد «مقدمة معالم العلماء، ٣ فيما تورد دائرة معارف التشيع ولادته في ساري وانه تلقىٰ تعليمه الابتدائي فيها؛ ١ / ٣٣٧.

وكان جدّه الشيخ شهر آشوب بن كياكي من كبار علماء الشيعة ويعد من تلامذة الشيخ الطوسي (المتوفى ٤٦٠ هـ) المبرزين[١].

وأبوه الشيخ علي من فضلاء الشيعة ومحدثيهم ويكفيه فخراً أنه ربّىٰ ولداً بمنزلة ابن شهر آشوب[٢].

النمو والازدهار

شيئاً فشيئاً كان محمد ينمو ويتقدم كسائر اقرانه من اليافعين لكنه كان يتقدم بسرعة وقد وضع خطاه في طريق العلم والايمان، حفظ القرآن الكريم كلّه وهو في الثامنة من عمره وعرف بلقب «الحافظ» منذ ذلك الوقت[٣].

وبعد أن تعلم القرآن الكريم بدأ دراسته للعلوم الدينية كالفقه والاصول والحديث وعلم الرجال، والكلام والتفسير.

لا تتوفر معلومات حول بدء دراسته ولكن ماهو متوفر يقطع بأنه درس على يد والده وجدّه كما تتلمذ على أيدي اساتذة كبار من قبيل الشيخ الطبرسي وعبد الواحد الأمدي وقطب الدين الراوندي حيث تلقىٰ على أيديهم العلم والأدب ولأن هؤلاء الأفذاذ يسكنون حواضر مختلفة نستنتج من ذلك بطبيعة الحال ان ابن شهر آشوب كانت له أسفار عديدة في طلب العلم والمعرفة قام بها في بين أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين.

---

(١) كياكي كنيته شهر آشوب (راجع مصفىٰ المقال في علم الرجال، آقا بزرك الطهراني ٤١٥).

(٢) بحار الأنوار ١ / ١٠.

(٣) مقدمة معالم العلماء، ٣.

اساتذته

هم كما يلي:

١ - الشيخ شهر آشوب (جدّه)[١].

٢ - الشيخ علي (أبوه)[٢].

٣ - الواعظ النيسابوري (المتوفىٰ سنة ٥٠٨ ﻫ)[٣] والمعروف بـ«الفتال النيسابوري» و «صاحب روضة الواعظين» وقد توفي في نيسابور.

٤ - الشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (المتوفى سنة ٥٤٨ ﻫ)، وهو المفسر الامامي الكبير من علماء ومحدثي القرن السادس الهجري[٤].

صاحب المؤلفات الجليلة ومن بينها: «مجمع البيان» و «جوامع الجامع» و «اعلام الورىٰ».

٥ - ابو منصور الطبرسي مؤلف الكتاب الجليل «الاحتجاج» ويذكره ابن شهر آشوب بالتجليل في كتابه معالم العلماء مشيراً الى مؤلفاته: «لاستاذي أحمد بن ابي طالب الطبرسي كتب مختلفة من جملتها: الكافي في الفقه و..»[٥].

٦ - الكافي السيد ناصح الدين الأمدي (المتوفى سنة ٥٥٠ ﻫ) صاحب الكتاب النفيس «غرر الحكم ودرر الكلم»[٦].

٧ - ابو الفتوح الرازي (المتوفىٰ سنة ٥٥٢ ﻫ)[٧].

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية الكبرىٰ ٤ / ٩٠.

(٢) لؤلؤة البحرين، ٣٤٧.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية الكبرىٰ ٤ / ٩.

(٤) المصدر السابق، ٤٦.

(٥) معالم العلماء، ٢٥.

(٦) مقدمة الكتاب «غرر الحكم».

(٧) طبقات المفسرين الشيعة، العقيق البخشايشي ٢ / ٥٩ - ٦٠.

٨ – عبد الجليل الرازي القزويني (المتوفى ٥٦٠ هـ).

وهو من كبار العلماء في عصره له كتاب «النقض»[١].

٩ – السيد ضياء الدين فضل الله الراوندي الكاشاني(المتوفى سنة ٥٦٢هـ)[٢].

١٠ – قطب الدين الراوندي (المتوفى سنة ٥٧٣ هـ)[٣].

١١ – ابو الحسن علي بن ابي القاسم البيهقي المعروف بـ«ابن فندق» (المتوفىٰ سنة (٥٦٥ هـ) وهو مؤرخ شهير في سبزوار وخراسان ومن كبار علماء الشيعة الاعلام في القرن السادس الهجري[٤].

كما وتتلمذ ابن شهر آشوب لدىٰ علماء من أهل السنة واشهرهم:

١ – ابو عبد الله محمد بن أحمد النطنزي مولف كتاب: «الخصائص العلوية على سائر البرية»[٥].

٢ – جار الله الزمخشري المعتزلي (المتوفىٰ سنة ٥٣٨ هـ) وقد قرأ عليه «تفسير الكشاف» و «ربيع الأبرار» و «الفايق في ربيع الحديث» وهي جميعاً من تأليفات الزمخشري وقد أجازه الأخير في الرواية[٦].

النجاح

بعد سنوات مريرة أمضاها ابن شهر آشوب في حوزات ايران العلمية ودراسته علي أيدي أساتذتها الكبار وبعد أسفار علمية بين المدن الايرانية

---

(١) معالم العلماء، ١٤٥.

(٢) طبقات المفسرين الشيعة ٢ / ١٤٤.

(٣) معالم العلماء، ٥٥؛ الكنىٰ والألقاب ٣ / ٧٢.

(٤) دائرة معارف التشيع ٣ / ٥٩٤.

(٥) راجع: معالم العلماء، ١١٩ رقم ٧٩٠.

(٦) مقدمة معالم العلماء، ٨.

(مازندران) مشهد، نيسابور، سبزوار، ري، كاشان، اصفهان وهمدان، بعد كل هذه الرحلة الطويلة من طلب العلم شد الرحال سنة (٥٤٧ ﻫ) ليولّي وجهه هذه المرّة الى بغداد تاركاً مدينة همدان[١] وكانت بغداد عاصمة الدولة العباسية أشهر المدن في ذلك الوقت وكانت قبلة طلاب العلم وعشاق المعرفة وكانت أكبر المراكز الثقافية في العالم الاسلامي على الاطلاق بما حفلت به من اساتذة وعباقرة في العلوم وقد بدأ ابن شهر آشوب فصلاً جديداً من حياته اذ أصبح استاذاً كما بدأ مرحلة التأليف[٢].

وبالرغم من وجود اساطين العلم وأساتذته الكبار وباعداد كبيرة الاّ ان ابن شهر آشوب لمع اسمه وحاز على شهرة علمية كبيرة وبدأ طلاب العلوم يتملقون حوله ليصبح في طليعة أساتذة بغداد آنذاك.

تلامذته

وخلال تنقله في المدن العراقية والسورية بين بغداد والموصل والحلّة وحلب تتلمذ على يديه عشرات الطلاب ونبغ بعضهم في ميادين العلم والمعارف والثقافة الاسلامية ومن بينهم:

١ – العلّامة السيد محمد بن زهرة الحلبي (المتوفى بعد سنة ٥٨٥ ﻫ).

٢ – الشيخ جمال الدين ابو الحسن علي بن شعرة الحلّي الجامعاني (المتوفىٰ سنة ٥٨١ ﻫ).

٣ – الشيخ تاج الدين حسن بن علي الدربي.

٤ – الشيخ يحيىٰ بن محمد السرواري.

٥ – السيد كمال الدين حيدر الحسيني.

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية الكبرىٰ.

(٢) مفاخر الاسلام ٣ / ٤٩٥.

٦ – يحيىٰ بن ابي طي الحلبي.

وقد كان ابن شهر آشوب من اساتذة علم الحديث وقد حصل على اجازات في الرواية عن كثير من العلماء من بينهم: الشيخ ابو منصور الطبرسي، المحدث الشيخ علي بن شهر آشوب، الشيخ شهور آشوب، الشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (صاحب تفسير مجمع البيان) الشيخ جمال الدين ابو الفتوح الرازي، قطب الدين الراوندي وغيرهم.

هجرته

في مطلع خلافة المستضيء (٥٤٧ – ٥٦٦ هـ) كان ابن شهر آشوب في بغداد وكان الخليفة بصدد دعم الاتجاه الحنبلي وشيئاً فشيئاً بدأ ابن شهر آشوب بلفت الأنظار اليه لتبدأ الضغوط تستهدف نشاطه العلمي، ومن هنا لم تعد بغداد مكاناً مناسباً فغادرها متجهاً صوب مدينة الحلّة جنوباً هذه المدينة التي بدأت شهرتها العلمية والتاريخية.

وهناك بدأ ابن شهر آشوب التدريس وقدم له كرسي الاستاذية لتنتظم حوله حلقات التلاميذ والطلاب وعشاق المعارف الدينية والانسانية.

وبعد سنوات مديدة في مدينة الحلّة تركها متجهاً هذه المرّة شمالاً الى مدينة الموصل حيث أقام فيها طويلاً ليغادرها نحو مدينة حلب (مدينة النجوم) في سوريا. يقول صاحب روضات الجنات ان سبب انتقاله وهجرته الى حلب هي سياسة الحمدانيين المتعاطفة مع العلم والعلماء عموماً ومع الاماميين خصوصاً، والحمدانيون اشتهروا لدىٰ الجميع باحترام واجلال علماء الشيعة[1].

---

(١) روضات الجنات ٧ / ٢١٥.

اشارة خالدة

كان لابن شهر آشوب تخصص علمي في أكثر من حقل فقد ساح عقله وخط يراعه في كثير من العلوم الرائجة آنذاك بما في ذلك الفقه والاصول والكلام والحديث والتاريخ والتفسير والرجال ولد مصنفات في كل ذلك ما يعكس نبوغه العلمي والأدبي وهذه اشارة الى بعض مؤلفاته:

١ - متشابه القرآن ومختلفه: وقد ألفه وفرغ منه في مدينة الحلّة في سنة ٥٧٠ هـ

٢ - مناقب آل ابي طالب: وتعرض فيه الى فضائل ومناقب المعصومين من آل النبي صلى الله عليه وآله وبالتحديد الأربعة عشر معصوماً عليهم السلام[١].

٣ - معالم العلماء: وعلىٰ الرغم من حجمه الصغير الاّ انه اشتمل على ترجمة مختصر لحياة الف وواحد وعشرين عالماً (١٠٢١).

٤ - مثالب النواصب: اضافة الى ستة عشر مؤلفاً آخر وهي كما يلي: «المخزون المكنون في عيون الفنون»، «الطرائق في الحدود والحقائق»، «مائدة الفائدة»، «أمثال في الأمثال»، «الأسباب والنزول على مذهب آل الرسول»، «الحاوي»، «المنهاج»، «الفصول في النحو»، «الجديدة»، «انساب آل ابي طالب»، «الأربعون حديثاً»، «في مناقب السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام»، «نخب الأخبار»، «الخصائص الفاطمية»، «بيان التنزيل» و «المواليد»[٢].

---

(١) متشابه القرآن ومختلفه ٢ / ٢٨٧.

(٢) الذريعة ١٩ / ٧٦ و ٢ / ٢٣٦ و ٢ / ٤٧٦ و ٥ / ٩١ و ١ / ٤٢٦ و ٢٣ / ٢٣٣؛ مقدمة معالم العلماء / ٣٣؛ تنقيح المقال ٣ / ١٥٧، ريحانة الأدب ٨ / ٥٩.

في رحاب الشعر:

نظم ابن شهر آشوب الشعر ما يعكس قـابليته الأدبـية والشـعرية وتشـتمل اشعاره على قضايا أخلاقية وعرفانية وحكم ومدائح تمجد آل البيت وتشير الى فضائلهم الأخلاقية ومناقبهم الانسـانية كـما فـنّد فـي بـعض اشـعاره شـبهات المشككين والمخالفين؛ وأكثر شعره موزع في كتابه المناقب حـيث تـتناثر مـع المناسبات المختلفة ولكنها لم تجمع في ديوان مستقل حتى الآن وهذا نموذج من أشعاره:

بـعد النـبي أئـمة لمـعاشر وأئـمتي مـن بـعد اولاده

إن كان قد شرفت به اصـحابه فبنوه ما شرفوا وهم أكباده[1].

ابن شهر آشوب في عيون الآخرين:

ان كلمات العلماء والاعلام في شخصية ابن شهر آشوب قد تضيف الى الضوء في معرفة هذه الشخصية العـلمية أكـثر وتـنير الى مـقامها الأدبـي والأخـلاقي والتاريخي.

١ - يقول العلّامة مير مصطفىٰ الحسيني التفرشي (المتوفى سنة ١٠٢١ ه‍).

رشيد الدين محمد.. ابن شهر آشوب امام الطائفة الشيعية وفقيهها شاعر بليغ ومؤلف[2].

٢ - ابو علي الحائري (المتوفىٰ سنة ١٢٥١ ه‍) كتب يقول: ابن شهر آشوب شيخ الطائفة ولا جدل في فضله[3].

---

(١) مناقب آل ابي طالب ٤ / ١٤٨.

(٢) نقد الرجال، ٣٢٣.

(٣) منتهى المقال، ٢٨٣.

٣ - ويقول الشيخ الحر العاملي (المتوفي سنة ١١٠٤ هـ) كان ابن شهر آشوب عالماً بالرجال، شاعراً أديباً جامعاً للفضائل[١].

٤ - ويقول العلّامة الميرزا حسين النوري (المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ) فخر الشيعة وتاج الشريعة، أفضل الأوائل والبحر المتلاطم بلا ساحل محيي آثار المناقب والفضائل رشيد الملّة والدين شمس الاسلام والمسلمين ابن شهر آشوب الفقيه المحدث، المفسر، المحقق و...[٢].

٥ - وذكر العالم الرجالي والمحقق الملّا علي قراجه داغي الديرماري العلياري (المتوفىٰ سنة ١٣٢٧ هـ)؛ ابن شهر آشوب امام الطائفة الشيعية والمؤلف و... [٣].

ولم يذكر علماء أهل السنة عالماً من الشيعة بما ذكروا به ابن شهر آشوب بعبارات التمجيد والاجلال فقد قال الصفدي صباح الدين وهو من كبار علماء السنّة: محمد بن علي بن شهر آشوب واحد من اعلام الشيعة حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره وقد بلغ النهاية في علم اصول الشيعة كان مقدماً على غيره في علوم القرآن ومشكلات الحديث والأخبار واللغة والنحو ومواعظ المنبر في بغداد أيام الخليفة العباسي في زمانه «المقتفي»[٤].

---

(١) أمل الآمل ٢ / ٢٨٥.

(٢) مستدرك الوسائل ٥ / ٣١٠.

(٣) بهجة الآمال في شرح زبدة المقال ٦ / ٥١٣.

(٤) تأسيس الشيعة لفنون الاسلام، السيد حسن الصدر، ٢٧٢.

الرحيل

وبعد أن بلغ من عمره قرناً من الزمن وبعد أن أمضىٰ سبعين سنة في حـياته العلمية آن لذلك الرجل الفذ أن يستريح لقد أمضىٰ سنوات عمره الحافلة بالعطاء والعمل في خدمة دينه وأمته بلّغ أحكام الدين وخدم الاسلام والمسلمين. أجل آن لذلك الروح العظيم أن يغادر الحياة الفانية الى عالم خالد ففي الثاني والعشرين من شعبان المعظم سنة (٥٨٨ هـ) وفي مدينة حلب توفى ابـن شـهر آشـوب ليشـيع ويواريٰ الثرىٰ عند سفح جبل الجوشن حيث يوجد مرقد لأحد أبـناء الحسـين الشهيد عليه السلام[(١)].

---

(١) أعيان الشيعة ١ / ٨٢.

السيد ابن طاووس / المتوفىٰ سنة ٦٦٤ هـ

الكوكب الأخضر

في الخامس عشر من محرم الحرام سنة (٥٨٩ هـ) علي بن سعد الدين ابي ابراهيم موسى بن جعفر بن طاووس وشهد ذلك المنزل بهجة بقدومه الى الدنيا[١].

أمه هي ابنة ورّام بن ابي فراس العالم المعروف في مدينة الحلّة آنذاك[٢].

ونشأ علي في ذلك البيت ليتشرّب العلم والمعرفة والأدب اضافة الى ما ورثه من نسب رفيع إذ لا يفصله عن شجرة النبوة ودوحة الامام سوىٰ ثلاثة عشر ظهر فان عدد آباءه تجد حفيد الامام الحسن السبط ريحانة النبي صلى الله عليه وآله[٣].

وقد أخبره ورّام ان أبا ابراهيم هي من ذرية الشيخ الطوسي من جهة الأم[٤] وكيف اشتهر جدّه الأكبر بـ«طاووس» لجماله وعدم اتساق جمال وجهه شكل قدميه فدعى «الطاووس»[٥] لذلك وقد اغمض ورّام عينيه في الثاني من محرم الحرام سنة ٦٠٥ هـ[٦] وبالرغم من أن علي بن موسىٰ الذي عرف بـ«رضي الدين»

---

(١) فيض العلام في عمل الشهود ووقائع الأيام الشيخ عباس القمي، ١٥٨.

(٢) روضات الجنات ٤ / ٣٢٥.

(٣) مقدمة «برنامج السعادة» السيد محمد باقر الشهيدي الكلبايكاني، ٢.

(٤) روضات الجنات ٤ / ٣٣٧.

(٥) مكتبة ابن طاووس وأحواله وآثازه، السيد علي القرائي ورسول جعفريان.

(٦) فيض العلام / ١٤٣.

لم يعاصر ذلك الرجل الّا ان ابن طاووس اتخذه مثلاً أعلىٰ يقتدى به[١].

تتلمذ رضي الدين ابن طاووس على أيدي اساتذة عديدين من بينهم: الشيخ نجيب الدين بن نما، السيد شمس الدين فخار بن معد الموسوي، السيد صفي الدين محمد بن معد الموسوي، الشيخ تاج الدين الحسن الدربي، الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة السوراوي، السيد ابو حامد محيي الدين محمد بن عبد الدين زهرة الحلبي، الشيخ نجيب الدين يحيىٰ بن محمد السوراوي، الشيخ ابو السعادات اسعد بن عبد القاهر الاصفهاني، السيد كمال الدين حيدر بن محمد بن زيد بن محمد بن عبد الله الحسيني، والسيد محب الدين محمد بن محمود المشهور بـ«ابن نجار البغدادي» وهؤلاء درسوا عند السيد ابن طاووس أيضاً[٢].

جدير ذكره ان تتلمذه على أيدي أولئك الأساتذة لم يحصل كما هو معمول اليوم بل كان معظمه تم عن طريق القراءة عليهم واستحصال اجازة الرواية منهم. ولقد كان تقدمه في تشرب العلوم مدهشاً، فالذين عاصروه كانوا يتعلمون في سنوات ما تعلمه هو في سنة أو أقل من السنة، فـ«ابن نما» اجازه بعد أن قرأ عليه القسم الأول من كتاب النهاية للشيخ الطوسي ذلك أنه وقف علىٰ نبوغه منذ الوهلة الأولىٰ وما تزال اجازته مكتوبة بخطه (ابن نما) في المجلد الأول من النهاية[٣].

لقد أصبح ابن طاووس يتخصص في كل علم وفي كل حقل يلج فيه[٤].

ولم يكتف بما حصل عليه من اجازة استاذه فقرأ القسم الثاني من النهاية[٥]

(١) مقدمة كشف المحجة لثمرة المهجة، السيد ابن طاووس، محمد باقر الشهيدي، ٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة فصل ١٤٣، نسخة مكتبة المرعشي ﷺ.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر نفسه.

وعندئذ أتم دراسة المبسوط وخلال سنتين ونصف تعلم الفقه واستقل عن اساتذته ليكتفي بالحضور لديهم في نقل الحديث والرواية[١].

الفقيه المفكر

وبعد أن تسنّم الدرجات الرفيعة في العلم والفقه طلب منه اساتذة الحلّة وعلماؤها أن يجلس للفتيا ويعلم الناس الحلال ويبيّن لهم الحرام ولكنه لم يستجب لقد كان في أعماقه هاجس انه لم يتأهل بعد لهذه المسؤولية الخطيرة وكأن نداء الآية الكريمة يلاحقه: **﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾** أجل كان يتهيب الافتاء بغير علم أو هكذا يتصوّر[٢].

ولمّا يئسوا منه طلبوا اليه أن يحكم بين الناس بالعدل فقال أنا مازلت لم أحكم بعد بين عقلي ونفسي ولم أستطع أن أصلح بينهما أو أفصل ومن كان عن نفسه عاجزاً فهو عن غيره أعجز فالتمسوا من بينكم من أصلح بين نفسه وعقله ومن غلب نهيه هواه وانتصر على شيطانه فهو الذي يفصل بين الناس بالحق[٣].

الآصرة الكبرىٰ

ورأىٰ ابو ابراهيم نفسه مسؤولاً عن ابنه الشاب علي فعرض عليه الزواج من ابنة الوزير الشيعي الناصر بن المهدي وكان اسمها زهراء خاتون ولكن رضي الدين علي رفض فكرة الزواج وحصل خلاف بين الأب والابن وحينئذ لجأ

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه الفصل ١٢٥.

(٣) المصدر نفسه.

الشاب الى مرقد جدّه الكاظمعليه السلام واستخار الله عز وجل أن يلهمه الصالح من الأعمال فهداه الله سبحانه الى القبول بعد أن تفأل بالخير.. وهكذا تزوج رضي الدين من السيدة زهراء خاتون ليعم الفرح بيت أبي ابراهيم[١].

وما لبث ابو ابراهيم أن انتقل الى رحمة الله وقد قرّت عينه بزواج ابنه وكان ذلك سنة (٦٢٠ هـ) وقد فجع الابن برحيل والده الغالي[٢].

حوار في العاصمة

وصارت شهرة السيد ابن طاووس في الآفاق وعمّ صيته الطيب أرض العراق وأصبح ذهابه الى العاصمة بغداد دار السلام أمراً ضرورياً بعد أن الح عليه كثيرون ممن اعتقدوا بثقله العلمي ونفوذه الاجتماعي ودوره الثقافي في الحياة الفكرية.

وكان وزير الخليفة المستنصر يومئذ مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي وهو شيعي وقد وضع الأخير أحد بيوته تحت تصرّف السيد ابن طاووس[٣].

ويصل السيد ابن طاووس مدينة بغداد وكانت فرحة للمؤمنين فيها بقدوم هذا العالم التقي؛ وكانت تجربة ثرية من أجل انعاش الوضع الثقافي والروحي للطائفة الامامية.

وفي العاصمة سوف يتلقىٰ ابن طاووس اقتراحاً من الخليفة العباسي المستنصر للجلوس في دار الافتاء وتحمل هذه المسؤولية ولكن ابن طاووس يرفض الاقتراح وهذا ما عرّضه الى هجوم حاقد من القوىٰ المعادية له بقصد استغلال هذه الفرصة وتحطيمه ولكن الله لا يخذل عباده المتقين وخرج ابن

---

(١) المصدرنفسه الفصل ١٢٦.

(٢) مكتبة ابن طاووس، ٢٠ – ٢١.

(٣) المصدر السابق، ٢٢ – ٢٣.

طاووس من هذه المحنة منتصراً[١].

وعاد المستنصر مرّة أخرىٰ يطلب عبر وساطات من ابن طاووس أن يتحمل مسؤولية نقابة الطالبيين وهي مسؤولية تنحصر في ادارة شؤون الطالبيين فقط فامتنع أيضاً.

وقد حاول المستنصر دفع السيد ابن طاووس للموافقة محتجاً بموقف الشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضىٰ اللذين تصدّيا الى هذه المسؤولية فيما مضىٰ، ولكن ابن طاووس استدلّ على موقفه بسبب تغير الظروف حيث كان آل بويه هم الحكام وكانوا يساندون التشيع أما في الوقت الحاضر فان الأمر على خلاف ذلك[٢].

واذن فقد كانت علاقاته وثيقة بالوزير وحتىٰ الخليفة المستنصر وهو يذكر ما جرىٰ بينه وبين الخليفة المستنصر الذي توفى سنة (٦٠٤ هـ) وقد سكن ابن طاووس في دار تعود الى الخليفة وكان المستنصر من المتعاطفين مع العلويين بشكل عام وقد ذكر ابن طاووس مقتطفات مما دار بينهما يقول ابن طاووس:

طلني الخليفة المستنصر جزاه الله عنا خير الجزاء للفتوىٰ على عادة الخلفاء فلما وصلت الى باب الدخول تضرعت الى الله عز وجل وسألته أن يستودع في ديني وكل ما وهبنيه ويحفظ كل ما يقربني من مراضيه فحضرت فاجتهد بكل جهد بلغ توصله اليه اني أدخل في فتواهم فقواني الله جل جلاله على مخالفتهم والتهوين بنفسي.

وقد حاول الوشاة تدمير العلاقة بينه وبين المستنصر ولكن الله سلّم.

ويقول ابن طاووس حول مسألة نقابة الطالبيين:

---

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة، الفصل ٢١٦ و ٢١٧.

(٢) المصدر السابق الفصل ١٢٨.

ثم عاد الخليفة ودعاني الى نقابة جميع الطالبيين على يد الوزير القمي وعلى يد غيره من أكابر دولتهم وبقي على مطالبتي بذلك عدة سنين، فاعتذرت بأعذار كثيرة فقال الوزير القمي: أدخل واعمل فيها برضا الله؛ فقلت له: فلأي حال لا تعمل أنت في وزارتك برضا الله تعالى والدولة أحوج اليك منها الي، ثم عاد يتهددني، وما زال الله جل جلاله يقويني عليهم حتى ايدني واسعدني[1].

ويقول: «وعاد المستنصر وتحيل معي بكل طريق وقيل لي: أما أن يقول ان الرضي والمرتضىٰ، كانا ظالمين أو تعذرهما فتدخل في مثل ماد خلافيه، نقلت أن أولئك زمانهم زمان بني بويه.. وهم مشغولون بالخلفاء والخلفاء بهم مشغولون، فتم للرضي والمرتضىٰ ما أرادوا من رضا الله ثم اختار الخليفة المستنصر - جزاه الله خير الجزاء - ان أكون رسولاً الى سلطان التتر، فقلت لما خاطبني في هذه الأشياء ما معناه: إن أنا نجحت ندمت وان جنحت ندمت فقال: كيف؟ فقلت: ان نجاح سعيي يقتضي أنكم لا تعزلوني من الرسالت.. وان لم ينجح الأمر سقطت من عينكم سقوطاً يؤدي الى كسر حرمتي.

وكنت استأذنت الخليفة في زيارة مولانا الرضا - عليه التحية والثناء - بخراسان، فأذن، وتجهزت وما بقي الى التوجه الى ذلك المكان فقال من كان الحديث في الاذن اليه قد رسم انك تكون رسولاً الى بعض الملوك، فاعتذرت وقلت: هذه الرسالة ان نجحت ما يتركوني بعدها أتصرف في نفسي، وان جنحت صغر أمري وانكسرت حرمتي ثم لو توجهت كان بعدي من الحساد من يقول لكم: انه يبايع ملك الترك ويجيء به الى هذه البلاد وتصدقونه فقال: وما يكون العذر؟ قلت: انني أستخير واذا جاءت لا تفعل فهو يعلم انني لا أخالف الاستخارة أبداً،

---

(١) أعيان الشيعة، ٨ / ٣٥٩.

فاستخرت واعتذرت ثم عاد الخليفة المستنصر – جزاه الله خير الجزاء – وكلفني الدخول في الوزارة وضمن لي أنه يبلغ بي في ذلك الى الغاية، وكرر المراسلة والاشارة فراجعت واعتذرت، حتى بلغ الأمر الى أن قلت ما معناه إن كان المراد بوزارتي على عادة الوزراء، يمشون أمورهم بكل مذهب وكل سبب سواء أكان ذلك موافقاً لرضا الله جل جلاله ورضا سيد الأنبياء والمرسلين أو مخالفاً لهما في الآراء» ويستطرد ابن طاووس في شرح عواقب هاتين السياستين اللتين لا يمكن أن تلتقيان لا مع سيرة هذا الرجل العظيم ولا مع غاياته الاصلاحية ذلك أن الجهاز الحاكم في بغداد حتى في وجود خليفة متعاطف مع العلويين لن يسكت على انتهاج سياسة تعد في حقيقة الأمر طعناً على سياسة من سبقه من الخلفاء.

وعندما تفاقم خطر المغول والتتار وأصبحت بغداد عاصمة البلاد في دائرة الخط الداهم عرض ابن طاووس فكرة الوساطة لانقاذ ما يمكن انقاذ من المصير الأسود ولكن وكانت فكرة وساطته الدخول في مفاوضات مع قادة الطلائع المغولية والتوصل الى حل سلمي يجنب البلاد تلك النهاية المأساوية الدامية وقد عرض ابن طاووس الاقتراح على الخليفة وبعد مشاورات داخل البلاط جاءت النتيجة سلبية فعاد ابن طاووس الحلة[١].

ذكريات خضراء

في عام (٦٢٧ هـ) عزم السيد ابن طاووس على الحج فولّىٰ وجهه شطر الحجاز ليعود بهدية نفيسة قريبة الى قلبه وكانت عبارة على كفن له وكان قبل ذلك قد نشره في جبل عرفات جبل الرحمة ثم مسح به جدران الكعبة في كل بقعة

---

(١) المصدر السابق، ٣٦٠.

مقدسة حتى في تربة البقيع حيث يضم ترابها مضاجع أئمة من أهل البيت عليهم السلام وكانت له في كل ذلك ذكريات خضراء مخضلة بدموعه دموع شوق وحب تغسل قلبه وله بعد ذلك ذكريات في مدينة سامراء عندما زار مراقدها المقدسة سنة ٦٣٨هـ. كانت ليلة الثالث عشر من شهر ذي القعدة وكان ذلك في وقت السحر عندما سمع صوتاً ينفذ الى قلبه نفوذ النور في الماء الصافي.. كان دعاءً لآخر أئمة أهل البيت اذ وقف يدعو لشيعته:

«اللهم ان شيعتنا خلقت من شعاع أنوارنا وبقية طينتنا، وقد فعلوا ذنوباً كثيرة اتكالاً على حبّنا وولايتنا فان كانت ذنوبهم بينك وبينهم فاصلح بينهم وقاض بها عن خمسنا وادخلهم الجنّة وزحزحهم عن النار ولا تجمع بينهم وبين أعدائنا في سخطك»[1].

دروب الوصل

في عام (٦٤١ هـ) يعود ابن طاووس الى مدينته الحلّة[2] ليستقر فيها قليلاً ثم ينطلق يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادىٰ الثانية الى مدينة النجف الأشرف وبرفقته رجل تقي السيد محمد بن محمد بن آوي وقد قصدا زيارة مرقد جدهما أمير المؤمنين علي عليه السلام[3] وبعد يومين كانا تحت ظلال القبة الشريفة للامام علي عليه السلام[4].

ويرىٰ رفيق ابن طاووس في عالم الرؤيا قصّتها عليه عند الفجر: كان قد رأىٰ

(١) النجم الثاقب، حسين النوري الطبرسي، ٢٩٦.
(٢) مكتبة ابن طاووس، ٢٧.
(٣) المصدر السابق، ٢٨٥- ٢٨٦.
(٤) المصدر نفسه.

لقمة في يد السيد ابن طاووس وأن ابن طاووس خاطبه قائلاً: هذه اللقمة من فم المهدي وأنه أعطا رفيقه جزءاً منها[١].

وتتجلّىٰ حقائق مدهشة في فجر الخميس ويرىٰ ابن طاووس نفسه أمام مكاشفات جعلت كيانه يرتجف اذ انه رأىٰ نفسه وكأنه يحتضر ويغادر عالم الطيف وقد أشرقت عليه الحقيقة وقد بلغت الجذب انه ذهل عن كل شيء حوله ولم يعد يعرف حتى الذين بقربه[٢].

أسرار ليلة الجمعة

ويعود المسافران في ليلة الجمعة السابع والعشرين من جمادىٰ الثانية (٦٤١هـ) الى مدينة الحلّة[٣]. وفي يوم الجمعة قال أحد المعارف: رجل فاضل يقول انه رأىٰ في يقظته امام العصر وقد جاء اليك واسمه عبد المحسن. وأكرم ابن طاووس مقدمه وجلسا يتحدثان ليلة السبت السابع والعشرين من جمادىٰ الثانية ورویٰ عبد المحسن خلال ذلك: ان الامام أمره أن يأتي منزل ابن طاووس ويسلم اليه رسالة. وأعدّ ابن طاووس لضيفه فراشاً للنوم، وتتولىٰ الرؤىٰ تشرق على روحه فقد رأى مولاه الامام الصادق يأتي الى منزله وقد جاء بهدية كبيرة ورأىٰ ابن طاووس نفسه أن لم يعرف قدر تلك الهدية.

وفي منتصف تلك الليلة استيقظ ابن طاووس كعادته لصلاة الليل، ثم يروي ابن طاووس فيما بعد من وقائع تلك الليلة عندما أراد الوضوء لم يستطع الوضوء وقد امتنع عليه الابريق لكأن هناك من يمنعه الوضوء.. فعاد الى النوم وقد أدرك ان

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مستدرك وسائل الشيعة حسين نوري الطبسي، ٤٦٨ - ٤٦٩.

شيئاً ما قد حال بينه وبين أداء صلاة الليل، ويرىٰ ابن طاووس رؤياه في تلك الليلة والتي عبّرها بأنه لم يكرم ضيفه كما ينبغي فاستغفر الله طالب العفو والصفح وحينئذ نهض ليتوضأ من أجل صلاة الليل.

موقف آخر

كان ابن طاووس قد اكتشف لذة الأنس بالله فهو يهرب من مجالسة الحكام ولم يكن ليستمع الى من يحاول دفعه الى ذلك وتشجيعه على مخالطة اصحاب النفوذ من الحكام والأمراء والملوك وربما قال قائل له وكان فقيهاً من فقهاء عصره لقد كان أئمتنا يحضرون مجالس الخلفاء وكانوا يخالطونهم ولهذا لا بأس أن نحضر مجالس الحكام والامراء، فأجاب ابن طاووس نعم كانوا يحضرون مجالسهم ولكنهم كانوا في منأىٰ ومأمن مما يصبوا اليه الحكام ومما يشتهون قد عرفوا الحق وعزفوا عن الباطل فان كنت تعلم انك في مأمن من ذلك وكيف يهوىٰ فؤادك لهم وقد أحسنوا اليك وتفضلوا عليك؟ وحينئذ قال الفقيه: أجل هو ما ذكرت لأن حضور العاجز لدىٰ أهل القدرة ليس كحضور من كمل عقله[١].

وأرسل عليه أحد الحكام يدعوه للحضور في قصره من أجل لقائه فأجاب ابن طاووس وهل في قصرك شيء صنعته لله لانظر اليه؟ اعلم انني لم أكن فيما مضىٰ لأحضر مجالس الحكام الاّ اذا استخرت الله ولكني لأعلم اليوم وبفضل الله ان الاستخارة في مثل هذه الأمور لبعيدة عن الحق وعن الصواب.

---

(١) كشف المحجة ثمرة المهجة، ف ١٢٢ - ١٢٣.

تلامذته

كثيرون هم من تتلمذوا على يد أبي القاسم رضي الدين علي بن موسىٰ، ومن بين أولئك الفضلاء نشير الى بعضهم:

١ – الشيخ سديد الدين علي بن مطهر (والد العلّامة الحلّي).

٢ – الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي.

٣ – جمال الدين حسن بن يوسف المشهور بالعلامة الحلّي.

٤ – الشيخ تقي الدين حسن بن داوود الحلّي.

٥ – الشيخ محمد بن أحمد القسيني.

٦ – الشيخ ابراهيم بن محمد بن أحمد القسيني.

٧ – الشيخ جعفر بن محمد بن أحمد القسيني.

٨ – الشيخ علي بن محمد بن أحمد القسيني.

٩ – السيد غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ابن أخيه).

١٠ – السيد أحمد بن محمد العلوي.

١١ – السيد نجم الدين محمد الموسوي.

١٢ – الشيخ محمد بن بشر.

١٣ – صفي الدين محمد (نجله).

١٤ – رضي الدين محمد (نجله الآخر)[١].

التراث الآخر

ترك السيد ابن طاووس وراءه تراثاً خالداً من العلم والمعرفة وفيما يلي

---

(١) مكتبة ابن طاووس / ٥٠ – ١١١.

اشارة الى بعض مؤلفاته:

الأمان من أخطار الأسفار والزمان، الأنوار الباهرة في انتصار العترة الطاهرة، الاسرار المودعة في ساعات الليل والنهار، اسرار الصلوات وأنوار الدعوات، البهجة لثمرات المهجة، الدروع الوافية، فلاح السائل ونجاح السائل في عمل اليوم والليل، فرج المهموم في معرفة نهج الحلال والحرام من علم النجوم، فرحة الناظر وبهجة الخواطر، اغاثة الداعي واعانة الساعي، الاحتساب على الألباب، الاقبال بالأعمال الحسنة، جمال الاسبوع في كمال العمل المشروع، كشف المحجة لثمرة المهجة الوقوف على قتلىٰ الطفوف، المنامات الصادقات، كتاب المزار، مصباح الزائر وجناح المسافر، مهج الدعوات ومنهج العنايات، محاسبة النفس، ربيع الألباب، روح الأسرار وروح الأسمار، الطرائف في مذاهب الطوائف، التشريف بتعريف وقت التكليف، اليقين في اختصاص مولانا بأمرة المؤمنين[١].

ذهابه الى النجف وعزلته

عرف عن ابن طاووس وكما يصرح بنفسه اعتماده الاستخارة في اتخاذ قرارات هامّة في حياته، وقد استخار في سنة (٦٤٥ هـ) أن يعتزل الناس جميعاً ولهذا أخذ اسرته وذهب الى النجف الأشرف وهناك مكث في جوار جدّه أمير المؤمنين عليه السلام الى سنة ٦٤٨ هـ[٢]. وقد صنع له ضريحاً في هذه المدينة المقدسة، وفي أخريات سنة ٦٤٨ ولّىٰ وجهه شطر مدينة كربلاء ليسكن هناك ثلاثة أعوام

(١) مكتبة ابن طاووس، ٥٠ – ١١١.
(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة فصل ١٣٤.

أيضاً[١] وبعدها اصطحب اسرته الى مدينة سامراء[٢].

وخلال تلك الفترة عاش حالة من العزلة في الابتعاد عن الناس. وبعد أن مكث في سامراء مدّة من الزمان عاد مرّة أخرىٰ الى بغداد ليمكث في نفس بيته القديم[٣].

وكانت عودته الى بغداد سنة (٦٥٢ هـ) انصرف خلالها الى العبادة وحل مشاكل الناس، في عام (٦٥٥ هـ) تفاقم خطر المغول واصبحوا قاب قوسين أو أدنىٰ من بغداد التي ما لبثت أن تعرضت الى الحصار. وقد أعلن ابن طاووس عن استعداده للتوسط في اجراء مفاوضات مع المغول حول السلام، ولكن الخليفة رفض ذلك[٤].

وأصبح المغول على مشارف العاصمة وضرب حولها الحصار لتسقط في مطلع عام (٦٥٦ هـ) في محرم الحرام حيث اقتحم المغول المدينة لترتكب بها المذابح الوحشية وعم الرعب عاصمة الدولة وخلال عمليات افضل في المدينة المحتلة وقد لقي أخوه السيد ابن طاووس (أبو الفضل) مصرعه.

وقد ذكر السيد ابن طاووس هذه الحادثة وأشار اليها وكان السيد عند سقوط بغداد في محرم في بيته حيث عم الرعب انحاء العاصمة وظل السيد ساهراً ومعه أهل بيته حتى الصباح وكانت ليلة رعب ووحشة كما وصفها وكان هو في داره في محلة المقتدرية ولكن الله سبحانه نجّاه وأهل بيته[٥].

وأمر هولاكو بعد سقوط بغداد بجمع العلماء في المدرسة المستنصرية ليطرح

---

(١) مكتبة ابن طاووس / ٢٨.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة ف ١٣٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ٤ / ٦٨.

(٥) فيض العلام، ١٧٢.

عليهم السؤال لتالي: أيهما أفضل الحاكم العادل الكافر أم الحاكم المسلم الجائر؟! ولقد كان سؤالاً محيراً وخطيراً ومصيرياً في تلك الظروف وقد أدرك الجميع ما يرمي اليه حفيد جنكيزخان وعم الصمت الجميع وهنا نهض السيد ابن طاووس ليعلن رأيه في أن الحاكم العادل الكافر هو الأفضل وحينئذ اقتدىٰ به جميع العلماء[١].

وفي العاشر من صفر سنة (٦٥٦ هـ) استدعىٰ هولاكو ابن طاووس ليعطيه أماناً له ولأتباعه[٢] وكان السيد يودّ أن يعيش الناس كلّهم في أمان لكنه استطاع في تلك الظروف الحرجة أن يؤمن خروجه وخروج ألف انسان من مدينة بغداد متجهين نحو الحلّة[٣] ليعود الى بغداد بنفسه في أول فرصة[٤] لعلّه يستطيع أن يفعل شيئاً في هذه المدينة المنكوبة.

وخلال تلك المدّة عرض هولاكو مسؤولية نقابة العلويين عليه وكاد السيد ابن طاووس يرفض ذلك كعادته ولكن الخواجه نصير الدين الطوسي العالم الفلكي الكبير نصحه بالاستجابة محذراً اياه من عواقب رفض هذا الاقتراح. وقد اضطر السيد ابن طاووس الى قبول ذلك لتتم مراسم بيعة العلويين له[٥] وقد ظل في مسؤوليته الى أن لزم فراش المرض في سنة ٦٦٤ حيث وافاه الأجل[٦].

---

(١) مكتبة ابن طاووس، ٢٩ - ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فيض العلام، ١٧٢.

(٤) مكتبة ابن طاووس، ٣٠.

(٥) هدية الأحباب، الشيخ عباس القمي، ٨٠.

(٦) مكتبة ابن طاووس، ٣٣.

أولاده

نشأ في ظلال السيد ابن طاووس ستة أبناء ذكران وأربعة أنـاث[١] واسـما ولديه هما محمد المصطفىٰ وعلي وقد اهتم بتربيتهم جميعاً فقد خاطب ولده مرّة يعلمه بوصول أخته الى سن البلوغ والتكليف وأنه تحدث معها حول ذلك مشيراً الى أن سن البلوغ والتكليف هو تكريم الهـي للانسـان وأن الله عـز وجـل قـد حباك به[٢].

وبسبب هذا الاهتمام الفائق فقد استطاعت ابنته شرف الأشراف وكذلك ابنته فاطمة حفظ القرآن الكريم في سنين مبكرة فأولهما في سن الثانية عشر والأولىٰ في سن التاسعة[٣].

رحم الله السيد بن طاووس وأسكنه فسيح جناته.

---

(١) المصدر السابق / ٢٣، ٢٨، ٣٨.

(٢) أعيان الشيعة، ٧ / ٣٣٦.

(٣) المصدر السابق ٣٩، ٣٣٦.

الخواجة نصير الدين الطوسي /المتوفى سنة ٦٧٣ هـ

نشأته

في أرض طوس احدىٰ مدن اقليم خراسان المترامي نشأ علماء كبار صنعوا التاريخ. وفي الجغرافيا القديمة لايران فإن طوس تتألف من بعض المدن العريقة من قبيل «نوقان» و «طابران» و «رادكان» وعلى مقربة من مدينة «نوقان» في قرية «سناباد» استشهد الامام الرضا عليه السلام ليوارىٰ الثرىٰ. وسناباد هي أحد أحياء مدينة مشهد في الوقت الحاضر.

وتفيد بعض المدوّنات التاريخية في أن الشيخ وجيه الدين محمد بن الحسن وهو من علماء قم المبرّزين[1] عزم السفر الى مشهد لزيارة مرقد ثامن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد اصطحبت أسرته الى هناك وبعد أن اتم مراسم الزيارة وفي طريق العودة اعتلّت زوجته فاضطر للسكن في أحد أحياء طوس، ولما مضت على اقامته أيام الح عليه أهل الحي أن يقيم بينهم فيؤمهم في الصلاة ويعلمهم أحكام الشريعة في مدرسة الحي.

في صباح الحادي عشر من جمادى الأولىٰ سنة (٥٩٧ هـ) وقد أشرقت الشمس اذا بصبي يفتح عينيه على الحياة في ذلك المنزل الكريم وسوف يتمخض هذا الحادث فيما بعد عن ظهور أمير فلكي ورياضي في القرن السابع الهجري.

---

(١) كان يقطن قرية جهرود في ضواحي قم «الفوائد الرضوية»، الشيخ عباس القمي، ٦٠٣.

واستفتح الأب القرآن لينتخب للوليد المبارك اسماً فسمّاه «محمداً» وكنّاه «أبا جعفر» ثم اشتهر فيما بعد بألقاب مثل نصير الدين والمحقق واستاذ البشر والخواجة.

دراسته

أمضىٰ محمد طفولته في مدينة طوس اضافة الى دراسته الابتدائية حيث تعلم القراءة والكتابة وقواعد العربية والفارسية والمعاني والبيان والحديث كل هذه تلقاه من والده، وكانت والدته تعينه على تلاوته القرآن الكريم وتعلّم النصوص الفارسية. واستجاب هذا التلميذ الفطن لتوصية والده بالدراسة لدىٰ خاله؛ «نور الدين علي بن محمد الشيعي وهو من علماء الرياضين المبرّزين كما تعلم لديه المنطق والحكمة.

وكان هذا اليافع ما يزال ظامئاً الى تلقي المزيد من المعرفة فانتقل من الدراسة على يد خاله الى الدراسة لدىٰ استاذ آخر هو: «كمال الدين محمد الحاسب» وكان ذلك بارشاد من والده أيضاً فلم تمض شهور حتىٰ قال استاذه لوالده: لقد علّمته كل ما أعلم وهو الآن يسأل ولا أحير جواباً!!

وانتقل هذه المرّة للدراسة لدىٰ خال والده «نصير الدين عبد الله بن حمزة» والأخير من المتبحرين في علوم الرجال والحديث وما إن وصل استاذه الجديد مدينة طوس حتىٰ بدأ فصل جديد من حياته العلمية، وقد أثار ذكاء التلميذ استاذه ما دعا بالاستاذ الى أن يقدم له نصيحة بالهجرة الى نيسابور ولكي تتخذ هذه التوصية شكلاً رسمياً فقد قام الاستاذ بتتوجيه بالعمامة والزيّ الديني كما منحه لقب: «نصير الدين».

وفيما كان يستعد للسفر الى نيسابور توفي والده وقد تلقىٰ الطوسي الشاب

هذه الصدمة بصبر وانطوىٰ على حزنه ليسافر الى نيسابور بعد مضي عام على رحيل والده.

وبناءً على توصية من خال والده فقد توجه نحو المدرسة السراجية ليمكث مدّة عام لدىٰ سراج الدين القمري وهو كبار اساتذة الخارج في الفقه والأصول ثم انتقل بعد ذلك الى استاذ آخر هو فريد الدين داماد النيسابوري - وهو من تلامذة الفخر الرازي - ليدرس عنده الاشارات لابن سينا.

وخلال مدّة دراسته دخل مع استاذه في مناقشات علمية تكشفت عن عبقرية لهذا التلميذ فما كان من الاستاذ الاّ أن عرّفه لأحد زملائه وهو تلميذ من تلامذة الفخر الرازي أيضاً.

وبهذا درس نصير الدين الطوسي قانون ابن سينا أيضاً لدىٰ قطب الدين المصري الشافعي فاتقنه تماماً، ولم يكن الطوسي قد اقتصر في دراسته وتلقيه معارف عصره على الاساتذة الذين اشرنا اليهم بل افاد أيضاً من معارف العارف المعروف العطار النيسابوري المتوفى سنة (٦٢٧ هـ).

لقد تعمق الخواجة نصير الدين الطوسي في علوم عصره في نيسابور وحصد ما كان في حقول تلك المدينة العلمية ولهذا شدّ الرحال الى مدينة الري ليتعرف على عالم كبير في تلك الديار هو برهان الدين محمد بن محمد بن علي الحمداني القزويني. لينطلق بعد ذلك نحو مدينة اصفهان وشاء القدر أن يتعرف في الطريق وهو متجه الى اصفهان على «ميثم بن علي الميثم البحراني» فدعاه الأخير للاستفادة من دروس الخواجة أبي السعادات أسعد بن عبد القادر بن أسعد الاصفهاني في مدينة قم واستجاب الطوسي لدعوته فاتجه نحو مدينة قم.

وبعد قم انطلق الى مدينة اصفهان ومنها الى العراق فدرس الفقه لدىٰ «معين الدين سالم بن بدران المصري المازني» (من تلامذة ابن ادريس الحلّي وابن

زهرة الحلبي» حيث حصل عام (٦١٩ هـ) على اجازة في الرواية عنه، وتفيد بعض المدونات انه خلال تلك الفترة درس الخواجة نصير الدين الفقه على يد العلّامة الحلّي فيما تتلمذ الحلّي نفسه لدي الخواجة في دراسة الحكمة. كما درس الطوسي أثناء ذلك علم النجوم لدىٰ الفلكي والعالم الموصلي «كمال الدين الموصلي» وبهذا ربما شعر بأنه قد اجتاز مرحلته كطالب ليشدّ الرحال عائداً الى موطنه[1].

سنوات الاضطراب

خلال السنوات التي أمضاها الخواجة في دراسته بالعراق كانت أنباء متفرقة تصل حول قلاقل في أقصىٰ الشرق حيث بدأت قبائل المغول والتتار هجماتهم على ديار الاسلام.

كان المغول قبائل رحل تعيش على الرعي والصيد في الصحارى القاسية وقد بدأت تمرّدها في زمن «يسوگا» والد جنگيزخان فانضرمت تحت رايته كثير من القبائل المغولية القاطنة في تلك الاصقاع وبعد وفاته انتقلت الزعامة الى ولده الأكبر «تيموجين» الذي عرف في التاريخ بـ«جنكيزخان» وفي عهد الأخير الذي وحد قبائل المغول والتتار بدأت أولىٰ غارات تلك القبائل المتوحشة على العالم الاسلامي. كانت ايران يومذاك تخضع لزعامة السلطان «محمد خوارزمشاه» وهو حاكم عرف بعدم كفائته فكانت البلاد عرضة لهجمات متتالية دون اتخاذ تدابير تحميها من عوائل الغارات العنيفة. وكانت المدن الاسلامية تسقط الواحدة بعد الأخرىٰ كما تسقط أوراق الشجر في فصل الخريف. وبالرغم من بربرية هذه القبائل ولكن السياسة الخاطئة لخوارزمشاه خاصّة من قتل رُسل جنكيزخان

(١) روضات الجنات، ٦ / ٥٨٢؛ قصص العلماء، الميرزا محمد التكابني، ٣٨١؛ مجالس المؤمنين الشوشتري ٢ / ٢٠٣؛ فلاسفة الشيعة، عبد الله نعمة، ٢٨٢.

للتفاوض قد أحج لدىٰ الأخير عزمه على اجتاح ايران وتدمير كل من يقف في طريقه وقد حصل الهجوم الكبير والشامل سنة ٦١٦ هـ) وسقطت معظم المدن الايرانية باستثناء مدن الجنوب وارتكبت مذابيح وفظائع مريعة وتحولت مدن بكاملها الى مجرّد خرائب وانقاض[1] وكانت نيسابور في طليعة المدن التي نالت نصيباً وافراً من الموت والدمار وقد ابيدت مجموعات سكانية بكاملها ولم تسلم حتىٰ حيوانات تلك المدينة من الذبح والقتل وقد قدر بعضهم ضحايا المجازر الوحشية في نيسابور بـ(١/٧٤٨/٠٠٠) نسمة. وكانت أخبار المذابح المروعة تصل الى كل مكان فتعتصر قلوب المسلمين وتشيع الرعب في المدن والحواضر الاسلامية. وفي غمرة هذا الرعب قرر نصير الدين الطوسي السفر الى دياره لمساعدة اسرته وعندما وصل الى نيسابور شاهد بأم عينيه الفظائع التي ارتكبها المغول المتوحشين، لقد حولوا مدينة مزدهرة تنعم الأمان وترفل بحلل الحضارة والمدنية الى مدينة اشباح لقد كانت مقفرة من سكانها الذين استحالوا الى جثث هامدة تحت الانقاض فيها ارواح مئات الآلاف من الضحايا ترفرف فوق الخرائب.

واتجه الطوسي وقلبه يرتجف من الأسىٰ الى مسقط رأسه ليجد منزله خاوياً على عروشه. وساعده بعض الجيران في تقديم معلومات تفيده في العثور على من بقى منهم على قيد الحياة، لقد سمع من بعضهم بأن والدته وأخته قد فرّتا الى مدينة «قائن» وتمكن بعد لأي من العثور عليهما ليمكث هناك مدّة حيث أصبح اماماً في أحد مساجدها وفي عام (٦٢٨ هـ) وقد مضىٰ ثلاثون سنة على حياته اقترن الطوسي بشريكة العمر.

---

(١) راجع: تاريخ المغول، عباس اقبال الاشتياني، ٢٣.

انجازاته

الاسماعيلية إحدىٰ فرق الشيعة وتنتسب الى اسماعيل نجل الامام الصادق عليه السلام وقد وقفوا على امامته، وقد نشطت هذه الفرقة نشاطاً واسعاً وأصبح لها نفوذاً قوياً في ايران بقيادة حسن الصبّاح، وفي تلك الفترة أصبح لها اهتمامات سياسية قوية لتبدأ نشاطها السياسي آنذاك، وقد بنىٰ الاسماعيليون بقيادة حسن الصباح هذا قلعتهم الشهيرة (ألموت) في ذرىٰ سلسلة جبلية في قزوين، وأصبحت هذه القلعة الحصينة مركزاً لهم وعاصمة اضافة الى بنائهم قلاع حصينة عديدة، ولهذا أصبح من العسير القضاء عليهم[1].

وبعد شهور من اقامة نصير الدين الطوسي في «قائن» تلقىٰ وعدة من «ناصر الدين عبد الرحيم بن ابي منصور» وهو حاكم قلعة قهستان وكان هذا الرجل فاضلاً محباً للفلاسفة سمع بنصير الدين فأرسل اليه من يدعوه هو وزوجته للسكنىٰ في قلعة الاسماعيليين في قهستان. ولبّىٰ نصير الدين الطوسي دعوة الرجل وما ان وصل حتى استقبل بحفاوة وتكريم وخلال مدّة اقامته هناك ترجم كتاب «طهارة العراق» وهو من تأليف ابن مسكويه فنقله من الفارسية الى العربية بناءً على رغبة من مضيفه وقد سمّىٰ الكتاب المترجم: «أخلاق ناصري» كما قام بتأليف الرسالة المعينية في علم الهيئة باللغة الفارسية.

ولم يلبث أن رأىٰ نفسه مستاءً من وجوده هناك فليس ثمة انسجام فكري مع هذه الطائفة كما ان الاسماعيليين كانوا ينزلون الظلم الفادح بالسكان الخاضعين لنفوذهم.

ولهذا فكر نصير الدين الطوسي بكتابة رسالة الى الخليفة العباسي في بغداد

---

(١) المصدر السابق، ١٧٠ - ١٧٤.

يشرح له الأوضاع الصعبة التي يعانيها الناس في هذه الاصقاع، ويشاء القدر أن يكتشف الحاكم أمر هذه الرسالة ولهذا أصدر قراره باعتقال نصير الدين.

وبعد مدّة نقل الطوسي الى قلعة ألموت الشهيرة وعندما وقف حاكم ألموت على حقيقة الطوسي وشخصيته العلمية عامله باحترام.

وأمضىٰ نصير الدين الطوسي من عمره ستاً وعشرين سنة في تلك القلعة ولم يتوان خلالها لحظة واحدة عن الاستمرار في نشاطه العلمي حيث ألف فيها كتباً هامّة وعديدة من بينها: «شرح اشارات ابن سينا»، «تحرير اقليدس»، «التولّي والتبرّي»، «أخلاق ناصري» اضافة الى عدد من الرسائل.

وقد كتب في خاتمة كتابه «شرح اشارات ابن سينا» أنه انجز عمله ذلك في اشدّ مراحل حياته صعوبة وأكثرها حراجة فقد اختلط الندم بالحيرة والعذاب وتجرّع الغصص واندمج الحبر بالدموع وتزايد الآلام[١].

وبسبب التهديد الذي يمثله الاسماعيليون للمغول قرر هولاكو خان في عام (٦٥١ هـ) القضاء عليهم فبعث بقواته الى مدينة قهستان واستشار حاكم ألموت الخواجة نصير الدين الطوسي حول ما ينبغي عمله ازاء الهجوم المغولي فكان القرار استسلام القلعة للمغول واعلان الطاعة لهم وقد انتهىٰ شأن الاسماعيليين سياسياً مع سقوط بغداد حيث انطفأ مجدهم في عام (٦٥٦ هـ) أيضاً وقد كان لموقف نصير الدين الطوسي الحكيم أبلغ الأثر في انقاذ آلاف السكان بل مئات الآلاف من مذابح مروّعة ومصير دام ولهذا فقد اكتسب موقعاً مميزاً لدىٰ خان المغول اتسم بالاحترام[٢].

---

(١) شرح اشارات ابن سينا، ٢ / ١٤٦.

(٢) جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله ٢ / ٦٩٥؛ تاريخ المغول ١٧٣ - ١٧٤ العقائد الفلسفية للخواجة نصير الدين الطوسي، محمد المدرسي الزنجاني، ٥٠.

ويبدو ان احتلال بغداد والقضاء على المستعصم آخر خلفاء بني العباس لم تكن بمنأىٰ عن استشارة نصير الدين الطوسي[١] ذلك ان المستعصم الحياة. وقد قدم الطوسي في هذا المضمار خدمات كبرىٰ للثقافة والحضارة الاسلامية وذلك من خلال ما يلي:

١ - استمراره في الانتاج المعرفي والعلمي وتأليف الكتب الهامّة.

٢ - اقناع المغول بعدم احراق مكتبة حسن الصباح في قلعة المـوت وهـي مكتبة كبرىٰ تضم آلاف الكتب العلمية.

٣ - انقاذ حياة كثير من العلماء وحمايتهم من بطش المغول الفاتحين ومـن بينهم: ابن ابي الحديد (شارح نهج البلاغة) وأخوه موفق الدولة وكذا عطاء الملك الجويني.

٤ - التأثير على كثير من الشخصيات الكبيرة في أوساط المغول الحاكمين وشرح طبيعة الدين الاسلامي وعكس صورة مشرقة للدين الحنيف وسـنجد ان المغول الحاكمين في ايران سوف يعتنقون الاسـلام بشكـل رسـمي وذلك سـنة (٦٩٤ هـ) ويصبح الدين الاسلامي الدين الرسمي في كل أنحاء ايران.

٥ - وقف حالة الهجوم على سائر الأقطار الاسلامية.

٦ - تأسيس وانشاء مرصد فلكي كبير في مدينة مراغة قد عبث بـمقدرات الدولة وترك لولده وخاصّة «ابو بكر» العنان في التصرف ومعاملة الشيعة وقـتل بعض الشخصيات في هذه الطائفة المقهورة كما وصادر أموالهم فـي وقت كـان الخليفة منصرفاً الى اللهو واللعب واكتناز الذهب تاركاً بغداد لمصيرها المأساوي دون أن يفعل أي شيء[٢] لانقاذ ما يمكن انقاذه والدفـاع عـن حـياض الديـن والاسلام والمسلمين.

---

(١) العقائد الفلسفية للخواجة نصير الدين الطوسي، ٥٢.

(٢) قصص العلماء، ٣٨.

ملاك الخلاص

كان هولاكو يكنّ احتراماً عميقاً للخواجة نصير الدين الطوسي ولعل مردّ ذلك الى تخصص الأخير بعلم الفلك والنجوم ومنزلته العلمية الكبيرة ولهذا كان يهتم بالمحافظة على حياته ويصطحبه في جميع اسفاره وتنقلاته.

وقد استغل نصير الدين الطوسي هذه المنزلة ايما استغلال من أجل انقاذ ما يمكن انقاذه ووقف التخريب الذي طال كل الميادين القريبة من تبريز في ايران.

٧ - انشاء مكتبة علمية ضخمة تابعة للمرصد الفلكي والنجومي في مراغة[١].

البعد الأخلاقي في شخصية نصير الدين

لم تكن شخصية نصير الدين الطوسي لتنهض فقط على المرتكز العلمي فحسب بل انها انطوت على خصائص اخلاقية فريدة، لقد كان الرجل متواضعاً وحكيماً وهذا ما يتجلىٰ في كتابه «اخلاق ناصري» وهو شرحه لاشارات ابن سينا كما سبقت الاشارة الى ذلك، ويكفيه مجداً انه استطاع ان يروض املغول وهم من عرف في التاريخ بوحشيتهم وقسوتهم وبربريتهم واستطاع من خلال عقلانيته وأخلاقه أن ينقذ كثيراً من العلماء سنة وشيعة ولهذا امتدحه واثنىٰ عليه الجميع.

مجّده العلّامة الحلّي وذكر تبحره في العلوم العقلية والنقلية ومؤلفاته العديدة في ذلك لقد كان عالماً شريفاً بل كان أشرف العلماء[٢].

وذكره تلميذه الحنبلي المذهب وامتدح نبله ومجده الأخلاقي في فضله

---

(١) راجع: فوات الوفيات، ابن شاكر ٣ / ٢٤٧؛ فلاسفة الشيعة / ٢٨٧؛ مفاخر الاسلام علي الدواني ٤ / ١١٢.

(٢) مفاخر الاسلام ٤ / ١٣٦.

وتواضعه ومعاملته الطيبة للناس ومساعدته المحتاجين[١].

كما وأثنىٰ عليه المؤرخ السني ابن شاكر وذكر طلعته البهية وسخاءه وحلمه وحسن خلقه وذكاءه وعمق سياسته[٢].

تلامذته

تنقل نصير الدين الطوسي بين كثير من المدن والحواضر الاسلامية فكان كالشمس التي تشرق في هذه المدينة أو تلك وتملأ أرضها بالنور والدفئ ولقد كان له تلامذة عديدون تألق كثير منهم في دنيا العلم وعالم الفكر منهم:

١ - جمال الدين حسن بن يوسف المطهر الحلّي (العلّامة الحلّي المتوفىٰ سنة ٧٢٦ هـ). وهو من كبار علماء الشيعة وله آثار خالدة كما وله شروح على بعض مؤلفات استاذه الطوسي.

٢ - كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، وهو حكيم ورياضي ومتكلم وفقيه وعالم كبير وقد بلغ من تفقهه أن الطوسي نفسه استفاد منه كثيراً، وهذا الباحث البحريني له شرح مفصل على نهج البلاغة عرف بشرح ابن ميثم.

٣ - محمود بن سعود بن مصلح الشيرازي المعروف بـ«قطب الدين الشيرازي (المتوفى سنة ٧١٠ هـ) وهو من تلامذته المبرزين كان طبيباً ماهراً جلس مكان والده في المستشفىٰ وهو ما يزال في الرابعة عشرة من عمره. سافر الى عديد من المدن وتتلمذ لدىٰ الطوسي فتعلم منه علم الهيئة والاشارات لابن سينا له كتاب في شرح القانون لابن سينا ومؤلفات في تفسير القرآن الكريم.

٤ - كمال الدين عبد الرزاق الشيباني البغدادي (٦٤٢ - ٧٢٣ هـ) وكان حنبلي

(١) أحوال وآثار الخواجة نصير الدين، محمد تقي المدرسي الرضوي، ٧٨.

(٢) وفيات الأعيان ٢ / ١٤٩.

المذهب وعرف بـ«ابن الفوطي» وقد تتلمذ لدىٰ الطوسي مدّة طويلة ويعد من المؤرخين في القرن السابع وله مؤلفات منها معجم الآداب، الحوادث الجامعة وتلخيص معجم الألقاب.

٥ - السيد ركن الدين الاسترابادي (المتوفىٰ سنة ٧١٥ هـ) وهو من تلامذته ومرافقيه ومن المقربين اليه وله شروح على بعض كتب استاذه، وقد اقتدىٰ باستاذه في تواضعه، دفن في مدينة تبريز واضافة الى ما ذكرنا فله تلامذة آخرون منهم:

- ابراهيم الحموي الجويني.
- أثير الدين الأوماني.
- مجد الدين الطوسي.
- مجد الدين المراغي.

علمه

بالنظر الى غوصه في كثير من العلوم فقد أصبح من الشخصيات العلمية الموسوعية وقد سبق معاصريه في كل علوم عصره وبخاصّة الفلسفة، الرياضيات، النجوم، الكلام وغير ذلك ولهذا فقد عرف بألقاب عديدة منها: «استاذ البشر»، «أفضل العلماء»، «سلطان الفقهاء» و «أعلم المصنفين» و «العقل الحادي عشر» و «المعلم الثالث» ولم تنحصر شهرته العلمية في الأوساط الاسلامية فحسب بل تعدل ذلك حتى لدىٰ غير المسلمين ذلك انه كان مختصاً في كثير من العلوم من قبيل:

أ - الرياضيات: لقد كان الطوسي رياضياً مبرزاً وما يزال حتى الآن يعدّ من علماء الجبر، الحساب، الهندسة، المثلثات وسائر الحقول الرياضية الأخرىٰ وقد

عرفه علماء الغرب في هذا الميدان من العلوم فقط وجهلوا تبحره في علوم أخرىٰ وقد طرح الطوسي نظريات جديدة في الرياضيات في كتابه «الشكل القطاع» وفصل بين المثلثات وعلم الفلك واعتبر كل واحد منها مجاله الخاص به والمحقق الطوسي ذلك العالم الرياضي الكبير من استخدم الحالات الست للمثلث الكروي في القائم الزاوية وقد ناهزت مؤلفاته الرياضية خمسة وثلاثين مؤلفاً في هذا الحقل.

ب – الفلسفة: عاش الطوسي في عصر كان الفخر الرازي فيه قد شنّ هجومه الشديد على أفكار ونظريات ابن سينا الفلسفية وقد طعن الرجل بشدّة في الفلسفة المشّائية ولم ينهض أي من معاصريه للردّ على شبهات الرازي التي طرحها في هجومه وقد بلغ من شدّة الهجوم الذي استهدف ابن سينا فلسفياً أن الفلاسفة بدأوا يعرضون أفكاره ونظرياته.

وفي هذه الأجواء ألف الطوسي كتابه شرح الاشارات لابن سينا حيث ردّ على جميع الشبهات التي أثارها الفخر الرازي كبير علماء أهل السنّة فانتعشت من جديد أفكار ابن سينا الرفيعة.

جـ – علم الكلام: ان علم الكلام الذي يتحرك في اطار بحث العقائد الاسلامية الذي شهد تنامياً متزايداً في عهد الامام الصادق قد أصبح من العلوم المشهورة لدىٰ المسلمين. وقد ألف الطوسي في القرن السابع الهجري أهم النصوص الكلامية من خلال كتابه «تجريد العقائد» حيث يعتبر من أكثر النصوص الكلامية استحكاماً وقوّة وما يزال حتى الآن جزءاً من المنهج الدراسي في الجامعات الاسلامية بالرغم من مرور سبعة قرون.

د – الأخلاق: وبالرغم من تبحّر الطوسي في كثير من علوم عصره وتخصصه فيها وما حقق في هذا المضمار من شهرة الاّ ان ذلك لم يعرفه عن علم الأخلاق

والقضايا المرتبطة بتربية النفس، فقد ألف كتابه: «آداب المتعلمين» الذي يعد منهجاً أخلاقياً رائعاً لطلاب العلم وعشاق المعرفة.

هـ - الأدب: تحلّىٰ الطوسي بذوق أدبي رفيع ويعد كتابه «أخلاق ناصري» من النصوص الأدبية التي تعكس هذا البعد في شخصية نصير الدين حيث يعد من روائع الأدب الفارسي. وله في الشعر كتاب في علم العروض أسماه: «معيار الأشعار» وقد حاول أن يطرح أفكاره العلمية في قالب شعري وللطوسي أشعار في الفارسية وفي العربية.

آثاره الخضراء

وبالرغم من عصره العاصف بالحوادث الكبرىٰ وبالرغم من الضغوط السياسية حيث سنابك خيول المغول تجول في العالم الاسلامي فقد استطاع هذا الرجل العبقري من تأليف ما يناهز المئتين كتاب ورسالة علمية وهذه طائفة من العناوين:

١ - تجريد العقائد وموضوعه كلامي وقد حاز اهتماماً واسعاً من لدن العلماء.

٢ - شرح الاشارات: وهو شرح لكتاب الاشارات لابن سينا.

٣ - قواعد العقائد: وهو في موضوع اصول العقائد.

٤ - أخلاق ناصري.

٥ - أوصاف الأشراف.

٦ - تحرير اقليدس.

٧ - تحرير مجسطي.

٨ - أساس الاقتباس.

٩ - الزيبج الايلخاني.

١٠ – اثبات الجواهر.

١١ – اثبات اللوح المحفوظ.

١٢ – الأشكال الكروية.

١٣ – شرح اصول الكافي.

١٤ – رسالة في كلّيات الطب.

١٥ – تجريد الهندسة.

وعشرات الكتب والرسائل الأخرىٰ.

غروب الشمس

في الثامن عشر من ذي القعدة الحرام سنة ٦٧٣ شهدت بغداد غروباً من نوع آخر فقد غابت شمس العلم برحيل العالم العبقري نصير الدين الطوسي بعد عمر حافل بالعطاء. وكان بعضهم يتوقع أن يوصي بدفنه في النجف الأشرف الّا انه تمتم قبل وفاته قائلاً: انني أشعر بالخجل من سيدي الامام الكاظمعليه السلام لقد عشت سنيناً من حياتي في جواره ولا أريد أن أخرج من هذا الجوار ثم أغمض عينيه ليرحل الى عالم الأبدية.

وقد أجري للراحل تشييع كبير وعندما أرادوا أنْ يحفروا له قبراً اذا بهم يجدون قبراً قد حفر من قبل وقد صادف الانتهاء من حفره ذكرىٰ ميلاده وضم القبر تلك الشمس التي سطعت حيناً من الزمن لتغيب في هذه البقعة المباركة.

أولاده

لنصير الدين ثلاثة أولاد نشأوا في ظلاله ونبغوا في كثير من العلوم: ابنه البكر صدر الدين علي وقد نبغ في الفلسفة والنجوم والرياضيات.

وابنه الثاني أصيل الدين حسن كان من أهل الفضل وقد اشتغل فـي الحـقل السياسي.

أما ابنه الأصغر الخواجة فخر الدين فقد تسنّم رئاسة شؤون الأوقـاف فـي الأقطار الاسلامية.

المحقق الحلّي / المتوفى سنة ٦٧٦ هـ

مقدمة

علماء الدين هم تلامذة في مدرسة أهل البيتعليهم السلام اتخذوا من أئمتهم اسوة لهم فهم يضحون في سبيل الاسلام بأموالهم وأنفسهم، أجل هكذا عاشوا وهكذا رحلوا عن الدنيا، ولولا تضحياتهم وما قدّموه من فداء في سبيل الله ما ظل للدين عمود وللاسلام وجود، لقد كان جهادهم على جميع الأصعدة فبعض جاهد بدمه وآخرون جاهدوا بما قدموه من علم وما طرحوه من فقه وتفسير على مرّ العصور من أجل أن يبقىٰ الاسلام حيّاً في قلوب الناس وحياتهم، وبكلمة واحدة حافظوا على استمرار الثقافة الاسلامية الأصيلة.

ولقد كان الفقيه الكبير المحقق الحلّي واحداً من أولئك الذين حرسوا الدين وحافظوا على ثقافة التشيع فكان من أعمدة العلم والفقه في القرن السابع الهجري وكان من الذين رفعوا لواء الاجتهاد والفقه الشيعي وهذه آثاره الخالدة تدلّ على مدىٰ قدمه من أجل ابلاغ الشريعة ونشر أحكامها بين الناس وما تزال آثاره حتى الآن جديدة طرية بالرغم من مرور سبعة قرون على وفاته أجل ما يزال منهجه الفقهي حتى اليوم سائداً يضيء الطريق للذين يريدون التجدد لفقه آل محمدصلى الله عليه وآله.

حوزة بغداد

قبل أن تبرز الحلّة كمركز علمي كانت بغداد عاصمة العلم والثقافة الاسلامية

وكانت مركز اشعاع من خلال وجود علماء عباقرة من قبيل الشيخ المفيد (المتوفىٰ سنة ٤١٣ هـ) وتلامذته الشريف المرتضىٰ علم الهدى (المتوفىٰ سنة ٤٣٦ هـ) والشريف الرضي مؤلف السفر الجليل والأثر الخالد «نهج البلاغة» وكذا الفقيه الكبير الشيخ الطوسي (المتوفىٰ سنة ٤٦٠ هـ) لقد كان أولئك الأفذاذ هم من جعلوا بغداد عاصمة كبرىٰ للعلم والثقافة[1].

وشيئاً فشيئاً اضمحلت بغداد بسبب القحط وبعض الحوادث الأخرىٰ من قبيل حكم السلاجقة ما جعل الكثيرين يفكرون بمغادرة هذه المدينة الى مناطق أخرىٰ وبخاصة طلاب العلم والمعرفة.

تألق مدينة الحلّة

اشتهرت مدينة الحلّة بعد ظهور علماء كبار فيها لتصبح في طليعة مراكز العلم والثقافة فقد سطعت كواكب في سماء التشيع وتألق بأولئك العلماء اسم الحلّة وهذه طائفة منهم:

١ - ابن ادريس الحلّي (٥٤٣ - ٥٩٨ هـ).

٢ - سديد الدين الحلّي (المتوفىٰ سنة ٦٨٠ هـ).

٣ - سيد رضي الدين علي (٥٨٩ - ٦٦٤ هـ).

٤ - سيد رضي الدين محمد حسين الآوي (الآبي المتوفىٰ سنة ٦٥٤ هـ).

٥ - ابو القاسم نجم الدين جعفر بن حسن بن يحيىٰ المعروف بالمحقق الأول، المحقق الحلّي، الشيخ الفقيه نجم الدين، صاحب الشرائع ولقبه «كشّاف شرائع نبي آخر الزمان (٦٠٢ - ٦٧٦ هـ).

---

(١) التعرف على العلوم الاسلامية، الشهيد المطهري / ٣ ط ملّا صدرا.

٦ – العلّامة الحلّي (٦٤٨ – ٧٢٦ هـ).

٧ – فخر الدين المشهور بـ«فخر المحققين نجل العلّامة الحلّي (٦٨٢ – ٧٧١هـ).

٨ – محمد بن مكي العاملي المشهور بـ«الشهيد الأول» (٧٣٤ – ٧٨٦ هـ).

من ولادته الى دراسته

كان الشيخ حسن الحلّي والد المحقق من علماء مدينة الحلّة المعدودين وكان الرجل يتمتع بمنزلة جليلة لدىٰ أهلها، وذات يوم بشر بميلاد نجله سنة ٦٠٢ فسمّاه جعفراً تيمناً باسم الامام جعفر الصادق عليه السلام سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام ومعروف دور الامام عليه السلام في ترسيخ مدرسة أهل البيت ونشر فقه آل النبي صلى الله عليه وآله وتثبيت مذهب التشيع الذي هو مذهب أهل البيت عليهم السلام حتى سمّي التشيع وعرف بالمذهب الجعفري.

ونشأ الصبي المبارك لينال من المجد ما عرف بـ«المحقق» وذاع صيته في دنيا العلم والثقافة الاسلامية.

كان الصبي جعفر قد عرف مبكراً بذكائه وفطنته فأقبل على طلب العلم ينهل من ينابيعه الصافية فلا يرتوي وقد اشتملت شخصيته على خصائص وخصال حميدة فكسب احترام الناس وحبهم له.

بدأ دراسته تلميذاً لدىٰ والده كما تتلمذ عند غيره من علماء المدينة فدرس الفقه والاصول والكلام حتى نبغ في كثير من حقول العلم والمعرفة وأصبح في عداد العلماء في سنٍّ مبكرة من شبابه.

أساتذة المحقق الحلّي

تتلمذ المحقق الحلّي على أيدي اساتذة مبرزين عرفوا بالعم والتقوىٰ وقد نهل من فيض علومهم الكثير كما أفاد من مناقشتهم في ترسيخ وتعميق فهمه وترشيد منهجه ومن بينهم:

١ - والده شمس الدين حسن الحلّي.

٢ - ابن زهرة الحلّي.

٣ - تاج الدين حسن بن علي الدربي.

٤ - الشيخ مفيد الدين محمد بن الجهم الحلّي.

٥ - السيد مجد الدين علي بن حسن العريفي.

٦ - الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ.

٧ - السيد فخار الموسوي.

٨ - نجيب الدين محمد بن جعفر ابن ابي البقاء هبة الله بن نما الحلّي[١].

تربية رجال العلم والعمل

أصبح المحقق الحلّي عالماً معروفاً واستاذاً مشهوراً فانبرىٰ الى تدريس الطلاب وتربية التلاميذ ولم يقتصر دوره على البعد العلمي وانما أفاد طلابه من سمو أخلاقه لقد كانت حياته مثلاً أعلىٰ لمن يريد أن يتأسّى بالصالحين من عباد الله، كانت البساطة غالبة على حياته ولهذا تأثر به طلابه أيما تأثر فقد أصبح قدوتهم في العلم والعمل والحياة ولهذا تخرج على يديه رجالات كان لهم دورهم الكبير في الحياة العلمية والاجتماعية ومن بينهم:

---

(١) أعيان الشيعة ٤ / ٩١؛ قصص العلماء؛ التنكابني، ٣٦١؛ الفوائد الرضوية؛ عباس القمي، ٤٥؛ روضات الجنات ٢ / ٤٣٢؛ مقدمة كتاب المعتبر، ١.

١ - العلّامة الحلّي (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ).

٢ - ابن داود الحلّي (٦٤٧ - ٧١٥ هـ)[١].

٣ - عبد العزيز السرايا صفي الدين الحلّي[٢].

٤ - السيد غياث الدين عبد الكريم، المعروف بـ«ابن طاووس»[٣].

٥ - السيد جلال الدين محمد بن علي بن طاووس[٤].

٦ - ابو زكريا نجيب الدين المعروف بـ«ابن سعيد الهذلي الحلّي»[٥] (٦٠١ - ٦٨٩ هـ)[٦].

غير ان العلّامة الحلّي هو الكوكب الساطع من بين تلامذته وهو ابـن أخت المحقق الحلّي حيث تتلمذ لدىٰ خاله منذ نعومة أظفاره حيث نال الاجتهاد وهو لم يبلغ الحلم بعد[٧].

والعلّامة الحلّي اضافة الى تتلمذه لدىٰ المحقق الحلّي درس لدىٰ والده كما تتلمذ مدّة لدىٰ الخواجة نصير الدين الطوسي[٨].

عاديات الزمن

في عام (٦٥٠ هـ) تحرك هولاكو يقود جيوش المغول الجرارة زاحفاً باتجاه بغداد عاصمة الدولة الاسلامية الكبرىٰ وفي مطلع سنة (٦٥٦ هـ) أي في شهر محرم

(١) الفوائد الرضوية، ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ٢٣٤.

(٣) روضات الجنات ٥ / ٢٣.

(٤) المصدر السابق ٢ / ٤٣٤.

(٥) وهو ابن عم المحقق الحلّي.

(٦) هدية الأحباب، عباس القمى، ٧١.

(٧) الفوائد الرضوية، ١٢٦.

(٨) مختلف الشيعة العلّامة الحلّي ١ / ٢١ - ٢٥.

الحرام سقطت بغداد.

وقبل أن تسقط هذه المدينة التي هي مركز الدولة وعاصمتها فرّ أهل مدينة الحلّة خوفاً من المغول وظل بعض سكانها وكان العلّامة الحلّي ووالده من بين الذين لم يغادروا المدينة فكانا ممن راسلوا هولاكو لطلب الأمان لمدينتهم ولمدن أخرىٰ مثل الكوفة والنجف وكربلاء من أجل حماية الناس والحوزات العلمية من الفناء وقد استجاب هولاكو للرسالة ولم يهاجم المدن المذكورة وبعد سقوط بغداد ارسل هولاكو وراء العلّامة الحلّي ووالده وسألهما: من أين عرفتم انني سأفتح بغداد وأهاجم مدنكم؟

فأجاب والد العلّامة الحلّي: اننا نقرأ فيما ورد من الأخبار عن أمامنا علي عليه السلام حول ما سيحدث في المستقبل وقد وصف القائد الذي سيغلب آخر خلفاء بني العباس وهذا الوصف ينطبق عليك ولهذا طلبنا الأمان قبل سفك الدماء[1].

وبعد سقوط بغداد تعرّضت للدمار الشامل بما في ذلك مراكزها العلمية والثقافية فانتقلت الحوزة العلمية الى مدينة الحلّة، ولكي يمكن تعويض هذه الخسارةالكبرىٰ قرر علماء الحلّة مضاعفة عدد المدارس وتشجيع العلماء على القدوم الى هذه المدينة، حتى يمكن القول أن حوزة بغداد الكبرىٰ قد انبعثت من جديد في مدينة الحلّة وأصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً كبيراً وقد كان للمحقق الحلّي الدور الأكبر في هذه الخطوة الهامّة.

استقبال الخواجة نصير الدين الطوسي

زار هولاكو مدينة بغداد سنة (٦٦٢ هـ) وكان بصحبته الخواجة نصير الدين

---

(١) الحكومة العباسية أمام التاريخ، معتمد الخراساني، ١٠.

الطوسي، وقد أراد الطوسي لقاء علماء الحلّة ورموز حوزتها العلمية وبعد أن أطلع المحقق الحلّي على نيّة الطوسي في زيارة مدينة الحلّة أعلن ذلك لاتخاذ اجراءات استقبال كبير يليق العالم الكبير الخواجة نصير الدين الطوسي.

ولكن تواضع الطوسي أبىٰ أن يتم ذلك ولهذا وصل مدينة الحلّة من دون اعلام مسبق واتجه مباشرةً الى زيارة ولقاء المحقق الحلّي. كان المحقق فوق المنبر عندما دخل الطوسي فجأة ليجلس حيث انتهى به المجلس ولمّا وقعت عين المحقق على ضيفه نهض مسرعاً ليعانق ضيفه الكبير بحرارة وأراد تعطيل درسه ولكن الطوسي ذلك العالم الكبير أصّر على المحقق مواصلة القاء محاضرته والاستمرار في تدريسه[1].

حدائق بلا خريف

ان آثار المحقق الحلّي نجوم تتلألأ في سماء الفكر والثقافة والأدب ومؤلفاته حدائق بلا خريف انها ربيع دائم لا يطالها القدم باقية مابقي الفكر الانساني الأصيل. لقد وهب الله ذوقاً رفيعاً وعقلاً مضيئاً فأفاد من نعم الله هذه أي افادة، فهو واضافة الى تربية تلامذة كان لهم شأن في العلوم الاّ ان آثاره ما تزال حتى اليوم ينابيع للفكر والثقافة الاسلامية الأصيلة لقد ترك المحقق الحلّي وراءه تراثاً ضخماً في الفقه، الاصول، الكلام، المنطق والأدب، فنهل منها المجتمع الاسلامي وهذه اشارة الى بعضها:

١ - شرائع الاسلام: وما يزال هذا الكتاب حتى اليوم في طليعة الكتب الاستدلالية وقد مرّت عليه القرون وهو ما يزال ضمن المنهج الدراسي في

---

(١) أعيان الشيعة ٤ / ٩٠.

الحوزات العلمية وبعض الجامعات في الدول الاسلامية، وقد شرحه المئات من العلماء ولعلّه الكتاب الوحيد الذي ناهزت شروحه المئة شرح وفي طليعة تلك الشروح: جواهر الكلام، مسالك الافهام ومدارك الأحكام.

كما وتوجه له حواش كثيرة انجزها كبار علماء الشيعة فهناك حاشية الكركي، وحاشية جمال الدين الخوانساري وآخرين.

ان كتاب شرائع الاسلام هو واحد من روائع العلم الذي ينبغي ترجمته الى كل اللغات الحيّة من أجل هذا قام بعضهم بترجمته الى لغات أخرىٰ، فهناك ترجمة فارسية أخرىٰ وفرنسية وانجليزية وروسية وتركية اسطنبولية[١].

٢ – المختصر النافع في فقه الامامية: وله عشرات الشروح أيضاً.

٣ – المعتبر في شرح مختصر النافع.

٤ – المعارج في أصول الفقه.

٥ – نهج الأصول في معرفة الأصول.

٦ – تلخيص الفهرست.

في رحاب الأدب

لقد توفر المحقق الحلّي على ذوق أدبي رفيع وشاعرية فياضة وتضمنت كثير من رسائله الى والده واخوانه أشعاراً كثيرة انطوت على اشارات عرفانية واخلاقية.

خاطبه الشيخ شمس الدين محفوظ بن وشّاح ذات يوم بهذه الأبيات:

اغيب عنك واشواقي تجاذبني الى لقائك جذب المغرم العاني

(١) مقدمة شرائع الاسلام ١ ط مؤسسة اسماعيليان قم ١٤٠٩.

يا جعفر بن سعيد يا امام هدىٰ يا واحد الدهر يا من ماله ثانِ
اني بحبك مغرىٰ غير مكترثٍ بمن يلوم وفي جنبيك يلحاني

فأجابه المحقق:

لقد وافت قصائدك العوالي تهزّ معاطف اللفظ الرشيق
ففضت ختامهن فخلت اني ففضت بهم عن مسك فتيق
ورجال الطرف منها في رياض كُسين بناظر الزهر الأنيق[1]

في رؤىٰ الآخرين

ان آثار أي انسان هي المرآة التي تنعكس فيها شخصيته العلمية والأدبية ثم تأتي آراء الآخرين فيه فيما بعد لتستكمل رؤية واضحة لمن يريد أن يعرف انساناً عاش في حقبة ما فرحل عن الدنيا بشخصه لتبقىٰ للأجيال شخصيته.

ولقد كان للمحقق الحلّي آثاراً عديدة أسهمت في اثراء الفكر الامامي وتألقت في تاريخه العلمي.

قال فيه ابن أخته العلّامة الحلّي: كان المحقق الحلّي أكبر فقيه في زمانه[2].

وقال فيه الشيخ حسن نجل الشهيد الثاني والمشهور بـ«صاحب المعالم» اذا عدّ العلّامة الحلّي (المحقق) فقيه العصور لكان أفضل ذلك انه رأس الفقهاء الشيعة وليس له نظير[3].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر نفسه، ٨٩.
(٣) المصدر نفسه.

غروب شمس الفقاهة

ويرحل ذلك العبقري والمرجع الامامي الكبير عن هذه الدنيا وتفتقده ساحات العلم والفقه والأدب. لقد كان صادقاً في ايمانه قوياً في بيانه دافع عن حريم الدين وخدم الاسلام والمسلمين ونفع المؤمنين.

في الثالث عشر من جمادىٰ الآخرة وفي يوم الخميس من سنة (٦٧٦ ﻫ) غادر المحقق الحلّي دار الفناء الى عالم الخلد والبقاء في مقعد صدق عند عزيز مقتدر.

ولدىٰ شيوع هذا النبأ تدفق سكان الحلّة الى منزله وامتلأت بهم الأزقة والشوارع ليبدأ الحداد على رحيله.

وبعد تشييع الجثمان الطاهر ووريٰ الثرى في هذه المدينة حيث ضريحه الآن لتبنى فيما بعد له قبة تظلل الضريح الطاهر حيث يرقد هذا العظيم بسلام وقد توارث الخدمة في مرقد خدم أحبوه وعدّوا خدمة زائريه شرفاً ما بعده شرف[١].

وقد رثا الشيخ شمس الدين محفوظ بن وشاح تليمذه منشداً:

اقلقني الدهر وفرط الأسىٰ وزاد في قلبي لهيب الغرام
لفقد بحر العلم والمرتضىٰ فيه القول والفعل وفصل الخصام
أعني أبا القاسم شمس العلىٰ الماجد المقدام ليث الزحام
قد قلت للقبر الذي ضمّه كيف حويت البحر والبحر طام[٢].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أعيان الشيعة ٤ / ٨٩.

(٢) المصدر السابق، ٩٣.

العلّامة جمال الدين حسن الحلّي / المتوفىٰ سنة ٧٢٦

تتألف حياة العلّامة الحلّي بالتديّن والصدق والاخلاص، لقد كان فقيهاً وأميناً على الفقه الامامي وثقافة المدرسة الاسلامية الأصيلة حيث أهل البيت اساتذتها ورموزها.

أجل كان العلّامة الحلّي كوكباً ساطعاً في سماء فكر أهل البيت عليهم السلام كوكباً يشعّ بالفضيلة والتقوىٰ والاخلاص، ولقد عاش في زمن عصيب لكنه مضىٰ في طريقه واثقاً يستمد ثباته من ايمان عميق وفكر ثاقب وعقل مضيء.

ميلاده وأسرته

جاء في الأخبار والمدوّنات التاريخية أن أمير المؤمنين عليه السلام وهو في طريقه من الكوفة الى صفين توقف فوق رابية في تلال مدينة بابل التاريخية وأشار بيده الى أرض مليئة بالقصب والمسطحات المائية وقال هاهنا مدينة ولها من مدينة!

وتصوّر الأصبغ بن نباته وهو من أصدقاء الامام أن أمير المؤمنين يشير الى خرائب بابل تلك المدينة التي اندثرت قبل ميلاد السيد المسيح بآلاف السنين، لكن الامام وضح له ان المدينة التي يقصدها ستولد في المستقبل وسيبنيها رجل من بني أسد وستدعىٰ «حلّة السيفية»[1].

---

(١) بنىٰ مدينة الحلّة سيف الدولة صدقة بن منصور المزيدي رابع أمراء السلسلة المزيدية وذلك في محرم ←

وسوف يقطنها أناس صالحون يدعون الله عز وجل فيستجيب لهم[١].

في التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة (٦٤٨ هـ) ولد جمال الدين حسن أبوه الشيخ يوسف سديد الدين من علماء وفقهاء الحلّة في عصره ووالدته شقيقة المحقق الحلّي فهي ابنة حسن بن يحيىٰ الحلّي[٢].

والعلّامة الحلّي من جهة الأب ينتسب الىٰ آل المطهر وهي أسرة عرفت بالورع والتقوىٰ والفضيلة وآل المطهر فرع من بني أسد القبيلة العربية الشهيرة وهي أكبر القبائل في مدينة الحلّة وكان لها السيادة والرئاسة في هذه المدينة مدّة من الزمن[٣].

دراسته

في ذلك البيت المفعم بالتقوىٰ والكرامة والعلم بدأ الصبي حسن دراسته وهو ما يزال في سنوات العمر الأولىٰ، وقد شجعه والده علىٰ تعلم القرآن الكريم وادراك معانيه ما أمكن ولقد ساعده ذكاء استثنائي علىٰ أن يتشرّب الثقافة القرآنية فإذا هي جزء من تكوينه العلمي والفكري، وبعدها انصرف هذا الصبي الى تعلّم الخط لدىٰ استاذ يدعىٰ «محرّم» لكي يتقن الكتابة بخط جميل وما أسرع أن تعلّم ذلك وأتقنه[٤].

وبعد أن تعلم حسن بن سديد الدين يوسف القرآن والخط أصبح مستعداً لبدء

← الحرام سنة ٤٥٩ هـ، تقع مدينة الحلّة بين النجف الأشرف وكربلاء والى الجنوب من بغداد بـ(٨٠كم) وقد لمع في هذه المدينة فقهاء وشعراء وشخصيات شيعية كان لها دور في التاريخ.

(١) روضات الجنات ٢ / ٢٧٠.

(٢) والد المحقق الحلّي كان محدثاً وعالماً مبرزاً وقد روىٰ عنه ابنه المحقق الحلّي، أمل الآمل ٢ / ٨٠.

(٣) مقدمة ارشاد الاذهان، فارس حسون ١ / ٣٠قم ١٤١٠ هـ

(٤) مقدمة استقصاء النظر ط النجف ١٣٥٤ هـ

مرحلة علمية جديدة فدرس المقدمات ومبادئ العلوم على يد والده الفاضل والشقيقة المبرّز ومن أجل هذا دعي الصبي الذي بدأ يتقدم في دراسته وتتجلّىٰ فيه صفات الكمال دعي بـ«جمال الدين».

أمام العاصفة

كان جمال الدين في العاشرة من عمره عندما عصفت هجمات المغول العالم الاسلامي لتملأ القلوب رعباً والأرض الاسلامية دماراً واحترقت ايران بنار الحرب وأصبح مصير العراق في كفّ عفريت المغول كانت المدن الاسلامية تتساقط الواحدة بعد الأخرىٰ كأوراق الشجر في فصل الخريف، وكانت بغداد على وشك السقوط بعد أن أصبحت هدفاً للمغول في زحفهم الوحشي المدمّر وبدأت المدن العراقية تشهد عمليات فرار بالألوف ولجأ الخائفون الى المدن المقدسة مثل كربلاء والنجف والكاظمية.

أما مدينة الحلّة فقد كادت تصبح من المدن المهجورة بسبب كثرة الذين غادرها الى الصحارى وأحراش القصب أو الى المدن المقدسة.

ولكن بعض العلماء فيها قرروا البقاء في الحلّة وفي طليعة من فضل البقاء في المدينة الشيخ سديد الدين يوسف، والسيد مجد الدين بن طاووس والفقيه ابن العزّ فقد اجتمعوا من أجل التفكير في انقاذ ما يمكن انقاذه من الطوفان القادم وبخاصّة المدن المقدسة لتبقىٰ ملاذاً للخائفين والمشرّدين وبعد مداولات ومحادثات في هذه القضية اتفقت الآراء على مراسلة هولاكو وطلب الأمان لهذه المدن: الكوفة، الحلّة، النجف، كربلاء والكاظمية.

وفي مطلع سنة (٦٥٦ هـ) أي في شهر محرم الحرام سقطت مدينة بغداد عاصمة الدولة الاسلامية ولقي «المستعصم» آخر خلفاء بني العباس مصرعه على أيدي

الفاتحين، وتقوضت بعد سقوط بغداد جميع المراكز الثقافية والعلمية فيها بعد أن كانت نقاط اشعاع ساطعة بالنور والعلم والثقافة.

وعمّ الرعب جميع أنحاء البلاد، وبرغم وحشية المغول وما عرفوا به من قسوة الآن قائدهم هولاكو استجاب لرسالة علماء الحلّة ومنحت المدن المذكورة آنفاً أماناً فلم تتعرض لأي هجوم على الاطلاق، ولقد كانت خطوة حكيمة تلك التي قام بها أولئك العلماء الأفذاذ اثبتوا فيها عقلانيتهم ورؤيتهم العميقة للأمور وأصبحت الحلّة ملاذاً للعلماء والفقهاء[1] بعد أن تقوضت مراكز الثقافة والعلم في بغداد.

وهكذا أظهرت مدينة الحلّة كمركز ثقافي وحوزة كبرىٰ للمذهب الامامي حتى أواخر القرن الثامن الهجري وكانت تجتذب اليها طلاّب العلوم وعشاق المعرفة، وأصبحت هذه المدينة مكاناً مثالياً للدراسة في مختلف الحقول العلمية بعد أن اكتظت بالعلماء القادمين من كل حدب وصوب.

في رحاب العلماء

كان جمال الدين يتنقل من حلقة الى أخرى كفراشة تبحث عن الشهد والرحيق، لقد كان يتشرب العلم ويتشرّب الثقافة والأخلاق وقد نبغ جمال الدين حتى حصل على درجة الاجتهاد في سن مبكّرة.

لقد تتلمذ هذا العالم العبقري على أيدي أساتذة كبار وفيما يلي اشارة الى بعضهم:

- الشيخ سديد الدين يوسف (والده الجليل).

---

(١) كشف اليقين، العلاّمة الحلّي، ٨٠ ط طهران ١٤١١ هـ

- المحقق الحلّي (٦٠٢ - ٦٧٦ هـ).
- الخواجة نصير الدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢ هـ).
- السيد رضي الدين علي بن طاووس (٥٨٩ - ٦٦٤ هـ).
- السيد أحمد بن طاووس (المتوفىٰ سنة ٦٧٣ هـ).
- يحيىٰ بن سعيد الحلّي (المتوفىٰ سنة ٦٩٠ هـ).
- مفيد الدين محمد بن الجهم الحلّي.
- علي بن سليمان البحراني.
- ابن ميثم البحراني (٦٢٦ - ٦٧٩ هـ)
- جمال الدين حسين بن أيار النحوي (المتوفىٰ سنة ٦٨١ هـ).
- محمد بن محمد بن أحمد الكشي (٦١٥ - ٦٩٥ هـ).
- نجم الدين علي بن عمر الكاتبي (المتوفىٰ سنة ٦٧٥ هـ).
- برهان الدين علي بن عمر الكاتبي (المتوفىٰ سنة ٦٧٥ هـ).
- برهان الدين النسفي.
- الشيخ الناروقي الواسطي.
- الشيخ تقي الدين عبد الله بن جعفر الكوفي[(١)].

السطوع

وبدأ جمال الدين يلفت اليه الأنظار وهو ما يزال في مطلع شبابه، لقد تشرّب كثيراً من العلوم وتوفر على نصيب كبير منها فقد تعلم الفقه والحديث، والكلام والفلسفة، وأصول الفقه والمنطق والرياضيات والهندسة وأصبح حديث المحافل

---

(١) بحار الأنوار ١٠٧ / ٦٢ - ٦٧؛ أمل الآمل ٢ / ٢٩ و ٤٢ و ٤٨ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٢٠٥ و ٣٥٠؛ لؤلؤة البحرين، ٢٥٧ - ٢٥٩.

في نبوغه حتى طار صيته في آفاق المدينة وخارجها. وشيئاً فشيئاً بدأ لقب «العلّامة» يشق طريقه لينا له هذه الدرجة عن استحقاق كامل.

وبدأ العلّامة الحلّي يسطع كما الشمس في سماء الفقاهة فهو يضيء للآخرين، وتشكلت في مدينة الحلّة أكبر حوزة علمية تدرس فيها علوم آل البيت عليهم السلام وكان القريب والبعيد من طلاّب العلم والمعرفة يقصدونها ليشهدوا من فيض ما يتدفق من تلك الحوزة الكبرىٰ.

وقال أحد العلماء في العلّامة الحلّي أنه لا نظير له فهو فريد عصره وزمانه ولم يسبق أحد ولم يلحقه أحد في مثل علمه[1].

ومن الذين تتلمذوا على يديه وتألقوا في ظلاله ونهلوا من فيض ما آتاه الله من العلم فأصبحوا مجتهدين منحهم بنفسه أجازة الاجتهاد كل من: نجله الكريم العالم الفذ محمد بن حسن بن يوسف المعروف بـ«فخر المحققين» (٦٢٠ - ٧٧١هـ)، السيد عميد الدين عبد المطّلب، والسيد ضياء الدين عبد الله الحسيني الأعرجي الحلّي (ابنا أخت العلّامة الحلّي)، تاج الدين السيد محمد بن القاسم الحسيني المعروف بـ«ابن معيّة» (المتوفىٰ سنة ٧٧٦ هـ)، رضي الدين ابو الحسن علي بن أحمد الحلّي (المتوفىٰ سنة ٧٥٧ هـ)، قطب الدين الرازي (المتوفىٰ سنة ٧٧٦ هـ)، السيد نجم الدين مهنّا بن سنان المدني، تاج الدين محمود بن المولىٰ، تقي الدين ابراهيم بن حسين الآملي ومحمد بن علي الجرجاني.

المرجع الكبير

وبعد رحيل المحقق الحلّي في سنة (٦٧٦ هـ) أصبحت زعامة الطائفة الشيعية

---

(١) تأسيس الشيعة لفنون الاسلام، السيد حسن الصدر / ٢٧٠ ط طهران.

للعلّامة الحلّي اذ ليس غيره فهو العالم الكبير والفقيه الذي لا يبارى وتلميذ المحقق الحلّي المبرّز وبالرغم من ان عمره آنذاك لا يتجاوز الثامنة والعشرين بالرغم من هذا فقد انتخب زعيماً للطائفة بلا منازع وهذا ما يدلّ على عبقرية تمتع بهذا الشاب اضافة الى ما تمتع به من خصال أخلاقية جعلت منه شخصية كبيرة تتمتع بالاجلال والاحترام في الأوساط العلمية والشعبية.

وهكذا انتقلت الزعامة الشيعية من المحقق الحلّي الراحل الى العلّامة الحلّي ومن أجل هذا لقب بـ«آية الله» وهو من حاز هذا اللقب الشريف فإذا ما قال أحدهم آية الله فان الذهن لابد وأن ينصرف الى شخص العلّامة الحلّي لقد كان بحق آية من آيات الله الكبرىٰ.

عصر العلّامة

يجب أن يعرّف عصر العلّامة الحلّي بأنه عصر ازدهار الفقه الشيعي حيث ظهرت بجلاء حقانية مذهب أهل البيت عليهم السلام لقد قام العلّامة الحلّي بجهود جبّارة في نشر العلوم والفقه الاسلامي وفقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام ليدخل الفقه الامامي ميدان هذا العلم بقوّة وتحدّي والعلّامة الحلّي أول من أدخل الرياضيات لتكون جزءاً من علم الفقه ليعرف بالفقه الاستدلالي، وقد تركت رؤاه الفقهية والكلامية آثارها الواضحة في آراء الفقهاء وعلماء الشيعة[1].

وفي ذلك العصر كانت اسرة الجويني هي التي تسوس هذه المنطقة من البلاد وكانت حكومتهم مطلقة ونفوذهم راسخاً بالرغم من انتدابهم من قبل المغول لهذه المهمة وخلال ثلاثين سنة من حكم هذه الأسرة فانها لم تتردد من أجل تقديم

---

(١) جامع المقاصد، المحقق الثاني ١ / ٢١ مؤسسة آل البيت قم.

خدمات جليلة لنشر الاسلام وتكريم العلماء وبناء ما دمّره المغول خلال الحرب ولقد كان ما قامت به الأسرة الجوينية جهداً كبيراً ترك أثره في استمرار الحضارة الاسلامية في هذه البقعة من العالم الاسلامي[١].

وكان المغول في تلك الفترة يحكمون ايران أيضاً وقد استمر تسلّطهم في البلاد قائماً على بث الرعب والخوف في صفوف الناس ولكن التأثير الثقافي للاسلام بدأ ينفذ داخل نفوس الحاكمين الذين بدأوا يتأثرون بتعاليم الاسلام ما جعلهم يتغيرون نحو الأحسن، ولم يكن لهذا التأثير أن يحصل لولا وجود شخصيات قوية في مستوىٰ الخواجة نصير الدين الطوسي استاذ العلّامة الحلّي، لقد استطاع هذا الرجل بمفرده أن يوقف عجلة الدمار المغولي وانقاذ كثير من مراكز الثقافة الاسلامية.

العلّامة الحلّي وأولجايتو

طار حبّ العلّامة الحلّي في الآفاق حتى وصل الى مسامع الحاكم المغولي محمد أولجايتو الذي حكم ايران من سنة (٧٠٢هـ) وحتى سنة ٧١٦هـ

وقد بدأ الحاكم المغولي محمد الجايتو بناء مدينة جديدة على مقربة من نهر صغير هو أبهر وسماها «السلطانية» وقد استغرق البناء فيها عشر سنوات (٧٠٤ - ٧١٣هـ) وكانت هذه المدينة كبيرة بما اشتملت عليه من ابنية فخمة في طليعتها قصره المنيف ومدرسة كبرىٰ شبيهة بالمدرسة المستنصرية في بغداد.

ولهذا وجه السلطان المغولي دعوته الى العلماء وقد جاء في بعض المدونات أن السلطان غضب غضباً شديداً على احدى زوجاته وأعلن طلاقها ثلاثاً في

(١) مقدمة كشف الغمّة، الشعراني ١ / ٨٠ ط قم ١٣٦٤ هـ ش؛ مجالس المؤمنين، الشوشتري ٢ / ٤٨٠.

مجلس واحد، ثم ندم على ذلك فدعا علماء السنّة وعرض عليهم هذه المشكلة وأجاب الجميع: انها لم تعد زوجتك وهكذا تفتي مذاهب أهل السنة جميعاً. عندئذ قال له أحد وزرائه ان في مدينة الحلّة عالم يفتي بغير ذلك ولم يكن هذا العالم سوىٰ العلّامة الحلّي، من هنا وجه السلطان المغولي دعوة اليه وقد حمل وفد من قبل السلطان هذه الدعوة لابلاغ العلّامة الذي استجاب لها وجاء بمعية رسل سلطان المغول.

ويوجد تاريخ دقيق لزيارة العلّامة الحلّي لايران ومن المحتمل انها حصلت بعد سنة ٧٠٥ هـ، وفور وصوله الى البلاط تشكل مجلس علمي ضم جميع المذاهب الاسلامية وقد انبرىٰ العلّامة لعرض وجهة نظر المذهب الامامي في هذه المسألة وردّ على جميع الأسئلة التي طرحها علماء المذاهب السنّية واعتبر طلاق السلطان باطلاً لغياب شاهدي عدل، وقد ابتهج السلطان لهذه الفتوىٰ وأعجب بتفوق العلّامة على نظرائه وبصراحته وسرعة بديهته وما قدّمه من أدلّة دامغة لتعزيز آرائه، وقد كانت تلك المناسبة بداية لعلاقة قوية بين العلّامة وسلطان المغول محمد أولجايتو.

بذور التشيع

كان لحضور العلّامة الحلّي وزيارته التاريخية لايران في تلك الفترة بداية خير، اذ ان السلطان المغولي بدأ وكأنه يتعاطف مع المذهب الامامي وحقانية أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولهذا أشرف السلطان على الاعداد لمناظرة كبرىٰ بين ممثلي المذاهب الاسلامية. وكان أساس المناظرة في الواقع يدور بين المذهب الشيعي الامامي من جهة والمذهب السنّي بشكل عام، وقد مثل الجانب السني العالم الشافعي الكبير الخواجة نظام الدين عبد الملك المراغي وكان من أبرز علماء

السنّة في عصره وقد دارت المناظرة حول مسألة الخلافة والامامة بعد رحيل النبي الأكرمﷺ.

وبسبب تفوق العلّامة الحلّي وما قدمه من اثباتات حول حقانية المذهب الامامي واثبات حقوق الامام علي في الخلافة وأنه هو الامام والخليفة الحق بعد الرسولﷺ فقد احدث تحولاً في قناعات السلطان المغولي ودفعه انتخاب المذهب الامامي عقيدة له في الاسلام وقد حصل ذلك بعد سلسلة من المناظرات كشف العلّامة الحلّي عن شخصيته العبقرية دفعت بالسلطان الى اتخاذ هذا القرار الجديد وتغيير لقبه حيث تسمىٰ بـ«السلطان محمد خدا بنده» وقد جاء هذا الاعلان المثير في الانتماء المذهبي بمثابة حدث كبير فتح للمذهب الامامي فرصة كبرىٰ للانتشار داخل ايران.

وبدأ السلطان يلقي خطاباته باسم الأئمة الاثني عشر من أهل البيتعليهم السلام كما ضرب النقود بهذه الأسماء المقدسة وبنىٰ مساجد بهذه الأسماء المباركة[1].

وقد قال أحد العلماء لو لم يكن للعلاّمة الحلّي من عمل غير تشيع السلطان محمد خدا بنده لكفاه فخراً ومجداً[2].

في ايران

وقد أصبح العلّامة الحلّي من الملازمين للسلطان محمد خدا بنده في حلّه ورحاله بعد أن فضل الاقامة أو شجع عليها في ايران.

وقد امضىٰ العلّامة ما يناهز عشر من عمره في ايران قدم خلال هذه السنين المباركة من عمره الشريف خدمات كبرىٰ في طريق نشر مذهب أهل

(١) أعيان الشعة ٥ / ٣٩٩؛ مجالس المؤمنين ١ / ٥٧١.

(٢) لؤلؤة البحرين، ٢٢٦.

البيت عليهم السلام من خلال نشاطه الثقافي وتربية تلامذة أوفياء عـرفوا طـريق الحـق وساروا عليه.

وبسبب كثرة تنقلات السلطان بين المدن واضطرار العلّامة فيما يبدو لمرافقته فقد اقترح على السلطان تجهيز مدرسة سيارة متنقلة بما في ذلك الخيام المتنوعة الصالحة للسكن والدراسة بحيث يمكن نقلها ونصبها بسهولة في أي مكان وقـد استجاب السلطان على الفور وأمر بانجاز هذه المدرسة المتنقلة والسيّارة فكانت تنصب في أعلىٰ مكان ينزلون فيه في هذه المدينة وتلك من المدن والحـواضـر الايرانية[1].

واضافة الى نشاطه الواسع في حقل المناظرة مع علماء المذاهب الاسلامية واثباته حقانية وصوابية مذهب أهل البيت عليهم السلام وكذا تربيته تلامذة أوفياء للدين والعقيدة الاسلامية والمذهب الحق اضافة الى كل ذلك فـقد راح العـلّامة يـؤلف الكتب في مختلف الحقول كالفقه والاصول والكلام وقد جاء في بعض مـؤلفاته هذه ما يشير الى انجازها في المدرسة السلطانية السيّارة في كرمنشاه على سبيل المثال. ولقد صنف كتابه الشهير «منهاج الكرامة» في هذه المدرسة استجابة لطلب السلطان.

وبعد وفاة السلطان محمد خدا بنده وبعد سنوات العمل الجاد والعـطاء مـن أجل مذهب أهل البيت قرر العلّامة الحلّي العودة الى الوطن ولقاء الأحبّة بعد طول فراق وقد استأنف العلّامة بعد وصوله ديار نشاطه التدريسي وظل مرجعاً وزعيماً للطائفة الشيعية الى أن وافاه الأجل.

---

(١) روضات الجنات ٢ / ٢٨٢.

التراث الخالد

ان التعليم أو التدريس والتأليف فضيلتان لرجال العلم في دنيا المعرفة ونشر الثقافة الانسانية ولقد نبغ العلّامة في كليهما. ولقد بلغ من نبوغه وعبقريته أنه فرغ من تأليفاته في الحكمة والكلام وبدأ انتاجه المعرفي في حقل الفقه وهو يناهز السادسة والعشرين من عمره الحافل بالعطاء[١].

ولقد ألف وكتب العلّامة وصنف في كثير من الحقول العلمية بحيث يؤلف انتاجه المعرفي موسوعة ثقافية وعلمية كبرىٰ، وقد كتب أحدهم عنه قائلاً انك لو دققت النظر في ما ألف وكتب خلال حياته لأدركت ان هذا الرجل مؤيد من الله عز وجل بل انه آية من آيات الله تعالىٰ ولو انك قسمت ما كتب على أيام عمره من ولادته حتى وفاته لظهر لك انه كان يكتب في كل يوم كتيّباً[٢].

أ - آثاره الفقهية

منتهىٰ المطلب في تحقيق المذهب، تلخيص المرام في معرفة الأحكام، غاية الأحكام في تصحيح تلخيص المرام، تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، مختلف الشيعة في احكام الشريعة، تبصرة المتعلمين في احكام الدين، تذكرة الفقهاء، ارشاد الأذهان في أحكام الايمان، قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام، مدارك الأحكام نهاية الإحكام في معرفة الأحكام، المنهاج في مناسك الحاج، تسبيل الاذهان الى أحكام الايمان، تسليك الافهام في معرفة الأحكام، تنقيح قواعد الدين، تهذيب النفس في معرفة المذاهب الخمس، المعتمد في الفقه، رسالة في واجبات الحج واركانه ورسالة في واجبات الوضوء والصلاة.

---

(١) المصدر السابق / ٢ - ٤٠٢.

(٢) مقدمة كشف اليقين.

ب - آثاره الاصولية

النكتة البديعة في تحرير الذريعة، غاية الوصول في ايضاح السبيل، مبادئ الوصول الى علم الأصول، تهذيب الاصول الى علم الاصول، نهاية الوصول الى علم الأصول، نهج الوصول الى علم الأصول، منتهى الوصول الى علمي الكلام والاصول.

ج - آثاره الكلامية والعقيدية

منهاج اليقين، كشف المراد، أنوار الملكوت في شرح الياقوت، نظم البراهين في اصول الدين، معارج الفهم، الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة، كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد، مقصد الواصلين، تسليك النفس الى حظيرة القدس، نهج المسترشدين، مناهج الهداية ومعارج الدراية، منهاج الكرامة، نهاية المرام، نهج الحق وكشف الصدق، الألفين، الباب الحادي عشر، أربعون مسألة، رسالة في خلق الأعمال، استقصاء النظر، الخلاصة، رسالة السعدية، رسالة واجب الاعتقاد، اثبات الرجعة، الايمان رسالة في جواب سؤالين، كشف اليقين في فضائل امير المؤمنين، جواهر المطالب، التناسب بين الأشعرية وفرق السوفسطائية، المباحث السنية والمعارضات النصرية، مرثية الحسين.

د - آثاره الحديثية

استقصاء الاعتبار في تحقيق معاني الأخبار، مصابيح الأنوار، الدرر والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان، النهج الوضاح في الأحاديث الصحاح، جامع الأخبار، شرح الكلمات الخمس لأمير المؤمنين عليه السلام مختصر شرح نهج البلاغة، شرح حديث قدسي.

هـ - آثاره الرجالية

خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، كشف المقال في معرفة الرجال وايضاح الاشتباه.

و - آثاره التفسيرية

نهج الايمان في تفسير القرآن، القول الوجيز في تفسير الكتاب العزيز وايضاح مخالفة السنّة.

ز - آثاره الفلسفية والمنطقية

القواعد والمقاصد، الأسرار الخفية، كاشف الأستار، الدر المكنون، المقاومات، حل المشكلات، ايضاح التلبيس، الجوهر النضيد، ايضاح المقاصد، نهج العرفان، كشف الخفاء من كتاب الشفاء، مراصد التدقيق ومقاصد التحقيق، المحاكمات بين شراح الاشارات، ايضاح المعضلات من شرح الاشارات، نور المشرق في علم المنطق، الاشارات الى معاني الاشارات، بسط الاشارات، تحرير الأبحاث في معرفة العلوم الثلاثة، تحصيل الملخص، التعليم التام، شرح القانون، شرح حكمة الاشراق والقواعد الجليّة.

ح - آثاره القيمة في الدعاء

الأدعية الفاخرة المنقولة عن الأئمة الطاهرين، منهاج الصلاح في اختصار المصباح.

ط - آثاره الأدبية

كشف المكنون من كتاب القانون، بسط الكافية، المقاصد الوافية بفوائد القانون والكافية، المطالب العقلية، لب الحكمة، اضافة الى اشعاره في مواضيع مختلفة وقصيدة طويلة في العلم والثروة.

ي - آثاره الأخرىٰ

آداب البحث، جوابات المسائل المهنّائية الأولىٰ، جوابات المسائل المهنائية الثانية، جواب السؤال عن حكمة النسخ، اجازة في نقل الحديث لابن زهرة الحلبي، اجازة عن نقل الحديث لقطب الدين الرازي في ورامين، اجازة عن نقل الحديث للمولي تاج الدين الرابي في السلطانية، اجازتان في نقل الحديث للسيد مهنّا بن سنان المدني في الحلّة، اجازات عديدة لتلامذته وفقهاء آخرين، الوصية، الغريّة، مسائل السيد علاء الدين.

العلّامة الحلّي وابن تيمية

عاصر العلّامة الحلّي العالم السنّي المتعصب الشيخ ابن تيمية وقد اتهم الأخير في عصره بفساد الرأي والانحراف، وسجن لذلك وقد كتب علماء السنة والشيعة على حد سواء مؤلفات في الردّ على آرائه قديماً وحديثاً.

وبعد أن ألف العلّامة الحلّي كتابه «منهاج الكرامة» قام ابن تيمية بتأليف كتاب أسماه: «منهاج السنة» لجاجةً وعناداً وحاول أن يكون الكتاب ردّاً على منهاج الكرامة.

وقد اطلع العلّامة الحلّي على كتاب «منهاج السنّة» وما تضمنه من هجوم على الشيعة ومذهب الامامية ولم يكن الهجوم علمياً أو نقداً موضوعياً بل انطوىٰ على

اهانات وبذاءات فما كان من العلّامة الحلّي الاّ أن كتب أبيات من الشعر وأرسلها اليه[١]. وتضمنت الأشعار خطاباً أخلاقياً، ويبدو أن العلّامة ترفع عن الردّ على كتاب ابن تيمية قائلاً: لو كان يفهم ما أقول أجبته[٢].

الفضائل المتألقة

الانسان المنال والنموذج والقدوة لا تنطوي شخصيته على بعد واحد بل ان هكذا انسان لابد وأن يجمع في شخصيته ابعاداً متعددة وحينئذ يصبح مثالاً لغيره، من هنا فقد كان العلّامة الحلّي انساناً انطوىٰ على فضائل اخلاقية متعددة ولهذا تألقت شخصيته الانسانية. فقد أضاف الى عبقريته العلمية وقدراته الفائقة التي أحدثت تحولاً في الفقه أضاف الى ذلك مجداً أخلاقياً رفيعاً، وكان علمه محرابه الذي تعبّد فيه لله عز وجل وصدق الله عز وجل إذ يقول: **﴿انما يخشى اللهَ من عباده العلماء﴾** لقد كان العلّامة الحلّي انساناً تقياً وكان في حياته اليومية بسيطاً زاهداً في مظاهر الحياة الفارغة، ولقد قضىٰ بنفسه صلاته الواجبة في عمره أربع مرّات وكان قد حجّ بيت الله الحرام لكنه أوصىٰ بالحج عنه نيابة[٣].

ولقد عرف عنه ولاؤه الراسخ لأهل البيت وحبّه لهم حتىٰ أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من تكوينه النفسي والروحي، فكانت مودّة آل البيت تجري في دمائه وتتجلىٰ في سلوكه واعماله وكان كثيراً ما يوحي بذلك، وهو يعتبر أهل البيت من نعم الله عز وجل التي أنعم بها على عباده المؤمنين ومن أحب قوماً حشر معهم

---

(١) أعيان الشيعة ٥ / ٣٩٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رياض العلماء ٣ / ٣٦٥.

ولهذا كان يسأل الله عز وجل أن يحشره مع محبّي أهل البيت عليهم السلام[١].

ولقد اقتدىٰ العلّامة الحلّي بإمامه ومولاه أمير المؤمنين علي عليه السلام فعمّر بماله أنحاء وأحيا أرجاء وأوقف ما بنىٰ وعمّر واستثمر على الفقراء والصالح العام، وكانت هذه الخصلة احدىٰ فضائله، فكم قد شق من الأنهار والجداول والينابيع والآبار فجرت المياه لتحيي الأرض بعد موتها كل ذلك جعله وقفاً لعموم الناس في حياته وبعد مماته[٢].

في رحاب امام العصر

وكلما اطلّت ليلة الجمعة شدّه الشوق لزيارة مرقد سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام.. فإذا به لا يقرّ له قرار حتىٰ يعانق شباك الضريح ولقد اعتاد الناس على رؤيته في ليلة الجمعة يغادر الحلّة في طريقه الى مدينة كربلاء.

وفي إحدىٰ سفراته كان بمفرده فرافقه شخص التقاه في أثناء الطريق وكان يتجاذبان أطراف الحديث فأدرك العلّامة الحلّي ان رفيقه في الطريق رجل فاضل وله تبحّر في كل علم ولهذا استثمر هذه الفرصة ليطرح عليه ما أشكل من المسائل والقضايا، وكان الرجل يجيب بما يقنع العلّامة الحلّي حتىٰ جاء الدور الى بحث مسألة فقهية وافتىٰ الرجل بما أنكر العلّامة وقال: انه ليس لدينا دليل ولا حديث يدعم هذه الفتوىٰ، فقال الرجل: انظر كتاب الشيخ الطوسي «التهذيب» في الصفحة الفلانية والسطر الفلاني تجد في ذلك حديثاً، فتعجّب العلّامة من هذا الرجل ترىٰ من يكون؟ ولهذا سأل الرجل: هل يمكن لأحد أن يلقى الامام صاحب الأمر في غيبته الكبرىٰ هذه وفي الأثناء سقطت عصا العلّامة الحلّي على الأرض فانحنىٰ

(١) بحار الأنوار ١٠٧ / ٦٢؛ ارشاد الاذهان ١ / ١٧٦.

(٢) ارشاد الأذهان ١ / ١٧٧.

الرجل والتقطها ليضعها في يد العلّامة وقال وكيف لا يمكن رؤيته ويده الآن في يدك وما إن سمع العلّامة ذلك حتى شهق ليقع عند قدميه وقد أخذته الغشية فلما أفاق لم ير أحداً، ولمّا عاد العلّامة الى الحلّة راجع كتاب التهذيب للشيخ الطوسي في نفس الصفحة التي أشار اليها الرجل ليجد الحديث في نفس السطر أيضاً فكتب في حاشية تلك الصفحة وهذا الحديث أخبرني به وأرشدني اليه صاحب الأمر عليه السلام ويقول أحد العلماء ولقد رأيت نسخة الكتاب وحاشية ذلك الحديث بخط العلّامة الحلّي [١].

أفول النجم

في شهر محرّم الحرام من سنة (٧٢٦ هـ) عرجت روح ذلك العظيم بعد ثمانية وسبعين سنة قضاها في طلب العلم والتحقيق والتأليف والتبليغ وتربية تلامذة رفدوا عصرهم بالعلم والمعرفة، ولد في رمضان المبارك وكان خيراً لأمته وبركات وقبضه الله اليه في محرّم الحرام واقترن العزاء عليه مع العزاء على سيد الشهداء الحسين عليه السلام لتلتحق روحه الطاهرة مع أرواح أصحاب الحسين.

أجل في الحادي والعشرين من محرم الحرام انطفأ ذلك النجم الساطع في سماء العلم والمعرفة واقفرت ساحة الفكر الامامي من وجود رجل عبقري قدم الكثير الكثير من المعارف الدينية ليرفد مسيرة الحضارة والثقافة الاسلامية واجري تشييع مهيب للجثمان الطاهر وكان النعش ينساب انسياب في بحر متلاطم من الجماهير التي تدفقت لتوديعه الى مثواه الأخير في جوار سيدنا ومولانا وباب مدينة علم النبي الامام علي ابن أبي طالب عليه السلام وقد ووري الثرىٰ

---

(١) قصص العلماء / ٣٥٩.

حجرة صغيرة في الرواق بين ايوان الذهب وللحجرة مشبك فولاذي صنع خصيصاً للضريح الطاهر، حيث المؤمنون القادمون لزيارة الامام علي عليه السلام يتوقفون هيبة لتحية العلاّمة الراحل في مرقده الطاهر.

الشهيد الأول: محمد بن مكي العاملي
المستشهد سنة ٧٨٦هـ

أرض العلم والعمل

ما تزال قمم جبل عامل شامخة في جنوب لبنان وما تزال مدنها تتلألأ بفكرها وايمانها ومقاومتها.

جبل عامل في أرض الجنوب اللبناني وهي منطقة جبلية تتألف من عدّة مدن هي الجباع، النبطية، جزين ومدن أخرىٰ حيث أكبر مدن الجنوب هي صور وصيدا.

جبل عامل كوكب ساطع في سماء التاريخ الشيعي وعندما يذكر المرء جبل عامل تتداعىٰ في ذهنه عشرات الذكريات الحلوة والمرّة ولكن المرء سوف يعرف هذا الجبل وأهله بولائه لأهل البيت ومقاومته في سبيل هذا المبدأ الراسخ منذ بدء التاريخ الاسلامي وتعود جذور التشيع في هذه المنطقة الى عهود مبكرة جدّاً وبالتحديد الى قدوم الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ابّان محنته وهو ينقل من منفىٰ الى منفىٰ، ومنذ ذلك التاريخ بقت بذور التشيع والولاء والحب لأهل البيت عليهم السلام.

وما يزال ذلك المسجد الذي بني في ميس الجبل يحمل اسم أبي ذر الغفاري اضافة الى وجود مساجد عديدة أخرىٰ تنسب الى ذلك الصحابي الكبير.

ومنذ ذلك الوقت بدأ التاريخ المشرق لجبل عامل انه موطن لعلماء عباقرة

ومفكرين كبار فإليه ينتمي «الشيخ علي بن الحسين الكركي، المعروف المحقق الثاني والشيخ لطف الله الميسي حيث مسجده الآن نقطة مضيئة في مدينة اصفهان عاصمة الصفويين واليه يحجّ الآلاف من عشاق الفن الاسلامي سنوياً ومن هذه المنطقة انحدر العالم الكبير الشيخ البهائي ووالده الشيخ عبدالصمد العاملي كما يبرز الشهيدان الأول والثاني وبلغت الحركة العلمية مديات كبيرة إذ يذكر الحرّ العاملي عن أحد اساتذته انه اشترك سبعون مجتهداً في تشييع جنازة في قرية من قرىٰ جبل عامل وذلك في عصر الشهيد الأول وان علماء جبل عامل يبلغون خمس علماء الشيعة في جميع الأقطار الاسلامية. وهكذا تمثل جبل عامل مساحة محدودة في الجغرافيا لكنها تتمدد لتشمل مساحات واسعة جداً في التاريخ الاسلامي.

مطلع الشمس

في بيت صغير وفي أرض جبل عامل مباركة وفي سنة (٧٣٤هـ) ولد صبي من شجرة طيبة فأبوه هو العالم والفقيه الشيخ محمد المكي المعروف بجمال الدين. وبدأ بولادته فصل جديد في مسيرة جبل عامل بعد أن سجل التاريخ هذه السطور.

الاسم: محمد.

اللقب: شمس الدين ثم الشهيد الأول.

الأب: الشيخ ابو محمد المكي الملقب بجمال الدين أو شرف الدين.

الأم: سيدة علوية من آل مُعية في العراق.

الجد: الشيخ محمد شمس الدين.

تاريخ الولادة: ٧٣٤هـ

محل الولادة: بلدة جزين في جبل عامل.

نسبه

من جهة النسب تعود جذوره الى أربع قبائل عربية عريقة هي: «همدان»، «الأوس»، «الخزرج»، و «بني عبد المطلب» وقد ورد بخط الشيخ المكي بن محمد وهو من أحفاد الشهيد الأول ومن علماء القرن الثاني عشر الهجري ما يشير الى انتسابه الى قبيلة همدان[١] وذلك عن طريق جدتهم الكبرىٰ ومن جهة الأب يعود نسبه الى «بني عبد المطلب» وذلك لكثرة لقب الهاشمي والشريف والمطلبي ومن جهة الأم الى سعد بن معاذ كما ذكرت ذلك ابنته[٢].

دراسته

امضىٰ محمد طفولته في بلدة جزين في بيئة مفعمة بروح الايمان وفي جوّ فكري فريد وكان لوالديه والظروف الاجتماعية المناسبة الأثر الكبير في نمو شخصيته غير غائبين عن مواهبه الذاتية وما امتاز به من ذكاء حادّ الأمر الذي ساعد على تحلّي قابلياته الفذّة في وقت مبكر جداً فلفت الأنظار اليه، وقد أمضىٰ ستة عشر ربيعاً من عمره المبارك في بلدته ومسقط رأسه وقد شعر بأنه ارتوىٰ منها علماً وأدباً وراح يطمح نحو المزيد فطفق ينظر الى الآفاق البعيدة ويحلم بالسفر.

كان والده معلمه الأول وكان استاذاً مبرزاً وقد تعلم لديه ولدىٰ اساتذة آخرين مقدمات العلوم الدينية كما تتلمذ لدىٰ عم والد الشيخ اسد الدين الصائغ الجزيني وقد ذكر السيد محسن الأمين الشيخ الصائغ كعالم كبير وأشار الى تبحر في ثلاثة عشر حقل علمي من علوم الرياضيات[٣].

---

(١) حياة الامام الشهيد الأول، محمد رضا شمس الدين، ٩ و ٢٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أعيان الشيعة ٣ / ٢٨١ تحقيق السيد حسن الأمين.

زواجه وأولاده

ان كنية الشيخ محمد بن مكي العاملي هي «أبو عبد الله» ولقبه شمس الدين ثم اشتهر فيما بعد بالشهيد الأول وذلك بعد استشهاده الفجيع.

وقد اقترن الشهيد الأول بابنة استاذه وعمّ والده الشيخ اسد الدين الصائغ الجزيني[١] وكانت السيدة فقيهة عالمة نشأت في ظلال عالم مبرز وتقي وكانت تعرف بـ«أم علي» وكان الشهيد الأول يأمر النسوة بمراجعتها في المسائل الشرعية والقضايا الدينية[٢]، وكانت ثمرة هذا الزواج المبارك ثلاثة أولاد وبنتاً واحدة وقد نشأوا نشأة صالحة وتشرّبوا في ظلال والديهم العلم والفضيلة والتقوىٰ.

وابنهما الأكبر الشيخ رضي الدين أبو طالب محمد، ثم الشيخ ضياء الدين أبو القاسم علي وبعده الشيخ جمال الدين أبو منصور حسن وهو الأصغر أما ابنته فهي «ست المشايخ» فاطمة وكانت مثالاً للمرأة المؤمنة وقد أوتيت حظاً عظيماً من العلم والورع والعفاف والطهر. وقد بلغ من أجلال الناس لها أنها لما توفيت مشىٰ في تشييع نعشها سبعون مجتهداً في جبل عامل وكان والدها يكن لها احتراماً عميقاً وكان يحث النسوة على الاقتداء بها والسير على هديها والرجوع اليها في أخذ الأحكام الشرعية والمسائل الدينية[٣].

وكان الشهيد الأول قد منح كلّاً من ابنيه محمد وعلي واختهما فاطمة اجازة في الرواية ونقل الحديث[٤].

---

(١) أعيان الشيعة.
(٢) أمل الآمل ١ / ١٩٣.
(٣) أمل الآمل ١ / ٦٧.
(٤)

الهجرة

كانت الحلّة يومئذ في طليعة المدن والحواضر الاسلامية وكانت مركزاً هاماً من مراكز الفكر الاسلامي وقاعدة كبرىٰ للمذهب الشيعي، وكانت بما تمتلكه من ثقل علمي وديني تجتذب اليها طلاب العلم والمعرفة من كل حدب وصوب وكان زعيم الحوزة العلمية فيها يومئذ فخر المحققين وهو نجل العلّامة الحلّي والذي يعد امتداداً لعبقرية والده، ولهذا وفي عام (٧٥٠ هـ) - وقد كان الشهيد الأول في السادسة عشرة من عمره - قام بالهجرة والانتقال اليها وقد ملأ الحماس نفس ذلك الشاب الذي ما يزال يشعر للظمأ فهو يطلب الارتواء من ينابيع العلم وبحار المعرفة وكان حلمه السفر الى العراق والى مدينة الحلة بالذات وقد تحقق حلمه[١].

ومكث الشهيد الأول مدّة خمسة أعوام في مدينة الحلّة متتلمذاً على أيدي اساتذتها وفي طليعتهم فخر المحققين الحلّي والسيد فخّار الموسوي والسيد عميد الدين الحسيني (ابن أخت العلّامة الحلّي) وتاج الدين ابن معيّة ونجم الدين جعفر بن نماو وآخرين، وقد تشرّب خلال هذه المدّة العلم والمعرفة والأخلاق وكل الفضائل الانسانية التي سادت في هذه المدينة يومذاك.

وقد بلغ من نبوغ هذا الشاب انه حصل في سنة (٧٥١ هـ) ولم يمض عام واحد فقط على اقامة في الحلّة على اجازة في الاجتهاد منحها اياه زعيم الحوزة العلمية فخر المحققين فضلاً عن اجازته في الرواية أيضاً[٢].

وخلال اقامة الشهيد في العراق سافر الى بعض المدن العراقية كالعاصمة بغداد، كربلاء، النجف وسامراء، وقد أفاد خلال زياراته الى كربلاء والنجف من بعض علماء المدينتين.

---

(١) حياة الامام الشهيد الأول، ٥٧.

(٢) المصدر السابق، ٤١.

العودة الى الوطن

امضىٰ الشهيد خمس سنوات بعيداً عن وطنه ولعلّ الحنين والشوق الى الأرض التي ولد فيها قد دفعه الى العودة الى أرض الوطن فشدّ الرحال الى جزين قريته الجميلة حالماً باللقاء وربما كان حاجة يوم هاجر الى العراق ويوم عاد الى الوطن كلمات من ربّه في قوله عز وجل **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون﴾**(١).

وهكذا عاد الشهيد الى وطنه وفي أعماق قلبه تصميم راسخ على انشاء مدرسة علمية كبرىٰ، كان عمره واحداً وعشرين عاماً عندما عاد الى جزين انه لم يزل شاباً في مقتبل العمر ولكن شخصيته العلمية قد شهدت قفزة كبرىٰ جعلته فريد عصره وزمانه.

سياحته في الآفاق

قام الشهيد بأسفار طويلة وعديدة الى نقاط مختلفة من العالم الاسلامي وكان في كل أسفاره يحمل هموم الانسان فلم يكن الشهيد الأول يفكر بتجارة أو كسب مادّي ولم يكن ليفكر بالرفاه والترفيه عن نفسه، بل كان هدفه لقاء العلماء من الشيعة والسنّة والاستفادة من تجاربهم العلمية، فكان طلب العلم والمعرفة هاجسه الوحيد اينما حلّ أو رحل.

ولهذا فقد تكونت لديه صلة قوية بعلماء السنّة مكنته من الاطلاع الدقيق والشامل على الفكر والفقه السنّي حيث اطلع ودرس الصحاح الستة اضافة الى المصادر الفقهية السنّية الكبرىٰ ولم يقتصر اهتمامه في هذا المضمار على الاطلاع

---

(١) التوبة / ١٢٢.

فقط بل وتبحر غائصاً في مكوّنات ومكنونات الفقه السنّي بحيث دفع علماءهم للرجوع اليه في حل بعض المسائل المعقّدة.

الميراث الخالد

ترك الشهيد وراءه ما يناهز الثلاثين أثراً في مختلف العلوم والفنون كالفقه والأصول والكلام والحديث والأدب والشعر ولقد كان له في حقل باع حتىٰ ان اسمه ارتبط الفقه الجعفري فعلىٰ يدى هذا الرجل العبقري دخل الفقه عصراً جديداً ولعل في طليعة آثاره الخالدة اللمعة الدمشقية والتي ما تزال حتى الآن في طليعة المصادر الفقهية للشيعة الامامية ويعد كتابه هذا من أشهر مؤلفاته على الاطلاق فهو دورة كاملة في الفقه الامامي لخّص فيه أحكامه ومسائله.

وقد شرح اكثر من عالم هذا السفر العلمي الجليل ولكن أشهر شروحه والتي ما يزال يدرس حتى الآن هو شرح الشهيد الثاني لهذا الكتاب الجليل والذي أسماه بـ«الروضة البهية»، وللشهيد الراحل مؤلفات أخرىٰ وهي كما يلي:

١ - المقالة التكليفية.

٢ - المسائل الأربعينية.

٣ - العقيدة.

٤ - الأربعون حديثاً في مجلدين.

٥ - اختصار الجعفريات.

٦ - مزار الشهيد أو منتخب الزيارات.

٧ - الدرر الباهرة من الأصداف الطاهرة.

٨ - مجموعة الاجارات.

٩ - مجموعة الشهيد في ثلاث مجلدات.

١٠ – جامع البين من فوائد الشرحين.

١١ – الألفية.

١٢ – النفلية.

١٣ – القواعد الكلّية الاصولية والفرعية.

١٤ – ذكرىٰ الشيعة في أحكام الشريعة.

١٥ – الدروس الشرعية في فقه الامامية.

١٦ – غاية الارشاد في شرح نكتة الارشاد.

١٧ – البيان.

١٨ – خلاصة الاعتبار في الحج والاعتمار.

١٩ – الباقيات الصالحات.

٢٠ – حاشية على الذكرىٰ.

٢١ – أحكام الأموات.

٢٢ – جواز ابداع السفر في شهر رمضان.

٢٣ – مسائل ابن مكي.

٢٤ – جوابات الفاضل المقداد.

٢٥ – جوابات مسائل الاطراوي.

٢٦ – شرح قصيدة الشفهيني.

٢٧ – مجموعة أشعاره.

سيماء الشهيد

كان للشهيد روحاً كبيرة وقمّة في عصره والعصور التي تلت عملاقاً في الفكر فذاً في فقهه وشخصيته وكان نحيفاً في شخصه قد ذوبته العبادة فطالما أحيا الليل

في عبادته يناجي ربه وخالقه من أجل هذا كان صامداً في وجه العاصفة لم ينحن أمام زوبعة الطغاة ولم يساوم أو يداهن، عاش حياته في بساطة الزاهدين وورع المتقين وكان في كلمة واحدة من رجال الله. وقد كان الشهيد يعاني في جرّاء وجوده في محيط سنّي متعصب ولهذا عاش حالة من التقية في سلوكه الأمر الذي اخطره الى انتاج بعض كتبه في حالة من السرّية[١] وقد أشار في مقدمة كتابه اللمعة الى أنه كان يخشىٰ أن يكتشف أحدهم مشروعه الكبير الذي انهاه في وقت قياسي وهو سبعة أيام فقط[٢].

وقد بلغ من نبوغه العلمي أن فخر المحققين هو استاذه اعترف بأنه استفاد من تلميذه أكثر مما استفاد التلميذ من استاذه[٣].

ويعد الشهيد الأول من خلال دوره الثقافي والفكري وتجربته الانسانية وما ضمه في الفكر الامامي فقهياً وعلمياً واحداً من أعمدة المذهب الامامي ليس في عصره بل وفي العصور التالية وقد دفع حياته ثمناً لموقف مبدئي لم يتزعزع عنه قيد أنملة[٤].

في دمشق

أمضىٰ الشهيد شطراً كبيراً من حياته في دمشق وما يدل علىٰ ذلك هو أن ولادة أبنائه الأربعة كانت في الشام التي ظلت منطلقاً لأسفاره ورحلاته[٥].

وقد تبلورت جرّاء أسفاره علاقات وطيدة مع شخصيات فكرية وسياسية

---

(١) مقدمة اللمعة، ٢٤.

(٢) حياة الامام الشهيد الأول / ٣٨.

(٣) روضات الجنات ٧ / ٤.

(٤) حياة الشهيد الأول، ٧٢.

(٥) المصدر السابق.

هيأت للمذهب الامامي فرصاً من التقدم والانتشار والرسوخ.

وقد كانت للشهيد علاقات طيبة للغاية مع علي بن المؤيد آخر زعماء الدولة السربدارية التي حكمت خراسان نصف قرن من الزمن، وقد قام هذا الزعيم بمراسلة الشهيد ودعاه الى القدوم الى خراسان لسدّ الفراغ الحقوقي والفقهي في الدولة الشيعية كما وأرسل اليه مجموعة من الهدايا من بينها نسخة من القرآن الكريم والصحيفة السجادية وقد عرض عليه الزعامة الدينية في بلاده وهذا نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام كنشر العنبر المتضرع يخلف ريح المسك في كلّ موضع

سلام يباهي البدر في كل منزل سلام يضاهي الشمس في كل موضع

على شمس دين الحق قد دام ظله بجد سعيد في نعيم ممتع

أدام الله تعالى مجلس المولىٰ الهمّام العالم العامل الفاضل الكامل السالك الناسك، رضي الأخلاق وفي الاعراق، علّامة العالم، مرشد الأمم قدوة العلماء الراسخين اسوة الفضلاء والمحققين، مفتي الفرق، الفارق بالحق، حاوي الفضائل والمعالي، حائز قصب السبق، في حلبه الأعاظم والأعالي، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، محيي مراسم الأئمة الطاهرين، سرّ الله في الأرضين، مولانا شمس الملّة والدين، مدّ الله أطناب ظلاله بمحمد وآله من دولة راسية الأوتاد ونعمة

متصلة الأمداد الى يوم التناد.

وبعد: فالمحب المشتاق الى كريم لقائه غاية الاشتياق وأن يمنّ بعد البُعد بقرب التلاق.

حرم الطرف من محيّاك لكن - حظي القلب من محيّاك ريّا

ينهي الى ذلك الجناب - لا زال مرجعاً لأولي الألباب - إن (شيعة خراسان» صانها الله عن الحدثان متعطشون الى زلال وصاله والاغتراف فضائله وأفضاله، وأفاضل هذه الديار قد مزّقت شملهم أيدي الأدوار، وفرّقت جلّهم أو كلّهم صفوف صروف الليل والنهار. قال أمير المؤمنين عليه سلام ربّ العالمين: «ثلمة الدين موت العلماء» وانا لا نجد فينا من يوثق بعلمه في فتياه، ويهتدي الناس برشده وهداه، فهم يسألون الله تعالىٰ شرف حضوره والاستضاءة بأشعة نوره، والاقتداء بعلومه الشريفة، والاهتداء برسومه المنيفة، واليقين بكرمه العميم وفضله الجسيم أن لا يخيب رجاءهم، ولا يردّ دعاءهم بل يسعف مسؤولهم، وينجح مأمولهم قال الله تعالى: (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل).

ولا شك أن أولي الأرحام بصلة الرحم الاسلامية الروحانية وأخرىٰ القرابات بالرعاية القرابة الايمانية ثم الجسمانية فهما عقدتان لا تحلها الأدوار والأطوار، بل شعبتان لا يهدمهما إعصار الإعصار.

ونحن نخاف غضب الله على هذه البلاد لفقدان الرشد وعدم الارشاد والمأمول من إنعامه العام واكرامه التام أن يتفضل

علينا ويتوجه الينا متوكّلاً على الله العلي القدير، غير متعلل بنوع من المعاذير ان شاء الله تعالى.

والمتوقع من مكارم صفاته ومحاسن ذاته إسبال ذيل العفو على هذا الهفو والسلام على أهل الاسلام.

المحب المشتاق

علي بن المؤيد[١].

وقد أدت هذه الرسالة الى أن يقوم هذا العبقري بتأليف سفره الخالد[٢] اللمعة الدمشقية في غضون سبعة أيام فقط ومن المؤكد أن هناك رسالة جوابية ولكنها ضاعت مع أشياء كثيرة مع التاريخ.

وكانت اللمعة من أجل أهل خراسان تعينهم على تلمس طريقهم في الاهتداء الى الأحكام الشرعية.

والكتاب يحدد بشكل عام اعتذاراً للشهيد عن السفر الى خراسان ولكنه حاول ملأ الفراغ بارسال الكتاب.

فتنة اليالوش

عاش الشهيد فيمصر مضطرب يتّسم بالقلق السياسي والاجتماعي وكانت الفتن تعصف به من كل جانب، ولقد ساعد التوتر الطائفي على ظهور حركات خطيرة تستهوي السذج والبسطاء مستفيدة من الأزمة الطائفية. ولعلّ في اختيار الشهيد الأول دمشق مقراً لسكانه كان من هذه الناحية لأنه اراد أن يكون في الخط الأول من جهة الصراع واحباط المؤامرات التي تحاول تمزيق وحدة الكلمة

---

(١) شهداء الفضيلة، ١٦٨.

(٢) مقدمة اللمعة الدمشقية، ٢٤.

والأخوة الاسلامية. وفي مثل هذه ظهرت في جبل عامل حركة خطيرة تدعو الى مذهب جديد مستغلّة هوّة الخلاف بين الشيعة والسنة، ولا تتوفر تفاصيل عن طبيعة هذه الحركة التي تزعمها شخص يدعىٰ محمد اليالوش والذي يحتمل أن يكون أحد تلامذة الشهيد الأول كما يعتقد البعض أن الحركة ذات ميول صوفية تستند الى قاعدة فكرية تنادي بوحدة الوجود. وقد انتشرت هذه الحركة في جبل عامل من خلال قابليات زعيمها اليالوش في الخطابة والقيام ببعض الأعمال الغريبة، وكان على الشهيد أن يسارع الى معالجة هذا الخطر والتصدي له فاقنع حكومة دمشق بضرورة القضاء على هذه الحركة.

وقد استجابت السلطة لاقتراحه وجهزت فرقة عسكرية زحفت باتجاه معسكر اليالوش وحدثت المعركة الفاصلة بالقرب من النبطية وسرعان ما قتل اليالوش وتمزقت قواته[1].

ولم تنته الحركة بمقتل زعيمها بل انتقلت الى شخص آخر يدعىٰ «تقي الدين الجبلي» ثم الى «يوسف بن يحيىٰ» وكان لهذين الرجلين دوراً في تصفية الشهيد الراحل رضوان الله عليه.

في السجن

استولىٰ المماليك الشراكة على الحكم في مصر وكان برقوق من المماليك البرجية وذلك سنة (٧٨٤ ﻫ) وقد عين برقوق على دمشق حاكماً جديد هو «بيدمر» وقد بدأت مرحلة جديدة مرحلة سوف تشهد صعود الانتهازيين وأصحاب الطموح الذين لا يتورعون عن ارتكاب أية رذيلة من أجل تحقيق

(١) المصدر السابق، ١٣٦.

ماربهم وقد كان ابن جماعة واحداً من أولئك الأوغاد الذين لا يروق لهم وجود شخصية علمية كبيرة بمستوىٰ الشهيد تكشف سوءاتهم.

وقد أثمرت الدسائس والأطماع والمؤامرات التي شارك فيها أفراد من قرية اليالوش الى القاء الشهيد في السجن واستغلت مراسلاته مع دولة «السربداران» ورسائل زعيمها اليه أبشع استغلال ان ابن جماعة كان السبب الرئيس في بلورة مخاوف حاكم دمشق من الشهيد ويبدو ان ابن جماعة هذا يضمر حقداً هائلاً ضد الشهيد خاصّة بعدما حاول التحرش به والاساءة الى منزلته ومكانته فقد اجتمع به ذات يوم وكان الشهيد مشغولاً بكتابة نص فأثار ابن جماعة مسألة خلافية تمكّن الشهيد من اشعاره العجز عن مقاومته فعزّ على ابن جماعة هزيمته أمام الناس، فأراد توجيه الاهانة للشهيد فقال معرّضاً بنحافة جسم الشهيد: إني أجد حسّاً من وراء الدواة ولا أفهم ما يكون معناه؟

فأجابه الشهيد على الفور: نعم (ابن الواحد) لا يكون أعظم من هذا فشعر (ابن جماعة) بالخزي وكاد يتفجّر غيظاً وحقداً.

كان أولىٰ الخطوات في تصفية الشهيد هي القاءه في السجن واقصاءه عن الحياة العامّة وقطع جميع اتصالاته بالجميع فقد سجن الشهيدالأول في قلعة دمشق مدّة عام كامل وقام الشهيد بمحاولة لتليين موقف «بيدمر» وتبديد شكوكه ومخاوفه فكتب اليه أشعاراً رقيقة:

يا أيها الملك المنصور بيدمر ... بكم خوارزم والأقطار تفتخر
إني اراعي بكم في كل آونة ... وما جنيت لعمري كيف أعتذر
لا تسمعن فيّ أقوال الوشاة فقد ... باؤوا بزور وإفك ليس ينحصر
والله والله أيماناً مؤكدة ... إني بريء من الأفك الذي ذكروا
الفقه والنحو والتفسير يعرفني ... ثم الأصولان والقرآن والأثر

غير أن النفوس الهابطة التي أعماها حب السيطرة والنفوذ وشهوة الحكم كان لها اذن صمّاء وقد كان الحاكم بيدمر ومن معه من وعاظ السلاطين من أمثال ابن جماعة كانوا يدركون جيداً ان الشهيد لم يفكر بالحكم حتى لحظة واحدة لقد كان في عالم آخر ولو كان غير ذلك للبّىٰ دعوة الدولة السربدارية وزعيمها المؤيد. لقد قرروا تصفيته وخاصّة ابن جماعة الذي اثبت في حقده وضعته انه كان ابناً لجماعة والّا لما ضمر كل هذا الحقد لانسان نبيل مثل الشهيد الأول لقد حالهم اتساع قاعدته الشعبية التي لم تكن تعرف لتوقف أمام الحواجز المصطنعة.

لقد التفّت حوله الجماهير سنّة وشيعة وعبرت شهرته الحدود وهكذا تضافرت عدّة عوامل واجتمعت لتؤدي الى تصفية الشهيد على ذلك النحو المأساوي، وقد بدأ مسلسل الحوادث بقيام يوسف بن يحيىٰ بتلفيق محضر يعجّ بأقاويل نسبها الى الشهيد ووقعه مع سبعين من أتباعه، ثم جاء دور ابن جماعة ليضيف اليه ألف شهادة من أتباعه ثم ينفذه الى الكافي المالكي قاضي بيروت مع تهديدات بعزله اذا لم يحكم باعدام الشهيد الراحل.

وتشكلت محكمة صورية تليت فيها قائمة بالاقاويل والافتراءات ووجهت الى الشهيد كاتهامات؛ وقد أنكر الشهيد الراحل ﷺ جميع التهم الموجهة اليه ولكن دون جدوىٰ.

وعلق أحد أعضاء مجلس الحكم: لقد ثبت ذلك عليك شرعاً ولا ينتقض حكم الحكم! فردّ الشهيد مفنداً: الغائب على حجته فإن اتىٰ بما يناقض الحكم جاز نقضه والّا خلا ثم أضاف ﷺ: وها أنا أبطل شهادات من شهد بالجرح ولي على كل واحد حجّة بيّنة[1].

(١) شهداء الفضيلة / ١٦٨ - ١٧٠.

وبالرغم من منطقية الدفاع الاّ ان المحكمة كانت قد أصدرت حكمها من قبل في مؤامرة قذرة حيكت خيوطها في الظلام.

وهنا تبادل الأعضاء نظرات ذات مغزى، ونهض الكافي المالكي بحركة تمثيلية اذ قام للوضوء ثم صلّىٰ ركعتين وأصدر حكمه الظالم قائلاً: قد حكمت بإهراق دمه[1].

وفي تلك اللحظات التاريخية تجلّت كل صور الفضيلة والتقوىٰ والشجاعة وواجه مصيره بروح كبيرة ونفس مطمئنة آمنة وقلب ثابت.

ولقد حاول أعداؤه دفعه الى الاستسلام والخضوع، فعرضوا عليه التوبة وقد رفض الشهيد ذلك بشدّة قائلاً: أنا لم ارتكب ذنباً لكي أتوب.

وكان الشهيد يدرك أن محاكمته لم تكن محاكمة لشخصه بل لشخصيته التي نهضت على مبادئ وقيم الاسلام العظيمة وعلى مذهب أهل البيت عليهم السلام واذن فلا مجال للتراجع والخضوع.

النهاية الدامية

في يوم الخميس التاسع من جمادى الأولىٰ عام (٧٨٦ هـ) وقد كان الشهيد في الثانية والخمسين من عمره الشريف، وفي قلعة دمشق التي تضجّ بنفوس أموية حاقدة كانت النهاية. هذه المدينة الآثمة التي طالما شهدت قتل الأولياء من قبيل العالم الامامي الكبير حسن الهمداني الدمشقي السكاكيني الذي تم اعدامه سنة (٧٤٤ هـ) في سوق بيع الخيول وقتل واحراق جثمان العالم علي بن أبي الفضل الحلبي ورفع رأسه فوق القناة يطاف به في شوارع دمشق.

---

(١) روضات الجنات ٧ / ١٩؛ شهداء الفضيلة، ١٣٩.

كما وقتل بتهمة التشيع ابن محمد الشيرازي وذلك سنة ٧٦٦ هـ

ودارت عجلة الموت والقتل الوحشي لتطال هذه المرّة العالم العبقري الكبير شمس الدين محمد بن مكي. وقد لقي الشهيد حتفه في الضربة الأولى بسيف أموي حاقد ولكن هل اكتفىٰ أعداؤه بذلك؟ كلّا لقد تفجّرت في نفوسهم كل الأحقاد وضجّت في أعماقهم كل الرذائل والدنايا وارتكبوا أعمالاً وحشية دلّت على مستواهم الهابط الوضيع وأخلاقهم المنحطّة؛ فقد أمروا بصلب الجثمان الطاهر في مكان عام ووضعت حوله حراسة مشددة لئلّا يحاول مريدوه انقاذ هذا الجثمان الطاهر ولم يكتفوا بذلك أيضاً بل أمروا الجلاوزة برجمه ثم انزل الجسد المهشم من الصليب ليحرق.

وهنا يقف الانسان مدوهشاً وهو يتصوّر تلك الوحشية وينظر الى أي مدىٰ يصل اليه الانسان عندما يستحوذ الشيطان على عقله ونفسه وروحه ويسكن في أعماقه.

ليس للشهيد أول قبر فيزار ولكنه لا يحتاج الى ضريح أنه في طليعة الشهداء وهم أحياء عند ربهم يرزقون، انه يسكن في قلوب الأحرار على مدىٰ الأيام والأعصار. لقد التحق بقافلة الحسين والذين التحقوا بالحسين لن يموتوا لقد حطموا جدران الزمن الصدئة وعانقوا المجد والخلود.

لقد كانت نهاية ذلك الرجل الفذ نهاية دامية وبطولية عاش عظيماً ومات عظيماً، عاش حياته وكانت حافلة بالعطاء وموتاً أعظم من الحياة.. فدخل التاريخ من أوسع أبوابه والسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يدخل جنات الفردوس.

أحمد بن فهد الحلّي /المتوفىٰ سنة ٨٤١هـ

ولادته وطفولته

مرّ قرن كامل على الهجوم المغولي الوحشي على الشرق المسلم والذي حول بعض مدنه وحواضره الى خرائب وانقاض، غير ان مدينة الحلّة وقد قيض الله لها من حكمائها من يعمل على انقاذها من هذا المصير الأسود؛ قد ظلت في مأمن فعاشت حياتها طبيعية بعد أن عم الرعب أهلها عشية سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ

هي الآن مركز محافظة بابل وقد بناها أحد الأمراء المزيديين الشيعة وهو «سيف الدولة بن صدقة» وقد استمرت حكومة آل مزيد حتى سنة (٥٤٧ هـ) ثم استعادها العباسيون حتى سقوط بغداد لتخضع للحكم المغولي ثم حكمها بعد ذلك الجلائريون في عام (٧٥٧ هـ) ولد في منزل شمس الدين محمد بن فهد صبي اسمه أحمد وينشأ ويترعرع في ذلك البيت المفعم بالعلم والفضيلة والتقوىٰ.

أمضىٰ معظم عمره المبارك في العهد الجلائري حيث حكم الجلائريون من سنة (٧٤٠ هـ) وحتى (٨١٣ هـ) وزعيم هذه الأسرة هو الشيخ حسن الجلائري ثم أعقبه السلطان أويس وبعده السلطان حسين والسلطان أحمد وقد عاش أحمد بن فهد الحلّي ٥٦ سنة من عمره الذي ناهز الرابعة والثمانين في العهد الجلائري قضاها في مدينة الحلّة.

وقد نشأ أحمد وترعرع في بيت علمي وكان يتشرب العلم والمعرفة في ذلك البيت كما يتنفس المرء الهواء كما ان الحلّة آنذاك كانت في طليعة المراكز الثقافية

والعلمية وهكذا فقد تعلم القراءة والكتابة ووجد نفسه يمضي مع أقرانه الى الكتاتيب[١].

وبعد هذه المرحلة ومنذ نعومة أظفاره أخذ أحمد طريقه نحو المراكز العلمية في هذه المدينة لدراسة العلوم الدينية.

وتمضي السنون تلو السنون وكان أحمد الذي أصبح شاباً يزداد حماساً وارادة في طلب العلم والمعرفة وإذ ذاك تألق كوكب ساطع في سماء العلم ولم يكن سوىٰ أحمد بن فهد الحلّي.

أساتذته

درس أحمد بن فهد وتتلمذ لدىٰ علماء وأساتذة عديدين نذكر من بينهم:

١ - علي بن محمد بن خازن الحائري.

٢ - الشيخ أحمد بن متوج البحراني: وهو عالم كبير وعارف ومفسّر وشاعر.

٣ - ضياء الدين ابو الحسن علي بن محمد بن مكي نجل الشهيد الأول رحمه الله.

٤ - علي بن يوسف بن عبد الجليل النيلي.

٥ - بهاء الدين علي بن عبد الكريم بن عبد الحميد النسّابة وهو أكبر أساتذة ابن فهد وكان شاعراً وعالماً وله كرامات عرفها الناس.

٦ - السيد جمال الدين بن الأعرج الحسيني.

٧ - فاضل مقداد، وهو من كبار متكلّمي الشيعة.

٨ - جلال الدين عبد الله بن شرفشاه.

٩ - حسن بن أبي الحسن الديلمي وهو عارف ومحدث كبير من محدثي

---

(١) تاريخ الحلّة، الشيخ يوسف كركوش، ط الشريف الرضي قم ١ / ٢.

الامامية وهو صاحب الأثر المعروف: «ارشاد القلوب» ومن فقهاء عصره ومن المؤلفين في السيرة.

١٠ – نظام الدين علي بن عبد الحميد النيلي[١].

المعرفة القدسية

ولم يستغرق ابن فهد الحلّي في دراسة العلوم العقلية والنقلية بل واهتم في تزكية نفسه وتهذيبها حيث تصفو القلوب وتتطهر وتستعد وتكون قادرة على تلقّي الاشراق والوعي كان يتعبد في معبد الحقيقة و «يراقب» و «يحاسب» ويندرج في سلّم السالكين ليصل مرحلة الشهود والجذب الالهي ويكون ثالث ثلاثة وصلوا الى «مقام التمكّن في التوحيد»[٢] لا يبلغه الّا عظماء العارفين، وهذا ما صرح به العلّامة علي آقا قاضي الطباطبائي استاذ العلّامة الطباطبائي (صاحب تفسير الميزان) في العرفان اذ لم يبلغ هذه المرحلة الّا ثلاثة: السيد بن طاووس، وأحمد بن فهد الحلّي والسيد مهدي بحر العلوم رضوان الله عليهم أجمعين.

تلامذته

كانت مدينة الحلّة مركزاً ثقافياً متقدماً وكانت الحوزة العلمية فيها تعمل كخلية نحل، وكان ابن فهد اسماً متألقاً وعلماً كبيراً، وكان في تلك الفترة استاذاً في مدرسة «الزعيّة» وله فيها حلقة تكتظ بتلامذة نابهين ومن بين تلامذته الذين نالوا

---

(١) ريحانة الأدب، ميرزا محمد علي المدرس التبريزي ٨ / ١٩٣؛ المهذب البارع لابن فهد الحلّي تصلحيح الشيخ مجتبىٰ العراقي ١ / ١٨ – ١٩.

(٢) التمكن في التوحيد من مصطلحات العرفان حيث السالك الى الله يكون حالة دائمة من توحيد الله فالثبوت في التوحيد يدعىٰ التمكّن في توحيد الحق تعالى شأنه.

حظاً كبيراً من العلم والمعرفة.

١ - ابن طي: مؤلف كتاب «مسائل ابن طي» كان من مريدي استاذه ابن فهد.

٢ - ابن عشرة: فقيه تقي وقد بلغ من تزكية لنفسه وتهذيبه أنه أعد لنفسه قبراً في حياته وأوصىٰ بدفنه فيه بعد وفاته.

٣ - أحمد بن محمد البحراني.

٤ - ابن راشد القطيفي.

٥ - الشيخ شمس الدين محمد الحولاني العاملي.

٦ - ظهير الدين بن علي العيناثي العاملي.

٧ - الشيخ عبد السميع بن فياض الأسدي.

٨ - علي بن هلال الجزائري، وهو من أكبر أساتذة المحقق الثاني.

٩ - علي بن فضل بن هيكل.

١٠ - السيد محمد بن فلاح الموسوي الحويزي.

١١ - السيد محمد نوبخش.

١٢ - الشيخ مفلح بن حسن الصيمري.

١٣ - عز الدين حسن بن أحمد بن فضل الماروني العاملي.

١٤ - شمس الدين بن عز الدين بن أبي القاسم الحسيني[١].

مؤلفاته

ترك ابن فهد وراءه مؤلفات ومصنفات عديدة ألفت ميراثه الخالد الذي تركه للأجيال ومن مؤلفاته:

---

(١) طبقات اعلام الشيعة، آقا بزرگ الطهراني ٤ / قسم ايفاء اللامع في القرن التاسع؛ بحار الأنوار ١٠٤ - ١٠٥ (اجازات البحار).

١ - الأوعية والفتوم.

٢ - استخراج الحوادث: رسالة في استنتاجات عن حديث لأمير المؤمنين علي عليه السلام أخبر فيه عن هجوم المغول وظهور الدولة الصفوية.

٣ - أسرار الصلاة.

٤ - بغية الراغبين.

٥ - تاريخ الأئمة.

٦ - التحصين في صفات العارفين: وهو من النصوص العرفانية القيمة حيث يشرح العزلة والانزواء في ضوء أحاديث المعصومين عليهم السلام.

٧ - الدر الفريد في التوحيد.

٨ - الدر النضيد.

٩ - رسالة الى أهل الجزائر.

١٠ - رسالة في فضيلة صلاة الجماعة.

١١ - رسالة موجزة في واجبات الحج.

١٢ - شرح الارشاد للعلّامة الحلّي.

١٣ - شرح ألفية الشهيد الأول.

١٤ - شرح نفلية الشهيد الأول.

١٥ - عدّة الداعي ونجاح الساعي وهو من أشهر كتب أحمد بن فهد الحلّي، وفي طليعة مؤلفاته الأخلاقية وقد قسمه الى ستة أبواب:

- □ الترغيب في الدعاء.
- □ عوامل استجابة الدعاء.
- □ آداب وشروط الداعي.
- □ طرق وأساليب الدعاء.

□ الذكر.

□ تلاوة القرآن الكريم.

١٦ - مصباح المبتدي وهداية المقتدي.

١٧ - المقتصر من شرح المختصر.

١٨ - المهذب البارع: وهو شرح على المختصر النافع للمحقق الحلّي ويعد من أهم الكتب الفقهية التي صنفها ابن فهد، وقد ظل مدّة طويلة مرجعاً هامّاً للفقهاء في الافادة من نظرياته وآرائه.

١٩ - النجوم: ولعل أبرز ما في حياة أحمد بن فهد الحلّي هو استمراره في فعاليته العلمية والمعرفية وقد ظل يكتب الى آخر دقائق عمره ولهذا ظل كتابه النجوم دون اتمام وهذا ما يدل على ارادة وتصميم وحب لطلب العلم والتحقيق والدراسة الى آخر لحظات حياته.

رحلته الى جبل عامل

في سنة (٨٢٦ هـ) قام أحمد بن فهد الحلّي برحلة الى منطقة جبل عامل في جنوب لبنان وكان له من العمر يومها سبعة وستين عاماً وقد ذهب الى بلدة جزّين ليأخذ اجازة من نجل الشهيد الأول في الرواية ولا تتوفر أية تفاصيل عن هذه الرحلة عن أسبابها ودوافعها وظروفها، وربما كان من أهداف زيارته الحج الى المسجد الأقصىٰ أول قبلة للمسلمين ولقاء علماء الدين في جنوب لبنان[١].

(١) تعليقة أمل الآمل ميرزا عبد الله الافندي الاصفهاني ط مكتبة المرعشي قم / ٩٤ - ٩٥.

كرامة في بستان النقيب

في أواخر عمره المبارك هاجر ابن فهد الحلّي الى مدينة كربلاء ليصبح مرجعاً كبيراً هناك وقد بلغ من تقديسه لهذه الأرض الطيبة انه لم يقض الحاجة فيها أبداً ولاستثمار وقته في عمل الخير فقد كانت له أرض خارج المدينة اتخذها مزرعة له يزرع فيها ما يحتاج في طعامه وقد روي انه كان ذات يوم يعمل في مزرعته اذ دخل عليه رجل يهودي وقال له: انكم تنقلون من نبيكم أنه قال: **علماء أمتي أفضل من أنبياء بني اسرائيل** فقال أحمد بن فهد: أجل هو ذاك فقال اليهودي: وما دليلك على هذا؟ وقد كان لموسىٰ عصاه التي استحالت الىٰ حيّة تسعىٰ، حينئذ ألقىٰ ابن فهد المسحاة التي في يده على الأرض فإذا هي ثعبان يتلوّىٰ ثم أمسك بها فعادت كما كانت مسحاة! فقال اليهودي ان هذا يجعلك على قدم المساواة معهم وليس أفضل منهم فقال ابن فهد: ولقد خاطب الله موسىٰ عليه السلام قائلاً لا تخف وأنا لم أخف![1].

التصدّق بالجاه

روي انه رأىٰ أحدهم في عالم الرؤيا محفلاً ضم علماء الشيعة جميعاً الّا انه لم ير ابن فهد معهم فسأل عن ذلك فقيل ان ابن فهد في محفل الأنبياء قد انتخب له مكاناً، وبعد مدّة رأىٰ ذلك الرجل ابن فهد فسأله ما فعلت حتىٰ وصلت ما وصلت اليه في مجالسة الأنبياء؟ فقال ابن فهد لقد كنت فقيراً لا أملك ما اتصدّق به لأعين فقيراً أو آخذ بيد بائس محتاج من هنا فقد تصدّقت بجاهي لآخذ بيد الفقير والمحتاج[2].

---

(١) ترجمة عدّة الداعي، حسين فشاهي، ٨.

(٢) تفسير سورة الحمد والبقرة، القاضي نور الله الشوشتري ٢ / ٣٦٨ - ٣٧٠.

المناظرة

في عام (٨٤٠ هـ) وقد ناهز الرابعة والثمانين من عمره الحافل بالعطاء تلقىٰ ابن فهد دعوة من حاكم بغداد للمناظرة مع علماء أهل السنّة. كان اسبند ميرزا بن قرا يوسف من أمراء السلطان الجلائري وقد حكم مع ابيه بغداد وأطرافها مدّة اثني عشر عاماً، وكان اسبند ميرزا قد تسنّم الحكم سنة (٨٤٦ هـ) أي أنه لم يمض على حكمه سوىٰ أربع سنوات عندما جرت هذه المناظرة. واصطف الفريقان للمناظرة وكان ابن فهد بطبيعة الحال مع الفريق الامامي وجرت المناظرة بحضور السلطان وكانت في غاية الحساسية وقد أثبت ابن فهد الحلّي في النهاية حقانية المـذهب الامامي وهذا ما دفع بـ«اسبند ميرزا» حاكم بغداد الى أن يعلن اعتناقه المـذهب الشيعي وأمر بضرب نقود جديدة نقش عليها اسماء الأئمة الاثني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام وأعلن ان المذهب الامامي هو المذهب الرسمي لمنطقة نفوذه[١].

في رأي الآخرين[٢]

كثيرون تحدثوا عن شخصية أحمد بن فهد الحلّي فالميرزا حسن النوري قال فيه انه صاحب مقامات عالية في ميدان العلم والعمل وخصال روحية وباطنية قل أن تجد مثلها في غيره.. ذلك جمال الدين أحمد بن فهد الحلّي[٣].

---

(١) مجالس المؤمنين ٢ / ٣٦٨ - ٣٧٠.

(٢) عاش في زمان ابن فهد عالم آخر يحمل نفس الاسم فقد اشتهر بـ«ابن فهد» أيضاً وهذا ما سبّب نوعاً من الخلط لدىٰ بعض من أرخ لهذه الفترة من تاريخ العراق والحوزة العلمية؛ فكلاهما مثلاً كانا من تلامذة ابن متوّج وكليهما شرح على «الارشاد» للعلّامة الحلّي أما أحدهما فمن الحلّة والآخر من «الإحساء» وهي من قرىٰ الحلّة وقد اشتهر شرح أحمد بن فهد الحلّي بشرح الارشاد، أما شرح الآخر فله اسم آخر، كما ان الأول كان استاذاً في الأخلاق والعرفان وقد عرف بكراماته فيما عرف الآخر بكونه استاذاً في الفقه فقط. وفهد هو جدّ الحلّي وفهد الآخر اسم أبيه / ترجمة روضات الجنات، محمد باقر الساعدي ١ / ١٠٩ - ١١٠.

(٣) مستدرك الوسائل، الميرزا حسن النوري ٣ / ٤٣٤.

وقال فيه العلّامة المجلسي: الشيخ الربّاني والعالم الصمداني[١].

أجل لقد اشتهر بفضله وتقواه وورعه وعرفانه وزهده واخلاصه الكريم.

وهو غني عن التعريف في علمه، فقد جمع بين علوم المعقول والمنقول وبين فروع وأصول الدين وجسد كل ذلك في ظاهره وباطنه وسيرته فجمع في شخصه بين العلم والعمل على أحسن ما يكون[٢].

ومجده التستري المحقق ووصفه بالشيخ الجليل فريد عصره وامام المسلمين والعالم الذي دافع عن حياض الحق في مناظراته وقدوة العباد والزهاد والعارفين وأبو الفضائل والاحسان جمال الدين أحمد بن فهد الحلّي قدّس الله روحه[٣].

غروب الشمس

في عام (٨٤١ هـ) وقد مضىٰ على عمر ابن فهد خمسة وثمانين سنة، بدا ذلك الانسان الفذّ وقد استعدّ للرحيل شوقاً للقاء المحبوب، انه يودّع دار الفناء الى دار البقاء لتحلّق الروح بعيداً بعد أن خلعت ثوبها الطيني وهكذا رحل ليشيع جثمانه الطاهر وسط دموع المحبين من طلابه وتلامذته والناس الذين عرفوه وعرفوا مجده ونبله وخلقه الرفيع وقد حمل الجثمان الى بستان نقيب العلويين في كربلاء ليوارىٰ الثرىٰ هناك، وسرعان ما أصبح قبره مزاراً وقد كان السيد على الطباطبائي (مؤلف كتاب «رياض المسائل») من المداومين على زيارة قبره[٤] وقبره الآن مدرسة من مدارس العلوم الدينية ومزاراً يختلف الى زيارته والدعاء عنده المؤمنون.

---

(١) بحار الأنوار ١٠٧ (الاجازات) / ٦٨.

(٢) روضات الجنات، الخوانساري ١ / ٧١ بتصرف.

(٣) مقدمة المهذب البارع / ١٣ استناداً الى مقابس الأنوار، الشيخ اسد الله التستري، ١٨.

(٤) ريحانة الأدب ٨ / ١٤٧.

المحقق الثاني علي الكركي / المتوفى سنة ٩٤٠هـ

ميلاده

في بيت دافئ وفي قرية «كرك» من قرىٰ جبل عامل في جنوب لبنان وفي سنة (٨٦٥ هـ) ولد علي بن عز الدين حسين بن عبد العالي؛ لقب منذ نعومة اظفاره بـ «نور الدين».

وفي ذلك البيت المفعم بالفضيلة والتقىٰ والعلم نشأ ذلك الصبي المبارك ليضع أقدامه في طريق مضيء من دروب الحياة.

دراسته

بدأ دراسته وطلبه العلم في سن مبكرة وبعد أن تلقىٰ تعليمه الابتدائي انتظم في سلك الحوزة العلمية في «كرك» وكانت هذه الانتقالة هامّة في حياة ذلك التلميذ الذي عرف بالمثابرة والذكاء والاهتمام بطلب العلم ولم ينصرف كلّياً الى طلب العلم بل اهتم الى جانب ذلك بتربية نفسه وتهذيبها وتزكيتها مؤمناً بأن العلم والايمان يجب أن يقترن أحدهما بالآخر وكلاهما مكمل لصاحبه وبعد مدّة انتقل علي بن عبد العالي[1] الكركي الى قرية «ميس» وسرعان ما عرف باستاذيته، وهناك سيلتف حوله تلامذة مخلصون في طليعتهم الشهيد الثاني الذي درس على

---

(١) عادة ما ينسب المرء الى جدّه وهذا تقليد عربي متوارث فهو في الحقيقة علي بن حسين بن عبد العالي.

يديه «شرايع الاسلام» و «القواعد»[١].

كما انه مكث مدّة من الزمن في الحوزة العلمية لجبل عامل في «جبع» ليتخذ طريقه بعدها الى دمشق ومن دمشق انطلق الى زيارة المسجد الأقصىٰ في بيت المقدس، كما درس مدّة من الزمن في مدينة الخليل، ومنها سافر الى مصر ليدرس في مراكزها العلمية، وبلغ من مثابرته في طلب العلم واهتمامه بشؤون التحقيق والبحث أن عرف بـ«المحقق الثاني» و «المحقق الكركي» و «الشيخ العلائي»، وقد أفاد في رحلته الى مصر فوائد علمية جمّة، وقد استثمر وجوده في مصر على أحسن وجه وأفاد من أساتذتها وعباقرتها وقد حصل على اجازة بعضهم (وسوف نشير اليهم فيما بعد).

لقد كانت حياة علي بن عبد العالي الكركي العلمية تجربة مثيرة، وقد بدأت هذه التجربة لدىٰ رحلته الى ايران ابان قيام الدولة الصفوية التي لعبت دوراً كبيراً في الحياة الشيعية وفي مسار التاريخ الاسلامي. انه الآن لم يتوجه الى ايران بعد وانما هاجر الى العراق ليقطن في مدينة النجف الأشرف.

أساتذته

تتلمذ علي بن عبد العالي الكركي على أيدي أساتذة عديدين، وكان يتشرّب العلم والمعرفة ويغرف من بحورها وينهل من ينابيعها الثرّة ومن بين من تتلمذ لديهم الكركي ما يلي:

– علي بن هلال الجرائري (أكبر أساتذة المحقق الثاني).

– محمد بن داوود بن المؤذّن الجزيني، شمس الدين محمد بن خاتون

---

(١) التنبيهات العلية، للشهيد الثاني، تحقيق صفاء الدين البصري، ١٢٨.

العاملي، السيد حيدر العاملي، أحمد بن علي العاملي، زين الدين جعفر بن حسام العاملي، شمس الدين محمد بن أحمد الصهيوني، كما درس لدىٰ بعض علماء أهل السنة ومنهم: ابو يحيىٰ زكريا الأنصاري (المتوفىٰ ٩٢٦ ﻫ) وكمال الدين ابراهيم بن محمد بن أبي شريف القرشي (المتوفىٰ سنة ٩٢٣ ﻫ)[١].

الاصلاح

كان المحقق الكركي مستغرقاً في فعاليته العلمية من تدريس وبحث وتحقيق عندما تلقىٰ دعوة رسمية من شاه اسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية الفتية التي أعلنت تبنيها المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة ومن المعروف ان هذا الاعلان قد كشف عن وجود فراغ لقاعدة فقهية كبرىٰ للمذهب الامامي في ايران الأمر الذي جعل الكركي يشعر بالمسؤولية التاريخية في الاستجابة السريعة للدعوة والسفر الى ايران بغية ملأ الفراغ.

أصبح الكركي ملازماً للشاه في حلّه وترحاله وفي حروبه فقد رافق الشاه في حربه في افغانستان وفتح مدينة هرات، وكان للكركي من العمر يومئذ خمسون سنة وكانت الحرب آنذاك قد وقعت سنة ٩١٦ ﻫ

وجاء في بعض المدوّنات التاريخية ان شاه طهماست نجل اسماعيل شاه خاطب الكركي باعتباره الحاكم الحقيقي والفعلي انطلاقاً من كونه نائب الامام المهدي عليه السلام وانني لا اعدو أن أكون أحد الحكام الذين يمتثلون أوامرك[٢].

ولقد ساعد وجود علماء من أمثال الشيخ لطف الله الميسي، والشيخ علي نشار (والد زوجة الشيخ البهائي) والشيخ عبد الصمد (والد الشيخ البهائي)،

---

(١) الفوائد الرضوية، الشيخ عباس القمي، ٣٤١؛ الهجرة العاملية، جعفر المهاجر / ١٢١ - ١٢٢ ط بيروت ١٤١٠ ﻫ

(٢) مفاخر الاسلام، علي الدواني ٤ / ٤٤٠.

والسيد ماجد البحراني، والشيخ الحرّ العاملي، والشيخ البهائي على امتداد الدولة الصفوية التي حكمت مدة قرنين ساعد ذلك على ترشيد مسار الدولة على جميع الصعد وبخاصّة الدينية والثقافية والاجتماعية اضافة الى تشكيل نظام سياسي منح دوراً كبيراً جداً للمؤسسة الدينية، ولقد ساعدت المؤسسة الدينية بعلمائها المبرزين على التقليل من الانحرافات والانتهاكات والتجاوزات على احكام الشريعة الاسلامية.

وبعد انتخابه شيخاً للاسلام في الدولة الصفوية من أهم الفصول في حياته، حيث منح أثر ذلك صلاحيات واسعة جداً عكست ما يتمتع به الكركي من منزلة رفيعة ومقام كبير وفيما يلي نص الفرمان:

بسم الله الرحمن الرحيم

استناداً الى الحديث الصحيح الصادر عن الامام الصادق٧: انظروا الى من كان منكم قد روىٰ حديثاً أو نظر في حلالنا وحرامنا وعرف احكامنا فارضوا به حكماً فاني قد جعلته حاكماً، فإذا حكم بحكم فمن لم يقبله منه فانما بحكم الله استخف وعلينا ردّه وهو رادّ على الله؛ وهو على الشرك، وواضح ان مخالفة سيد المجتهدين، ووارث علوم سيد المرسلين ونائب الأئمة المعصومين: لايزال كاسمه العلي علياً عالياً، ولا يتابعه فانه لا محالة مردود ومن مهبط الملائكة مطرود، وسيؤاخذ بالتأديبات والتدبيرات العظيمة.

كتبه

طهماسب بن شاه اسماعيل الصفوي الموسوي[١]

(١) روضات الجنات ٤ / ٣٩١؛ رياض العلماء ٣ / ٤٥٥ - ٤٦٠.

وقد أصدر طهماسب أوامر مشدّدة بخضوع جميع المسؤولين في ايران للكركي وامتثاله لأوامره.

وقد استثمر الكركي هذه الفرصة في اسلمة الحياة الايرانية وانبرىٰ الى تعيين تلامذته في مراكز التأثير الاجتماعي والديني كما قام شخصياً بتدريس عديد من المسؤولين الحكوميين وتأهيلهم دينياً وفكرياً، وقد كشف المدوّنات في تلك الفترة عن واقع ديني بائس في الحياة الاجتماعية كالناس كانوا يعيشون في جهل من شؤون دينهم والخاصّة المذهب الجعفري الذي أعلن مذهباً رسمياً للدولة قبل أكثر من ربع قرن من الزمن. فالفقه الامامي كان مفقوداً بالمرّة ولم يكن يوجد سوىٰ كتاب «القواعد» للعلّامة الحلّي[1].

ولهذا شمّر الكركي عن ساعديه وعمل بجدّ ونشاط لاثراء الحياة العلمية في الدولة الصفوية وصدر عنه في غضون مدّة وجيزة العديد من الكتب الأخلاقية والاقتصادية والعبادية.

وذكر المؤرخ في كتابه أحسن التواريخ أن الكركي هو الذي أعاد الشهادة الثالثة الىٰ الأذان بعد حذف دام أكثر من أربعة قرون أي منذ عهد السلاجقة (٤٥٠ هـ) وحكومة طغرل بيك وحتىٰ قيام الدولة الصفوية[2].

كما قام الكركي بجهود جبارة في مكافحة كثير من المنكرات وفي طليعتها تناول الخمور وممارسات أخرىٰ اضافة الى محاربة الظلم والظالمين من الأمراء وحكام الولايات والمسؤولين[3].

ولقد نهض المحقق بمشروع اصلاحي كبير داخل الدولة الصفوية واستطاع

---

(١) مفاخر الاسلام ٤ / ٤٤٠.

(٢) أحسن التواريخ، حسن بيك روملو تصحيح عبد الحسين نوائي، ٨٥.

(٣) مفاخر الاسلام ٤ / ٤٤٢.

الى حد كبير أن يكافح ممارسات خاطئة داخل البلاط والمجتمع الصفوي فقد تمكن من القضاء على دور الفحشاء واغلاق حانات الخمور وتدمير آلات اللهو ودور القمار[١].

وبالنظر الى سعة الصلاحيات التي تمتع بها الكركي والدعم المطلق الذي حظي به من قبل شاه طهماسب فقد كان ينصب ويعزل من يشاء من المسؤولين في البلاد، وقد استطاع وفي فترة قياسية بناء مؤسسة دينية تمتع بنظام اداري فريد[٢].

وبالمقابل دعم الكركي الدولة الصفوية واقفاً الى جانبها ومؤيداً لشرعيتها، خاصّة وان الدولة لم تألُ جهداً في نشر المذهب الامامي وترسيخه، وقد وضع المحقق الكركي كل ثقله العلمي من أجل ترسيخ الفقه والثقافة والفكر الامامي في الحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمع الايراني[٣].

ولم يكن الطريق معبداً أمام الكركي حتىٰ مع الدعم المطلق الذي أبداه شاهطهماسب له فقد أثارهذا النفوذ حفيظة الكثيرين من المسؤولين في الدولة وبخاصّة المؤسسة العسكرية ذات النفوذ الكبير في سياسة الدولة.

وبدأ التآمر للاطاحة بالكركي يتخذ أشكالاً عديدة وصلت الى حدّ محاولة اغتياله، وبدأت مخاوف تساور شاه طهماسب من حدوث تحرك خطير داخل المؤسسة العسكرية بعد أن تلقىٰ تقارير تحذّر من انفجار الوضع، وفي النهاية وجد شاه طهماسب نفسه مضطراً لابعاد الكركي الى العراق بطريقة مهذبة؛ فقد صدر اذن رسمي أو رخصة للشيخ الكركي بالسفر الى العراق والاقامة هناك وهذا سدىٰ الكركي الى الدولة الصفوية خدمات كبرىٰ فقد ضخ الفكر والفقه والنظام الحقوقي

---

(١) حكيم استراباد (مير داماد) سيد علي الموسوي المدرسي البهبهاني، ١١ - ١٢.

(٢) لؤلؤة البحرين، يوسف البحراني / ١٥١.

(٣) أحسن التواريخ، روملو، ذيل حوادث سنة ٩٣١ هـ

في ادارات وهيكلية النظام وبنىٰ مؤسسة دينية كبرىٰ داخل مؤسسات النظام الصفوي ما انعش الدولة والبلاد من الناحية العلمية والتربوية ولولا هذه الجهود الكبيرة والخدمات الجليلة لانتهىٰ مسار الحركة الصفوية الصوفية الى ما انتهىٰ اليه العلويون في تركيا والشام[١].

ولاية الفقيه

يرىٰ الكركي أن على الفقيه الجامع للشروط أن ينهض بمسؤوليته في زعامة الامة الاسلامية وأن يرسي دعائم الاسلام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأن يجسد الاسلام نظاماً شاملاً في كل نواحي الحياة.

ان المرجع الذي تتوفر فيه الشروط الكافية هو نائب الرسول صلى الله عليه وآله وهو نائب الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام.

وقد صرح الكركي بآرائه في أكثر من مناسبة معتقداً بأن فقهاء وعلماء الامامية قد اتفقوا على مرجعية الفقيه الحائز للشرائط (شروط الافتاء) ومن له حق الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية مثل هذا الفقيه هو نائب للامام المعصوم في غيابه وله كل ما للامام من صلاحيات علىٰ أن عدّة من علماء الامامية استثنىٰ من هذه الصلاحيات اجراء حدود القصاص وغيره[٢].

مواقف في حياته

لقد أشرنا الى أن النفوذ الذي تمتع به الكركي قد أثار حفيظة كثير من المسؤولين ومن بينهم محمود بيك مهردار وكان من المقربين في البلاط وقد اتفق

(١) آشنايي با علوم اسلامي، الشهيد مطهري ط جامعة مدرسين سنة ١٩٨٢ م.

(٢) الدين والسياسة في العهد الصفوى، ٣٢ – ٣١٢؛ رسائل المحقق الكركي ١ – الرسالة الثالثة.

مع مجموعة من رفاقه ومرؤوسيه اغتيال الكركي في منزله وقبل تنفيذ العملية بساعات كان هذا الضابط الكبير مشغولاً بلعبة رياضية (سباق الخيل) داخل أحد الملاعب الملكية فيما كان الكركي مستغرقاً في الدعاء المنسوب الى الامام الحسين والمعروف بـ«انتصاف المظلوم» وقبل أن يفرغ من دعائه جاءه من يخبره بسقوط محمود بيك مهردار من فوق حصانه ومصرعه تحت حوافر الخيول المتسابقة[١].

كما روي أن سفير الدولة العثمانية التقىٰ الكركي داخل البلاط وقال السفير العثماني بخبث: لقد نظرت في تاريخ مذهبكم (يعني بدء قيام الدولة الصفوية الشيعية وهو سنة ٩٠٦ هـ) فإذا هو في علم الحروف على هذا النحو: «مذهب ناحق»[٢] فأجابه الكركي على الفور قائلاً: نحن قوم عرب ولساننا عربي وتاريخ مذهبنا على أساس علم الحروف هكذا: «مذهبنا حق» وبهت السفير العثماني لهذا الجواب الصاعق فسكت لكنه لم يستطع اخفاء اعجابه بالكركي[٣].

ومع كل ما تمتع الكركي من شفافية وروحية عالية ومع كل زهده وأخلاصه وتفانيه الاّ انه أوصىٰ بقضاء صلاته وصيامه والحج الى بيت الله نيابة عنه[٤].

آثاره

ترك شيخ الاسلام ميراثاً خالداً مفعماً بالعلم والمعرفة وقد ملأ عصره بفكره ونشاطه وترك بصماته في التاريخ الاسلامي في القرن العاشر الهجري وفيما يلي

---

(١) ريحانة الأدب ٥ / ٢٤٧ – ٢٤٨.

(٢) ناحق: ليس بحق ونا هنا نافية.

(٣) ترجمة روضات الجنات ٥ / ١٦٨.

(٤) رياض العلماء ٣ / ٤٤٥.

طائفة من كتبه ومؤلفاته:

جامع المقاصد (شرح قواعد الأحكام)، منهج السداد (شرح ارشاد الأذهان للعلّامة الحلّي)، حاشية على مختلف الشيعة للعلّامة الحلّي، الرسالة الجعفرية، رسالة في صيغ العقود والايقاعات، نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت، رسالة في الماء الكر، رسالة في تعقيبات الصلاة، رسالة في الغيبة، الرسالة النجمية، رسالة في تعريف الطهارة، رسالة في احكام الرضاع، حاشية على الألفية والفضيلة للشهيد الأول، شرح الألفية، حاشية على تحرير العلّامة الحلّي، حاشية على «الدروس الشرعية» للشهيد الأول، حاشية على «الذكرىٰ في الفقه»، رسالة في القبلة، رسالة في التسبيح، رسالة في التقية، رسالة في صلاة وصوم المسافر، رسالة في سماع دعوىٰ المدّعي في المحكمة وطرق استنباط الأحكام الشرعية، حاشية على قسم الميراث «المختصر النافع»، رسالة في اثبات الرجعة، كتاب في الارث، حاشية على قواعد الأحكام، معرفة الحديث، المطاعن المحرمية، رسالة في قبلة خراسان، رسالة في النيّة، ومؤلفات أخرىٰ تناهز السبعين كتاباً ورسالة[١].

تلامذته

والى جانب مسؤولياته الكبيرة في الدولة الصفوية وزعامته المؤسسة الدينية الناهضة في الدولة الفتية ونشاطه في الانتاج المعرفي فقد تولّىٰ تربية تلامذة أوفياء فكانوا أفذاذاً ساروا على خطاه وانتجوا دربه وفي طليعة تخرج على يديه: الشيخ علي منشار العاملي (والد زوجة الشيخ البهائي)، الشيخ محمد بن حسن

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة، آقا بزرگ الطهراني ط اسماعيليان / قم.

العاملي النطنزي، السيد محمد بن أبي طالب الاسترابادي، علي بن عبد الصمد العاملي، مير معز الدين الاصفهاني، علي بن عبد العالي العاملي الميسي، الشيخ عبد العباس بن عمارة الجزائري، الشيخ زين الدين الفقعاني، أحمد بن أحمد بن ابي جامع المعروف بـ«ابن أبي جامع»، الشيخ نعمة الله بن أحمد بن خاتون العاملي، ابراهيم بن علي الخونساري، جمال الدين بن عبد الله الحسيني الجرجاني، السيد شرف الدين السماك العجمي، الشهيد الثاني، الشيخ أحمد بن محمد بن خاتون العاملي، امير نعمة الله الجزائري، ظهير الدين ابراهيم بن علي الميسي، حسين بن علي بن أبي السروال البحريني، شيخ بابا، القاضي صفي الدين عيسىٰ، حسين بن محمد بن مكي[1].

اسرة الكركي

للكركي ولدان وبنتان وأول ولديه هو الشيخ عبد العالي وكان عالماً كبيراً في عصره وقد أقام في مدينة كاشان؛ والثاني الشيخ حسن، واحدىٰ ابنتيه تزوجت في جبل عامل وانجبت صبياً عرف فيما بعد بالفضل وهو مير حسين الحسيني. وقد عمل في مدينة اردبيل في التدريس وانبرىٰ الى الفصل بين الناس وحل مشكلاتهم وكان شيخ الاسلام في هذه المدينة، أما ابنته الثانية فقد تزوجت في ايران تزوجها مير شمس الدين محمد الاسترابادي وانجبت منه السيد محمد باقر

---

(١) أمل الآمل في علماء جبل عامل، الشيخ الحر العاملي ٢ / ١٤٩؛ الفوائد الرضوية، الشيخ عباس القمي، ٤١٩؛ مفاخر الاسلام، علي الدواني ٤ / ٤٣٤؛ مجموعة رسائل المحقق الكركي (١ - ٣) تحقيق محمد حسون ١ / ٣٣.

الذي تألق في سماء العلم والمعرفة وعرف فيما بعد بـ«مير داماد» وهو استاذ صدر المتألهين الفيلسوف الكبير مؤسس ورائد الحكمة المتعالية[١].

الرحيل

في عام ٩٤٠ هـ) توفي المحقق الكركي الكبير وقد ناهز من العمر الخـامسة والسبعين من عمره، وقد أثيرت كثير من الشكوك حول ظروف وفاته، وصادفت وفاته عيد الغدير الثامن عشر من ذي الحجة الحرام سنة ٩٤٠ هـ، ويرىٰ العـلّامة الأميني أن بعض متعصبي السنّة هم وراء اغتياله بالسم وقد دفن الى جوار مرقد أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام تغمده الله بواسع رحمته[٢].

(١) شهداء الفضيلة، العلّامة الأميني، ترجمة جلال الدين الفارسي، الفوائد الرضوية.

(٢) المصدر السابق.

الشهيد الثاني: زين الدين بن علي العاملي
المستشهد سنة ٩٦٦هـ

ولادته

في الثالث عشر من شهر شوال سنة ٩١١ هـ) في «جبع» إحدى قرىٰ الجنوب في لبنان أشرق كوكب مضيء في بيت «نور الدين علي» وأطلّ على الدنيا بوجه صبيح مشرق صبي غمر قلب والديه بالدفئ والأمل فسمياه بـ«زين الديـن» ولم تمض الأيام والليالي حتىٰ لاحت في وجهه ملامح الذكـاء والأدب والفـضيلة.. وهكذا نشأ الصبي في بيت مفعم بالطهر والتقوى والايمان والتواضع، ختم القرآن وهو لم يبلغ التاسعة من عمره المبارك.

اسرته

عرفت أسرته بالعلم والتقوىٰ فلقد عاش أجداده وآباؤه حياتهم في طـلب العلم فكانوا علماء فضلاء فلا غرو أن ينشأ زين الدين ويتفتق عن عالم وشـهيد وكيف لا يكون كذلك وقد عرفت أسرته بالعلم ووصف نسبه بسلسلة الذهب أجل كان الشهيد الثاني أباً لعلماء كبار وشهداء خالدين فابنه الشيخ حسن مـن كـبار علماء الشيعة ومؤلف الكتاب المعروف «معالم الأصول» في اصول الفقه والذي ما يزال حتى الآن جزءاً من المنهج الدراسي في الحوزات العلمية. والعالم المعروف والفقيه الكبير «السيد محمد علي العاملي» هو حفيده وسبطه من ابنته، الف كتاب

«المدارك» وهو من الكتب الفقهية المعتبرة ويتمتع بالأهمية الفائقة وبسبب شهرة هذين الكتابين فانهما يعرّفان بـ«صاحب المعالم» و «صاحب المدراك» ومن ذريته الشهيد الامام محمد باقر الصدر الذي عرف بالشهيد الرابع وأخته الشهيدة بنت الهدىٰ وكذا الامام موسىٰ الصدر[1] المغيب حتىٰ الآن والسيدة العلوية أخته رباب الصدر.

دراسته

انصرف الشهيد الى دراسة فنون الأدب العربي والفقه في سنّ مبكرة وكان استاذه الأول والده وهو من كبار علماء جبل عامل في عصره، فقد قرأ عليه كتاب «المختصر النافع» و «اللمعة الدمشقية» والتى كتب الشهيد حولها فيما بعد شرحه الشهير المعروف بـ«الروضة البهية» اضافةً الى كتب الأدب المختلفة ويكفي والده فخراً انه ربىٰ الشهيد تربية وضعته في طريق العبقرية والنبوغ وقد استمرت دراسته تلك حتىٰ سنة ٩٢٥ هـ) حيث توفي والده وهو لما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ولم يتوقف عند هول الصدمة ومرارة اليتم ولم تتخاذل روحه الوثابة عن طلب العلم، شأنه شأن افذاذ الرجال الذين تضعهم الحوادث وتصقل مواهبهم الأيام.

الى قرية ميس

وشدّ زين الدين التلميذ رحاله نحو قرية ميس في جبل عامل، بعد أن سمع بأن فيها عالماً كبيراً هو الشيخ «علي بن عبد العالي» الذي قرأ عليه كتاب «شرائع الاسلام» للمحقق الحلّي و «ارشاد الأذهان» للعلّامة الحلّي و «القواعد» للشهيد

---

(١) مفاخر الاسلام، علي الدواني ٤ / ٤٨١.

الأول محمد بن مكي، وكلها من الكتب الفقهية العالية وقد امتدت فترة اقامة الشهيد الثاني في ميس حتى سنة ٩٣٣ هـ) ولعلّ ما شجّع على اقامته ثمانية أعوام متواصلة هو ان استاذه كان زوجاً لخالته التي كانت تحنو عليه وترعاه طوال تلك المدّة، هاهو الآن شاباً في الثانية والعشرين من عمره وقد شاء القدر أن يتزوج بابنة خالته واستاذه ليبدأ حياته المشتركة في ظلال من الحب والايمان والفضيلة.

أسفاره ورحلاته العلمية

لم تمض على زواج زين الدين واقترانه بابنة خالته سوى مدّة وجيزة حتى خامرت الأسرة الجديدة فكرة السفر الى قرية أخرىٰ هي «كرك نوح»[١].

في كرك حضر دروس السيد بدر الدين حسن الأعرجي في الأدب والفقه والفلسفة والكلام والأصول اذ قرأ عليه «القواعد» لابن ميثم البحراني في علم الكلام وكتابي «التهذيب» و «العمدة الجلية» في أصول الفقه اضافة الى كتاب «الكافية» في علم النحو ولم تمض سوىٰ سبعة شهور حتى وصله نبأ وفاة استاذه ووالد زوجته وتذكر رحيل والده من قبل فشدّه الحنين الى «جبع» مسقط رأسه.

في شهر جماديٰ الثانية سنة ٩٣٤ هـ) غادر زين الدين كرك نوح عائداً الى قريته ومسقط رأسه حيث مكث فيها حتىٰ سنة ٩٣٧ هـ) انصرف خلالها الى المطالعة والارشاد وقضاء حوائج الناس فارتفع ذكره وكثر الثناء عليه.

الى دمشق

في عام ٩٣٧ هـ) سافر الشهيد الى دمشق حاضرة الشام وكان له من العمر

(١) تقع على قرب من بعلبك وجاء اسمها لوقوعها على مقربة من مقبرة نوح النبي عليه السلام.

يومذاك ستة وعشرين عاماً وقد شدّ الى السفر طلب العلم وتحصيل المعرفة فأقام هناك سنة واحدة حضر خلالها بحوث المحقق والفيلسوف «شمس الدين محمد بن مكي» فدرس عنده الطب والفلسفة وعلم الهيئة اذ درس عنده «شرح الموجز» في الطب و «غاية القصد في معرفة الفصد» وهما من مؤلفات استاذه، كما درس في علم الهيئة كتاب «فصول الفرغاني» وفي الفلسفة «حكمة الاشراق» للسهروردي كما درس لدىٰ استاذه آخرين ليعود الى مسقط رأسه ويمكث سنوات يسافر بعدها مرّة أخرىٰ الى دمشق طلباً للمزيد من العلم والمعرفة مرّة أخرىٰ وذلك سنة ٩٤٢ ومن دمشق شدّ الرحال الى مصر بلد الأهرام حيث غادر سوريا في الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٩٤٢ وكان هدف رحلته طلب العلم واثراء ثقافته ومعارفه الدينية والعلمية والعيش في أجواء فكرية جديدة، وقد رافقه في رحلته هذه اثنان من تلامذته هما الشيخ حسين بن عبد الصمد (والد الشيخ البهائي) وابن عمه علي بن زهرة الجبعي العاملي، وقد تتلمذ الشهيد الثاني هناك على أيدي أساتذة عديدين منهم:

١ - الشيخ شهاب الدين أحمد الرملي الشافعي: قرأ عليه «منهاج النووي» في الفقه و «مختصر الاصول لابن صاحب» و «شرح عقائد العضدي» و «شرح التلخيص» في المعاني والبيان و «شرح التصريف العربي» و «شرح جمع الجوامع» في أصول الفقه و «توضيح ابن هشام» في النحو.

٢ - الملّا حسين الجرجاني: قرأ عليه جملة من «شرح التجريد» للملّا علي القوشچي و «شرح الاشكال» في الهندسة و «شرح الجغميني» في الهيئة.

٣ - شهاب الدين ابن النجار الحنبلي.

٤ - ناصر الدين الطبلاوي.

٥ - ناصر الدين الملقاني.

٦ – محمد بن أبي نحاس.

٧ – عبد الحميد النهوري.

٨ – محمد بن عبد القادر الشافعي.

الى البيت الحرام

بتاريخ ١٧ شوال سنة ٩٤٣ هـ) غادر الشهيد زين الدين مصر الى الحجاز مع تلميذيه بقصد بيت الله الحرام، لقد شعر بأنه ارتوىٰ علماً ومعرفة وأن روحه السامية تهفو الى بيت الله والكعبة الشريفة ورجوع الوحي وارض الرسالة الخالدة، فينطلق شوقاً الى بيت الله العتيق، وتجتاز العائلة الصغيرة الصحاري والفلوات بأشواكها وكثبانها الرملية لتصل أرض مكة أرض ابراهيم واسماعيل وهاجر وأول بيت وضع للناس حيث ولد رسول الله آخر الأنبياء وعلي ابن أبي طالب آخر الأوصياء.

وأدىٰ الشهيد مناسك الحج والزيارة ليمّم طرفه نحو المدينة المنورة، الى الأرض التي شهدت قيام المعجزة الكبرىٰ معجزة الاسلام وميلاد الأمّة الجديدة.

العودة الى أرض الوطن

وبعد أن طاف الشهيد أجزاءً من بلاد الاسلام متنقلاً بين دمشق والقاهرة ثم مكة والمدينة في رحلة استغرقت زهاء عامين اذا به يعود الى أرض الوطن يشدّه الحنين مرّة أخرىٰ الى قريته الصغيرة الوادعة وقد وصلها في صفر سنة ٩٤٤ هـ) وكان يوم وصوله عيداً لأهلها حيث خرج الناس جميعاً لاستقباله.

يقول تلميذه ابن العودي: وكان قدومه الى البلاد كرجمة نازلة أو عيون هاطلة؛ أحيا بعلومه نفوساً أماتها الجهل، وازدحم عليه أولو العلم والفضل، كأن

أبواب العلم كانت مقفلة ففتحت، وسوقه كانت كاسدة فربحت، وأشرقت أنـواره على ظلمة الجهالة فاستنارت؛ وابتهجت قلوب أهل المعارف وأضاءت، أشهر ما اجتهد في تحصيله منه وشاع، وظهر من فوائـده مـا لم يـطرق الأسـماع، رتب الطلاب ترتيب الرجال، وأوضح السبيل لمن طلب.

وهكذا فقد كان وصول الشهيد الى القرية الصغيرة سبباً فـي انـبعاث حـركة ثقافية، فنشطت الحياة الفكرية، وقصده الطلاب من مـختلف المـدن والأقـاليم والتف حوله العلماء، ونهض الشهيد بمسؤوليته في ارشاد الناس وادارة الشؤون الدينية، فبنىٰ مسجداً جديداً وقام ببعض المشاريع الخيرية العامة[١].

تلامذته

تتلمذ على يد الشهيد الكثيرون وقد أصبح بعضهم من كبار العلماء ولقد كان الشهيد يتحرق على نقل ما تعلمه من المعراف الى أكبر عدد ممكن من طلاب العلم والفكر والمعرفة مؤمناً أعمق الايمان بأن زكاة العلم تكمن في نشره ومن أبـرز تلامذته:

١ - السيد نور الدين علي العاملي الجبعي أبو صاحب كتاب المدارن.

٢ - السيد علي الحسيني العاملي الجزيني المشهور بـ«الصائغ».

٣ - الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي.

٤ - محمد بن حسين الملقب الحرّ العاملي المشـغري، وهـو الجـد الأكـبر لصاحب «وسائل الشيعة».

٥ - بهاء الدين محمد بن علي العدي الجزيز المشهور بـ(ابن العودي).

---

(١) أعيان الشيعة ٧ / ١٤٩.

مجده الأخلاقي

بلغ الشهيد من الزهد والتقوىٰ والعلم والاخلاص درجة جعلت بعض العلماء يعتقدون بأنه قد شارف حدود العصمة فلقد كان الشهيد يتمثل خط الرسول الأكرم ﷺ في أخلاقه ومنطقه فلا غرو أن نرىٰ حبّه ينمو في القلوب الصافية.

كان في مجلسه وبين أصحابه وأصدقائه ومريديه كأحدهم لا يرىٰ لنفسه على غيره ميزة يباشر عمله بنفسه ولا يحب أن يقوم أحدهم بالنياة عنه في انجاز بعض الشؤون المنزلية فكان يذهب الى السوق بنفسه ويشتري ما يلزم اسرته وكان ينطلق الى الغلاة أو الغابات للاحتطاب.. كان يفعل ذلك وهو في ذروة مجده العلمي ونفوذه الاجتماعي وكان ينفر من كل أشكال التكبر وصور الرياء.

وقد لفتت شخصيته الكثيرين من عظماء التاريخ وحظي باجلال العلماء على مرّ العصور قال فيه الشيخ الحرّ العاملي (صاحب رسائل الشيعة):

أمره في الفقه والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق والتبحر وجلالة القدر وعظم الشأن وجميع الفضائل والكمالات أشهر من أن يذكر.. كان فقيهاً مجتهداً نحوياً حكيماً متكلماً قارئاً جامعاً لفنون العلم وهو أول من صنف في الامامية دراية الحديث[١].

مؤلفاته

يقف المرء مشدوهاً أمام شخصية الشهيد ووفرة انتاجه المعرفي بالرغم من حياته القصيرة نسبياً وظروفه المريرة وما قاساه من أجواء سياسية اذ خطىٰ سنوات طويلة من حياته مطارداً خائفاً ومع كل ذلك ألف ما يناهز السبعين كتاباً

---

(١) أمل الآمل ١ / ٨٥.

في مختلف حقول العلم والمعرفة وها هي بعض كتبه مثل «شرح اللمعة» و «المسالك» و «ارشاد الأذهان» و «روض الجنان» و «منية المريد» ينابيع تتدفق بالعلم والمعرفة. ومن مؤلفاته أيضاً:

«أسرار الصلاة»، «البداية في الدراية»، «البداية في سبيل الهداية»، «تمهيد القواعد الأصولية والعربية»، «حاشية الارشاد»، «حاشية تمهيد القواعد»، «حاشية القواعد»، «حاشية مختصر النافع»، «رسالة في صلاة الجمعة»، «روض الجنان في شرح ارشاد الأذهان»، «كشف الريبة في أحكام الغيبة»، «مسالك الافهام في شرح شرايع الاسلام» وعشرات الكتب والرسائل الأخرىٰ.

غروب الشمس

شعر الشهيد وهو العالم بشؤون عصره وزمانه بتحركات مشبوهة ودسائس تحاك في الظلام، وأحس بأن السلطات باتت تحصي عليه انفاسه وراحت التقارير السرية تترىٰ على مركز الخلافة العثمانية تحذر من خطورته. وفي هذا الجو المشحون بالتآمر يقرر الشهيد العودة الى مسقط رأسه بعد أن مكث في بعلبك مدّة من الزمن وكان ذلك سنة ٩٥٥ هـ

يقول ابنه العودي عن تلك الحقبة: «وهذا التاريخ كان خاتمة أوقات الأمان والسلامة من الحدثان» ولقد لجأ الشهيد الى منزل تلميذه الوفي في جزين. بعيداً عن أعين الجواسيس جدير ذكره انه وفي مثل هذه الظروف الخطيرة لم يتوقف عن التأليف والبحث والتحقيق وكان انتاجه في تلك الفترة يمثل في الواقع أشعة الغروب في حياته العلمية الحافلة بالعطاء.

واذا أردنا أن نبعث تفاصيل استشهاده فيتوجب أن نذكر رحلته الى تركيا ولقاء بعض المسؤولين في العاصمة وكان المتعارف آنذاك أن يأخذ معه تعريفاً من

قاضي بلدته يؤيد طلبه ولكن الشهيد تجاوز هذا العرف فقد بعث تلميذه ابن العودي الشاه القاضي (معروف الشامي) يحيطه علماً بعزم الشهيد على السفر. ولم يتطرق الى رسالة التعريف، لقد كان الشهيد يستند الى كفاءته العلمية فحسب ولم يشعر بحاجة الى توصية من أحد خاصّة والى ما يتبع التعريف فيما يبدو اصطحاب هدايا الى اصحاب النفوذ هي بمثابة رشاوىٰ مقنعة. ولقد حزّ في نفس القاضي ذلك ما دفعه الى التفكير في التخلص من الشهيد ثم تطورت الأمور الى أسوأ عندما ترافع خصمان اليه فحكم لأحدهما على الآخر بما أنزل الله ولم يرق للمحكوم ذلك فأسرع يبلغ القاضي «معروف الشامي» بما يحرج الشهيد في عقيدته.

وقد استدعىٰ معروف الشامي الشهيد واستوضحه حول ذلك ثم أبرق الى مركز الخلافة: «انه وجد ببلاد الشام رجل مبدع خارج عن المذاهب الأربعة[١]».

وقد أثارت هذه البرقية مخاوف السلطان سلمان القانوني الذي أرسل مبعوثاً خاصاً لاستدعاء الشهيد. ويستشعر الشهيد الخطر القادم فيغادر البلاد سرّاً مع قافلة من حجاج بيت الله الحرام، ويصل المبعوث الخاص البلاد للقاء الشهيد وابلاغه ارادة السلطان ثم يتابع اقتفاء أثره فيدركه وهو في طريقه الى مكة المكرمة، ويدرك الشهيد انه لا مفرّ من التوجه الى العاصمة بعد أن وقف على رغبة السلطان سلمان القانوني في ترتيب لقاء فكري مع علماء وفقهاء القسطنطينية[٢].

ويعرض الشهيد على المبعوث أداء مراسم الحج ثم يتوجه الى العاصمة وتم الاتفاق على ذلك.

وتوجه الرجلان صوب القسطنطينية، ولعلّ حالة الشهيد كانت تعكس

---

(١) شهداء الفضيلة، ١٣٥ بالاستناد الى أمل الآمل.

(٢) فأرسل السلطان رجلاً في طلب الشيخ وقال: ائتني به حيّاً حتى أجمع بينه وبين علماء بلادي فيبحثوا معه، شهداء الفضيلة، ١٣٦.

استسلاماً للمشيئة الالهية وربما استذكر وهو في الطريق تلك الرؤيا التي رآها فيما مضىٰ حيث رأى نفسه جالساً الى جنب الشهيد الأول محمد بن مكي الذي مصرعه في ظروف مماثلة.

ويسلك الشهيد نفس الطريق الذي سلكه من قبل، ويعاوده نفس الاحساس الغريب الذي خامره وهو يقترب من شواطئ المتوسط.

وهنا يحدث لقاء يدعو الى التساؤل، اذ يصادفهما رجل يتوقف عندهما ويدور بينه وبين مبعوث السلطان حوار حول شخص الشهيد، بعدها يقوم الرجل بتحريض المبعوث على قتل الشهيد في نفس المكان والتخلص منه.

وقام المبعوث بقتل الشهيد وقد كان مصرعه على هذا النحو المأساوي جريمة كبرىٰ وانتهاكاً صارخاً لحرمة الاسلام.

صلّىٰ الشهيد ركعتين قبل أن يقوم جلّاده بذبحه، وينطلق القاتل الى العاصمة يقدم رأس الذبيح الى السلطان، وقد استنكر سليمان القانوني هذه الجريمة فأمر باعدام القاتل.

وقد صادف وجود بعض التركمان في مسرح الجريمة فرأوا في تلك الليلة أنواراً تنزل من السماء وتصعد فدفنوا الجسد في نفس المكان على شاطئ البحر وبنوا عليه قبّة[١].

وما أسرع أن لقي جلّاده مصيره العادل.

وقد رثاه تلميذه ابن العودي:

هذي المنازل والآثار والطلل

مخبّرات بأن القوم قد رحلوا

---

(١) شهداء الفضيلة، ١٣٦.

ساروا وقد بعدت عنّا منازلهم
فالآن لا عوض منهم ولا بدل
فسرت شرقاً وغرباً في تطلّبهم
وكلما جئت ربعاً قيل لي رحلوا
فحين ايقنت ان الذكر منقطع
وأنه ليس لي في وصلهم أمل
رجعت والعين عبرىٰ والفؤاد شجع
والجزن بي نازل والصبر مرتحل

أحمد بن محمد الأردبيلي
المقدس الأردبيلي /المتوفىٰ سنة ٩٩٣ هـ

ولادته ودراسته

في القرن العاشر الهجري وفي مدينة اردبيل ولد أحمد بن محمد ليترعرع فيها وينمو ويشق طريقه ودربه في الحياة ويصبح واحداً من أولئك الأفذاذ الذين اضاءوا سماء الفكر والعلم والايمان.

تلقى علومه الأولية في مسقط رأسه ليهاجر منها الى مدينة النجف الأشرف مجاوراً مرقد باب مدينة النبي الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي تلك المدينة المقدسة درس الشاب المهاجر على يد السيد علي الصائغ واساتذة آخرين بينهم تلامذة الشهيد الثاني(١)، وكان ينتقل بين حلقات الدرس ويتتلمذ لدىٰ هذا الاستاذ وذاك طلباً للعلم والمعرفة فإذا سمع بوجود عالم في مكان ما شدّ اليه الرحال مهما بعدت الشقّة؛ من أجل هذا هاجر الى مدينة شيراز بعد أن سمع بوجود الفيلسوف الالهي جمال الدين محمود (من تلامذة الفيلسوف جمال الدين الدواني) فتتلمذ لديه ليدرس العلوم العقلية، وهناك في ظلال ذلك الرجل التقي تبلورت شخصية التلميذ الروحية فنشأ زاهداً عابداً وبلغ في ذلك شوطاً بعيداً حتى عرف بـ«المقدس» كما عرف أيضاً بـ«المحقق» نظراً لتبحره في العلوم والمعارف الدينية.

---

(١) أعيان الشيعة ٧ / ١٠٤.

في آراء الآخرين

أثنىٰ على الأردبيلي علماء عظام كان لهم دورهم في التاريخ قال عنه معاصره السيد مصطفىٰ التفرشي: أمره في جديته وأمانته أشهر من أن يذكر، لقد كان متكلماً فقيهاً عظيم الشأن وجليل القدر رفيع المنزلة وأورع أهل زمانه وأعبدهم وأتقاهم[١].

وقال عنه الشيخ الحر العاملي، مولاي الأجل الأكمل أحمد الأردبيلي عالم فاضل، مدقق عابد، ثقة ورع عظيم الشأن جليل القدر[٢].

وذكره العلّامة المجلسي بالثناء والتمجيد، فقد بلغ الذروة في زهده وفضله، وانه لم يجد في المتأخرين والمتقدمين مثله جمع الله بينه وبين الأئمة الطاهرين ويضيف: وكتبه في غاية التدقيق والتحقيق[٣].

وقال فيه صاحب الحدائق المتوفىٰ سنة ١١٨٦ هـ: كان مولانا الأردبيلي عالماً فاضلاً محققاً زاهداً عابداً ورعاً ولم يسمع مثله في زهده وورعه وله كرامات[٤].

وقال فيه العالم المتبع الخبير الحاج محمد بن علي الأردبيلي وهو من علماء النصف الثاني من القرن الحادي عشر: أمره في الجلالة والوثاقة والأمانة أشهر من أن يذكر وفوق أن يوصف، متكلم فقيه عظيم الشأن وجليل القدر رفيع المنزلة، وكان أعبد وأتقىٰ أهل زمانه وله مصنفات من جملتها كتاب «آيات الأحكام» وكتاب «شرح الارشاد» وهما من الكتب النفيسة[٥].

وكان المرحوم المحدث القمي كثيراً ما يمجده فذكره في مادة (حمد) ووضعه

---

(١) نقد الرجال، مصطفى التفرشي، ٢٩.
(٢) أمل الآمل ٢ / ٢٣.
(٣) بحار الأنوار ١ / ٤٢.
(٤) لؤلؤة البحرين / ١٤٨ - ١٤٩.
(٥) جامع الرواة ١ / ٦١.

بأرفع الأوصاف ثم عاد وذكره في مادة (قدس) فقال عنه: الشيخ الأجل العالم الرباني، المحقق الفقيه الصمداني المولىٰ أحمد بن محمد الأردبيلي النجفي.. المضروب بزهده الأمثال والمضروب الى علمه آباط الآبال[1].

مع الحكم الصفوي

عرف عن الملوك الصفويين احترامهم العميق لعلماء الدين الشيعة.. وهو احترام له بواعثه الدينية ودوافعه السياسية من أجل ترسيخ موقعهم في الحكم وتعزيز شعبيتهم لدىٰ الأمة وقد حاول العلماء في مقابل ذلك الافادة من هذا النفوذ لدىٰ الحكم الصفوي في نشر وتعزيز مذهب أهل البيت عليهم السلام وهذا ما يفسر التعاون الكبير بين علماء الدين وتأييدهم للحكم الصفوي ومنحه نوعاً من الشرعية، فقد عمل كثير من العلماء في أجهزة الحكم الصفوي وكان لهم حضورهم الفاعل في البلاط الملكي، وفي الطليعة منهم المحقق الثاني (الكركي)، الشيخ البهائي والعلّامة الكبير المجلسي كل ذلك من أجل ترشيد مسار الحكم الصفوي ووضعه بالاتجاه الذي يخدم الدين ومصالح المسلمين.

وكان المقدس الأردبيلي من بين أولئك العلماء الذين أفادوا من هذا الموقع في ما يخدم الناس ويحلّ مشكلاتهم، وبالرغم من عدم استجابة الأردبيلي لدعوات الحكم في زيارة البلاط الّا انه لم يغادر النجف الأشرف الّا ان ذلك لم يمنعه من أن يكتب رسالة الى الشاه عباس الأول متوسطاً لأحدهم وذلك أن أحد الأمراء في حكومة الشاه قد قصّر في أداء مهامه فتهدده الشاه عباس بالعقاب الصارم ولم يجد الأمير ملاذاً سوىٰ اللجوء الى الأردبيلي في النجف فشدّ الرحال اليه وطلب منه ان يتوسط له لدىٰ الشاه للعفو عنه فكتب الأردبيلي هذه السطور:

---

(١) سفينة البحار ٢ / ٤١٢.

مؤسس الملك المستعار عباس!

اعلم ان هذا الرجل وان كان ظالماً فيما مضىٰ فهو الآن مظلوم..

اعف عنه لتقصيره؛ لعل الحق سبحانه وتعالى يتجاوز عن جزء

من تقصيرك

كتبه العبد في سلطان الولاية

أحمد الأردبيلي

وقد أجاب الشاه عباس برسالة جسدت له احترامه العميق:

ان عباس يشعر بالامتنان العميق في أن يقدم خدمته لكم على

أمل ألّا تنسوا محبكم بدعاء الخير

كتبه الكلب في رحاب علي

عباس[١]

في حوزة النجف

مضت سنوات طويلة والمقدس الأردبيلي مستمر في جهاده الكبير جهاد النفس، لقد عاش حياة الزهد والتقوىٰ والاخلاص وكان في حياته العلمية موفقاً فأصبح بعد مدّة زعيماً للحوزة العلمية فسرت روح جديدة في الحوزة بعد خمود، وانبعثت فيها الحياة بعد همود، واستعادت مجدها المفقود منذ رحيل الشيخ الطوسي وقد كان الأردبيلي يواجه كل المشكلات مما تعانيه الحوزة العلمية بصبره

---

(١) روضات الجنات، ٢٤، الفوائد الرضوية، ٢٥.

وتقواه من أجل ذلك أصبحت النجف مرّة قبلة لطلاب العلم وعشاق المعارف فاتجه اليها وتقاطروا من كل حدب وصوب، وقد أشار السيد حسن الصدر الى هذه الهجرة العلمية التي بدأت في عهد الأردبيلي لتصبح مدينة النجف الأشرف من أكبر المراكز الدينية والعلمية[1].

على كرسي التدريس

قدم الأردبيلي خدمات كبرىٰ وقد أوقف عمره المبارك من أجل نشر الدين جلس على كرسي التدريس وراح يربي تلامذته ويغذوهم العلم والمعرفة، وكما هذب نفسه وشذبها من كل الزوائد فقد انبرىٰ الى المناهج الدراسية في الحوزة فشذبها من كل لا جدوىٰ فيه ولا طائل من ورائه، وربىٰ الى جانب ذلك تلامذة كانوا أفذاذاً في زمانه:

١ - الشيخ حسن (المتوفىٰ سنة ١٠١١ هـ) نجل الشهيد الثاني (مؤلف كتابي معالم الأصول والمنتقىٰ).

٢ - السيد محمد (المتوفىٰ سنة ١٠٠٩ هـ) حفيد الشهيد الثاني من ابنته والمعروف بـ«صاحب المدارك».

٣ - مير فيض الله التفرشي.

٤ - عنايت الله الكوهبائي منظم بعض الكتب في الرجال.

٥ - الملّا عبد الله الشوشتري (المتوفىٰ سنة ١٠٠٢ هـ).

---

(١) الفوائد الرضوية، ٢٥.

مؤلفاته وآثاره

للأردبيلي بعض المؤلفات والمصنفات في الكلام والفقه والأصول وفي سيرة أهل البيت عليهم السلام وهذه طائفة من العناوين:

١ - استيناس المعنوية (في علم الكلام).

٢ - بحر المناقب.

٣ - حاشية على شرح التجريد.

٤ - حديقة الشيعة.

٥ - الرسالة الخراجية.

٦ - زبدة البيان في آيات الأحكام.

٧ - مقالة في الأمر بالشيء (في علم الأصول).

٨ - مناسك الحج (بالفارسية).

٩ - مجمع الفائدة، والبرهان في شرح ارشاد الأذهان. وهذا الكتاب من أهم كتبه وأشهرها وأكثرها عمقاً ويعد موسوعة استدلالية وهو من المصادر المهمة جداً في الفقه الجعفري اهتم به المجتهدون فهو بمثابة شرح على كتاب الارشاد للعلامة الحلّي ولكنه في ذاته جاء مفصلاً حلل فيه البحوث الفقهية بدقة وعمق.

سيرته

عرف المقدس الأردبيلي بتواضعه الجم أمام تلامذته، وقد بلغ في ذلك الذروة، فقد صادف ان أحد زوّار النجف الأشرف التقىٰ الأردبيلي في طريقه وعندما وقعت عليه عين الزائر ورأىٰ ثيابه البالية ... جداً من عامة الناس، فطلب منه أن يغسل له ثيابه، وخلع الزائر ثيابه وسلّمها اليه، وبالطبع لم يعترض الأردبيلي بل أخذ الثياب وانطلق الى منزله وباشر في غسلها بنفسه ثم نشرها على

الحبل حتىٰ لا يتأخر عن الموعد الذي ضربه له الزائر.

واكتشف الزائر بعد ذلك هويته وظلّ حائراً ماذا يفعل، كما لامه الناس كثيراً على فعله، وجاء الأردبيلي يحمل ثياب المسافر مغسولة مرتبة ونهىٰ الناس عن لومه قائلاً: ان من حقوق اخواننا المؤمنين ما لا يمكن اداؤها الّا بغسل ثيابهم(١).

ورویٰ المرحوم المحدّث القمي رضوان الله عليه هذه الحكاية نقلاً عن بعض الأشخاص وعلّق عليها برواية حكاية مشابهة لها قائلاً: ان الأردبيلي قد اقتدىٰ بالامام الثامن من أئمة أهل البيت عليهم السلام وهو الامام الرضا عليه السلام إذ دخل يوماً الحمام فطلب منه أحد الأشخاص أن يدلك له بدنه، وراح الامام عليه السلام يدلك لذلك الشخص جسمه، ولما رأىٰ الناس يسلّمون على الامام باحترام واجلال واكتشف هوية الامام اعتذر اليه، فهدّأ الامام من روعه واستمر في تدليك جسمه حتىٰ انتهىٰ منه(٢).

وفي كل الأحوال تعكس هذه الحكاية تواضع الأردبيلي واهتمامه بأداء حقوق اخوانه من المؤمنين؛ ومن خلقه العظيم انه لا يتعالىٰ على تلامذته ففي أحد الأيام التي كان فيها الشيخ بهاء الدين محمد يزور فيها النجف رأىٰ أن يزور المكان الذي يلقي فيه الأردبيلي دروسه، فرأىٰ حلقةً لا يعرف فيها التلميذ من الاستاذ ورأىٰ الأردبيلي محشوراً في الجمع وكان صدر المجلس خالياً، وهنا أصرّ الشيخ بهاء الدين على الأردبيلي أن يتصدّر المجلس فأنهضه من مكانه لذلك، وفي الأثناء ارتفع صوت مهيب: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** ولم يعرف صاحب الصوت فارتعدت فرائص الأردبيلي وشحب وجهه وانتفض من صدر المجلس باكياً ليجلس بين تلامذته

(١) روضات الجنات، ٢٣؛ أعيان الشيعة ٣ / ٨١.

(٢) الفوائد الرضوية، ٢٥.

مرّة أخرىٰ ومن خصال هذا الانسان الجليل القدر انه كان يحيا بين الناس يحسن الى بائسهم ويطعم مسكينهم. ذكر السيد نعمة الله الجزائري المحدّث المعروف والذي عاش قريباً من عصره: ان الأردبيلي كان يعتم بعمامة كبيرة فإذا رأىٰ مسكيناً أو محتاجاً، فتحها وأعطاه قدراً منها وربما عاد الى منزله وليس في عمامته ذراع[1].

وينقل عن الأردبيلي انه اذا رزق رزقاً حلالاً طعاماً كان أو كساءً زهيداً كان أو ثميناً استفاد منه وكان يقول ان الأحاديث متظافرة في ان الله سبحانه اذا أنعم على عبد أحب أن يرىٰ أثر نعمته عليه وهو معنىٰ الآية الكريمة: **﴿وأما بنعمة ربّك فحدّث﴾**.

وكان اذا ضيق عليه في رزقه صبر، وكان يوزع طعامه على الفقراء والبؤساء والمحتاجين في سنوات القحط والغلاء ولا يبقي لنفسه وأسرته الاّ مقدار ما يعطي للفقراء منه؛ وربما أغضب هذا التصرف زوجته اذ قالت له مرّة: لقد تركتنا نسأل الناس فلم يجد الأردبيلي يداً من مغادرة المنزل والاعتكاف في مسجد الكوفة، فلما كان اليوم التالي طرق المنزل رجل يرتدي زيّاً عربياً ومعه قمح ودقيق وقال لزوجة الأردبيلي بعد أن سلمها القمح والدقيق: لقد أرسله لكم صاحب المنزل وهو الآن معتكف في مسجد الكوفة. ولما عاد الأردبيلي من اعتكافه في المسجد قالت له زوجته: كان قمحاً طيباً ذلك الذي أرسلته بيد الأعرابي، فحمد الأردبيلي ربّه[2].

في وادي الكرامة

كان المقدس الأردبيلي على جانب كبير من التقوىٰ والزهد وقد كرّمه الله عز

---

(١) الأنوار النعمانية ٢ / ٣٠٢.

(٢) الأنوار النعمانية ٣ / ٣٠٢.

وجل فقد بلغ من سموّ منزلته أنه كان يزور مرقد الامام علي عليه السلام بعد منتصف الليل فتنفتح له الأبواب كما حظي بلقاء ولي العصر وصاحب الزمان وفي هذا نقل المرحوم السيد الجزائري رحمه الله عن الثقات من المشايخ من أهل العلم والتقوىٰ انه كان تلميذ يدعىٰ مير علام (مير فيض الله) وكان في منتهىٰ الفضل والورع وقد روي عنه انه قال: «كنت أسكن حجرة في المدرسة المحيطة بقبة أمير المؤمنين عليه السلام ففي ليلة من الليالي الحالكة السواد خرجت اتمشىٰ في الصحن بعد أن فرغت من المطالعة، وفي الأثناء لاح لي رجل يتجه صوب الحرم الطاهر، فقلت في نفسي لعلّه لص جاء يسرق بعض القناديل فتعقبته دون أن يراني، فلما وصل باب الحرم رأيت الباب قد انفتح له وانفتح له الباب الثاني والثالث حتى دنا من المرقد فسمعته يسلّم على أمير المؤمنين واذا بصوت ينبعث من الضريح يردّ له التحية بأحسن منها ثم سمعته يتحدث مع الامام حول مسألة علمية أهمّته، وبعدها خرج؛ فتبعته الى خارج المدينة وقد ولّىٰ وجهه صوب مسجد الكوفة حتىٰ اذا وصل المحراب سمعته يتحدث مع رجل حول نفس المسألة فعدت أدراجي الى بوابة المدينة وقد طلع الفجر، حيث مكثت انتظره هناك، فلما جاء سلمت عليه وحدثته بكل ما رأيت وطلبت منه أن يخبرني عن الشخص الذي تحدث معه في المرّة الأولىٰ وعن الشخص الذي حدثه في مسجد الكوفة، فأخذ عليّ عهداً الّا أخبر أحداً ما دام حيّاً فلما أجبته الى ذلك قال: يا بني انني اذا ما استعصت علي بعض المسائل لجأت في حلّها الى أمير المؤمنين وفي هذه المرّة أحالني الى ابنه المهدي عليه السلام وطلب مني أن أسأله عنها فذهبت اليه في مسجد الكوفة[1].

وذكر هذه الحكاية العلّامة المجلسي في البحار[2] وفيها أن الصوت صدر من

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٠٣.

(٢) بحار الأنوار ٥٢ / ١٧٤ - ١٧٥.

الضريح الطاهر: اذهب الى مسجد الكوفة وسل القائمعليه السلام فهو امامك.

ويحكىٰ انه رأىٰ في عالم المنام سيدنا محمدصلى الله عليه وآله وقد جلس موسىٰعليه السلام في حضرته فسأل موسىٰعليه السلام سيدنا محمد من هذا فقال النبي: سله هو، فالتفت موسىٰعليه السلام الى الأردبيلي وسأله من أنت؟ فقال: أنا أحمد بن محمد من أهل أردبيل أسكن في فلان حي في بيت كذا فقال موسىٰعليه السلام ولم هذا التفصيل أن سألتك من أنت؟ فقال الأردبيلي: وقد سألك ربك ما تلك بيمينك؟ فقلت: تلك عصاي أتوكأ عليها وأحش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرىٰ؛ فالتفت موسىٰعليه السلام الى النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وقال: صدقت اذ قلت علماء أمتي أفضل من أنبياء بني اسرائيل[1].

الرحيل

في شهر رجب سنة (٩٩٣ هـ) أفلت شمس الفقه التي أشرقت في أردبيل وامتدت سماء التشيع وبعد عمر حافل بالعطاء قضاه الأردبيلي في خدمة الدين الحنيف جنحت شمسه في مدينة النجف الى الغروب وغادرت الروح اهاب الطين الى عالم الخلود الأخضر.

شيع جثمان الراحل الكبير ليواريٰ الثرىٰ في جوار المرقد الطاهر لأمير المؤمنينعليه السلام. حشره الله مع أهل بيت النبوّة ومعدن الوحي ومختلف الملائكة.

---

(١) قصص العلماء، ٣٤٥.

القاضي نور الله الشوشتري
المستشهد سنة ١٠١٩

سلالة النور

يرتفع نسب القاضي نور الله الشوشتري السادة المرعشية حيث الامام زين العابدين غصن رطيب في شجرة النبوّة والامامة هو الجدّ الأكبر: «فالقاضي نور الله بن شريف الدين بن ضياء الدين نور الله بن محمد شاه بن مبارز الدين بن الحسين بن جمال الدين بن نجم الدين ابي علي محمود..»[١].

وأجداد القاضي نور الله نجم الدين محمود الحسيني المرعشي يعرفون بالآملي وقد هاجروا من آمل الى شوشتر ويصرح القاضي نور الله في مجالس المؤمنين بتشيع هذه الديار العلي مع حضور هذا السيد الجليل القدر ويذكر ان التحقيق في عقيدة أهل انهم كانوا في العهدين الأموي والعباسي معتزلة في مذهبهم ثم لما جاء السيد الأجل الأمير نجم الدين محمود الحسيني المرعشي الآملي من دار المؤمنين بآمل الى شوشتر وتزوجه بكريمة السيد عز الدولة وهو نقيب السادات الحسينيين في تلك الديار واقامته فيها استبصر أهلها وثابوا الى المذهب الرق[٢].

وقد افتخر القاضي نور الله بسلالته النورانية في أشعار له بالفارسية[٣].

---

(١) احقاق الحق / المقدمة.

(٢) مجالس المؤمنين ١ / ٧١.

(٣) شهداء الفضيلة، ٢٩١ الترجمة الفارسية.

المجالس

يشتمل كتاب مجالس المؤمنين على جغرافية للمناطق الشيعية كما أوردها رجال المذهب الامامي في مدوناتهم التاريخية ولهذا فقد صور مسقط رأسه شوشتر باسلوب شاعري كما لو آنهاقطعة نزلت من السماء، واعلم ان دار المؤمنين شوشتر بلدة منفتحة جميلة كاسمها وهي روضة من دار السلام خصت من بين الأقاليم السبعة بالربيع على الدوام، هواؤها عليل لطيف منعش للابدان والأجسام.

ولد نور الله الشوشتري سنة (٩٥٦ هـ) في شوشتر التي وصفها بدار السلام واسم والدته المكرمة فاطمة وهي من نفس الشجرة الطيبة التي هو غصن من أغصانها، فوالداه من شجرة السادات الحسينية والدوحة المحمدية العلوية والسلالة النورانية[١].

أبوه شريف الدين من العلماء المبرزين المتبحرين في العلوم النقلية والعقلية في عصره وهو من تلامذة الشيخ الفقيه ابراهيم بن سليمان القطيفي وله مؤلفات في حقول مختلفة من المعرفة منها: رسالة حفظ الصحة في الطب، رسالة في اثبات الواجب تعالى، رسالة في شرح الخطبة الشقشقية، رسالة في الانشاءات والمكاتب، رسالة في علم البحث والمناظرة وتعليقة على شرح التجريد[٢].

بدأ القاضي نور الله دراسته على يد والده الجليل[٣] قرأ على والده الكتب الأربعة وتعلم لديه الفقه والاصول والكلام والرياضيات ليرحل الى مدينة مشهد في سنة ٩٧٩ هـ

---

(١) مقدمة احقاق الحق ١ / ٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه.

مشهد

وهي مدينة مشهد المقدسة تتلمذ القاضي على يد المحقق مولىٰ عبد الواحد الشوشتري ودرس عنده الفقه والأصول والكلام والحديث والتفسير كما درس آداب العربية لدىٰ مولىٰ محمد الأديب القارئ التستري وقد تعلم على يديه تجويد القرآن الكريم وحصل على اجازات في الرواية من لدن ابرز علماء مشهد آنذاك وفي طليعتهم مولىٰ عبد الرشيد الشوشتري نجل الخواجة نور الدين الطبيب (مؤلف كتاب مجالس الامامية في الاعتقادات) وكذا مولىٰ عبد الوحيد التستري[١].

الهجرة

في عام (٩٩٣ هـ) هاجر الى الهند واستقر في مدينة «آكر» بعد مروره بمدن وقرىٰ عديدة وكانت الهند آنذاك تنعم باستقرار تام يومذاك في عهد «أكبر شاه» وأكبر شاه حفيد «بابر شاه» من ذرية تيمو نجل همايون شاه والى بابر ينسب الحكم البابري.

في الرابعة عشرة من عمره تسنم اكبر شاه الحكم وأبدىٰ لياقة في ادارة شؤون دولته وقد اضاف الى سيادته مناطق مثل«كجرات» وبلاد البنغال وكشمير والسند (باكستان) ليؤسس امبراطوية كبرىٰ[٢]، كان اكبر شاه يهتم بالعمران اضافة الى حبه للفلسفة ولم يكن له اتجاه مذهبي أو انتماء ديني محدد[٣]، ومن هنا كان اكبر شاه يفكر بطرح دين مشترك يجمع بين جميع الأديان ومن ثم تصبح الهند مكاناً

(١) المصدر نفسه.
(٢) قاموس دهخدا ٥ /(أ) / ٣١٨٠.
(٣) تايخ الحضارة، نحو ستاف لوبون، ٢٣٥.

للالحاد. عندما وصل القاضي نور الله الى الهند الى مدينة أكسرا حلّ عند أبي الفتح مسيح الدين الكيلاني الطبيب الايراني الحاذق والشاعر الكبير وكان مسيح الدين قد وصل الهند سنة (٩٨٣ هـ) وأصبح من المقرّبين الى أكبر شاه بسبب مؤهلاته العلمية والأدبية[١].

تجسيد للعدالة

فرض القاضي نور الله الشوشتري احترامه على الجميع حتى على مخالفيه في العقيدة والمذهب بما مثله من خلق رفيع وعدالة في سلوكه. يقول عبد القادر البدواني في «منتخب التواريخ».

«بالرغم من انتمائه المذهبي الشيعي ولكنه كان على جانب كبير من الانصاف والعدالة والتقوىٰ والعفاف وقد تجلت فيه أوصاف الأشراف، معروف بالعلم والحلم وجودة الفهم في طبعه وصفاء عقله قريحة وذكاء، له تصانيف لائقة وله أشعار رقيقة تدلّ على شاعريته.

عرّفه الى الملك الحكيم أبو الفتح وأصبح من المقربين اليه ونصبه قاضياً على لاهور فأصلح ما فيها من مفاسد وسدّ على أهل الرشاوي الطرائق وضبط شؤون لاهور[٢].

في ظلال التقية

وبسبب المحيط السيء المتلاطم الذي عاش فيه القاضي نور الله فقد اتخذ من التقية ظلاً يعيش فيه ومن خلال ذلك قدم خدمات كبرىٰ من خلال ما ألف وصنف

---

(١) تذكرة على الامامية في باكستان، حسين عارف النقوي ترجمة الدكتور محمد هاشم، ١٥.

(٢) الصوارم المهرقة / ص «كح» (فيض الاله).

اضافة الى تسنمه القضاء حيث أصبح رمزاً للعدالة والقسط، وتناهز مؤلفاته في تلك الحقبة مئة وأربعين مؤلفاً كما أحصاها العلّامة الراحل آية الله المرعشي النجفي صاحب المكتبة العالمية الكبرىٰ:

١ - احقاق الحق: طبع هذا الكتاب الجليل ثلاث مرات.

٢ - اجوبة مسائل السيد حسن الغزنوي.

٣ - الزام النواصب في الردّ على ميرزا مخدوم الشريفي: «ترجم هذا الكتاب الى الفارسية ترجمة الاستاذ ميرزا محمد علي الجهاردهي الگيلاني وطبعه حفيد المترجم مرتضىٰ المدرسي.

٤ - «القام الحجر» في الردّ على ابن حجر.

٥ - البحر الغزير في تقرير الماء الكثير: وهو تحقيق في معرفة وزن وحجم ماء الكر.

٦ - بحر الغدير في اثبات تواتر حديث الغدير سنداً ودلالة.

٧ - تفسير القرآن: في عدة مجلدات.

٨ - كتاب في تفسير آية الرؤيا.

٩ - تحفة العقول.

١٠ - حلّ العقول.

١١ - حاشية على شرح الكافية في شرح النحو.

١٢ - حاشية على «حاشية الجلبي» في شرح التجريد للاصفهاني.

١٣ - حاشية على «المطوّل» للتفتازاني.

١٤ - حاشية على رجال الكشي في علم الرجال.

١٥ - حاشية على «تهذيب الأحكام» للشيخ الطوسي ولم يتمها.

١٦ - حاشية على «كنز العرفان» فاضل مقداد (في آيات الأحكام).

١٧ - حاشية على حاشية «تهذيب المنطق» للدواني.

١٨ - حاشية على مبحث «عذاب القبر» من شرح «قواعد العقايد».

١٩ - حاشية على «شرح المواقف» في علم الكلام.

٢٠ - حاشية على «رسالة الاجوبة الفاخرة».

٢١ - حاشية على «شرح تهذيب الاصول».

٢٢ - حاشية على «مبحث الجواهر» في شرح تجريد العلاّمة.

٢٣ - حاشية على «تفسير البيضاوي».

٢٤ - حاشية على «الالهيات» شرح التجريد.

٢٥ - حاشية على «الحاشية القديمية».

٢٦ - حاشية على «حاشية الخطابي» في علم الفصاحة والبلاغة.

٢٧ - حاشية أخرىٰ على «تفسير البيضاوي».

٢٨ - حاشية على «شرح الهداية» في الحكمة.

٢٩ - حاشية على «شرح الشمسية» لقطب الدين في المنطق.

٣٠ - حاشية على «قواعد» العلاّمة في الفقه.

٣١ - حاشية على «التهذيب» للشيخ الطوسي.

٣٢ - حاشية على «خطبة الشرايع» للمحقق الحلّي.

٣٣ - حاشية على «الهداية» في الفقه الحنفي.

٣٤ - حاشية على «شرح الوقاية» في الفقه الحنفي.

٣٥ - حاشية على شرح «رسالة آداب المطالعة».

٣٦ - حاشية على «تلخيص المفتاح» المعروف بـ«مختصر التفتازاني».

٣٧ - حاشية على (شرح الجغميني» في الهيئة.

٣٨ - حاشية على «مختلف العلاّمة» في الفقه.

٣٩ – حاشية على «اثبات الواجب الجديد» للعلامة الدواني.

٤٠ – حاشية على «تحرير اقليدس» في الهندسة.

٤١ – حاشية على «خلاصة العلّامة» في علم الرجال.

٤٢ – حاشية على «خلاصة الحساب» للشيخ البهائي.

٤٣ – حاشية على «مبحث الأعراض» من شرح التجريد.

٤٤ – حاشية على «رسالة البدخشتي» في الكلام.

٤٥ – حاشية على «شرح التجريد».

٤٦ – حاشية على «باب الشهادات» قواعد العلّامة.

٤٧ – حاشية على «شرح العضدي» في الأصول.

٤٨ – حاشية على «شرح الاشارات» للمحقق الطوسي في الحكمة.

٤٩ – دلائل الشيعة في الامامة بالفارسية.

٥٠ – ديوان القصائد.

٥١ – ديوان الشعر.

٥٢ – دافعة الشقاق (دافعة النفاق).

٥٣ – الذكر الأبقىٰ.

٥٤ – الرسالة اللطيفة.

٥٥ – رسالة في تفسير آية «انما المشركون نجس».

٥٦ – رسالة في «أمر العصمة».

٥٧ – رسالة في تجريد الوضوء.

٥٨ – رسالة في «ركنية السجدتين».

٥٩ – رسالة في ذكر الوضاعين واحوالهم.

٦٠ – رسالة في «رد شبهة في تحقيق العلم الالهي».

٦١ - رسالة في «رد بعض من العامة الذين ينفون عصمة الأنبياء».

٦٢ - رسالة في «لبس الحرير».

٦٣ - رسالة في «نجاسة الخمر».

٦٤ - رسالة في «مسألة الكفارة».

٦٥ - رسالة في غسل الجمعة.

٦٦ - رسالة في تحقيق الفعل الماضي.

٦٧ - اللمعة في صلاة الجمعة حيث يثبت القاضي حرمة صلاة الجمعة في عصر الغيبة.

٦٨ - النور الأنور الأزهى في تنوير خفايا رسالة القضاء والقدر للعلامة الحلي: قال فيه صاحب الرياض انه كتاب حسن وهو في الردّ على بعض علماء الهند فرغ القاضي منه سنة ١٠١٨ هـ

٦٩ - رسالة في تحقيق الوجود.

٧٠ - رسالة في تفسير آية ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام**﴾ سورة الانعام وهو ردّ على تفسير النيسابوري لها.

٧١ - الرسالة المسحية: كتاب مفصل حول غسل الأرجل ومسحها في الوضوء.

٧٢ - رسالة في «حاشية التشكيك».

٧٣ - رسالة في الرد على «رسالة الكاشي».

٧٤ - تعليقة على نظرية نصير الدين الطوسي في «تخلف الجوهرية».

٧٥ - رسالة في جواب على اعترافات العامة على القاضي في «حاشية الوقاية».

٧٦ - رسالة في حل بعض المشكلات.

٧٧ – رسالة في الرد على رسالة الدواني.

٧٨ – رسالة في الأدعية.

٧٩ – رسالة في الاصطرلاب (بالفارسية) ويشتمل على مئة باب.

٨٠ – رسالة في «أن الوجود لا مسألة له».

٨١ – رسالة في ردّ مقدمات ترجمة «الصواعق المحرقة».

٨٢ – رسالة في بيان «أنواع الحكم».

٨٣ – رسالة في رد اشكالات في مسائل مختلفة.

٨٤ – رسالة في جواب شبهات الشياطين: في كشف الحجب.

٨٥ – رسالة في مسألة الفأرة.

٨٦ – رسالة في «وجوب المسح على الرجلين دون غسلها».

٨٧ – رسالة في تنجيس الماء القليل بالملاقات مع النجاسة.

٨٨ – رسالة في «الكلّيات الخمس».

٨٩ – رسالة انموذج العلوم: تطرق فيها القاضي الى نماذج من علوم مختلفة.

٩٠ – رسالة في اثبات تشيع السيد محمد نور بخش.

٩١ – رسالة في شرح كلام قاضي زاده في الهيئة.

٩٢ – رسالة في شرح رباعيات ابو سعيد أبو الخير.

٩٣ – الرسالة الجلالية.

٩٤ – رسالة في علمه تعالىٰ.

٩٥ – رسالة في «جواز الصلاة فيما لا تتم الصلاة فيه وحده».

٩٦ – رسالة في حل عبارات قواعد العلّامة (اذا زاد الشاهد في شهادته أو تنقص قبل الحكم.

٩٧ – رسالة «أنس الوحيد» في تفسير سورة التوحيد.

٩٨ – رسالة رفع القدر.

٩٩ – رسالة في ما كتبه تلميذ ابن همان الى الشافعي بخصوص أذان الجمعة.

١٠٠ – الرد على تلميذ ابن همام في خصوص الاقتداء في اقامة صلاة الجمعة وهو على ما يعتقد نفس الكتاب الآنف الذكر.

١٠١ – رسالة في النحو.

١٠٢ – السبعة السيارة.

١٠٣ – السحاب المطير في تفسير آية التطهير.

١٠٤ – شرح من مبحث التشكيك من شرح التجريد.

١٠٥ – شرح «گلشن راز» للشبستري.

١٠٦ – شرح دعاء الصباح والمساء للامام علي ابن أبي طالب عليه السلام بالفارسية.

١٠٧ – شرح مبحث (حدوث العالم) من نموذج العلوم للدواني.

١٠٨ – شرح الجواهر.

١٠٩ – شرح خطبة حاشية القزويني على العضدي.

١١٠ – شرح رسالة «اثبات الواجب القديمة» للعلامة الدواني.

١١١ – الصوارم المهرقة في الرد على الصواعق المحرقة.

١١٢ – كشف الحوار.

١١٣ – گوهر شاهوار (بالفارسية).

١١٤ – گل وسنبل (بالفارسية).

١١٥ – النظر السليم.

١١٦ – الخيرات الحسان.

١١٧ – عدّة الامراء.

١١٨ – الاجوبة الفاخرة.

١١٩ - شرح على تهذيب الحديث للطوسي.

١٢٠ - شرح على مبعث التشكيك من الحاشية القديمة ولعله نفس الكتاب السابق.

١٢١ - كتاب في القضاء والشهادة: وهو كتاب مفصل في شروط القاضي واحكام القضاء وقد بين فيه المؤلف ما ورد في ذلك من الشيعة والسنّة.

١٢٢ - العشرة الكاملة.

١٢٣ - كتاب في المناظرة مع المخالفين.

١٢٤ - كتاب في مناقب الأئمة عن طريق المخالفين.

١٢٥ - كتاب في سمع القاضي بالعربية والفارسية.

١٢٦ - كتاب في أنساب وبيوتات السادات المرعشية.

١٢٧ - مجموعة في الأمثال، كشكول.

١٢٨ - مصائب النواصب.

١٢٩ - موائد الانعام.

١٣٠ - مجموعة تشبه العمل الموسوعي مكتوبة بخط صاحب الرياض.

١٣١ - مجالس المؤمنين.

١٣٢ - نور العين.

١٣٣ - نهاية الاقدام.

١٣٤ - شرح على مقامات الحريري.

١٣٥ - شرح على مقامات «بديع الزمان الهمداني».

١٣٦ - شرح على الصحيفة الكاملة (لم يتمه القاضي).

١٣٧ - حاشية على شرح اللمعة (لم يكمله).

١٣٨ - تعليقة على روضة الكافي.

١٣٩ – رسالة في وجوب اللطف.

ومن بين كتب القاضي نور الله الشوشتري تحتل أربعة من مؤلفاته موقعاً هاماً وهي:

١ – احقاق الحق: ويعكس الكتاب تبحره العلمي وهو ردّ على كتاب «ابطال الباطل» للقاضي فضل بن روز بهان الاصفهاني وكتاب القاضي الاصفهاني جاء هو الآخر ردّاً على كتاب «نهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلّي. وقد بين القاضي الشوشتري باسلوب منطقي رفيع بطلان آراء القاضي الاصفهاني مستشهداً بما ورد عن طريق أهل السنة من نصوص[١].

٢ – مجالس المؤمنين: وهو بيان لأحوال جماعة من العلماء والحكماء والأدباء والعرفاء حيث يعتقد القاضي الشوشتري بتشيعهم كما يتطرق في الكتاب أيضاً الى ذكر بعض الحكايات والقصص وكذا الحديث عن بعض المدن والأمكنة التي عاشوا فيها[٢].

٣ – الصوارم المهرقة: وهو الردّ الذي كتبه القاضي الشوشتري في الردّ على «الصواعق المحرقة» وكتاب «مصائب النواصب» وهو ما أشار اليه الحرّ العاملي (المتوفى سنة ١١٠ هـ) في كتابه أمل الآمل معتبراً هذا الكتاب الى جانب كتاب «احقاق الحق» من أهم ما ألفه القاضي الشوشتري في العصر الصفوي[٣].

شاعر الشهود

الشعر رؤية الى العالم بعيون أخرىٰ والتعبير عن الخلق بلغة أخرىٰ، وقد كان

(١) ريحانة الأدب ٣ / ٣٨٥.

(٢) روضات الجنات ٨ / ١٦٠.

(٣) أمل الآمل ٣ / ٣٣٧.

القاضي نور الله شاعراً.. عبّر عن رؤيته للعالم من خلال تجربة شهودية، كان والده شاعراً أيضاً وقد أورث ابنه هذا الحسن المرهف فكان هو الآخر شاعراً، ولعله تميز القول أن في أسرته شعراء فعمه كان شاعراً وجاء الأحفاد فكانوا شعراء، وقد انتخب له اسماً على عادة الشعراء في انتخاب أسماء تدعىٰ أسماء التخلص فقد انتخب له اسم «نوري» وللقاضي ديوان يعكس قريحة وشاعرية وأشعاره بالفارسية والعربية تضمنت انتقاداته وردوده اضافة الى أشعار في العشق الالهي[1].

أولاده

نبغ أولاده في العلم والأدب فكانوا علماء وشعراء وهم:

١ – العلّامة السيد محمد يوسف.

٢ – العلّامة شريف الدين (٩٩٢ – ١٠٢٠ هـ).

٣ – العلّامة علاء الملك.

٤ – السيد ابو المعالي (١٠٠٤ – ١٠٤٦ هـ).

٥ – السيد علاء الدولة (١٠١٢ – ؟).

تلامذته

عاش القاضي نور الله الشوشتري التقية في حياته وقد ساعده تبحره في فقه وكلام المذاهب الاسلامية وزهده واخلاصه في اجتذاب الطلاب اليه فقد كان القاضي يدرس الفقه وفق المذاهب الاسلامية الخمسة «الامامي»، «الحنفي»[2]،

---

(١) ريحانة الأدب ٣ / ٣٨٦.

(٢) احقاق الحق ١ / ١١٠ – ١١١ (حياة القاضي).

«المالكي»، «الشافعي» و «الحنبلي» وكان يبين آراء المذاهب الامامي بشكل لطيف. ولقد أسهم الجوّ الفكري العام المضاد للتشيع وعلاقات القاضي مع تلامذته الشيعة في اطار مكثف من التقية في عدم معرفة تلامذته، وهذه أسماء ثلاثة منهم فقط، اضافة الى أولاده الذين تتلمذوا على يديه أيضاً:

١ - العلّامة الشيخ محمد الهروي الخراساني.

٢ - العلّامة مولىٰ محمد علي الكشميري.

٣ - السيد جمال الدين عبد الله المشهدي.

رجل المناظرة

دخل القاضي نور الله الشوشتري في مناظرات مع علماء عصره وكان فارساً لا يشق له غبار فقد ناظر عبد القادر بن ملكوك شاه البدواني وهو من علماء أهل السنّة المبرزين وهو ما أشير اليه في كتاب «منتخب التواريخ»[١] كما ناظر السيد القزويني وذكر تلك المناظرة في كتابه «مجالس المؤمنين»[٢].

الحسد

كل ذي نعمة محسود وقد قال تعالى: ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾ فإذا أضيفت الى ذلك العدوان المذهبية فان الصدور تمتلئ غيظاً وحقداً وحسداً[٣].

من أجل هذا فقد كان القاضي نور الله من المحسودين على ما تسنّم اليه من

---

(١) انظر الصوارم المهرقة ص - كح - (فيض الاله).

(٢) انظر مجالس المؤمنين ١ / ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٣) انظر مجالس المؤمنين ١ / ٤٣٢.

منزلة لدىٰ السلطان وبدأ الحسد يأخذ شكل التآمر عند السلطان وايقار صدر عليه وعندما وجد بعض فقهاء أهل السنة أنفسهم عاجزين عن قهر القاضي بالمناظرة والحجج عمدوا الى الكيل والتآمر وكانت تهمة التشيع أفضل وسيلة لايذائه.. وكان الجواسيس يراقبونه مراقبة شديدة وذات يوم سمعه أحدهم انه قال لما جاء ذكر علي: عليه الصلاة والسلام فاعتبروا ذلك بدعة لأن الصلاة والسلام حسب رأيهم تختص بالنبي صلى الله عليه وآله وحده وأهدروا بذلك دمه ونظموا طوماراً في تواقيعهم ليدموه الى أكبر شاه ولكن أحد علماء السنة اعترض على ذلك العمل واعتبر ان ما قاله القاضي عملاً عادياً وكتب بيتاً من الشعر ليرسله الى اكبر شاه وشعره بالأوردية كان بهذا المعنىٰ:

اذ صح الحديث النبوي في علي: لحمك لحـمي

فإن عدم الصلاة على علي هي من قلة الأدب[1]

وقد استجاب اكبر لرأي العالم السنّي المنصف وزاد ذلك من محبة القاضي في قلبه[2] وعزّز من منزلته.

الشهادة

ويبدو أن القاضي قد نفد صبره ولم يعد يستسيغ حياته التي أمضاها في التقية فبدأ بالتصريح ببعض آرائه فقد تحدث عن مـؤمن الطـاق فـي كـتابه مـجالس المؤمنين: وذكر رواية المفضل بن عمر وحمله رسالة للامام الصادق عليه السلام الى مؤمن الطاق في ترك المناظرة للمخالفين وعندما أبلغه ذلك قـال له مـؤمن الطـاق ان

---

(١) ونص الشعر بالأردو:

گر لحمك لحمي بحديث نبوي هـي — بي صل على نام علي بي أدبي هـي.

(٢) احقاق الحق ١ / ١٥٩.

صبري لا يعينني ثم علق القاضي على هذه الرواية معللاً تأليفه مجالس المؤمنين بنفاد صبره فألف كتابه الهام مجالس المؤمنين الذي تضمن حقيقة انتمائه المذهبي ليكون الكتاب شفيعاً له يوم القيامة كما ذكر ذلك بنفسه[١]، وكان الكتاب الوثيقة التي استعان بها خصومه وأعدائه للاستناد اليها في اثبات تشيعه لأهل البيت عليهم السلام.

وقد ذكر المحدث القمي رحمه الله كيفية استشهاده وظروفه في أخريات عمره.. حيث كان القاضي ما يزال يعمل في وضيفته وكان يكتب ويؤلف في الخفاء تحت ستار مكثف من التقية الى أن توفي أكبر شاه ويحلّ محلّه في الحكم ابنه جهانگير شاه وكانت السعاية الأولىٰ لدىٰ السلطان الجديد ان القاضي يفتي وفق مذهبه ولا يكترث للمذاهب الأربعة الأخرىٰ وقد ردّ جهان شاه هذا الاتهام بقوله أن القاضي يعمل وفق اجتهاده الخاص. ولكن الحاسدين لم يسكتوا حياله فدسّوا أحدهم على أنه تلميذه وما زال التلميذ يتردد على استاذه ويواظب في الحضور والسؤال وطلب العلم حتى كسب ثقة القاضي وذات يوم طلب منه أن يعيره كتابه «مجالس المؤمنين» ولما حصل على الكتاب أخذه الى أسياده الذين أرسلوه ثم انهم استنسخوا الكتاب وعرضوه على السلطان وقالوا انه يتوجب اجراء الحدّ عليه فقال جهان شاه وما حدّه؟ قالوا يجلد بالسياط مئة جلدة حينئذ فوضهم شاه جهان اجراء الحدّ. وسيق القاضي نور الله في سنة (١٠١٩ ه) لاجراء حدّ الجلد بحقه وانهالت عليه السياط اللاهبة الى أن لفظ أنفاسه شهيداً وقد ناهز السبعين من عمره ويقال ان ضرب بعصا فيها شحافير نثرت لحمه[٢].

أما الآن فان مرقد القاضي نور الله الشوشتري مزار يؤمه المؤمنين للتبرك في مدينة «أكرا» ومن خارجها أيضاً وأصبح أحد المزارات والأماكن المقدسة المباركة في شبه القارة الهندية.

---

(١) مجالس المؤمنين ٢ / ٣٧٥.

(٢) الفوائد الرضوية، ٦٩٧.

الشيخ محمد البهائي /المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ

الأسرة الخضراء

عز الدين حسين بن عبد الصمد (٩١٨ - ٩٨٤ هـ) هو أبو الشيخ البهائي كان الفقهاء المبرزين والعلماء النابهين في القرن العاشر الميلادي وكان حاذقاً في علوم كثيرة من بينها الفقه والأصول والحديث والرجال والحكمة والكلام والرياضيات والتفسير والشعر والتاريخ واللغة وعلوم أخرىٰ كانت رائجة في عصره وزمانه.

وكان الشيخ أيضاً من تلامذة الشهيد الثاني النوابغ حيث صحب استاذه في أسفاره وعندما لقي الشهيد مصرعه هاجر الى ايران واشتغل في التدريس في مدينة اصفهان وقد كان ذلك في عهد شاه طهماسب الصفوي ولم تمض فترة على حلوله في مدينة اصفهان حتى تم استدعائه من قبل طهماسب الى العاصمة قزوين، وقد لبىٰ الشيخ عز الدين الدعوة هناك قام شاه طهماسب بتوليته منصب «شيخ الاسلام» الذي من أرفع المناصب والمسؤوليات الدينية في البلاد.

أمضىٰ الشيخ سنوات طويلة في مدينتي هرات ومشهد حيث انصرف خلالها الى الوعظ والارشاد والتوجيه الديني.

كان عز الدين من الذين يعتقدون بوجوب اقامة صلاة الجمعة، وكان يقيمها خلال وجوده في مدينة قزوين ومشهد واصفهان، وعندما سافر الى حج بيت الله الحرام عرّج خلال عودته من الحج على البحرين ليمضي بقية عمره هناك حيث وافاه الأجل سنة (٩٨٤ هـ) ليوارىٰ الثرىٰ في ضواحي «هجر» وهي من أنحاء

البحرين، وهذا عن والده أما جدّه الشيخ عبد الصمد المتوفىٰ سنة (٩٣٥ هـ) فهو أيضاً من علماء القرن العاشر الهجري أيضاً وكان استاذاً مبرزاً وهو مؤلف السفر الجليل «الفوائد الرجالية» والذي يشتمل على ترجمة حياة كثير من العلماء وقد استفاد العلّامة المجلسي من هذا المؤلف ونقل نصوصاً عديدة منه في موسوعته الحديثة «بحار الأنوار»[1].

يرتفع نسب اسرة الشيخ البهائي الى الحارث الهمداني، أحد أبرز أصحاب الامام علي الأوفياء، ومسقط رأس الشيخ البهائي جبل عامل مهد المجتهدين والعلماء والمؤلفين من قبيل المحقق الثاني (المتوفى سنة ٩٤٠ هـ)، الشهيد الأول (٧٢٤ - ٧٨٦ هـ)، الشهيد الثاني (٩١١ - ٩٦٦ هـ).

كان أبو ذر الغفاري أول مبلغ لمذهب أهل البيت عليهم السلام في منطقة الشام ولبنان، حيث أبعد في هذه الديار في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وخلال وجوده هناك قام بنشر الثقافة الأصيلة للاسلام وكانت البذور الأولى للتشيع في هذه الديار ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم كانت جبل عامل مهداً للعلماء الأتقياء.

الميلاد

في صبيحة ١٧ ذي الحجة ٩٥٣ هـ[2] وفي قرية جبع مسقط رأس الشهيد الثاني ولد محمد الذي سيعرف في المستقبل بالشيخ بهاء الدين العاملي.

نشأ محمد في أسرة متدينة، وكانت لبنان يومذاك مهد الثقافة الشيعية وفي أجواء مفعمة بالعلم والايمان ترعرع محمد حيث أمضىٰ طفولته وصباه في تلك الربوع الخضراء. تعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، كما درس الأحكام

---

(١) ريحانة الأدب ٤ / ١٢٦ - ١٢٩؛ أعيان الشيعة ٦ / ٥٦ - ٦٤.

(٢) أعيان الشيعة ٩ / ٢٣٤.

الشرعية وكان معلمه الأول والده وكذا والدته المكرمة وفي جبع وبعلبك تشرب الفتىٰ حب علي وآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله.

الهجرة الخضراء

لم يكد يبلغ محمد الثالثة عشرة من عمره حتىٰ اصطحبه والده في هجرته الى ايران حيث تنهض الدولة الصفوية وفي سنّ مبكرة وبناء علىٰ رغبة من والده اقترن محمد بفتاة من أسرة علمية عرفت بالتقوىٰ، وكانت زوجته علىٰ جانب واسع من المعرفة فقد كانت من رواة الحديث وكانت على جانب كبير من الفقاهة وكانت فتاة متعلمة بل كانت معلمة.

وقد حصلت الهجرة التاريخية هذه بعد استشهاد الشهيد الثاني سنة ٩٦٦ ه، وكان قد رافقه (الشهيد) في أسفاره الى مصر وتركيا حيث قرر الهجرة الى ايران بعد استشهاد استاذه الذي لقي مصرعه في مؤامرة قذرة حاكها أعداؤه من المتعصبين مستغلين نفوذهم في الدولة العثمانية المعادية للمذهب الشيعي وبسبب ما أعلنته الدولة الصفوية الفتية من تأييد كبير للمذهب الشيعي وحمايتها لعلماء الشيعة فقد قرر والد البهائي الهجرة في اطار هجرة تاريخية قام بها علماء الشيعة في لبنان والعراق واثر هذه الهجرة انتعشت الحوارات العلمية والدينية في ايران آنذاك وكان في طليعة من هاجروا الى ايران الشيخ المحقق الكركي (المتوفى سنة ٩٤٠ ه)، الشيخ لطف الله الميسي (المتوفى سنة ١٠٣٢ أو ١٠٣٥ ه) والشيخ علي منشار العاملي حيث نزحوا اليها من جبل عامل في جنوب لبنان.

في عام ٩٦٢ انتخب شاه طهماسب مدينة قزوين عاصمة للدولة الصفوية وقد بلغت هذه المدينة في تلك الفترة عصرها الذهبي، حيث أصبحت قبلة لعلماء الشيعة يقصدونها من كل حدب وصوب وتأسست اثر ذلك حوزة علمية كبيرة

ويعد الشيخ المحقق الثاني مؤسساً لهذه الحوزة اضافة الى تأسيس الحوزة العلمية في مدينة اصفهان التي انتعشت بشكل كبير بعد انتخاب شاه عباس الأول لاصفهان عاصمة للدولة الصفوية وذلك سنةَ ١٠٠٦ هـ

بدأ الشيخ البهائي فصلاً جديداً من دراسته في مدينة اصفهان وقزوين.

أساتذته

١ – عزّ الدين حسين العاملي، والده الجليل.

٢ – الملّا عبد الله بن شهاب الدين المدرس اليزدي.

وكان الملّا عبد الله المدرس اليزدي من كبار العلماء في عصره قال عنه السيد علي خان الكبير في كتابه «سلافة العصر» عبد الله بن حسين اليزدي استاذ الشيخ بهاء الدين كان علامة دهره لم يبلغ منزلته أحد في زهده وتقواه له مؤلفات مفيدة من قبيل «شرح القواعد» في علم الفقه «شرح العجالة» و «شرح التهذيب» في علم المنطق.

٣ – الملّا علي المذهب: تعلم البهائي لديه الحساب، والهندسة والجبر والمقابلة وعلم الهيئة.

٤ – مولانا أفضل القاضي: وقد درس لديه البهائي الرياضيات.

٥ – حكيم الدين (اعتماد الدين) محمود: وقد درس عنده البهائي كتاب القانون لابن سينا.

٦ – محمد باقر اليزدي.

٧ – أحمد الكجائي[١].

---

(١) الفوائد الرضوية / ٢٤٩ و ٥٠٦؛ طبقات أعلام الشيعة ٥ / ٨٦ – ٨٧.

تلامذته

اشتغل البهائي في التدريس مدّة طويلة وتخرج على يديه عديد من العلماء في طليعتهم:

١ - ملّا صدرا الشيرازي.

٢ - ملّا محسن الفيض الكاشاني.

٣ - الفيّاض اللاهيجي.

٤ - نظام الدين بن حسين الساوجي.

٥ - السيد حسين[١] بن حيدر الكركي.

٦ - السيد ماجد البحراني.

٧ - فاضل جواد البغدادي.

٨ - ملّا خليل غازي القزويني.

٩ - ميرزا رفيع الدين الطباطبائي النائيني.

١٠ - الشيخ زين الدين العاملي حفيد الشهيد الثاني[٢]

١١ - شرف الدين محمد الرويدشتي[٣].

١٢ - الشيخ محمد بن علي العاملي التبنيني.

١٣ - مظفر الدين علي: وقد ألف كتاباً عن حياة استاذه البهائي.

١٤ - محمد تقي المجلسي والد العلّامة محمد باقرَ المجلسي (مؤلف بحار الأنوار).

١٥ - الشيخ محمود بن حسام الدين الجزائري.

---

(١) جاء في أعيان الشيعة: السيد حسن.

(٢) جاء في أعيان الشيعة انه حفيد «صاحب المعالم».

(٣) جاء في اعلام الشيعة «شريف الدين».

١٦ – المحقق السبزواري.

١٧ – الملّا عز الدين الفرهاني المشهور بـ«علي نقي الكمرئي الشاعر المعروف.

١٨ – عناية الله علي الكوهبائي المعروف بـ«القهبائي» مؤلف مجمع الرجال.

١٩ – هاشم بن أحمد بن عصام الدين الاتكاني.

٢٠ – الشيخ نجيب الدين علي بن محمد بن مكّي الجبعي العاملي.

٢١ – محمد صالح بن أحمد المازندراني.

٢٢ – حسين علي بن عبد الله الشوشتري.

٢٣ – الشيخ زين الدين علي بن سليمان بن دروسين بن حاتم القدمي البحراني.

٢٤ – سلطان العلماء السيد حسين الحسيني المرعشي كتب حاشية على الروضة وحاشية على المعالم[1].

الفرص الأصيلة

خاض الشيعة عبر التاريخ صراعاً مع الملوك الظلمة والحكام الطغاة الّا انهم يجدون أنفسهم مضطرين للتعاون معهم من أجل الحفاظ على الاسلام وانقاذ المسلمين من أجل هذا سعوا من خلال ذلك الى الاصلاح في مجالات الحياة من ثقافة واقتصاد وسياسة وادارة للحكم، ولم يكن لهم ثمة أمل في الملوك لكنهم استعانوابسلطتهم من أجل تحقيق ما يصبون اليه من أهداف نبيلة.

ولقد كان الشيخ البهائي من أولئك العلماء الذين قدموا للاسلام والتشيع خدمات جليلة من خلال بعض التعاون معهم، أما في قرارة نفسه فلقد كان ينفر من

(١) كشكول الشيخ البهائي ترجمة الساعدي، ٦؛ الفقهاء الأعلام، عبد الرحيم العقيلي البخشايشي، ٢٢٣؛ طبقات أعلام الشيعة ٥ / ٨٥ – ٨٦؛ أعيان الشيعة ٩ / ٢٢٤.

الملوك ومن حياتهم يقول في بعض أشعاره بالفارسية أتعرف الخبز والحلوىٰ؟ يا ولد –هل هو القرب من الملوك انه من قرب الحذر، انه يطيح بالعقل ويفرع الرأس والفؤاد – وعليك الفرار والفرار من الملوك ومن الحيف أن يعظم صاحب السير والسلوك – ويقدّم كل ألوان الاجلال للملوك القرب من الملوك هو آفة الروح – انه يقطع عليك طريق الايمان فانتهل من نهر القرآن جرعة – واصنغ الى آية ﴿لا تركنوا﴾[١].

لقد أعلنت الدولة الصفوية المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في ايران، وكان على علماء الشيعة الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية والتاريخية من أجل دفع الملوك الصفويين الى نشر التشيع، وبالرغم من نفور علماء الشيعة من بعض ملوكهم الدمويين الّا انهم أقاموا نوعاً من التعاون معهم في ما يخدم الدين ومصالح المسلمين وحاولوا دفع الملوك وتشجيعهم على البناء الثقافي والعمراني من خلال بناء المدارس والمساجد والمزارات وخانات القوافل.. ولقد قام العلماء على هذا الصعيد بجهود كبيرة واليهم يعود الفضل في التأسيس لثقافة عاشوراء وتأسيس الحوزات العلمية وكان لهم في ذلك انجازات واسعة يقول الامام الخميني؛ في ذلك:

هناك طائفة من العلماء ضحوا ببعض المقامات واتصلوا بالسلاطين، مع انهم يرون الناس يعارضونهم (السلاطين) لكن من أجل نشر الدين وترويج التشيع الاسلامي وترويج المذهب الحق اتصلوا ببعض السلاطين ووظفوهم في ترويج مذهب التشيع.

وهؤلاء العلماء لم يكون من وعاظ السلاطين وعلماء البلاط ويخطىء بعض

---

(١) ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ هود: ١١٣.

كتّابنا في ذلك.. لقد كان لهم (للعلماء) أهداف سياسية وأهداف دينية فلا يتصور أحدهم اذا طرقت أذنيه أشياء عن اتصال بعض العلماء بالملوك من قبيل العلّامة المجلسي رضوان الله عليه المحقق الثاني رضوان الله عليه،.. والشيخ البهائي رضوان الله عليه انهم رافقوا الملوك من أجل كسب الجاه.. أولئك (العلماء) ضحوا.. روضوا أنفسهم وجاهدوا من خلال ذلك (الاتصال) وظفوهم (الملوك) في ترويج (الدين والمذهب)[1].

وبالرغم من الموقع الاجتماعي والسياسي الذي حظي به الشيخ البهائي وقربه من البلاط الّا ان عاش حياته زاهداً وكان بيته ملاذاً للفقراء والبؤساء والمحتاجين، وكان يستخدم نفوذه في البلاط من أجل حلّ مشكلات الناس والتخفيف من معاناتهم وكانت سياسته تقديم النصح لأصحاب النفوذ وهداية المسؤولين والمحكومين وقد حقق على هذا الصعيد بعض النجاحات.

أسفاره المثمرة

تسنّم الشيخ البهائي منصب شيخ الاسلام في مدينة هرات وانصرف الى ارشاد الناس ووعظهم وتعليمهم الأحكام الشرعية ثم ترك منصبه هذا بعد مدّة وانصرف الى بحوثه وتأليفاته وأسفاره.. كانت له أسفار عديدة في البلاد العربية والاسلامية فقد سافرالى مصر وسوريا وفلسطين والحجاز والعراق وحاور بعض علماء تلك البلدان كان مبلغاً للمذهب ناشطاً وقد تحمّل عناء السفر من أجل نشر الحق والحقيقة واحياء ثقافة أهل البيت ولقد كان السفر آنذاك له مخاطره وفي بعض الأحيان يتحول الى مغامرة من حملات اللصوص وقطاع الطرق الى الضياع والتيه في الفلوات والموت عطشاً.. لكن ارادته الصلبة جعلته يتجاوز هذه

---

(١) صحيفة النور ١ / ٢٨٥.

الأخطار، ولم يكن ليقنع بما حصل عليه من نفوذ واسع في البلاط الصفوي تسنمه أرفع منصب ديني وهو شيخ الاسلام الذي يجعله الرجل الثاني في الدولة بعد الملك. لقد ترك كل ذلك واندمج مع الجماهير يجذر في روحها الثقافة الأصلية وبعد أن اكتشف في أعماقها الأمراض التي يعاني منها المجتمع راح الشيخ يصف الدواء الناجح.. ملأ حياته نشاطاً وحماساً في نشر الدين والدفاع عن مصالح المسلمين فتراه باحثاً مؤلفاً ومترجماً ومرجعاً حتى في أسفاره كان لا يترك التأليف، فقد خط يراعه عديداً من الكتب في أسفاره، فقد ألف خلال سفره الى قم، كرمنشاه، گنجه، تبريز، هرات، مشهد ومدن أخرىٰ بعض ما ترك وراءه من آثار.

وقد دخل في محاورات مع علماء أهل السنة وفقهائهم فإذا وجد من هذا علم منهُ في حقل من الحقول جلس في حضرته متأدباً وأخذ عنه العلم والمعرفة ما وصل اليه من علم أن يتتلمذ لدىٰ بعض أعلام السنة ففي مدينة القدس درس عند «ابن أبي اللطيف المقدسي» وفي دمشق لدىٰ «الحافظ حسين الكربلائي» و «حسن البوريني» وفي حلب لدى «الشيخ عمر العرضي»(١).

بعد انتخاب شاه عباس الأول مدينة اصفهان لتكون عاصمة للدولة الصفوية عين الشيخ البهائي شيخاً للاسلام فيها وذلك سنة (١٠٠٦ هـ) وقد شهدت هذه المدينة بعد ذلك التاريخ هجرة واسعة اذ انتقل اليها العلماء وقصدوها من كل حدب وصوب وفي سنة (١٠١٢ هـ) استقال الشيخ البهائي من منصبه وسافر الى البلاد العربية ليعود الى اصفهان مرّة أخرىٰ سنة (١٠١٩ هـ) ويسنّم منصب شيخ الاسلام حيث أمضىٰ في هذه المدينة بقية عمره المبارك.

---

(١) طبقات أعلام الشيعة ٥ / ٨٧.

آثاره

كان الشيخ موسوعياً في علومه فقد تخصص في العديد من الحقول العلمية في عصره وألف فيها وله مؤلفات بالعربية والفارسية.

فقد ألف الشيخ البهائي في التفسير، الحديث، الرجال، الدراية، الأدب، الرياضيات، الجبر، الهندسة، الاسطرلاب، الهيئة والجبر و.. وهذه طائفة من مؤلفاته:

١ - اثبات الأنوار الالهية.

٢ - الاثني عشريات الخمس في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج.

٣ - الاثني عشرية في الحج.

٤ - الاثني عشرية في الزكاة والخمس.

٥ - الاثني عشرية في الصلاة.

٦ - الاثني عشرية في الصوم.

٧ - الاثني عشرية في الطهارة.

٨ - أسرار البلاغة: في حاشية كتاب «المخلاة» طبع في مصر.

٩ - الاسطرلاب أو الصحيفة - في العربية الهيئة.

١٠ - الاسطرلاب أو التحفة الحاتمية» أو «السبعون باب» بالفارسية، الهيئة.

١١ - بحر الحساب - الرياضيات.

١٢ - التحفة في تحديد الكر وزناً ومساحة أو «رسالة الكر» - طبع مع «مشرف الشمسين».

١٣ - شرح الأفلاك - في علم الهيئة طبع في الهند وايران.

١٤ - تضاريس الأرض - طبع مع شرح «الجغميني».

١٥ - توشيح المقاصد أو «توضيح المقاصد»: حول وقائع الأيام في السنة

ووفيات العلماء وقد طبع في مصر وايران.

١٦ – التهذيب أو «تهذيب البيان» في علم النحو.

١٧ – الجامع العباسي: حول علم الفقه وقد طبع في ايران.

١٨ – جواب ثلاث مسائل عجيبة.

١٩ – جواب مسائل الشيخ صالح الجزائري.

٢٠ – جواب المسائل المدنية.

٢١ – جهة القبلة.

٢٢ – حاشية اثني عشرية صاحب المعالم.

٢٣ – حاشية شرح الأفلاك.

٢٤ – حاشية تفسير البيضاوي.

٢٥ – حاشية تكملة الخضري.

٢٦ – حاشية على «خلاصة الأقوال» للعلامة.

٢٧ – حاشية على «خلاصة الحساب».

٢٨ – حاشية على كتاب الذكرىٰ للشهيد الأول.

٢٩ – حاشية رجال النجاشي.

٣٠ – حاشية على زبدة الأصول.

٣١ – حاشية على «شرح العضدي على مختصر الأصول».

٣٢ – حاشية فهرست الشيخ منتجب الدين.

٣٣ – حاشية على «القواعد الكلية الأصولية والفرعية» للشهيد الأول.

٣٤ – حاشية تفسير الكشاف للزمخشري.

٣٥ – حاشية مختلف العلّامة.

٣٦ – حاشية طويلة – آداب العرب.

٣٧ - حاشية معالم العلماء.

٣٨ - حاشية من لا يحضره الفقيه - في الحديث.

٣٩ - الحبل المتين في أحكام الدين - في الحديث وقد طبع في ايران.

٤٠ - حدائق الصالحين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ولا يوجد منه سوىٰ جزء صغير في شرح دعاء الامام في رؤية الهلال تحت عنوان الحديقة الهلالية وقد طبع في طهران مع شرح الصحيفة للسيد نعمة الله الجزائري.

٤١ - الحريرية: في حاشية شرح رسائل الآخوند الخراساني، طبع في طهران - ايران.

٤٢ - حواشي شرح التذكرة.

٤٣ - خلاصة الحساب: فيالحساب والجبر والهندسة وكان الى عقود متأخرة جزء من المنهج الدراسي في الحوزات العلمية والمدارس العصرية.

٤٤ - دراية الحديث أو «الوجيزة في الدراية» طبع مع «خلاصة الأقوال» للعلامة.

٤٥ - رسالة أحكام سجود التلاوة.

٤٦ - رسالة في استحباب السورة في الردّ على بعض معاصريه.

٤٧ - رسالة في أن أنوار سائر الكواكب مستفادة من الشمس.

٤٨ - رسالة في حلّ اشكالي عطارد والقمر.

٤٩ - رسالة في ذبائح أهل الكتاب.

٥٠ - رسالة في الزكاة العجيبة / الرسالة العجيبة في الزكاة.

٥١ - رسالة في الصوم العجيب (الرسالة العجيبة في الصوم).

٥٢ - رسالة في قصر الصلاة في الأماكن الأربعة أو «القصر والتخيير في السفر».

٥٣ – رسالة في معرفة القبلة.

٥٤ – رسالة في المواريث.

٥٥ – رسالة في نسبة أعظم الجبال الى قطر الأرض.

٥٦ – رسالة القبلة.

٥٧ – زبدة الأصول أو «الزبدة في أصول الفقه».

٥٨ – سوانح الحجاز أو «سوانح سفر الحجاز» أو «الخبز والحلوىٰ».

٥٩ – شرح اثني عشرية صاحب المعالم.

٦٠ – شرح الأربعين أو «الأربعون حديثاً» أو «أربعين البهائي».

٦١ – شرح دعاء الصباح الصحيفة السجادية.

٦٢ – شرح «شرح الجغميني» لقاضي زادة الروحي.

٦٣ – شرح «الفرائض النصيرية» للخواجة نصير الدين الطوسي.

٦٤ – الصراط المستقيم.

٦٥ – الصمدية أو «الفوائد الصمدية» في علم النحو وقد كتبه لأخيه عبد الصمد وما يزال يدرس في الحوزة العلمية.

٦٦ – العروة الوثقى: في تفسير سورة الحمد، طبع مع كتاب «مشرق الشمسين».

٦٧ – عين الحياة – في التفسير.

٦٨ – الكشكول – وقد طبع أكثر من مرّة.

٦٩ – المخلاة وهو كتاب على غرار الكشكول يتضمن مواضيع متنوعة.

٧٠ – مشرق الشمسين وأكسير السعادتين في الفقه، التفسير والحديث.

٧١ – مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة – في الدعاء.

٧٢ – ملخص الهيئة.

٧٣ – وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان – شعر.

٧٤ – شرح تفسير البيضاوي.

٧٥ – حلّ حروف القرآن.

٧٦ – شرح من لا يحضره الفقيه.

٧٧ – ترجمة الرسالة الامامية الى الفارسية – وهي رسالة الامام الرضا عليه السلام الى المأمون.

٧٨ – حاشية على «شرح تهذيب الأصول» للعميدي.

٧٩ – مختصر الأصول الفارسية طبع سنة ١٢٦٧ هـ

٨٠ – الجبر والمقابلة.

٨١ – رسالة في الحساب – بالفارسية.

٨٢ – الفالنامة: في التفائل.

٨٣ – رسالة في كروية الأرض.

٨٤ – رسالة «الجوهر الفرد» وقد استند الشيخ البهائي الى تسعة أدلّة رياضية وهندسية في ابطال الجزء الذي لا يتجزأ[١].

على أجنحة الخيال

يعد الشيخ البهائي من أبرز شعراء العهد الصفوي لكن شهرته العلمية غطت على شخصيته كشاعر كبير وقد ترك وراءه أشعار رائعة خاصّة فيما يعرف بالاسلوب الواقعي وكان يوقع أشعاره بـ«البهائي» وقد نظم الشعر بالفارسية والعربية وامتازت أشعاره في العشق الالهي بالجمالية والرقة والايقاع الرائع

---

(١) ريحانة الأدب ٣ / ٣٠٨ – ٣١٢؛ أمل الآمل ١ / ١٥٥ – ١٥٦؛ أعيان الشيعة ٩ / ٢٤٤ – ٢٤٥؛ فلاسفة الشيعة، ٤٢٩.

الجميل كقوله في هذه الأشعار:

عشاق جمالك احترقوا | في بحر صفاتك قد غرقوا
في باب نوالك قد وقفوا | وبغير جمالك ما عرفوا
نيران الفرقة تحرقهم | أمواج الأدمع تغرقهم

وقوله يخاطب الذين لا يصفون الى ذكرالحبيب فهم منهمكون في طلب العلم فقط:

أيها القوم الذي في المدرسة | كلما حصلتموه وسوسة
ذكركم إن كان في غير الحبيب | مالكم في النشأة الأخرىٰ نصيب

وقوله ملبياً نداء الحبيب:

قد دعاني الهدىٰ ولبّاه قلبي | فدعاني ولا تطيلا ملامي
ان من ذاق نشوة الحب يوماً | لا يبالي بكثرة اللوام[1]

كما يدعو في أشعاره الى التحرر من لذات الجسد والالتفات الى لذائذ أخرىٰ في عالم الروح يقول في ملمّعه العربي الفارسي:

لا تقم في أسر لذات الجسد | انها في الجيد حبل من مسد
قم توجه شطر اقليم النعيم | واذكر الأوطان والعهد القديم
اين وطن مصر وعراق وشام نيست | اين وطن شهريست كو را نام نيست

ومعنى البيت الفارسي الأخير:

هذا الوطن ليس مصراً ولا العراق ولا الشام
هذا الوطن مدينة لا اسم لها

ويتحدث في ملمعه مستطرداً عن الغربة في هذا العالم:

---

(١) الهجرة العاملية، جعفر المهاجر، ١٨.

تو در ايـن أوطـان غـريبي أي يسـر خوبه غربت كرده أي خاكت بـه سـر

انك غريب في هذه الأوطان وأصبحت الغربة من خلقك فليواريك التـراب اذن وقد بقيت في تلك الديار غريباً حتىٰ نسيت وطنك! والوطن الذي يـتحدث عنه البهائي انما هو تفسير جـديد للـحديث النـبوي الشـريف: **«حب الوطـن مـن الايمان»**[1].

فهذا الوطن ليس ما يتبادر للذهن من موقع جغرافي ماش في خريطة العالم.. انه ذلك المكان الذي ينتمي اليه الانسان انتماءً حقيقياً حيث لا يشعر بغربة الروح هناك.

الوصال: كان من عادة البهائي أن يصطحب بعض تلامذته لقراءة الفاتحة عند هذا القبر أو ذاك وذات مرّة جلس عند قبر «العارف بابا ركن الدين» فسمع نداءً هزّ هزّاً فالتفت الى تلامذته قائلاً اسمعتم شيئاً؟ قالوا: لا.

ومن تلك اللحظة انقلبت أحواله وانصرف الى الدعـاء والمـناجاة والبكـاء والانقطاع الى العبادة وأدرك بعض تلامذته الى هذا التغير له علاقة بما حصل في المقبرة فسألوه عمّا سمع ذلك اليوم فقال: لقد قيل لي استعد للموت.

وبعد ستة أشهر من تلك الحادثة وفي الثاني عشر من شوال سنة (١٠٣٠ هـ) أو (١٠٣١ هـ) أزفت ساعة الرحيل وعرجت روح ذلك العظيم الى بارئها وخرج أهل اصفهان لتشييعه حتى بلغ عدد المشيعين أكثر من خمسين ألف انسان وانشحنت اصفهان بالسواد حزناً على الراحل العظيم وقد صلّىٰ على جثمانه الملّا محمد تقي المجلسي لينقل الى مدينة مشهد ويدفن في جوار الامام الرضا عليه السلام حيث مرقده الآن في أحد الأروقة التي تؤدي الى ضريح الامامم الطاهر الرضا عليه السلام[2].

---

(١) سفينة البحار ٢ ذيل كلمة وطن.

(٢) الكنىٰ والألقاب للشيخ عباس القمي ٢ / ١٠١.

صدر الدين محمد الشيرازي (ملّا صدرا)
المتوفىٰ سنة ١٠٥٠ هـ

يبقىٰ الحديث عن شمس الفكر الساطعة وكوكب المعرفة محيراً فلقد بلغ من الحكمة المرتبة الرفيعة واحتل من الفكر قلله المنيفة. فإذا زورق الفكر والمعرفة يجد طريقه في البحر سرباً، في بحور من اللجج المتلاطمة.. لم يكن مشائياً معرضاً عن اشراقات الروح، واشراقياً معرضاً عن عطاءات العقل البشري ولهذا كان متوازناً ولهذا بلغ الحكمة المتعالية ووضح للسالكين الأسفار الأربعة لمن يريد السفر الى الله عز وجل.

طلوع الشمس

تفيد رواية أنه في ظهيرة اليوم التاسع من شهر جمادىٰ الأولىٰ سنة ٩٨٠ هـ[١].

ولد صبي في بيت الميرزا ابراهيم يحيىٰ القوامي الشيرازي وكان الرجل طالما دعا الله عز وجل أن يرزقه ولداً ذكراً ولهذا كان ميلاد الصبي فرصة كبرىٰ في ذلك البيت الشيرازي، سمّاه والده محمداً وكان يتصدّق عند كل يوم شكراً لله الذي استجاب دعاءه وأعطاه ما يتمناه.

والميرزا ابراهيم من أصحاب النفوذ في اقليم فارس وكان تاجراً معروفاً في

---

(١) ملّا صدرا هنري كوربان، ترجمة ذبيح الله منصوري، ٩.

السوق اشتهر بأمانته وما أن شب الصبي قليلاً حتى أحضر الأب لابنه الحبيب خيرة الأساتذة والمعلمين.

وحتىٰ اذا بلغ السادسة عشرة من ربيع العمر ارسله أبوه الى مدينة البصرة في مهمة تجارية وقد مكث ثلاثة أشهر في العراق زار خلالها العتبات المقدسة ليقفل راجعاً الى شيراز بعد وصول نبأ عن وفاة والده؛ وقد ظل مدّة من الزمن يعمل في تمشية الأمور التجارية لوالده غير غافل عن دراسته التي بدأها في سن مبكرة لكنه سيسلم ادارة الأموال والشؤون التجارية الى خاله أما هو فقد ولّىٰ وجهه شطر مدينة اصفهان للدراسة(١).

وقد تلقىٰ ملّا صدرا في حوزات اصفهان علوماً عديدة لم يقتصر تحصيله العلمي على الفقه والأصول والعلوم الاسلامية الأخرىٰ بل كانت الحوزات تدرس الى جانب ذلك الرياضيات والنجوم والطب والهيئة اضافة الى المنطق والفلسفة حيث بدأ بتعلمها وهو في شيراز ولهذا كان هاجسه السفر من أجل استكمال ما تلقاه في مسقط رأسه.

بدء السفر

من المحتمل جداً ان ملّا صدرا التقىٰ الشيخ البهائي في شيراز على أساس ان البهائي كان ملازماً لشاه عباس في أسفاره وقد زار الأخير مدينة شيراز سنة (٩٩٨ هـ) ومن الممكن ان يكون قد ذهب معه الى قزوين لدىٰ عودة الشاه عباس

---

(١) المصدر السابق، ٢٨.

ان ولادة ملّا صدرا كانت إما في أواخر سنة (٩٧٩ هـ) أو مطلع سنة (٩٨٠ هـ) أما تفاصيل عن دراسته وأساتذته في فترة طفولته فلا تتوافر مصادر معتبرة لكن فترة طفولته كانت في ظل حكم خدابنده أهو اسماعيل النخي وأبو الشاه عباس الأول وهي فترة اتسمت بالاستقرار وكان والده ملّا صدرا مركزاً قوياً ما يؤكد ان ملّا صدرا ولد في ظروف مثالية وفرت له امكانات الدراسة بشكل جيد جداً.

والبهائي الى قزوين التي كان آنذاك عاصمة الدولة كما أننا نرىٰ ما يؤيد ذلك في احدىٰ كتابات ملّا صدرا في الحديقة الهلالية للشيخ البهائي وفي شرح الدعاء الثالث والأربعين من الصحيفة السجادية اذ نجد امضاء ملّا صدرا: «عبد الراجي صدر الدين محمد الشيرازي المحروسة قزوين شهر ذي الحجة سنة الف وخمس من الهجرة النبوية».

ومن المحتمل جداً أن يكون ملّا صدرا في قزوين قبل هذا التاريخ وأن توجه الى اصفهان سنة (١٠٠٦ هـ) بعد انتخابها من قبل شاه عباس لتكون عاصمة للبلاد.

أساتذته

كانت اصفهان وقزوين من أهم المراكز العلمية في ايران يومذاك حيث يوجد أبرز العلماء في هاتين المدينتين ويقدمه طلاب العلم المدينتين للدراسة المتقدمة والتخصص بسبب موقعيتهما العلميين.

وقد تتلمذ صدر المتألهين لدىٰ شيخ الاسلام بهاء الحق والدين محمد بن عبد الصمد العاملي - المعروف بالشيخ البهائي وقد تأثر التلميذ باستاذه العبقري أيما تأثر وكان له دور بارز في بلورة شخصية صدر الدين بن الشيرازي والىٰ جانب الشيخ كان ملّا صدرا يتلقىٰ العلم من عبقري آخر وهو الفقيه الربّاني أمير محمد باقر بن شمس الدين والمشهور بـ«مير داماد».

وكان هذا التلميذ العبقري يتلقى علم الفقه والاصول والدراية والرجال من الشيخ الرباني والفلسفة والكلام والعرفان من «مير داماد» والى جانب هذين العالمين الكبيرين نجد استاذاً ثالثاً كان ملّا صدرا يتلقىٰ منه علم النجوم والرياضيات والهيئة وهو الحكيم ابو القاسم منير فندرسكي العارف الزاهد والرياضي العبقري في عصره.

مراحل السير والسلوك

درس صدر الدين العلوم الرائجة في عصره والخاصّة فلسفة الاشراق والمدرسة المشائية والكلام والعرفان وتفسير القرآن وسبر أغوار تلك العلوم؛ وكما انه درس مناهج من سبقوه دراسة دقيقة ووضع أصبعه على نقاط الضعف فيها واكتشف النقاط الغامضة والمبهمة فيها وبالرغم من استفادته من المدرسة الاشراقية الّا انه لم يسلّم لهم في كل شيء وكذا أيضاً ما يخص موقفه من المدرسة المشائية إذ لم يحصر نفسه في اطارها أبداً.

وقد اعتبر العلّامة محمد رضا المظفر هذه المرحلة من حياته الأولىٰ في تكوينه الفكري والديني اذ انه تتبع آثار الفلاسفة وساح في أفكارهم الفلسفية والكلامية فلا نجد أثراً في ذوقه العرفاني في تلك الفترة ويذكر صدر الدين هذه المرحلة في كتابه الأسفار بأنه بذل كل قواه في شبابه في دراسة الفلسفة الالهية حتى توفر له قدر كبير منها مطلقاً على آثار الفلاسفة الذين ظهروا قبل الاسلام من فلاسفة اليونان منتخباً منها خلاصات أو ما عبّر عنها بعثوره على لآليء ودرر في غوصه وبحثه العميق بين أصدافها[1].

كما ويقول في مقدمة تفسيره سورة الواقعة ان هذه المرحلة من عمره كانت فترة غفلة وذلك فيما يبدو انطلاقاً من القول المأثور: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فالمرحلة التي قضاها في اطار أدوات المدرسة المشائية كانت سنوات عمره الضائعة كما أشار الى ذلك صراحة وانه يستغفر الله عن تلك السنوات التي أمضاها في الجدل والمناظرة مع أهل الكلام والاستناد الى الأسس المنطقية فقط في المحاججة ولكن الله سبحانه وكما يذكر هو قد منّ عليه فأشرقت شمس

---

(١) الأسفار ١ / ٤.

الايمان وظهرت له الحقائق في خضمّ القياسات المنطقية الاستدلالات الكلامية لأنها لا توصل المرء الى حالة الشهود الحقيقي للذات الأحدية والمعرفة الحقيقية[1].

يقول العلّامة آية الله جوادي آملي ان ما تلا هذه الفترة من حياة مؤسس الحكمة المتعالية هي فترة التحول الكبرىٰ[2] على أن الفترة الأولىٰ من حياة صدر الدين تنطبق على مقدمات السفر الأول للسالكين العارفين من خلال السير العقلي الحكيم شيراز وهو يخطو نحو أسفاره الأربعة.

مشرّد في زقاق الحبيب

كان هذا الفيلسوف الكبير فريد عصره وجد مجده الحقيقي في رحاب الله عز وجل والعبودية له وحده من أجل هذا لم يخنع ولم يركع أمام الملوك وأهل الدنيا وكان يأبىٰ تمجيد الملوك الصفويين، فلقد انطوىٰ على روح عظيمة أبت له أن يحني رأسه أمام الملوك وقد جرّت عليه هذه الروح الأبية المشاكل فالطامعون وأصحاب الطموح وأهل الدنيا لم يكونوا ليتحملوا وجوده بينهم فتوجهت نحوه أنظار الحساد وأهل المطامع وبدأ التآمر عليه ما دفعه بعد ذلك الى العودة الى شيراز مسقط رأسه فلعل أسرته تستطيع أن تنشر دونه نوعاً من الحماية ويحيا في أمان، ولا يوجد تأريخ دقيق لعودة فيلسوف شيراز الى مدينته كما هو الحال في هجرته الأولىٰ منها كما لا توجد تفاصيل عن المدّة التي أمضاها في مسقط رأسه ونشاطه العلمي والاجتماعي ومن المحتمل أن يكون قد أمضىٰ الفترة بين سنة (١٠١٠ هـ) وحتىٰ سنة (١٠٢٠ هـ) وقد استقبل حاكم اقليم فارس الله وردي خان

---

(١) المصدر السابق، ١١.

(٢) تفسير سورة الواقعة، المقدمة.

عودة الفيلسوف بحرارة وقرر انشاء مدرسة باسمه (ملّا صدرا) لتكون مركزاً علمياً في دراسة العلوم العقلية، ولكن الأجل باغت ذلك الحاكم الشجاع حيث لقي مصرعه في بعض الحوادث وقد أعقب ذلك تعرض ملّا صدرا لضغوط من علماء المدينة الذين لم يتفهموا شخصية هذا الرجل العظيم فاضطر الى ترك شيراز والعودة الى اصفهان مرّة أخرىٰ ويذكر آية الله السيد أبو الحسن القزويني ان ملّا صدرا توجه الى مباشرة أن ضواحي مدينة قم في قرية «كهك» في عزلته الشهيرة التي استمرت سنوات طويلة وقد انصرف خلال تلك الفترة الى العبادة في حياة بسيطة جداً تنهض على الزهد التام في الحياة الدنيا والاعراض عنها والاقبال على العبادة والرياضة الروحية[1].

يقول في أسفاره: «فلما بقيت على هذا الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال زماناً مديداً وأمداً بعيداً اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلّت بها خبايا الجبروت، ولحقتها الأضواء الأحدية، وتداركتها الألطاف الالهية، فاطّلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها الى الآن، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان، ما ينته مع زوائد بالشهود والعيان»[2].

وخلال تلك الفترة المريرة من حياته عانىٰ من قسوة الغربة ولكن هذه العزلة بعيداً عن ضجيج الحياة وصخبها وفّرت له مناخاً صحياً جداً للبحث والتأمل يقول الفيلسوف الكبير:

وظنّي ان هذه المزية انما حصلت لهذا العبد المرحوم من الأمة المرحومة، من

---

(١) يادنامه ملّا صدرا، جامعة طهران، ٢.

(٢) الأسفار ١ / ٨.

الواهب العظيم والجواد الرحيم لشدّة اشتغاله بهذا المطلب العالي وكثرة احتماله من الجهلة الأراذل وقلّة شفقة الناس في حقه وعدم التفاتهم الى جانبه حتى انه كان في الدنيا مدّة مديدة كئيباً حزيناً ما كان له عند الناس رتبة أدنىٰ من آحاد طلبة العلم ولا عند علمائهم الذين أكثرهم شقاءً من الجهال قدر أقل من تلاميذهم(١).

وهكذا كان انسحاب صدر الدين الشيرازي الحياة انسحاباً ايجابياً اذ حدث له التحول الروحي الكبير وبداية المرحلة الثالثة من حياته بدء أحد أسفاره من الحق الى الحق بالحق وهو السفر الطويل في أسفاره الأربعة حيث قضىٰ فترة طويلة وصعبة في حياته في عزلة في تلك القرية من ضواحي قم «كهك» على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوب شرق قم وقد ورد في الأثر اذا حدثت الفتن فعليكم بقم وأطرافها(٢).

ولا تتوفر أيضاً تواريخ محددة وواضحة عن عزلته تلك والمدّة التي أمضاها ولكن قرائن يمكن أن تشير الى الأعوام بين (١٠٢٥ الى ١٠٣٩ ه‍) أي حدود أربعة عاماً لا تتوفر تفاصيل عن طبيعة حياته اليومية تلك القرية الجبلية، ولكن رسالته الى استاذه «ميرداماد» يشرح له فيها بعض معاناته التي يشكل بعده عن استاذه جزءاً منها(٣).

الى العرش

ان المرحلة الثالثة من سيرة صدر المتألهين الشيرازي هي سفر من الحق الى

---

(١) الأسفار مقدمة الشيخ المظفر ١ / ١٠.

(٢) بحار الأنوار ٦ / ٢١٦.

(٣) مجلة «فرهنگ ايران زمين» (ثقافة الأرض الايرانية) ١٣ / ٨٤ - ١٠٠.

الخلق وذلك من منزل مشاهدة آثار الله سبحانه في مظاهر جماله وجلاله ودراسة آياته في الطبيعة والانسان وفي الأنفس والآفاق حيث يبلغ الانسان في نهاية المطاف مقام «الخلافة الالهية، وفي هذه المرحلة يبلغ ملّا صدرا ذروة سعادته الروحية بعد معاناة طويلة ومريرة[1].

فيض العرفان

من الذكريات الملهمة والتي تدعو الى التأمل في فترة عزلة الفيلسوف في قرية كهك ما ذكرها المرحوم الشيخ عباس القمي[2] وقد وثقها الاستاذ حسن زاده الآملي في احدىٰ النسخ المخطوطة للأسفار وهي بخط الحاج ملّا محمد الطهراني والتي تشتمل على تعليقات الملّا علي النوري وذو العينين اضافة حواشي كثيرة لملاّ صدرا نفسه وهي في مدينة قم وقد وردت هذه التحشية في بحث اتحاد العاقل والمعقول حيث كتب: «تاريخ هذه الاضافة كان فحوة يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سبع وثلاثين وألف للهجرة وقد مضىٰ من عمر المولف ثمان وخمسون سنة قمرية ثم يذكر تحت عنوان «مئة» «كنت حين تسويدي هذا المقام بكهك من قرى قم..» ثم يذكر زيارته يوم الجمعة لمرقد السيدة فاطمة بنت الامام موسىٰ بن جعفر عليهما السلام وطلبه المدد والعون ثم كشف لي هذا المطلب بتوفيق الله[3].

شمس المعالم الساطعة

وخاتمة أسفاره الأربعة هي من الخلق الى الخلق بالحق وذلك من خلال ابلاغ

(١) المصدر السابق.
(٢) سفينة البحار ٢ / ١٧ (مادة صدر).
(٣) اتحاد العاقل بالمعقول، ١٠٧، ١٠٩.

رسالة الله عن طَريق التدريس والتأليف وتهذيب النفوس من أجل أن ترتوي النفوس الظامئة الى الحياة الالهية، وقد عاد الفيلسوف الى شيراز بعد أن غادر كهك وانصرف الى التدريس والبحث في حوزتها العلمية وفي هذه الفترة كانت شهرة الفيلسوف الشيرازي قد طارت في الآفاق وراح طلاب العلم والمعرفة يقصدونه من كل حدب وصوب وهو يشير الى تدفق طلاب الحكمة في مقدمة أسفاره حيث راح الجميع ينهل من فيض علمه وما انطوى عليه من ينابيع الحكمة[1].

ويعزو بعض أصحاب التراجم الى أن عودة الفيلسوف الى مدينة شيراز مسقط رأسه كانت بأمر من الشاه الصفوي ولكن الذين أرخوا لحياته في هذه الفترة ذكروا ان حاكم شيراز امامقلي خان هو من وجه الدعوة الى ملّا صدرا ليعود الى مدينته كي يبدأ تدريسه في المدرسة التي بناها والده فيما مضىٰ ويبدو ان الفيلسوف الكبير لم يكن راضياً عن عودته الى شيراز كما اشار الى ذلك في رسالته الى استاذه «مير داماد» فقد ظل يحن الى ايام عزلته ويتحسر على فقدها ويأسف لأنه بعد ذلك سوف يضطر الى مصاحبة الجهال وناقصي العقول.. بعد أن كان يعيش في بحبوحة من السعادة الروحية بعيداً عن كل منغصات الحياة[2].

مجيء الشمس

وأصبح الفيلسوف الكبير في حياته البسيطة وفي زهده في الحياة وعبادته وانسه بالله حديث الناس من خاص وعام، وقد لفتت شخصيته الفريدة منذ شبابه الجميع.. عاش حياته أبياً غني النفس لم يذكر التاريخ أنه راسل ملكاً أو وزيراً أو

---

(١) الأسفار ١ / ٨.

(٢) مجلة «فرهنك ايران زمين» ١٣ / ٨٤ - ١٠٠.

صاحب نفوذ وكان يعدّ التزلف اليهم عاراً ما بعده عار هذا في عصر كان من عادة مؤلفيه ومثقفيه أن يكتبوا الى ملوكهم وأصحاب النفوذ والحضرة الجاه وربما أهدوهم ما يكتبون من أجل الحصول على هدايا ملكية أو هبات أميرية.

لقد جمع بين العلم والعمل في بداية حياته وشبابه حتى ان لقبه استاذه مير داماد بـ«صدر الدين» أو «ملّا صدرا» وهو لقب يحق أن يعتز به ويفخر اذ خاطبه استاذه ببيتين من الشعر الفارسي يشيران الى هذا اللقب.

وصفه الفيلسوف المعاصر السيد أبو الحسن القزويني بفريد عصره وقد حل غوامض مسائل ما وراء الطبيعة وأنه تفوق حتى على الشيخ الرئيس ابن سينا اضافةً الى ما امتاز به ملّا صدرا من سلاسة في التعبير وجزالة في المنطق وان أعظم فضائله ما قام به من تطبيق قواعد الحكمة الالهية مع قواعد العرفان وطريقة العرفاء[١].

وأشار عنه الفيلسوف والمفسر الكبير المعاصر العلّامة الطباطبائي الى ما عانه الفيلسوف المجدد صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي في عزلته وتأملاته وجهاده الأكبر الى أن انفتحت عليه نافذة الحكمة فاكتشف الحقائق العلمية عن طريق المكاشفات النورانية[٢] وهو أول فيلسوف أخرج قضايا الفلسفة الاسلامية من حالتها التراكمية بعد قرون ليرتبها ترتيباً رياضياً للوصول الى معطيات فلسفية جديدة وطرح بذلك مئات المسائل الفلسفية التي لم يكن طرحها وحلّها ممكناً هذا أولاً وثانياً استطاع أن يخضع سلسلة من قضايا العرفان التي كانت فيما مضىٰ وراء العقل والادراك والتفكير للبحث والدراسة وثالثاً حلّ غوامض الكثير من أحاديث أهل البيت التي تتضمن معطيات فلسفية وكانت لمدّة قرون تشكل الغازاً

---

(١) يادنامه ملّا صدرا، ٢.

(٢) المصدر السابق.

تستعصي على الفهم والحل فانضمت بعد ذلك ومن هنا فقد أوجد ملّا صدرا مصالحة كاملة بين مظاهر الدين والعرفان والفلسفة ووضع الجميع في مسير واحد[١].

وقال عنه شهيد الحكمة والجهاد الشهيد مطهري: ان ملّا صدرا فاق من سبقه من الفلاسفة حيث أحدث تغييراً كبيراً في أسس ومرتكزات الفلسفة ووضع لها أصولاً قوية.. لقد كان حكيماً الهياً وفيلسوفاً ربانياً قاد الحكمة الالهية الى مرحلة جديدة[٢].

وقال عنه الامام الخميني الراحل: لقد أسس (محمد بن ابراهيم الشيرازي) مسائل المبدأ والمعاد على أصول كبرىٰ وأثبت المعاد الجسماني بالبرهان العقلي وهو ما عجز عنه ابن سينا.. لقد أضاء فيلسوف الاسلام الكبير أفق الشرف بنور الحكمة القرآنية[٣].

وكان الامام يتحدث عن ملّا صدرا بكل فخر واعتزاز خاصة في كتابه «الأربعون حديثاً» فيصفه بفيلسوف المحققين وأعظم الفلاسفة على الاطلاق وفخر الطائفة وغير ذلك من النعوت.

أشعة الحكمة المتعالية

لقد رست سفينة الانقاذ الاسلامي في العهد الأموي في الطين والوحل ولقيت الفلسفة مصرعها بسبب التعصّب الأموي ليتسلل الفكر الوطني اليوناني والفلسفة الكنسية الاسكندري في الشام ومصر وبغداد فيما بعد كل ذلك من أجل محاربة

---

(١) الشيعة في الاسلام، ٦٢.

(٢) الاسلام وايران، ٥٨٦.

(٣) كشف الأسرار / ٣٦ - ٥٣.

الفكر الأصيل للاسلام والمتمثل بمدرسة أهل البيت عليهم السلام، غير ان علماء الاسلام ما لبثوا أن تسلّحوا بالثقافة القرآنية ليلجوا ميدان الترجمة التي بدأت نهضتها آنذاك فتعرفوا على الاصطلاحات الفلسفية واطلعوا على «المنطق الأرضي» و «المكاشفة» الافلاطونية الجديدة ووظفوا ذلك في مناقشاتهم حتى أصبحوا أساتذة في تلك الفنون وانتقلوا الى مرحلة الابداع حيث فقدوا ذلك التراث الفلسفي القديم نقداً عميقاً في ضوء المعرفة القرآنية ليخرجوا بفلسفة جديدة واضعين ذلك في قوالب جديدة وظهرت بذلك على يد ابن سينا والفارابي الفلسفة المشائية، فيما ظهرت الفلسفة الاشراقية على يد السهروردي وأصبحت في عالم الاسلام مدرستان فلسفيتان؛ مشائية واشراقية تستند كل منهما الى أدلّة دينية وظهر بذلك علم الكلام من خلال طرح مسائل فلسفية جديدة، ومن خلال ذلك ظهر العرفان كطريق لتحصيل الحقيقة الدينية ومنهج خاص في الوصول الى المعرفة الالهية وبلوغ الكمال المعنوي وبالتالي الحصول لباب الشريعة الاسلامية، وبالرغم من كل المساعي والجهود المبذولة لم يتسنّ لأحد أن يوحد مسار هذه الأنهر الأربعة لتجري مجرىً واحد.

وفي مثل هذه الخلفية الثقافية حيث اصيبت الفلسفة الاسلامية بما يشبه العقم بالرغم من تراثها بعد أن نهض تيار يناهض التفكير العقلاني والاستناد الى المعطيات التجريبية في الغرب وبسبب اتصال الدولة الصفوية مع الغرب فان ظلال هذا الاتجاه المناهض للعقل سقطت طبيعة التوجه في العالم الاسلامي وهو ما قاد في النهاية الى ظهور «الفلسفة التجريبية» و «الاتجاه الحسّي» الأمر الذي عزز من الاتجاه «الظاهري» السطحي و «الاتجاه الاخباري» والجمود على الظواهر الشرعية في الشرق وبخاصة في «التشيع» ليعيق من حركة كل هذا الفيض الفلسفي والمعرفي ومنعه من الابداع وفي مثل هذه الأجواء أشرقت شمس «الحكمة

المتعالية» في سماء الفكر الاسلامي وبالتحديد في ايران لتضيء هذه الشمس أفق الشرق بنور الحكمة.

الحكمة المتعالية بمثابة ميدان كبير ينظم مسار الفلسفة القادمة من أربعة طرق وأربع جهات يعني الحكمة المشائية الارسطية والسينائية والحكمة الاشراقية السهروردية والعرفان النظري لمحيي الدين ابن عربي ومعاني ومفاهيم الكلام (الاسلامي).. الحكمة المتعالية وحدثت هذه الأنهر الأربعة لتشكل جميعاً نهراً كبيراً متدافع الأمواج، الحكمة المتعالية صرح كبير يتألف من أربعة عناصر نهض بعد سلسلة من التفاعلات لينهض بناء جديد وواقع جديد لا يمت الى ماهية عناصره السابقة بل ويختلف عن كل عنصر من عناصره الأربعة[١].

فالجدل الطويل الذي احتدم بين المشائيين والاشراقيين وكذا بين الفلسفة والعرفان انتهى على يد صدر المتألهين لتشرق حقائق اسلامية عديدة[٢].

ولكن هذه الكشوفات الكبرىٰ في الحكمة المتعالية غطت عليها السطحية وشوش عليها الغرور العلمي لاوربا والاستلاب الذي عم العالم الاسلامي بحيث لم نعد نسمع دوي انهيارات أعمدة الفلسفة الارسطية والافلاطونية الجديدة «اسكولاستيك» أمام تقدم الحكمة المتعالية لملّا صدرا.

الّا انه من المؤكد ان الحياة الفكرية شهدت ذروة تألقها في العهد الصفوي بما أحدثه ملّا صدرا من تحول فلسفي كبير ليبدأ عصر فلسفي جديد.

آثاره الخالدة

بعد يراع صدر المتألهين سيالاً بما قدمه للفلسفة الاسلامية من اسلوب يمتاز

---

(١) الاسلام وايران، ٥٨٧.

(٢) آثار الشهيد المطهري، المجموعة الكاملة ١٣ / ٢٤٩ - ٢٥٢.

باللطافة والفصاحة والبلاغة بحيث عدّه أحدهم بارعاً في التعبير فاق من سبقه من الفلاسفة.. وربما لن يفوقه أحد في المستقبل. فقد كان الشهيد الثاني أديباً في الأداء الفقهي التعبيري وكان ملّا صدرا بليغاً جداً في بيان آرائه الفلسفية.

تناهز آثاره الأربعين مؤلفاً يشكل كل واحد منها رائعة من روائع ما قدم من انتاج معرفي.

وقد غلب على بعض ما قدم من آثار الطابع الأخلاقي والعرفاني فيما غلب على بعضها الآخر الطابع العقلي الاستدلالي.

ومن الخصائص التي امتاز بها ملّا صدرا محاولاته المستمرة في التطبيق بين مفادات الشريعة ومعطيات الفلسفة بحيث لا يطرح مسألة فلسفية الّا ويجد لها الشواهد في آيات القرآن الكريم وأحاديث المعصومين وهو لا يقطع برأيه الّا بعد أن يقدم مستنداته من الآيات والأحاديث.

ولا تجد أحداً تمكن من سبر معاني الآيات والأحاديث والغوص فيها واستكشاف أسرارها مثل ملّا صدرا، فآثاره الفلسفية مفعمة بالآيات والأحاديث وتفاسير للآيات مليئة بمعطيات عقلية وعرفانية وكان في منهجه هذا سبّاقاً فريداً وسوف يأخذ تلميذه الفيض الكاشاني ذلك عنه للاستمرار عليه وتوسعته.

وتمتاز كتابات ملّا صدرا بالشمولية، ومحاولات المصالحة والاصلاح بين الآراء المختلفة، الافادة المتوازنة من المعطيات العقلية والحياتية في الكشف عن كثير من الغوامض المامه بآراء من سبقوه اضافة الى ما امتاز به اسلوبه من السلاسة والوضوح وبما يعرف عادة بالسهل الممتنع.

قال العلّامة حسن زادة آملي الأديب المعاصر عن كتاب الأسفار الأربعة بأنه أم الكتاب في مؤلفات ملّا صدرا والذي بدأ بتأليفه في فترة عزلته في قرية كهك وهذا الكتاب يفوق بلا شك من خلال اتساعه وشموله كتاب القانون لابن سينا

والفتوحات المكية لابن عربي؛ انه نقطة اتصال وحلقة شاملة لموسوعة ابن سينا المشائية وبحار الأسرار الباطنية لابن عربي وبعبارة أخرىٰ ذروة ما وصل اليه الحكماء والفلاسفة الاسلاميون خلال ألف عام انه يمثل بناءً عقلانياً جديداً وأصيلاً من خلال استسقائه من النصوص المعرفية الاسلامية[١].

وهذا ما عبّر عنه ملّا صدرا صراحة في قوله: «حاشا الشريعة الحقة الالهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنّة»[٢].

امتاز صدر المتألهين بغوصه في فهم أسرار القرآن الكريم بحيث تمتلأ آثاره الفلسفية بشواهده القرآنية ولعلّه الفيلسوف الوحيد الذي يعلن بقوّة تمسكه بالقرآن الكريم من خلال فهم شامل للشريعة ودورها في الحياة العلمية وله آثار تفسيرية رائعة من قبيل تفسيره سورة السجدة، سورة يس، سورة الواقعة، سورة الحديد، سورة الجمعة، سورة الطارق، سورة الأعلى، سورة الزلزلة، سورة البقرة الى الآية ٦٥ وآية الكرسي وآية النور و.. وتعدّ تفاسيره في طليعة الآثار التفسيرية للقرآن الكريم من زاوية فلسفية.

كما قام ملّا صدرا بتقديم شرح رائع لكتاب «أصول الكافي» بعد ستة قرون من تأليفه، وبعد هذا الشرح في طليعة النصوص الاعتقادية التي ظهرت في العهد الصفوي حيث تتناغم فيه الحكمة والعرفان والوحي ما يجعله من أبرز الآثار في هذا المضمار، قال عنه صاحب روضات الجنات: «وعندي انه أرفع شرح كتب على أحاديث أهل البيت عليهم السلام وأرجحها فائدة وأجلّها قدراً»[٣].

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ١ / ٤٩٦.
(٢) الأسفار ٨ / ٣٠٣.
(٣) روضات الجنات ٤ / ١٢٠.

بدأ ملّا صدرا مساره حكيماً عقلانياً حيث شرح «الهداية» وكتب حاشيته على «الشفاء» لابن سينا وبعد أن طوىٰ مراحل سلوكه ومعرفته العرفانية استند الى الوحي في قدرته الالهية والهداية النبوية والبيان العلوي ليكتب أسفاره الأربعة ليكون قمة في نهاية المطاف بيان الفهم الحقيقي للقرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام وكان آخر ما قام به تفسير لسورة البقرة وشرحه كتاب «اصول الكافي» وبعدها لبىٰ نداء المحبوب.

منزل الشمس

صدر المتألهين هو صهر الميرزا ضياء الدين محمد بن محمود الرازي المشهور بـ«ضياء العرفاء» والد زوجة شاه مرتضىٰ الذي هو والد الفيض الكاشاني. وعلى هذا فان الفيض الكاشاني قبل أن يتتلمذ لدى صدر الدين كانت له علاقة سببية ونسبية وقد تزوج بابنة ملّا صدرا.

ولملّا صدرا بنين وبنات أبدع كل منهم في أكثر من حقل علمي، فكانوا قبسات من شمس ذلك الفيلسوف الكبير.

١ - ابنته البكر أم كلثوم ولدت سنة (١٠١٩ هـ) وتلقت علومها من والدها وفي سنة ١٠٣٤ تزوجت من الملّا عبد الرزاق اللاهيجي الملقب بـ«الفياض» وقد واصلت مسيرتها العلمية تلميذة لدىٰ زوجها وكانت تشارك العلماء مجالسهم ومباحثهم[1].

٢ - محمد ابراهيم أبو علي حكيم، عالم وعارف سالك ومحدث جليل ولد سنة ١٠٢١ تتلمذ لدىٰ والده. له آثار عديدة منها «العروة الوثقىٰ» في تفسير آية

---

(١) مستدرك أعيان الشيعة ٣ / ٤٣.

الكرسي وهو بالفارسية ويبدو من آثاره وكتاباته في أواخر عمره أنه أدار وجهه للفلاسفة وهاجمهم بشدّة[١].

٣ – زبيدة خاتون ولدت سنة (١٠٢٤ ﻫ) وهي ثالث أولاده عالمة أديبة فاضلة حافظة للقرآن، اقترنت بالعالم الكبير الميرزا معين الدين الفسائي وأنجبت منه العلّامة الأديب الميرزا كمال الدين الفسائي (ميرزا كالا) صهر المجلسي الأول. تعلمت من أختها الكبرىٰ ووالدها الحديث وتفسير القرآن وكانت استاذة لابنها في الآداب[٢].

٤ – زينب البنت الثالثة لصدر الدين كانت عاقلة فاضلة ومتكلمة وفيلسوفة عارفة وعابدة زاهدة وكانت من نجوم الفصاحة والبلاغة والأدب، تزوجت من الفيض الكاشاني واستمرت في دراستها تلميذة لدىٰ زوجها الفيلسوف لم نتوفر على تاريخ ولادتها لكنها توفيت سنة ١٠٩٧ ﻫ[٣].

٥ – نظام الدين أحمد وهو ثاني أولاده من الذكور كان عالماً أديباً وحكيماً متألهاً وشاعراً عارفاً ولد سنة (١٠٣١ ﻫ) في مدينة كاشان وتوفي في رجب سنة ١٠٧٤ ﻫ، له كتاب بعنوان «مضمار العلم» بالفارسية[٤].

٦ – معصومة خاتون وهو آخر ما ولد لملّا صدرا تزوجت من العلّامة الكبير الميرزا قوام الدين النيريزي وهو من تلامذة ملّا صدرا النابهين له حاشية على الأسفار الأربعة. ولدت سنة (١٠٣٣ ﻫ) وتوفيت (١٠٩٣ ﻫ) وكانت سيّدة جليلة القدر محبة للآداب، عالمة بالحديث عابدة زاهدة حافظة للقرآن الكريم تتلمذت على يد والدها ثم عند أختيها أم كلثوم وزبيدة[٥].

---

(١) مقدمة معادن الحكمة، نشر مكتبة المرعشي، ١٥.

(٢) أعيان الشيعة ٣ / ٨٣ (المستدرك).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مقدمة معادن الحكمة.

(٥) أعيان الشيعة (المستدرك) ٣ / ٨٣.

غروب الشمس

عاش الفيلسوف الكبير ملّا صدرا واحد وسبعين سنة حج بـيت الله الحـرام ماشياً سبع مرّات ثم وافاه الأجل في مدينة البصرة في طريق الحج ذهاباً واياباً سنة ١٠٥٠ ملبياً نداء المحبوب وقد وري الثرىٰ في البصرة.

ومن المؤسف انه لا يوجد أثر لضـريحه.. وربـما لا يـحتاج الى ذلك فـلقد استحال الفيلسوف الراحل الى شمس ساطعة في سماء الفكر الاسلامي وما تزال آثاره الفلسفية تنبض بالحياة مثل شذىٰ الربيع.

الفهرس



مؤسسة انصاريان
للطباعة و النشر
جمهورية ايران الاسلامية / قم
شارع الشهداء / فرع ٢٢ / ص ب : ١٨٧
فاكس : ٧٧٤٢٦٤٧ هاتف :٧٧٤١٧٤٤ -٢٥١ - ٠٠٩٨
البريد الإلكتروني : ansarian@noornet.net
www.ansariyan.net & www.ansariyan.org